

من تاريخ المغرب في القرن 17

الزاوية الدلائية

ودورها الديني والعلمي والسياسي



تأليف

محمد حجي

أستاذ بكلية الآداب بالرباط

طبعة ثانية موسعة ومنقحة

1409 — 1988

الزاوية الدلالية

ودورها الديني والعلمي والسياسي

من تاريخ المغرب في القرن 19

الزاوية الدلائية

ودورها الديني والعلمي والسياسي



تأليف

محمد حجي

أستاذ بكلية الآداب بالرباط

طبعة ثانية موسعة ومنقحة

1409 — 1988

نوقش هذا الكتاب أمام الجمهور في 8 أبريل 1963 بكلية الآداب بالرباط
فنال به المؤلف دبلوم الدراسات العليا بدرجة حسن

طبعة 1409 — 1988
جميع حقوق الطبع محفوظة



الإيداع القانوني رقم 1988/690

بين يدي الطبعة الثانية

مضى ربع قرن على ظهور الطبعة الأولى من كتاب الزاوية الدلالية، وافْتُقدت من السوق منذ سنوات كنت خلالها أعتذر لمن يطلبون مني إعادة طبعه من القراء والمكتبيين وأَعِدُّهم بأنِّي سأراجعه وألحق به ما يلزم من ملف فتحته منذ صدور الكتاب سنة 1964 فأصبح اليوم ضخماً بما يضم من مراسلات وانتقادات وقصاصات تتضمن ما وقفت عليه بعدُ مما يتعلق بالدلاء والدلائين وسائر الموضوعات المطروقة في الكتاب. أدركت في النهاية بأن فرصة المراجعة لن تأتي عفواً، فصممت على أن أقوم بذلك في صيف هذه السنة فأعان الله ويسر، ولكل أجل كتاب.

وقد ارتأى بعض الزملاء، أن تُنشر في هذه الطبعة الجديدة طائفة من المراسلات المتعلقة بالزاوية الدلالية ومقتطفات مما كتبته عنها الصحف والمجلات، إحياءً لتقليد علمي عريق. لكنني آثرت ألا أفعل مكتفياً بذكر أسماء بعض من تفضلوا بالكتابة إليّ مهنيين ومشجعين أو منتقدين ومتبَّهين، من أمثال الاساتذة الأجلاء حسن إبراهيم حسن وهو يومئذ بالعراق، وأحمد المنصوري الزيلاني، والحسن البونعماني، والعربي المسعودي — رحمهم الله — ونقولاً زيادة من الجامعة الأمريكية بيروت، ومحبي الدين المشرفي من وزارة التربية الوطنية، وبيلا ch. Pella،

وبرانشفيك R. Brunschvikk من السربون، ودولاباستيد H.de la Bastide من مدرسة اللغات الشرقية بباريز، وعدد كثير من الزملاء أساتذة ومفتشي التعليم الابتدائي والثانوي من سلا والرباط، وفاس، والجديدة، وزاوية أيت إسحاق... كما كاتبي سنة 1973 مرارا الاستاذ ايزاد بارست A. Izadparast من جامعة يوطا بالولايات المتحدة الاميركية مستأذناً في ترجمة الزاوية الدلالية إلى اللغة الانجليزية كجزء من أطروحته عن تاريخ ظهور الزوايا في شمال افريقيا فأذنت له ولم أطلب منه إلا أن يبعث إلي بنسخة من الترجمة الانجليزية لكنه لم يفعل.

كم سرتني أن كانت هذه الدراسة المتواضعة، باعتبارها أول رسالة جامعية نشرت بالمغرب، نموذجاً احتذى حذوه طوال هذه الفترة من الزمن عدد من الطلبة الباحثين، وبابا انفتح لآخرين عن موضوعات تتعلق بتاريخ التصوف والزوايا، وأدب الدلاء وشخصياته العلمية أمثال المرباط الدلائي، والحسن اليوسي، واحمد بن القاضي، وابن أبي محلي...

وحمدت الله على ما نالت الزاوية الدلالية، على ما فيها من هفوات، من قبول في الداخل والخارج، حتى كانت موضوع حلقات دراسية لطلبة السلك الثالث في السربون تحت إشراف أساتذة مرموقين أمثال شارل بيلا، وجاك يريك، وفيرنانديز.

فتحت ملف الزاوية الدلالية فهالني ما تجمع فيه من مادة علمية يمكن أن يؤلف منها كتاب جديد لو بقي لي نشاط الستينات ولم تكن عندي مشاغل الثمانينات. ففي ميدان البيبليوغرافيا مثلاً كم من مخطوطات اكتُشفت أو عُمر على نسخ أخرى منها، ونصوص حققت أو طبعت، ودراسات أنجزت...

قمت بمراجعة خفيفة للكتاب عملاً بقاعدة ما لا يمكن كله لا يترك كله، فأبقيت النص على حاله، إلا أخطاء مطبعية صححتها، وأخرى نلت عن ذهني فنهني إليها الزملاء الاعزاء — مشكورين — في تعليقاتهم ببعض المجلات وخاصة ما كتبه الاستاذ ابراهيم بوطالب في هسبريس، وعبد القادر زمامة في آفاق. وأضفت

بعض ما اطلعت عليه من المستجدات في قوائم مؤلفات ابن القاضي واليوسي، والمقري، ومؤلفات اللاتين، وأعدت ترتيبها على حروف الهجاء، تاركا الهوامش كذلك بدون تغيير ما عدا الاحالات على نشر المثاني التي كانت في الطبعة الأولى مزدوجة على المطبوع الحجري، وعلى نشر المثاني الكبير المخطوط، فقد استبدلت بها الإحالة على المطبوع الجديد الذي حققته مع الزميل الاستاذ أحمد التوفيق لكونه يضم المطبوع الحجري والمخطوط معا. وأحلت في بعض التراجم على مصادرها في كتابي الحركة الفكرية. واستلركت في هذه الطبعة ما فاتني في الأولى من الفهرسة، فوضعت فهرسين عامين، واحدا للأعلام وآخر للأماكن والله أسأل أن يديم النفع به ويثيبني عليه.

سلا في فاتح ربيع الأول 1408 / 24 أكتوبر 1987.

محمد حجي

المقدمة

اخترت (الزاوية الدلائية) موضوعا لبحثي نظرا لما قامت به هذه الزاوية من أدوار هامة في تاريخ المغرب، في ميادين الدين والعلم والسياسة، ولا سيما في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) في تلك الفترة المضطربة التي تقع بين الدولتين السعدية والعلوية. ولما كان الدلائيون قد حاربوا العلويين وناقسواهم في السلطان الى أن قضى الملك الرشيد بن الشريف العلوي على زوايتهم، فإن المؤرخين الذين عاصروا تلك الأحداث قد أحجموا عن تدوينها، وخاصة ما يتعلق منها بمجد الدلائيين والجوانب الحسنة في حياتهم السياسية، وبذلك لم تحظ الزاوية الدلائية بما تستحقه من الاهتمام، اللهم إلا ما كان هنالك من أخبار يسيرة جاءت متفرقة في كتب التاريخ والتراجم.

وفي القرن الماضي بدأ الاهتمام بالدلائيين يكثر، وألفت فيهم ثلاثة كتب أولها أرجوزة تشتمل على 275 بيت لمحمد بن أبي بكر اليازغي سماها حقائق الازهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية البكرية. تكلم فيها — كما سمح له النظم — عن أصلهم، وأتى بتراجم كثير منهم مستعملا حروف الجمل كرموز لسني الولادة والوفاة. وثاني الكتب المؤلفة في الدلائيين هو نزهة الاخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكرين، لعبد الودود بن عمر التازي، اهم فيه بأنساب الدلائيين وذكر الآباء منهم وما خلفوه من أبناء. على أن أهم كتاب ألف في الدلائيين هو الدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية، لأبي الربيع سليمان الحوات، وهو أجمع كتاب لأخبار الدلائيين يقع في أكثر من ستائة صفحة. استقى مؤلفه أخبار الزاوية وأهلها من والده الذي تتلمذ للدلائيين، وأحاط بكل ما قيل فيهم أو كتب عنهم. لكن عيب الدور الضاوية أن مؤلفه لم يأت يبحث موضوعي كمؤرخ محايد يستهدف الحقيقة لذاتها حسنة كانت أم

قبيحة، ولا يتردد في الحكم على من يؤرخ لهم متى استلزمت نتائج البحث ذلك. وإنما كان يعينه أن يذكر محاسن الدلائين دون مساوئهم، فهم جميعا عنده علماء صلحاء نزهاء الخ. وأي بشر سلم من النقص والخطأ؟ هذا بالإضافة الى حشو الكتاب بكثير من الاساطير والكرامات المبالغ فيها، والسير على نهج المؤلفين القدماء في التحلية بالالقباب الرفيعة الرتبة التي قد تستغرق نصف صفحة أو أكثر بحيث يصعب العثور على اسم الشخص الذي يترجم له، ثم لا يفيد الباحث شيئا من عبارات الاطراء المنمقة التي تتكرر في كل ترجمة ولا يتبدل فيها غالبا الا الترتيب والسجع.

مكذا وجدت أن تاريخ الدلائين قد بقي غامضا مبعثرا بالرغم عن هذه الكتب الخاصة، فحاولت أن أكتب عن الزاوية الدلائية بحثا نزيها أذكر فيه ما للدلائين وما عليهم، وأحلل — ما استطعت — بعض الجوانب الغامضة في تاريخهم، وأعالج هذا الموضوع من نواحيه الدينية والعلمية والسياسية. وقد رجعت في بحثي الى كثير من الكتب التي عرضت لعصر الدلائين، وأفدت من أكثر من مائة مرجع عربي وفرنسي، أكثرها مخطوط؛ منها الكتب الثلاثة المتقدمة وخاصة البدور الضاوية التي اخترت منها مادة هامة فيما انفرد به مؤلفها من الروايات الخاصة، أو من النقول عن بعض المصادر التي لم يتيسر الوقوف عليها. ورجعت الى المظان في كتب التاريخ والتراجم، والرحلات، والتصوف، والنوازل، والدواوين الادبية، أخص بالذكر منها كتاب مباحث الانوار في أخبار بعض الاخيار لاحمد بن يعقوب الولالي الذي عاش طالبا في الزاوية الدلائية فترة طويلة من حياته، ووصفها عن حس ومشاهدة. والمحاضرات، والفهرست للحسن اليوسي أشهر تلاميذ الزاوية الدلائية، وقد أتى في هذين الكتاتين بكثير من أخبار الدلائين وتراجم أعيانهم. كما اعتمدت على كتاب مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، لأبي حامد محمد العربي الفاسي الذي أقام هو أيضا مدة في الزاوية الدلائية، وتعرض في كتابه لبعض أخبارها، وترجم لشيخه محمد بن أبي بكر الدلائى، وكتاب الاحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش، لعبد الله

العايشي. وتعتبر الزاوية العياشية أو الحمزاوية كما تسمى اليوم ريبة الزاوية الدلائية، إذ كان مؤسسها محمد بن أبي بكر العياشي من تلاميذ الشيخ أبي بكر الدلائي، وهذا الأخير هو الذي هبّاه للمشيخة وأمره أن يتخذ زاوية في آيت عياش بالسفح الجنوبي الشرقي للأطلس الكبير. ويشتمل كتاب الإحيا على معلومات هامة عن موقع الزاوية الدلائية القديمة ومدينة محمد الحاج التي تفرعت عنها.

ورجعت كذلك إلى كتاب الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة لعبد العزيز بن الحسن الزياني الذي عاش في العصر الأول للزاوية الدلائية وذكر كثيرا من فتاوي العلماء في موضوع الاضطرابات التي دعت الدلائيين الى التدخل في شؤون البلاد السياسية، ولا سيما ما يتعلق منها بجهاد الرئيس محمد العياشي وحصاره للمورسكيين في الرباط والقصبة؛ وإلى نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، وصفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، لتلميذ الدلائيين محمد الصغير اليفراني الذي عرض في مواضع كثيرة من كتابيه لأخبار الزاوية الدلائية وأهلها؛ وإلى كتابي التحفة القادرية، وتقاييد تاريخية لعبد السلام بن عبد الله الحياط القادري الذي يروي بواسطة عن عمّ والده أحمد ابن عبد القادر القادري تلميذ الدلائيين وصهرهم الذي عاش معهم في الزاوية إلى أن وقع غريبها. وينفرد هذان الكتابان بأخبار هامة ودقيقة عن الزاوية الدلائية، وعن الفترة الأخيرة لنفوذ الدلائيين في فاس. وأفدت أيضا من كتاب نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ونشر للمثاني الكبير المخطوط⁶، محمد بن الطيب القادري الذي أخذ عن تلاميذ الدلائيين، وترجم لعدد كثير من علماء هذه الأسرة وصلحاتها، وعرض في حوادث السنين المتسلسلة لأهم الاحداث التي وقعت أيام الامارة الدلائية.

ولم أغفل ما كتبه الاجانب عن الدلائيين، وأفدت بالخصوص من ليفي برونسفال في كتاب *Les Historiens des Chorfa* ومن الكونت دو كاستر في

(6) لقد حققت بعد ذلك مع الاستاذ أحمد التوفيق، نشر المثان اعتمادا على المخطوطات المعروفة له لحد الآن، ونشرناه في أربعة أجزاء بالرباط والدار البيضاء، 1977 — 1986. وهي المصنفة في الطبعة الثانية للزاوية الدلائية.

سلسلة وثائقه القيمة «Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc» ومما نشرته
في هذا الموضوع مجلة هسبيريس «Hespéris» ومجلة وثائق مغربية «Archives
marocaines»

قسمت الموضوع الى سبعة أبواب. بحثت في الباب الأول عن نشأة الزاوية
الدلائية وأطوارها الأولى أيام الشيخ أبي بكر الدلائي، وتحدثت في الباب الثاني عن
عالم الزاوية الدلائية وطريقتها الشاذلية، وعلاقتها بغيرها من الزوايا الكبرى التي
عاصرتها ولا سيما الفاسية، والناصرية، والعايشية. وعالجت في الباب الثالث أهمية
الزاوية الدلائية من الناحية العلمية، وترجمت لطائفة من أشهر المتخرجين منها،
كالحسن اليوسي، وأحمد المقرئ، والعربي الفاسي، والاخوين العكاريين محمد وعلي
وغير هؤلاء من فطاحل العلماء.

وتناولت في الباب الرابع الناحية السياسية، وموقف الدلائيين من
الاضطرابات التي انتشرت في المغرب على اثر وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي.
وأشرت الى علاقات الدلائيين بالملوك السعديين المتأخرين، وبالثوار أرباب الزوايا
الذين استبدوا بالاقاليم، كابن أبي محلي السجلماسي، وأبي زكريا الحاحي، وأبي
حسون السملالي، والمجاهد العياشي السلاوي، وعرضت لزعامه محمد الحاج
السياسية، وتأسيسه مدينة الدلاء أو الزاوية الدلائية الحديثة، وبيعة أهل المغرب له،
وقيامه ببعض الأعمال الحربية الداخلية، وجهاده ضد الاسبانيين في حصن المعمورة
اختل. وأملت في الباب الخامس ببعض مظاهر انتشار النفوذ السياسي للدلائيين،
فذكرت ما كان من انضواء المورسكيين في تطوان والرباط تحت لوأثمهم، وسيطرهم
على أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية، وعلاقاتهم بالدول الأوروبية البحرية،
كهولاندا، وأنجلترا، وفرنسا التي عقدوا معها معاهدات ساعدت على ازدهار التجارة
في الموانئ المغربية، وعملت على تزويد الخزينة الدلائية بأموال ضخمة من الضرائب
الجمركية المفروضة على الصادرات والواردات، وسمحت كذلك باستجلاب العتاد
الحربي الحديث من مدافع وبنادق ومسحوق البارود لتسليح الجيش النظامي
الدلائي.

وأفردت الباب السادس لذكر مراحل تفقه الدلائيين، فعرضت لبدء انتفاض الاطراف عليهم بسبب ثورة الخضر غيلان في الشمال، وانهازم محمد الحجاج الدلائي في معركة (وادي بوحيرة) تلك الهزيمة التي أدت الى قيام الثورة ضد الدلائيين في فاس وسلا والرباط وسائر بلاد الغرب، وحصار الامير عند الله الدلائي في قصبة سلا. ثم ألمت بمسألة ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوي في المغرب الشرقي، وتمكن أمره في الشمال والجنوب ثم زحفه الى مواطن الدلائيين وتغلبه عليهم في معركة (بطن الرمان) أوائل عام 1079 / 1668 واقصائه إياهم عن الزاوية الدلائية التي أصبحت حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

أما الباب السابع فقد تناولت فيه أثر الدلائيين في خارج زوايتهم، وألمعت الى ثورة أحمد الدلائي الكبرى ضد السلطان اسماعيل، ثم تحدثت عن مركز العلماء الدلائيين في فاس ومكناس، وخاصة شيخ الجماعة الامام محمد المسناوي الدلائي الذي انتهت اليه رئاسة التدريس والتأليف والافناء في فاس، وكاد يكون جميع علماء المغرب في عصره من تلاميذه. وعددت بعض مشاهير تلاميذ الدلائيين في العاصمة العلمية، والكتب التي ألفها الدلائيون في مختلف الفنون، من حديث وسيرة، وفقه وأصول، ولغة ونحو وصرف وبلاغة، وأدب وأنساب. ويقع بعض هذه الكتب في عدة مجلدات مثل نتائج التحصيل في شرح التسهيل لحمد المرابط الدلائي، وهو في أربعة أجزاء، طبقت شهرته المغرب والشرق، ويعد منه في حياة المؤلف نسخ في مصر بأثمان مرتفعة، وأعجب به علماء الازهر وقرطوب. وأخيرا تكلمت على بقايا البيت الدلائي ومساكن قبيلة محاط اليوم.

إنه لا يكاد يخلو كتاب من الكتب التاريخية المغربية التي ألفت بعد القرن العاشر الهجري من ذكر الدلائيين وزوايتهم، لكنه ذكر عابر لا يجاوز السطر أو السطرين، وقد يطول صفحة أو أكثر، ويتكرر أحيانا ليتحدث عن جزئيات خاصة، وأحداث معينة مجردة من الأسباب والتفاصيل في الغالب. وحتى الكتب التي ألفت في الدلائيين لم تُعْنِ إلا بجمع الأخبار والروايات على علماءها، وكيل المديح للدلائيين جزافا. فجاءت هذه الرسالة لتأخذ (الزاوية الدلائية) موضوعا نعتي

بالبحث فيه بدقة، وتدرسه دراسة نقدية شاملة للنواحي الدينية والعلمية والسياسية، وتعرف إخواننا المؤرخين المحدثين في المشرق بالأسرة الدلائية المغربية حتى لا يعود بعضهم يكتب كلمة (كذا) إذا ورد ذكر الدلاء والدلائيين في النصوص القديمة التي يطلعون عليها، وحتى يعرف (المتفلسفون منهم) أن الدلائيين هم من صميم المغاربة لا يمتون بأية صلة الى مدينة (دلالية) الاندلسية.

تضع هذه الرسالة حدا للافتراضات والتخرصات حول موقع الزاوية الدلائية الذي ظل المؤرخون المغاربة والأوربيون يختلفون فيه حتى اليوم، وتبين أن هناك زاويتين دلائيتين قديمة جبلية، وحديثة أسست في سفح الأطلس لتكون عاصمة الامارة الدلائية، ما تزال أطلالهما معا ماثلة للعيان. وقد زودت الرسالة بعدة صور شمسية التقطتها بنفسني أثناء زيارتي للزاويتين أو اقتبسيتها من بعض الكتب. ومن ناحية أخرى عرضت لتعاليم الزاوية الدلائية، ووضعت جدولا يوضح الشيوخ الذين أخذ عنهم الدلائيون وتسلسلهم الى الامام أبي الحسن الشاذلي، مشيراً إلى ما كان من تفاعل بين الزاوية الدلائية وغيرها من الزوايا المهمة التي عاصرتها.

وتعمل الرسالة أيضاً على إبراز الزاوية الدلائية كمركز علمي هام في الأطلس المتوسط، كاشفة القناع عن المادة التي كانت تدرس في هذا المركز، معروفة بالأسانذة الذين اضطلعوا فيه بالتدريس، سواء كانوا من أبناء الزاوية أو من العلماء الطائرين عليها من فاس ومراكش وغيرها من المراكز الثقافية المغربية الأخرى. كما تلقي الرسالة بعض الأضواء على جانب من الحياة الاجتماعية لطلبة الزاوية الدلائية وتقدم أرقاماً تتعلق بالمدارس الداخلية العظيمة الملحقة بها وبالكتب التي احتوت عليها خزائنها، اعتماداً على مصادر خطية أصيلة نادرة.

ومن الناحية السياسية تهتم الرسالة بتحليل الأحداث التي جرت للدلائيين وربطها بعضها ببعض لتكون منها وحدة متصلة يمكن وضعها في إطارها الحقيقي على الصعيد الوطني. وتعرض الرسالة لأول مرة باللغة العربية الى جانب مهم من نشاط الدلائيين السياسي وهو علاقاتهم بالدول الأوربية الكبرى، وعملهم التجاري

في أقطار الشمال الافريقي، كما تنشر نص معاهدات ومراسلات ووثائق أخرى مما تبادلته الدلائون مع الأجانب. وأخيراً تُعنى الرسالة بالنهضة العلمية التي ظهرت في المغرب صدر الدولة العلوية مبرزة مدى إسهام الدلائين فيها، وتأتي باحصاء أولي للكتب التي ألفها الدلائون أو ألفها الناس فيهم، في جدول يشتمل على أسماء الكتب ومؤلفيها والمكتبات التي أودعت فيها.

لقد أثبت في الهوامش تنبيها على المراجع لمن أراد مزيد التوسع، وأتيت في الأخير بثبت للمصادر العربية والافرنجية مرتبة على أسماء المؤلفين بحسب حروف الهجاء، وذيلت الرسالة بعدة ملاحق تشتمل على نصوص هامة لم أثبتها في الصلب — لطولها — حتى لا تقطع تسلسل الأفكار على القارئ.

وأرجو أن يكون بحثي المتواضع هذا قد أسهم بنصيب في توضيح فترة غامضة معقدة من تاريخنا القومي، ومهد السبيل أمام الباحثين لدراسة التراث الادبي الضخم الذي خلفه الدلائون.

الباب الأول

نشأة الزاوية الدلالية

- 1 — نظرة عن عصر الدلائل
- 2 — الزاوية والرباط والرابطة
- 3 — أصل الدلائل
- 4 — تأسيس الزاوية الدلالية
- 5 — موقع الزاوية الدلالية

1 - نظرة عن عصر الدلائين

تسبم الشرفاء السعديون عرش المغرب خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري (القرن 16 م) فانتعشت بهم الآمال، وبدأ استرداد الثغور التي سبق أن استولى عليها الأوربيون. وعرف المغرب في أيام واسطة عقد هذه الدولة أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012 / 1578 - 1603) عهد استقرار وازدهار في السياسة الداخلية والخارجية على السواء. إذ كان من نتائج معركة وادي المخازن الشهيرة في عام 986 / 1578 والانتصار المغربي على البرتغاليين، أن طارت للبلاد شهرة في جميع الأقطار، أخذت معها الدول الأجنبية تخطب ود عاهل مراكش وتتقرب إليه بالسفارات والهدايا، رغبة في ربط أواصر الصداقة معه، كما تناقل الناس في الداخل أخبار هذه المعركة الفاصلة وأحاطوا شخصية بطلها المنصور بهالة من التقدير والاحترام. وازدادت منزلة أحمد المنصور رفعة في أعين الشعب بعد أن احتلت جيوشه بلاد السودان في مطلع القرن الحادي عشر للهجرة (أواخر القرن السادس عشر للميلاد) وتدفقت منها على المغرب سيول الذهب والريق. ذلك إلى ما كان عليه هذا الملك العظيم من الحزم والحرص على حفظ النظام وعدم التردد في إنزال أقصى العقوبات بالمشاغبين الذين يسعون في الأرض فسادا. فساد الأمن في البلاد، وعاش الناس في دعة وطمأنينة، وأخذوا ينتقلون من أقصى المملكة إلى أقصاها دون أن يعترض طريقهم أحد أو يلحق أموالهم وأمتعتهم ضياع.

غير أنه لم تكد تخمد أنفاس المنصور الذهبي عام 1012 / 1603 حتى انقلبت الأحوال في المغرب وظهرت في الجو سحب الفتنة والاضطرابات. فقد كان وفاة المنصور فجأة وهو يتيها للخروج من فاس ليعود إلى عاصمة ملكه مراكش، فأصيب بالوباء الذي أخذ يكتسح إذ ذاك أطراف البلاد. ولم يكن قد بت بعد في أمر ولاية العهد بعد أن ثار عليه ولده البكر محمد الشيخ المامون

خليفته بفاس وولي عهده السابق، فقبض عليه وأودعه السجن. وقد بادر أهل فاس الى مبايعة زيدان بن المنصور بمجرد ما انتهوا من دفن الملك الراحل. وكان زيدان عاملاً على إقليم تادلا، استصحبه أبوه معه الى فاس ثم استخلفه عليها قبيل وفاته. ولما بلغ خبر الوفاة والبيعة الى مراكش ثارت نائرة أهلها ورأوا في تصرف الفاسيين واستبدادهم بالأمر دونهم استخفافاً بشأنهم فبايعوا أبا فارس ابن المنصور لأنه كان الخليفة الرسمي لوالده بحاضرة ملكه. وبدلاً من أن يسعى ذوو المكانة والنفوذ في تلافي الأمر وحل المشكل تسرع علماء فاس فأفتوا بوجوب قتال المراكشيين عملاً بحديث إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما. والتقى جيشا الملكين الأخوين على ضفة نهر أم الربيع، وكان أبو فارس لم يحضر القتال بنفسه، وإنما أناب عنه أخاه الشيخ المامون بعد أن أخرجه من السجن. واسفرت المعركة عن انهزام زيدان وفراره الى تلمسان، ووجد المامون نفسه في عزة ومنعة، بعد أن انضم اليه جند أخيه المهزوم فقلب ظهر الحن لأبي فارس وأعلن نفسه ملكاً على فاس.

ظل الاخوة الثلاثة زيدان، وأبو فارس، والشيخ المامون يتنازعون الملك مدة طويلة، دون أن يعم الأمر لواحد منهم، وعمت الاضطرابات أرجاء البلاد كلها، وانتهى أمر الشيخ المامون بتسليمه مدينة العرائش الى الاسبانيين عام 1019/ 1610 طمعاً في مساعدتهم له، فغضب عليه الشعب وقتله في ضواحي تطوان عام 1022/ 1613. كما قتل أخوه أبو فارس خنقاً قبله. وقبض زيدان أخيراً في مراكش صارفاً نظره عما وراء نهر أم الربيع، تاركاً أمر فاس وغيرها لعبد الله بن الشيخ المامون ومنافسيه من الثوار. وقد انقرض أمر السعديين في فاس بموت عبد الملك بن الشيخ المامون في أواخر عام 1036/ 1627⁽¹⁾ وبقي أبناء زيدان يتوارثون إمارة مراكش إلى أن قتل آخرهم أبو العباس أحمد بن الشيخ بن زيدان عام

(1) تولى الشيخ المامون إمارة فاس في فترات متقطعة إلى أن قتل عام 1022/ 1613، وتولى من بعده ابنه عبد الله كذلك إلى أن توفي عام 1032/ 1623 ثم عبد الملك بن المامون إلى أن توفي في أواخر عام 1036/ 1627. وقد دخل بعد ذلك إلى فاس أحمد بن زيدان السعدي وادعى الإمارة فلم يمهله الأمر.

1069/ 1658(2). وعرفت هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب أواخر الدولة السعدية الى جانب المجاهد العياشي السلاوي كثيرا من أرباب الزوايا المتزعمين الذين استغلوا فرصة اضطراب الاحوال لتحقيق مطامحهم في الحكم والرئاسة، أمثال ابن أبي محلي السجلماسي، وأبي زكريا الحاحي، وأبي حسون السملالي.

وقد شاهدت الزاوية الدلائية في بداية عهدها العصر الذهبي للسعديين، ثم أدركت زمن الفتنة والتدهور، غير أنها نظرا لمناعة موقعها في جبال الأطلس ولمكانة رجالها الصالحين، استطاعت أن تحتضن الثقافة الاسلامية في عصر عصفت فيه الاضطرابات بالمراكز العلمية التقليدية مثل فاس ومراكش. وعمرت الزاوية الدلائية زهاء قرن ظلت فيه مركز إشعاع للعلم والدين.

2 - الزاوية والرباط والرابطة

لم تظهر الزاوية في تاريخ المسلمين كمركز ديني وعلمي الا بعد الرباط والرابطة. والرباط لغة مصدر رباط يربط بمعنى أقام ولازم المكان. ويطلق في اصطلاح الفقهاء والصوفية على شيئين أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد هجوم العدو عنها. والثاني عبارة عن المكان الذي يلتقي فيه صالحو المومنين لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين. وجاء في القرآن الكريم «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» (3)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (4) وقال الرسول عليه السلام «رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه» (5). وقد عرف المغرب الربط مع الفتح الاسلامي وورد ذكر «رباط ماسة» بالسوس الاقصى في

(2) مات زيدان بن المنصور عام 1627/1037 فترى إمرة مراكش ابنه عبد الملك إلى أن قتل عام 1631/1040 ثم الوليد بن زيدان إلى أن قتل عام 1636/1045 ثم محمد الشيخ بن زيدان إلى أن قتل عام 1653/1063 ثم ابنه أبو العباس أحمد إلى قتل عام 1658/1069 فانقرض بذلك ملك السعديين بالمغرب واستبد عرب الشبانة بإمارة مراكش إلى أن انتزع الأمر من يدهم السلطان الرشيد العلوي عام 1668/1079.

(3) سورة الانفال، الآية 60

(4) سورة آل عمران، الآية 200

(5) حديث صحيح أخرجه بألفاظ متقاربة البخاري ومسلم في الصحيحين والنسائي وابن ماجه والدارمي في السنن، وأحمد في المستند.

أخبار عقبة بن نافع الفهري، وموسى بن نصير، وادريس الأول. ويذكر المؤرخون أن «رباط شاكر» المعروف اليوم بسيدي شيكر على ضفة وادي نفيس بحوز مراكش، هو مدفن المجاهد العربي شاكر من أصحاب عقبة بن نافع. وقد بنى هذا الرباط يعلى بن مصلين أحد رجال رجراجة السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فأسلموا ورجعوا الى المغرب دعاة للدين الخفيف.

كان يعلى يقيم في هذا الرباط لقتال البرغواطيين المارقين (6) ثم صار رباط شاكر «مجمعا للصالحين من قديم ولا سيما في رمضان يفنون إليه من كل حذب» (7). كذلك أقام المسلمون رباطا آخر في شمال تامسنا، على ضفة نهر أبي رقرق، أو وادي سلا كما يسميه ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك. وكانت مدينة سلا القديمة قد خربت في أوائل القرن الرابع الهجري «والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها. وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف انسان يزيلون وينقصون ورباطهم على برغواطة...» (8) وتكاثر الربط في المغرب ولاسيما على السواحل الى أن صارت تعد بالعشرات.

وخصص الخطيب ابن مرزوق التلمساني المتوفى عام 781 / 1379 الباب التاسع والثلاثين من كتاب المسند الصحيح الحسن للكلام على الربط التي أنشأها السلطان أبو الحسن المريني (731 — 752 / 1331 1351) على السواحل المغربية والجزائرية، اذ كان القراصنة الأوريون كثيرا ما ياتون بسفنهم الى هذه السواحل ويختطفون منها أهل البوادي ليستعبدوهم في بلادهم. فكانت الربط التي أسسها أبو الحسن المريني تمتد من آسفي جنوبا الى آخر المغرب الأوسط وأول

(6) برغواطة بطن من بواقة مصمودة كانوا يسكنون بلاد تامسنا فيما بين واد أم الربيع جنوباً ووادي أبي رقرق شمالاً. ولم يحسن اسلام البرغواطيين في بادئ الامر ثم كانوا من أنصار ميسرة المطفري الحقيير الذي ثار على العرب عام 122، وانتحل مذهب الخوارج الصفرية وأعلن نفسه خليفة. وبعد هلاك ميسرة تزعم أحد قواصم جيشه أبو صبيح طريف أمر برغواطة وأفسد عليهم دينهم، ثم خلفه ابنه صالح الذي ادعى النبوة وشرع للبرغواطيين ديانة جديدة، وقد لقي المسلمون عنتا كبيرا من البرغواطيين خلال عدة قرون إلى أن خضد شوكتهم المرابطون.

(7) يوسف بن الزيات، التشوف، 26.

(8) ابن حوقل، المسالك والممالك، ص 6.

بلاد افريقية — تونس — «إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة. وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحواً من شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين الا والتتير يبدو في المحارس فأمنت السواحل في أيامه السعيدة...»(9)

ونأتي الرابطة بمعنى الرباط سواء في الاطلاق على مكان الجهاد أو مكان العبادة، وإن كان بعضهم يسمي الجيش المقيم في الربط رابطة. (10) وقد سمي المؤرخون «رابطة» المكان الذي أقام فيه عبد الله بن ياسين وجماعة من اللمتونيين الصنهاجيين في إحدى الجزر الساحلية بأقصى الجنوب المغربي، وذلك في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وتلاحق الصنهاجيون برابطة ابن ياسين لينقطعوا معه فيها إلى عبادة الله تعالى، وليتعلموا منه أمور دينهم إلى أن بلغ عددهم نحو ألف رجل فدعاهم لجهاد القبائل الزائغة عن تعاليم الاسلام، وتطور أمرهم إلى أن كونوا دولة المرابطين. وقد ذكر ابن الزيات التادلي المتوفى عام 1230/ 627 في كتابه التشوف أحد عشر رباطاً وتسع رابطات، أكثر أسمائها بربرية. مثل رباط (تيطنقطر) — عين الفطر — الذي يقع على ساحل المحيط الاطلنطي جنوبي مدينة الجديدة، على بعد نحو 11 كلم، وهو اليوم خراب ويسمى تيط. وكرباط (تينمل) بالاطلس الكبير، الذي هو دار المهدي بن تومرت، ورباط (تانوتن) من بلاد دكالة، ورباط (تاسماطت) من عمالة مراكش، وكرابطة (آنبور) خارج سجلماسة، ورابطة (تامنغاطت) بالقرب من ساحل أنفا الدار البيضاء. أما الزاوية فهي عبارة عن مكان معد للعبادة، وإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم. وتسمى في الشرق خانقاة وهو لفظ أعجمي يجمع على خانقهاة أو خانقاوات أو خوانق. وقيل في تعريف الزاوية المغربية إنها «مدرسة دينية ودار

(9) الخطيب ابن مروان، المسند الصحيح الحسن، ص 49/157

(10) محمد بن علي الدكالي، كتاب في الرباطات، ص 2.

مجانبة للضيافة. وهي بهذين الوصفين تشبه كثيرا الدير في العصور الوسطى»⁽¹¹⁾ ولم تعرف الزاوية في المغرب إلا بعد القرن الخامس الهجري، وسميت في بادىء الأمر (دار الكرامة)، كالتي بناها يعقوب المنصور الموحد في مراكش، ثم اطلق اسم (دار الضيوف) على ما بناه المرينيون من الزوايا، كالزاوية العظمى التي أسسها أبو عنان المريني في خارج فاس وهي التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته. وقد جدد الدلائيون بناءها أيام انتشار نفوذهم في العاصمة الادريسية. فظن بعض المؤرخين أنهم مؤسسوها⁽¹²⁾ ومن أقدم الزوايا التي حملت هذا الاسم في المغرب زوايا الشيخ أبي محمد صالح الماجر (ت. 631 / 33 - 1234) في أسفي، وقد تعددت زواياه حتى بلغت ستا وأربعين، وانتشرت فيما بين المغرب ومصر، إذ كان هذا الشيخ يشجع أصحابه على حج بيت الله الحرام، واستكثر من اتخاذ الزوايا في الطريق التي يسلكها ركب الحجاج ليأووا إليها في مراحل سفرهم الطويل. وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) تكاثرت الزوايا في المغرب، ونمت حولها مدارس استقر فيها طلبة العلم، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يشيدوا كذلك مدارس بجانب المراكز التعليمية الكبرى خصوصا جامع القرويين بفاس. وقد أفرد الخطيب ابن مرزوق التلمساني الباب الواحد والأربعين من كتاب المسند الصحيح الحسن لذكر المدارس الكثيرة التي أسسها السلطان أبو الحسن المريني⁽¹³⁾.

وتطور أمر الزوايا بالمغرب خلال القرن العاشر الهجري «السادس عشر الميلادي» حيث تغلب النصارى على المسلمين في الاندلس وساموهم سوء العذاب، ثم امتدت أطماعهم الى احتلال الثغور المغربية وضعفت الدولة الوطاسية عن الدفاع عن حوزة الوطن. هنالك بدأت الزوايا تتدخل في شؤون البلاد السياسية وتدعو الى الجهاد ومقاومة الأجنبي. ووجد نداء الصوفية آذانا صاغية،

(11) دائرة المعارف الإسلامية، المترجمة الى العربية، العدد التاسع من المجلد العاشر، ص 332.

(12) محمد بن علي الدكالي السلوي، الكناشة العلمية، ص 278. وقد ذكر ابن بطوطة زاوية أبي عنان في موضعين من رحلته (الطبعة الأولى بمطبعة وادي النيل - القاهرة عام 1287 هـ) في صفحة 22 وصحيفة 177. وقال انها أعظم زاوية شهدها في المغرب والمشرق تقع على غدير الحمص (وادي الجواهر) خارج المدينة البيضاء (فاس الجديدة)، ولا يوجد في هذا الموقع اليوم الا بقايا اسوار يظن أنها أطلال تلك الزاوية العظمى.

(13) الخطيب ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص 158 وما بعدها.

اللوحة رقم 1



حرجة تواجه القادم الى الدلا،
وتستر بقايا مسجد ابي بكر بالزاوية الدلالية القديمة
تصوير المؤلف

فهب الشعب يندود عن حمى البلاد وحمل السلاح معهم فقادوه في معارك ظافرة انتهت بطرد البرتغال من الثغور التي كان يحتلها في الجنوب، ونصب رجال الزوايا الشريف أبا عبد الله القائم السعدي (915 — 923 / 1510 — 1517) ملكاً على المغرب. وقد كان تأسيس الزاوية الدلائية في عهد الدولة السعدية هذه.

3 — أصل الدلائين

تطلق كلمة (الدلاء) على الأرض التي أسس فيها المجابطون زوايتهم بالجنوب الغربي للأطلس المتوسط المشرف على سهول تادلا. ولفظ الدلاء عربي (جمع دلو إناء يستقى به الماء) استعمله بهذا المعنى — مقصوراً وممدوداً — كتاب عاشوا في الزاوية الدلائية، مثل الحسن اليوسي، ومحمد المرباط الدلائي. وإذا كان من المستغرب إطلاق هذا الاسم العربي القح على بقعة تقع في وسط بربري صرف فإننا لا ندري كذلك لهذه التسمية سبباً ولا تاريخاً، اللهم إلا ما يبدو من تقارب لفظي بين الدلا وتادلا، الأمر الذي يجعلنا نفترض أن الاسمين كانا مترادفين لمسمى واحد. ويؤيد هذا الافتراض أن عبد العزيز الفتشالي — وهو معاصر للزاوية الدلائية — أطلق لفظ الدلا على تادلا حينما تحدث عن توزيع المنصور الذهبي لأقاليم المملكة على أبنائه، فقال «... وعقد للمولى زيدان أصغرهم على الدلا، ثم بدا له أن يديل كلا منهما بالآخر فنقل المولى أبا الحسن للدلا وعقد له على أعمالها وشفعها له بيلاد أدخسان» (14) جازتها والمتاحمة لأعمالها» (15) ونحن نعلم من سائر المصادر التاريخية أن ولاية زيدان وأبي الحسن ابني المنصور كانت شاملة لإقليم تادلا كله. ولعل الزاوية الدلائية بعد أن اشتهرت خصوصاً عندما تزعمت الحركة السياسية بالمغرب اختصت باسم الدلا، بينما بقيت السهول المجاورة لها تسمى تادلا. ونجد للمؤرخ أبا القاسم الزياني (بربر) أحياناً لفظ الدلا فيكتبه (يدلا) (16) وذلك ما نجده جارياً على ألسنة سكان تلك الناحية حتى اليوم.

(14) أدخسان جبل في الأطلس المتوسط بالقرب من خنيفرة. وهناك قلعة تدعى أيضاً أدخسان. انظر أبا القاسم الزياني، الترجمة الكبرى، ص 463.

(15) عبد العزيز الفتشالي، مناهل الصفا، ص 191

(16) أبو القاسم الزياني. البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، ورقة 5/أ

ينتسب الدلائيون إلى قبيلة مجاط، أحد فروع صنهاجة، وهو جذم من البرانس الذين يرجع إليهم مع البتر جميع أنساب البربر (17). ولا عبرة بما ادعاه بعض المؤرخين المتأخرين من رفع نسب الدلائين إلى أبي بكر الصديق (18) وإنما هم — بناء على انتساب الدلائين أنفسهم — من قبيلة لمتونة الصنهاجية التي كانت تسكن بأقصى الصحراء المغربية، وفصيلةهم القرى هي بنو الطالب، ويقال لهم بلسان البربر (آيت يتيدر) في عداد قبائل الأطلس المتوسط. وكانت مساكن مجاط قبل انتقالهم إلى الدلا على ضفاف نهر ملوية (19) العليا فيما بين تونفيت وميدلت، ثم تفرق المجاطيون بعد ذهاب عزهم أيدي سبأ، واستقروا في جهات مختلفة بالمغرب كما سنراه في الباب الأخير.

وأول من استوطن من المجاطين أرض الدلاء الشيخ الصالح أبو حفص عمر المجاطي، ثالث أجداد الشيخ أبي بكر مؤسس الزاوية الدلائية، وذلك في أواخر ثامن الثامن الهجري، بناء على القاعدة التي ذكرها ابن خلدون من أن كل مائة سنة لا يسعها إلا ثلاثة آباء. (20) «وكان بنو مرين يعظمون السادات الدلائين غاية، وربما قاموا وأجلسوا أحدهم في مكانهم» (21)

ولا يعرف للشيخ عمر المجاطي ولا لابنه أحمد تاريخ ولادة ولا وفاة، وإنما يذكر للأول اجتهد في العبادة، وللثاني علم وصلاح. أما الشيخ سعيد بن أحمد بن عمر

-
- (17) ابن خلدون، العبر (القسم الذي نشو دسلان) ج، 1، ص 106.
- (18) رفع نسب الدلائين إلى أبي بكر الصديق محمد بن أبي بكر اليزغي في حقائق الأزهار الندية، وعبد البودد التازي في نزهة الاختيار المرضين، وسليمان الخواث في البلور الضلوية.
- (19) ذكر الاستاذ أحمد بن قاسم المنصوري في كتابه تاريخ زيان تفاصيل مهمة عن مجرى نهر ملوية أختصرها فيما يلي: نهر ملوية من الأودية العظام بالأطلس المتوسط ومنبعه من عين تسمى (عين سبت) في الأطلس الكبير ببلاد آيت يحيى مركز تونفيت في سفح جبل يسمى (توجيط) ثم يهبط ماؤها نحو الشمال ويلتقي بعين أخرى فتكون منها أودية صغرى، كوادي (تولت) ووادي (انزكمير) الكل من دائرة ميدلت، فيهبط الجميع قاصدا الشمال من تحت مدينة ميدلت على نحو 30 كم. غربيها، وهنا يظهر تضخم نهر ملوية ويتجه نحو (الأقصابي) على 50 كم شمال ميدلت، ثم مركز مسور على 80 كلم من ميدلت ثم مركز لوطاط الحاج، ومنه يدخل قراب المغرب الشرقي فيصل إلى مدينة كرسيف حيث تطل عليه جبل رشيدة. ويستغل نهر ملوية من أوائل منبعه في قبائل بربرية من دائرة ميدلت كآيت يحيى، وآيت عياش، وآيت يزدك.
- (20) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني 1961، ص. 304.
- (21) سليمان الخواث، البلور الضلوية. ورقة 1/5.



صحن مسجد أبي بكر في الزاوية الدلاية القديمة



بقايا صومعة مسجد أبي بكر في الزاوية الدلائية القديمة

فقد كان حيا عام 953 هـ (1546 م) وذكر في حقه صاحب نزهة الفكر (22) أنه «كان طالبا قارئاً فاضلاً خيراً ديناً فائقاً مكثراً للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مولعاً بها (....) وكان له عند أمراء وقته التعظيم التام، والتوقير الكثير والاحترام، لما كان عليه من الاشتغال بالعلم والدين، وما سلف من العلم والصلاح في آبائه الأقدمين، رحمة الله عليهم أجمعين. وكانت عنده ظواهر (كذاب) ملوكية من بني مرين وبني وطاس وغيرهم تتضمن الاحترام والتوقير، والتنزيه عن الوظائف الجارية على العامة والتحرير، وتتضمن قطاعات (كذاب) لأرضين له ببلاده واستمرت بأيدي بنيه من بعده من أولاد الشيخ سيدي أبي بكر إلى أن كانت رحلتهم لتلمسان ففقدت» (23)

وهناك ظهور للسلطان محمد الشيخ السعدي (951 — 964 / 1544 — 1557) يوصي بتعظيم سعيد بن أحمد الدلائي، ويشير إلى وجود ظواهر قديمة عنده ويقره على التصرف في إقطاعاته (24). ولا نعرف عن الشيخ محمد بن سعيد الدلائي، الذي يدعى بلسان قومه (جَمِي) إلا أنه كان موسر الحال، مستقيم السيرة، سنياً تقياً، خلف ولدين هما أبو اسحاق إبراهيم، وأبو الحمال أبو بكر مؤسس الزاوية.

4 — تأسيس الزاوية الدلائية

لا نعرف بالضبط متى وجدت زاوية الدلاء، غير أنه يمكننا الاطمئنان الى القول بأن تأسيسها كان في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري، حوالي عام 974 هـ 1566 م أسسها أبو بكر بن محمد بن سعيد الدلائي بإشارة من شيخه أبي عَمَر القسطلي (25). فقد ذكرت كتب التراجم أن هذا الشيخ كان يكرم

(22) نزهة الفكر في مناقب الشيخين سيدي محمد ووالده سيدي أبي بكر لعبد السلام بن الطيب القاردي المتوفى

عام 1110 هـ أحد المصادر المهمة التي اعتمد عليها صاحب البدر الضاوية

(23) نقله عن نزهة الفكر سليمان الحوات في البدر الضاوية ورقة 7/1.

(24) انظر هذا لظهير في ملحق رقم 1

(25) الشيخ أبو عَمَر القسطلي من ذرية الشاعر الأندلسي الشهير ابن دراج القسطلي كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعر بلاطه. ونسبت إلى قسطلية مدينة بالاندلس يقال لها قسطلية دراج، وعد الامام ابن حزم في الجمهرة أسرة هذا لشاعر من بين براير صنهاجة، توفي الشيخ القسطلي عام 974/1566 ودفن برياض العروس بمراكش. وفي الحوزة الملكية كتاب لمؤلف مجهول يضم طائفة من كلام الشيخ القسطلي في التصوف.

الواردين على زاويته بمراكش بحسب أقدارهم وطبقاتهم، ويقدم لهم من صنوف الاطعمة ما لا يستطيع عمله إلا كبار الموسرين وأرباب الدولة. وقد أمر الشيخ القسطلي أبا بكر الدلائي باتخاذ زاوية له في أرض الدلا يطعم فيها الطعام على نحو ما يفعله هو بمراكش. فلم يسع أبا بكر أمام إلحاح شيخه إلا أن يبني الزاوية الدلائية البكرية (26) ويفتح أبوابها في وجه المريدين والزائرين.

ولا يقتصر مدلول الزاوية الدلائية على هذا المسجد الخاص الذي أسسه أبو بكر وإنما يشمل كافة القرية القائمة حوله بدورها وأسواقها ومساجدها وسائر مرافق الحياة الضرورية لها، وهو أمر نجد له مثيلاً في اخواتها الباقية لعصرنا الحاضر، كزاوية سيدي حمزة بجبل العياشي قرب ميدلت، والزاوية الناصرية بتامكروت، وزاوية أيت إسحاق نفسها التي قامت على أنقاض الزاوية الدلائية الحديثة. ولا شك في أن الزاوية الدلائية باعتبار مدلول القرية، لم توجد دفعة واحدة، وإنما اجتازت مراحل في تشييد مبانيها طيلة حياة الشيخ أبي بكر الدلائي الذي «كانت له المآثر الحسان، التي لا يصدر مثلها إلا عن سلطان، كبناء القناطر، وحفر العيون وإجراء مائها، وتوسعة الأودية وبنائها، وشراء الرباع في غالب البلاد وتحييسها على الطلبة والضعفاء والمساكين، وتشييد مباني الزاوية حتى كانت في عداد المدائن، التي يكلُّ اللسان عن وصف ما لها من المحاسن» (27).

ولقد تفرعت عن الزاوية الدلائية هذه، مدينة أخرى تقع جنوبها على بعد نحو 12 كلم، أنشأها في سفح الجبل حفيد الشيخ أبي بكر، السلطان محمد الحاج بن محمد الدلائي عام 1048/1638، فوُثِرَتْ عن قرية الدلاء القديمة اسم الزاوية الدلائية البكرية. وسمّاها بعض المؤرخين مدينة الدلاء زاوية محمد الحاج (28) أو مدينة أزغار (29) وهناك نص من القرن الحادي عشر يدل بوضوح على وجود

(26) تدعى الزاوية البكرية أيضاً نسبة لمؤسسها الشيخ أبي بكر الدلائي.

(27) سليمان الحوات، البذور الضاوية، ورقة 1/10.

(28) أبو القاسم الزباني، الترجمة الكبرى، التي جمعت أخبار العالم برا وبحره، ص 463.

(29) عبد الله العياشي الأحياء والانتعاش، في تراجم سادات زاوية أيت عياش، ورقة 249. وأزغار كلمة بربرية تدل على البسيط من الأرض.



واحدة صريحي النبحير الدلاتين أبي بكر واسه محمد

اللوحة رقم 5 .



منظر عام لزاوية أيت إسحاق المبنية على أنقاض الزاوية الدلالية

زاويتين دلايتين اثنتين، احدهما عاصمة الامارة الدلائية والآخرى قرية فيها قبور الدلايين. وذلك فقرة من رسالة(30) وجهها الفقيه محمد بن عبد الجبار(31) الى شيخه أبي سالم العياشي صاحب الرحلة المشهورة وكان اذ ذاك غائبا بالحرمين الشريفين، يتحدث له عن المسغبة التي حلت بالمغرب عام 1071 / 1661 يقول فيها «والقرى التي حول الزاوية مدينة الدلاء ودار المغرب في تلك الازمنة قد خربت كلها إلا ما كان من ثلاث قرى منها قرية تعرف بالدلاء وفيها قبور أولئك الملوك..»(32)

ونجد في شعر أبي علي اليوسي تلميذ الزاوية الدلائية إشارة إلى المدينتين الدلايتين العليا والسفلى فقد قال مرة حينما طلع الى الزاوية الدلائية القديمة رحلت وقد نزلت على الدلاء وخلفت الحضيض الى العلاء وخلفي عصبة يدرون غيبي مغيب الغيث عن قوم ظماء فقل لهم إذا ظمئوا استغيثوا ببحر لا يكدر بالدلاء(33)

5 - موقع الزاوية الدلائية

لقد وقع اضطراب في تحديد الزاوية الدلائية بسبب تخريبها وانطماس معالمها. فأشار اليها بعض مؤرخي القرن الماضي إشارات عامة غامضة، كقولهم إنها تقع على ثلاث مراحل من فاس مكتنفة بين بجانة وهسكورة وتادالا(34) وجاء الأوربيون في مطلع هذا القرن يتحدثون عن الزاوية الدلائية وموقعها بأحاديث متضاربة(35) ثم وقع في نفس الاضطراب أحد جهابذة مؤرخينا لما نشر في السنة

(30) هذه الرسالة طويلة تشمل على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. انظرها بجامها في الإحيا والانتعاش من ورقة 247 الى ورقة 263.

(31) محمد بن عبد الجبار تلميذ أبي سالم العياشي، كان شاعرا نحوي فقيها له عدة مؤلفات انظر ترجمته في الإحيا والانتعاش ورقة 229.

(32) عبد الله العياشي، الإحيا والانتعاش، ورقة 229.

(34) سليمان الحوات، البلور الضاوية، ورقة 5/ب.

(35) H. De Castries, Les Sources Inédites de l'Histoire de Maroc, France, Tome III p574

— Lévi Provençal; les Historiens des Chorfa p. 300.

— La Mission Scientifique du Maroc, Villes et Tribus - Rabat et sa région, Tome I, p. 77

La Section Sociologique D.G.A.I. Archives Marocaines - Volume 28. Editorial.

الماضية كتابا قال فيه «لا يعرف بالضبط موقع هذه الزاوية الآن، وإنما المحقق أنها كانت تقع بناحية وادي أم الربيع قريبا من تادلة. ولعلنا لا نخطئ إذا عينا لها بلاد تامسنا المعروفة اليوم بالشاوية، ومن ثم شهر بعض الدلائل بنسب المسناوي» (36) وذكر مؤرخ مغربي كبير آخر في مقال نشره منذ شهور فقط أن الزاوية الدلائية «درست معالمها لدرجة أنه لم يتوصل بعد الباحثون إلى تعيين المحل الذي كانت به» (37)

والواقع أن هناك زاويتين دلائيتين، قديمة وحديثة ما تزال أطلالهما قائمة الذات ماثلة للعيان حتى اليوم. ويعرف سكان ناحية خنيفرة الزاوية القديمة باسم (أيت يدلا) أي أهل الدلاء، ويروي شيوخهم بالتواتر ما كان لهذه البقعة الطيبة من ماض علمي مجيد. وعندما زرت هذه الزاوية لأول مرة يوم 25 ذي الحجة 1381 / 30 ماي 1962 صحبة الاستاذ أحمد بن قاسم المنصوري صاحب تاريخ زيان (38)، التفت حولنا كثير من سكان الدلاء، ومن بينهم شيخ فاني يشرف على التسعين ظل يحدثنا بلهجته البربرية عن أخبار الزاوية وصلحاتها وعلمائها حديثا تخلط فيه الحقائق بكثير من الأساطير.

تقع الزاوية الدلائية القديمة التي أسسها الشيخ أبو بكر الدلائي على ربوة في سفح جبل (بوثن) بينه وبين جبل (تاغوليت)، وتنحدر في شرقها شعبة (أقا ايزم) أي شعبة الاسد، وتتفجر بالقرب منها عين جارية تخترق المسجد وتضع في الشعاب. وفيها بقايا للمسجد الذي أسسه أبو بكر الدلائي، حيث يرى الزائر صفين من السواري والحنايا قائمين بجهة القبلة، والمنار المتهدم الذي لم يبق منه سوى العمود الداخلي الذي تلفت حوله الدرج على ارتفاع بضعة أمتار، وجدران القبتين المشيدتين على ضريحي الشيخين الدلائيين أبي بكر وابنه محمد، وقد نبتت أشجار التين والعليق والشوك بكثرة في جوانب المسجد حتى غطته وجعلت التنقل في داخله متعذرا (39)

أما الزاوية الدلائية الحديثة التي بناها السلطان محمد الحاج الدلائي فهي التي نقوم على أنقاضها زاوية أيت اسحاق الحالية، في الطريق التي تربط بين خنيفرة

(36) عبد الله كنون، التبوغ المغربي ج 1، ص 269.

(37) محمد القاسمي، مجلة البيئة، السنة الأولى، العدد الثاني، يونيو 1963، ص 64.

(38) انظر نص قصيدة قالها الاستاذ المنصوري في زيارتنا لأطلال الزاوية الدلائية، في ملحق رقم 2.

(39) انظر اللوحات رقم 4.3.2.1.

الباب والقبّة لمسجد زاوية أيت إسحاق - الزاوية الدلالية الحديثة





مكتب قائد زاوية أيت إسحاق في موقع المسجد الأعظم

وقصبة تادلا (40). وما تزال حتى اليوم آثار الأسوار العظيمة التي كانت تحيط بهذه المدينة ممتدة على مسافات شاسعة، ترتفع أحيانا عن سطح الأرض قليلا ونساويه أخرى أو تختفي تحت ركام التراب. وتوجد داخل هذه الأسوار المتهدمة أسوار أخرى ما تزال قائمة بأبراجها، لعلها كانت تحيط بقصر السلطان محمد الحاج الدلائي وفي داخلها مسجد جدد سقفه أخيرا، وبقياء أقواس الديوان (41)

وكان ر. هنري R.HENRY أول من تنبه من المحدثين الى وجود زاويتين دلايتين إذ نشر مقالا في مجلة هيسبريس HESPERIS سنة 1944 (42) تحت عنوان: أين كانت تقع الزاوية الدلائية؟ تحدث فيه عن الزاويتين ووصف ما وقف عليه من آثارهما، مضيفا الى ذلك روايات استقاها من فقيه قرية معمر وقائد أيت سخمان المكي امهاوش وغيرهما، وأثبت هنري كل ما سمعه من محدثيه دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتحقيق والرجوع الى المصادر التاريخية للتأكد من صحة تلك الروايات، لكن صاحب المقال كان له على أي حال فضل السبق لاكتشاف موقع الزاويتين الدلايتين، والتنبيه الى بعض النصوص التي وردت في كتاب الإحيا والانعاش، وهي تتحدث عن الزاوية الدلائية القديمة، ومدينة محمد الحاج عاصمة إمارة الدلايين. ويمتاز هذا المقال أيضا بما وصف صاحبه من أسوار مسننة كأسوار فاس. وقد اختفت هذه الأسوار اليوم تماما كما اختفى المسجد الأعظم ومناره الشاخ وباب مجاط الكبير الذي كان يطل على وادي أهل زمور (أسيف نايت زمور) وقنطريته (43) وذلك بسبب تحطيم جنود الاحتلال الفرنسي هذه الآثار واستخدام أنقاضها في بناء المكاتب والثكنات العسكرية.

وقد حدثني بعض شيوخ زاوية أيت اسحاق أنه شاهد هدم الفرنسيين الأسوار القديمة وغيرها مستعملين في ذلك الألغام المتفجرة. وفي أثناء هدم صومعة المسجد التي كانت قائمة وراء المكتب الحالي للقائد وبعد نقض أجزاءها العليا، سقطت دفعة واحدة على إثر تفجير لغم قوي فيها، فغطت مساحة كبيرة من الأرض وأدرك حطامها أحد جنود الكوم فمزق شلوه. ولما كان جنود الفرقة الثالثة يحفرون أسس مباني الثكنات العسكرية بزاوية أيت اسحاق سنة 1941 اكتشفوا بعض القنوات التي كانت تجلب المياه الى مدينة محمد الحاج وتوزعها تحت الأرض على الدور كما هو الحال بفاس.

(40) تبعد زاوية أيت إسحاق عن خنيفرة بنحو 35 كلم، وعن قصبة تادلا بنحو 64 كلم.

(41) أنظر اللوحات أرقام 8.7.6.5.

(42) Hespérès, T. 36 - p. 49.

اللوحة رقم 8



بقايا اسوار داخلية يظن أنها كانت تحيط بقصر السلطان محمد الحاج
في الزاوية الدلاكية الحديثة (زاوية أيت إسحاق)

تصوير المؤلف



بقايا قطرة وادي أهل زمر بجوار الزاوية الدلالية الحديثة

تصوير المؤلف

الباب الثاني

تعاليم الزاوية الدلائية

1 - الزاوية الدلائية كمركز ديني

- أ) الشيخ أبو بكر مؤسس الزاوية الدلائية
- ب) إطعام الطعام في الزاوية الدلائية
- ج) احتفال الدلائيين بعيد المولد النبوي الشريف

2 - طريقة الزاوية الدلائية

- أ) سند الدلائيين في الشاذلية
- ب) اذكار الزاوية الدلائية
- ج) مريدو الزاوية الدلائية

3 - علاقة الزاوية الدلائية بغيرها من الزوايا

- أ) الزاوية الناصرية
- ب) الزاوية الفاسية
- ج) الزاوية العياشية

1 - الزاوية الدلائية كمركز ديني

رأينا في الباب السابق أن تأسس الزاوية الدلائية القديمة كان لنشر الطريقة الشاذلية وإطعام الفقراء وأبناء السبيل. وقد انقطع الشيخ أبو بكر الدلائي أزيد من ثلث قرن في زاويته لإرشاد المريدين الوافدين عليه من كل حذب، وإلقاء دروس وعظية كان يبكي خلالها حتى تبطل لحيته البيضاء، فيتأثر الحاضرون أيما تأثر وتمتلئ قلوبهم خشوعاً وإجابة الى الله. ثم خلف أبا بكر بعد وفاته أبناءؤه الصالحاء، فساروا على نهج والدهم في الوعظ والارشاد، وإطعام الواردين على زوايتهم، والحذب على رجال العلم والدين، حتى بلغت الزاوية الدلائية في عهدهم شأواً بعيداً في الشهرة والمجد لم تبلغه زاوية من قبل أو من بعد. وسلم في هذا الباب بترجمة الشيخ أبي بكر، وعادات الدلائيين في إطعام الطعام والاحتفال بالمولد النبوي، قبل أن نشير إشارة خاطفة إلى طريقتهم الصوفية، وعلاقة زوايتهم ببعض الزوايا التي عاصرتها.

أ) الشيخ أبو بكر مؤسس الزاوية الدلائية

ولد ابو بكر بن محمد المعروف بِحَمِي بن سعيد بن أحمد بن عمر الصنهاجي المجاطي بالدلا عام 36/943-1537 — تقريبا — وكان هذا العام يسمى (عام بوعقبة) لمقابلة أحمد الوطاسي وجيشه من أهل فاس مع ابي العباس الاعرج السعدي ومقاتلة أهل مراكش على مشرع بوعقبة من وادي العبيد بتادلا، فكانت الوقعة الحاسمة التي قضت على الوطاسيين وتسلم على إثرها السعديون عرش المغرب. وهكذا يكون شيخ الدلاء قد عرف النور هو والدولة السعدية في عام واحد. ويروي بعض المؤرخين أن شيخ تادلا الصالح أبا الحسن علي بن ابراهيم البوزيدي⁽¹⁾ كان من الحاضرين في وليمة العقيقة التي أقامها محمد بن سعيد المجاطي

(1) الشيخ أبو الحسن البوزيدي دفن أقرض المشهور ببسيط تادلا، توفي عام 1549/956.

لمولوده، وأشار عليه بهذا الاسم. ونشأ أبو بكر نشأةً صالحةً فحفظ القرآن الكريم في كتاب قريته وارتحل إلى مدشر أبي عباد⁽²⁾ لتعلم المتون العلمية، ثم انتقل إلى طلب العلم إلى مكناس وفاس «حتى بلغ في أقصر مدة أقصى الأمانة، ففضلع في قواعد الشريعة وتبحر في موارد الحقيقة»⁽³⁾

على أن أبا بكر منذ صباه لم يكن شغوفاً بالعلوم الظاهرة شغفه بصفا: الباطن وسمو الروح، فأقبل على عبادة الله والتعرف على الصالحين من أوليائه. وكلا اتصاله بالشيخ أبي عمّر القسطلي نقطة تحول في حياته، انصرف بعدها نهائياً عن الاشتغال بالهروء الطائفة التي خلفها له والده منقطعاً إلى الدعوة إلى الله وإرشاد العباد وهدايتهم. ويذكر المؤرخون قصة طريفة لهذا الاتصال، وهي أن أبا بكر الدلائي سافر إلى مراکش حاضرة السلطان عبد الله الغالب السعدي (965 1557/981 1574) لتجديد الظواهر القديمة المتضمنة لاحترام الدلائل وتعظيمهم. فلما وصل إلى القصبة التي هي مقر سكنى الملك وحاشيته، جعل يتردد هل يتوجه إلى البلاط أولاً لقضاء ما جاء من أجله، أم يبدأ بزيارة الشيخ أبي عمّر القسطلي الذي سمع عنه كثيراً ورغب في التعرف عليه. وبينما هو محتار في أمر إذ خرج من باب القصبة عبد أسود من عبيد السلطان ولم يكذب يراه حتى تقده نحوه غاضباً يريد أن يضربه بعصاه وهو يقول «أهذا موضعك؟! أهذا موضعك؟!» ففر أبو بكر إلى الشيخ أبي عمّر ونال من عنايته واهتمامه ما لم يكن له بالحسبان وأخذ عنه عهد الشاذلية، وبقي يختلف إلى زيارته طيلة حياته مع وفد المريدين من قبائل زعير وتادلا. وقد رأينا في الباب السابق أن الشيخ أبا عمر القسطلي هو الذي أمر أبا بكر باتخاذ زاوية له في الدلاء يرشد فيها المريدين ويطعم الفقراء والمساكين والطلبة والزرائين. «فكان يطعم الطعام الذي لم يعهد في بلاده وينزل الناس منازلهم، ويعطي لكل قوم ما يناسبهم، كما كان شيخه (أبو عمر القسطلي) يفعل. فإذا لامه أحد في التفرقة بين الناس قال له من جعل الناس

(2) مدشر، يعني قرية صغيرة. ويقع مدشر أبي عباد في منتصف الطريق بين الدلا وأبي الجعد.

(3) سليمان الخوات، الدور الضاوية ورقة 9/9

سواء، فليس لحقه دواء، وما قصده أحد الا أفاض عليه من سيبه، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر

فلو رأى مَنْ مضى بعض مكارمه لم يذكروا في الندى مَعْنًا ولا هَرِمًا(4)

وبعد أن أسس أبو بكر زاويته في الدلاء اجتهد في تكثير العمارة من حولها فبنى الدور والدكاكين وسائر المرافق الضرورية وحبس الرباع على الطلبة والمساكين حتى صارت من أحسن المدن وأكثرها سكانا وأشهرها ذكرا، يقصدها الناس من مختلف الجهات ويلتقي فيها العلماء والطلاب الوافدون فينالون من التعظيم والإكرام ما يجعلهم يرغبون في المقام بها أطول ما يمكنهم من الزمن، وتعد المجالس العلمية في مسجد الدلاء الرحب، وتقوم سوق العلم فيه على قدم وساق. ولما قامت الفتنة بين أبناء المنصور الذهبي، واسود أفق المغرب وانقطعت فيه السبل وتغلب الاقوياء على الضعفاء، وكثر السلب والنهب، لانعدام السلطة التي تسهر على حفظ النظام، كان الشيخ أبو بكر بما له من المنزلة الرفيعة عند القبائل البربرية يكف أيدي الجناة عن الجرائم، وينصف المظلوم من الظالم، ويدفع بالتي هي أحسن. وقد اتفق جميع من ترجم لشيخ الدلاء على أنه كان نقي الظاهر والباطن نظيف الملابس، شديد يياض الثياب، جميل الهدي كثير السلام، خافض الطرف قليل الكلام. حسن العشرة شديد المحافظة على العهد، كريم الاخلاق داعيا الى المحبة والتسامح والتصافي، يعقد في زاويته مجالس للوعظ والارشاد يفتتحها دائما بقوله «روى الحسن عن أبيه الحسن، عن جده الحسن، أن أحسن الحسن الخلق الحسن»(5).

(4) محمد الافرائي، صفوة من افشر، ص 46. والشطر الاول من البيت غير موزون ويستقيم لو كتبنا مثلاً «يوماً» بدلا من «بعض». ويشير البيت الى معنى من بن زقدة وهم بن سنان الحواريين للشهريين.

(5) أحمد بن يعقوب الولاي، مباحث الانوار، ورقة 1/58. ويعني بالحسن المذكور أولا الحسن للشي، وبالحسن المذكور ثانياً أباه الحسن بن علي بن أبي طالب، ونجده الحسن الرسول الكريم؟ ويراد به الوصف بالحسن فقط، إذ ليس الحسن من أحمائه عليه السلام. ولم يعتمد أحد من اخفاظ سند هذا الحديث ولا منته ولعل اختيار الشيخ ابي بكر له كان بسبب التناسق وحسن السجع زيادة على ما يدعو اليه من حسن الخلق.

وكانت وفاة أبي بكر الدلائي يوم السبت 3 شعبان عام 1021/29 شتبر
1612 ودفن في مسجده في الدلاء(6).

ب) إطعام الطعام في الزاوية الدلائية

كان محمد بن سعيد الدلائي موسر الحال، كثير الحرث والماشية، كما كان
ابنه أبو بكر العالم الصالح محباً الى الناس، يقبلون عليه ويلتفون حوله، وكان يجد في
سعة حال والده ووفرة أغنامه ما يقري به ضيوفه الكثيرين ويطعم به زواره الوافدين،
حتى ضجر الوالد من كثرة ما يذبح ابنه من الماشية وما يستهلكه من مطامير
الحبوب، فلامه على الإفراط في الإنفاق ونصحه بالاعتدال، غير أن أبا بكر لم يغير
من خطته واستطاع أن يقنع والده بأن عمله ليس من الاسراف في شيء(7) وما زال
كرمه ينمو ويطرد إلى أن آل إليه تراث والده بعد وفاته. وأمره شيخه القسطلي
بالإطعام. فجعل يصرف ثروته الواسعة في إكرام الوافدين على زلويته، تمده حقوله
الشاسعة في الدلاء وفي بلاد غريس بتافيلات بما يكفيه من الحبوب طول السنة،
وتعطيه قطعان الأغنام والأبقار من إنتاجها ما يستجيب لحاجيات مآذيه اليومية.
« كان كثير الإطعام بالأنواع المختلفة من الطعام، أمراً خارجاً عن الوصف، مباينا
للعادة والإلف، فكانت مراجله دائماً تغلي، وطباخه لم يزل يفرغ ويملي

في جفان كالجوابي وقدور راسيات
هكذا يفعل دأباً بالوفود الزائرات

بل كان يطحن كل يوم خمسا وعشرين صحيفة من القمح وعشرين
تليسا(8) ثم كان يطعم كل انسان تارة بما اشتهاه في نفسه، وتارة بما يناسبه مع أبناء
جنسه، فليس الحضري عنده كالبدوي، ولا الضعيف كالقوي...»(9).

(6) انظر ترجمة الشيخ أبي بكر الدلائي عند محمد الافزاني في الصفوة، ص 46-47 وفي نزهة الحادي، ص 274 وما
بعدها. ومحمد للهندي القاسي في مجمع الاسماع طبعة عام 1313 من ص 144 الى ص 147. ومحمد القادري في

نشر للثاني طبعة الرباط - الدار البيضاء 1977-1986 (1) 163-173.

(7) هناك اسطورة تقول بأن أبا بكر اتفق مع والده على أن ما تلبه الأغنام من الذكور يذبح للاضياف، ويترك ما لده،
من الاناث فصارت الغنم بعد ذلك لا تلد الا الذكور، أدرك أبوه عندئذ أن في الأمر سرا وسلم له الأمر.

(8) الصحيفة مكيال يقدر بثلاثة قناطير، والتليس كيس مزدوج يصنع من صوف أو شعر أو وبر لتنقل فيه الحبوب
على ظهور الدواب.

(9) سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 15/ب

وقد سار محمد بن أبي بكر الدلائي على نهج والده في الإطعام وتوسع عمله فيه، فكانت له قِيَمَات من النساء على الطعام يدفع لهن من الدقيق ومما يلزم للطبخ بقدر ما تحت أيديهن من إماء الخدمة، ويوظف عليهن من الصحنون ما يناسب ذلك. فإذا حضر وقت الإطعام دفعت كل منهن ما عندها، وكوفئت عليه إن كان جيداً، وإلا عوقبت على فساد عملها. ويروي مترجمو محمد بن أبي بكر الدلائي عن كرمه المدهش قصصاً غريبة، ويذكرون أرقاماً عالية لمن كان يجلس إلى مائدته بمناسبة أو بغيرها. فمن ذلك أنه كان يطعم في سنة من سني الغلاء سبعة آلاف من الفقراء كل يوم، وزيادة على الواردين عليه والمقيمين عنده من طلبة العلم وغيرهم. وأطعم في يوم واحد احتفل فيه بسابع المولد النبوي الشريف سبعين ألفاً من سكان الزاوية وغيرهم من الوافدين عليها لحضور ذلك الموسم دون أن يقوم من موضعه طيلة اليوم إلا للصلوات (10)

واستمر الحال كذلك بالزاوية الدلائية بعد وفاة محمد بن أبي بكر، إذ كان لولده السلطان محمد الحاج المآثر العظيمة في إكرام الوفود، وقد خصص خمسمائة بغلة لحمل الدقيق من الأرحى إلى الزاوية، واتخذ قصعاً عظيمة يطعم فيها الناس.

ج) احتفال الدلائين بعيد المولد النبوي الشريف.

أدركت الزاوية الدلائية شهرة عظيمة أيام الشيخ محمد بن أبي بكر، فكان عيد المولد الشريف مناسبة يقصدها الناس فيه سواء منهم العلماء والادباء، والاعنياء والفقراء، والسوقة والرؤساء، فينزلون على الرحب والسعة وينالهم من حفاوة ابن أبي بكر وإكرامه ما تقر به أعينهم وترتاح له أفئدتهم. ويقضون في تلك البقعة الطيبة أياماً يظل المنشدون فيها يرددون القصائد والمقطعات والموشحات في مدح الرسول الكريم، خصوصاً برودة الامام البوصيري وهزيمته ويقوم الشعراء بإلقاء قصائد ينظمونها خصيصاً لهذه المناسبة لا سيما منهم شاعر الزاوية أحمد الدغوغي (11) الذي كان يذيل مولدياته بمدح الشيخ محمد بن أبي بكر والدعاء له

(10) انظر تفاصيل ما كان يقدمه محمد بن أبي بكر الدلائي لضيوفه من أطعمة كثيرة، والأواني العظيمة التي يبا فيها الطعام، عند سليمان الخوات، البذور الضاوية، ورقة 1/48 وما بعدها.

(11) أحمد الدغوغي من موالى أهل الدلاء، نشأ فيهم وبرع في الأدب وكان مداحاً هجاء لا يكاد يسلم من هجوه أحد، ترجم له الأفراني في نهضة الحادي ص 253 ولم يذكر له تاريخ وفاة.

فیرتاح لذلك الشيخ وتطیب نفسه⁽¹²⁾. وقد شجع الشعراء على نظم القصائد والتفنن في صوغها ورفعها الى محمد بن أبي بكر بهذه المناسبة، ما كانوا يلقونه منه من جزیل الصلوات، وكرم المكافآت. وكان لا یثیب منهم إلا من مدح الرسول علیه السلام وأشاد بمفاخر الاسلام. فقد رُوي أن الادیب عمرو بن قاسم الاندلسي الرباطي⁽¹³⁾ جاء إليه في أحد هذه الاعیاد بقصیدتين إحداهما في مدح النبي الكريم، والاخرى في مدح الشيخ محمد بن أبي بكر، فلما انقضى الموسم وحضر هذا الادیب لوداعه أعطاه الشيخ صرة فيها مائة دينار بيده اليمنى، وفلسا بيده اليسرى قائلاً هذه الدنانیر جائزتك على مدح النبي ﷺ وهذا الفلس جزاؤك على مدح محمد بن أبي بكر إذ لا يستحق أن يمدح.

2 - طريقة الزاوية الدلالية

أ) سند الدلائل في الشاذلية

تعتبر الطريقة الشاذلية المتصلة بالإمام أبي القاسم الجنيد⁽¹⁴⁾ من أسلم الطرق الصوفية وأقرها إلى السنة، وأكدها انتشاراً بالمغرب، حتى إنها لتعتبر الطريقة الرسمية في هذه البلاد، الى جانب المذهب المالكي في الفقه، والعقائد الاشعرية في التوحيد⁽¹⁵⁾. وقد أخذ الشيخ أبو بكر الدلائي طريقة التصوف كما تقدم عن الشيخ أبي عمّر القسطلّي المراكشي الذي أخذ عن الشيخ عبد الكريم الحاحي المعروف

(12) انظر احدى الولديات التي كانت تلقى في الزاوية الدلالية في ملحق رقم 3.

(13) عمرو بن قاسم هذا هو جد الادیب المشهور محمد بن عمرو الرباطي الذي عارض لمحقة ابن الوان. وقد ظل عمرو بن قاسم يتصل بالدلائل ويمدحهم مدة طويلة وقد مدح السلطان محمد الحاج الدلائي بقصيدة بليغة شمل على 32 بيتاً مطلعها

يا جهذا برع البرايا وانتهى
شمساً الى حيث السهى والمشرى

أنظرها في كشافة ابن علي الدكالي السلاوي، ص 270 وما بعدها.

(14) أبو القاسم الجنيد المتوفى عام 277 هـ يتصل سنده بالحسن البصري التابعي الذي أخذ عن جماعة من الصحابة، منهم حذيفة بن إيمان الذي خصه الرسول الكريم بعلم الخواطر وخبايا النفوس.

(15) يقول عبد الواحد بن عاشر في مقدمة رجزه للرشد للعين الذي يدرس في جميع المعاهد الدينية بالمغرب :

في عقد الاشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

وآخر باب في للرشد للعين يتعلق (بمبادئ التصوف وهوادي التعرف).

بالفلاح⁽¹⁶⁾ تلميذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الحق التباع المراكشي⁽¹⁷⁾ أشهر
الآخذين عن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي⁽¹⁸⁾.

ويتصل سند محمد بن أبي بكر الدلائي بالشيخ الجزولي من ثلاث
طرق، تتجمع كلها عند الشيخ عبد العزيز التباع. فقد أخذ محمد بن أبي بكر
الطريقة الصوفية عن شيخه أبي عبيد محمد الشرقي⁽¹⁹⁾ عن أبيه أبي القاسم الزعري
عن عبد العزيز التباع، كما أخذ عن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي⁽²⁰⁾ عن عبد
الرحمن الخذوب المكناسي⁽²¹⁾ عن أبي حفص الخطاط⁽²²⁾ عن عبد العزيز التباع.
وأخذ محمد بن أبي بكر الدلائي أيضاً عن عبد الله بن حسون السلاوي⁽²³⁾ عن
أبي محمد الهبطي⁽²⁴⁾ عن عبد الله الغزواني⁽²⁵⁾ عن عبد العزيز التباع، عن الشيخ
الجزولي.

- (16) وفي عد الكرم الفلاح عام 933هـ ودفن بقبة القاضي عياض بمراكش. كان للملكان السعديان محمد وأحمد
الشيخ يزورانه في زيارته. توجد ترجمته في **دوحة الناشر**، ص 24 وفي **مجمع الاسماع** ص 8 من الكراسة 5.
- (17) وفي عبد العزيز التباع بمراكش عام 914 وألف فيه وفي شيخه الجزولي أبو عبد الله محمد لهدي الفاسي كتاب
مجمع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع.
- (18) الشيخ الجزولي هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان، عرف بنسبته إلى جده فقيلاً محمد بن سليمان،
شيخ الطائفة الجزولية ومؤلف كتاب **دلائل الخيرات**. كان يرباط أسفي أولاً، ثم انتقل إلى أفوغال حيث مات
مسموماً عام 870/65-1466 وقد نقله السعديون بعد ذلك إلى ضريحه الحالي بمراكش، وترجمته مفصلة في
كتاب **مجمع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع**، وفي **L'Encyclopédie de l'Islam**. مادة: الجزولي.
- (19) أبو عبيد محمد الشرقي يتصل نسبه بعمر بن الخطاط، توفي عن سن عالية عام 1010/1-1602 ودفن بجعيدان
(أبو الحمد الحالي).
- (20) انتقل الشيخ أبو المحاسن من القصر الكبير إلى فاس في أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)
حيث اتخذ زاوية عظيمة، تخرج على يده فيها كثير من أهل الفضل والصلاح. وهو أحد إثناهدين الذين شاركوا في
معركة وادي الخازن الشهيرة. توفي بفاس عام 1013/4-1605 وخصه ولده أبو حامد محمد العربي بكتب
مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن.
- (21) عبد الرحمن بن عياد الصنهاجي الشهير بالخذوب، توفي في بلاده دكالة عام 976/68-1569 وحمل إلى مكناسة
الزيتون ودفن بها.
- (22) عمر الخطاط دفن زرهون، متصوف كبير ترجم له في جملة رجال القرن العاشر الهجري محمد بن عسكر في
دوحة الناشر ص 64 ولم يذكر له تاريخ وفاة.
- (23) عبد الله بن حسون الخالدي، انتقل من مدشر سلاسل بأحواز فاس إلى مدينة سلا وأخذ عنه فيها كثير من أهل
الفضل والدين. وهو الذي حمل تلميذه أبا عبد الله العياشي على الجهاد ضد النصارى المحتلين للجزيرة المغربية. وفي
عام 1013/4-1605.
- (24) عبد الله الهبطي، أصله من صنهاجة طنجة من قبيلة مشنة توفي عام 963/55-1556 وقبره مشهور بزويته
بأحواز شفشاون.
- (25) كان عبد الله الغزواني طالباً للعلم بفاس، سلك طريق القوم وصحب الشيخ التباع، وأقام مدة بقبيلته باغسط —
ضاحية طنجة — ثم فاس، وأخيراً انتقل إلى مراكش حيث توفي عام 935/28-1529 ودفن بحي القصور.

أما الشيخ الجزولي فيتصل سنده بالامام ابي الحسن الشاذلي(26) عن طريق محمد بن عبد الله أمغار(27) عن ابي عثمان سعيد الهرتاني، عن عبد الرحمن الرجراجي، عن أبي الفضل الهندي، عن عنوس البدوي راعي الإبل، عن الامام أحمد القراقي، عن أبي عبد الله المغربي(28) وأبي العباس المرسي(29) وكلاهما عن أبي الحسن الشاذلي(30).

ويتصل سند الدلائين بالامام الشاذلي أيضا من طريق الشيخ أحمد زروق. فقد أخذ محمد بن أبي بكر الدلائي عن أبي المحاسن الفاسي عن عبد الرحمن المجذوب كما سبق. ومن شيوخ عبد الرحمن المجذوب علاوة على عمر الخطاب أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي الملقب بالدوار. كان بهلولا مجذوبا توفي عام 34/ 941 — 1535 — ودفن خارج باب الفتوح في فاس. وتلمذ أبو الحسن الصنهاجي للشيخ ابراهيم بن علي الحجام من برابرة سوس الأقصى صاحب المزاراة

26 أبو الحسن الشاذلي يتصل نسبه بالمولى ادريس بن عبد الله دفين زهون. ولد بقبيلة غمارية قرب سبة عام 96/593—1197 وتلمذ للشيخ عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم بالقرب من تطوان. وقد أخذ عن الشاذلي خلق كثير بالغرب وللشرق، وكانت طريفته في التصوف بسيطة تشتمل على أذكار جمعها في أحزاب، منها حزب البر، وحزب البحر، والحزب الكبير... وتوفي الشاذلي بصعيد مصر في سفره الى الحج عام 58/656—1259، ومصادر ترجمة الشاذلي كثيرة مغربية ومشرقية منها *مرآة المحاسن وتمع الاصماع في فصول متفرقة و L'Encyclopédie de l'Islam*

27 محمد بن عبد الله أمغار الصغير كان يعيش في رباط تيطنططر جنوبي مدينة الجديدة، لقيه الجزولي بأرض ذكالة وأخذ عنه. كانت وفاته فيما بين عام 840—850.

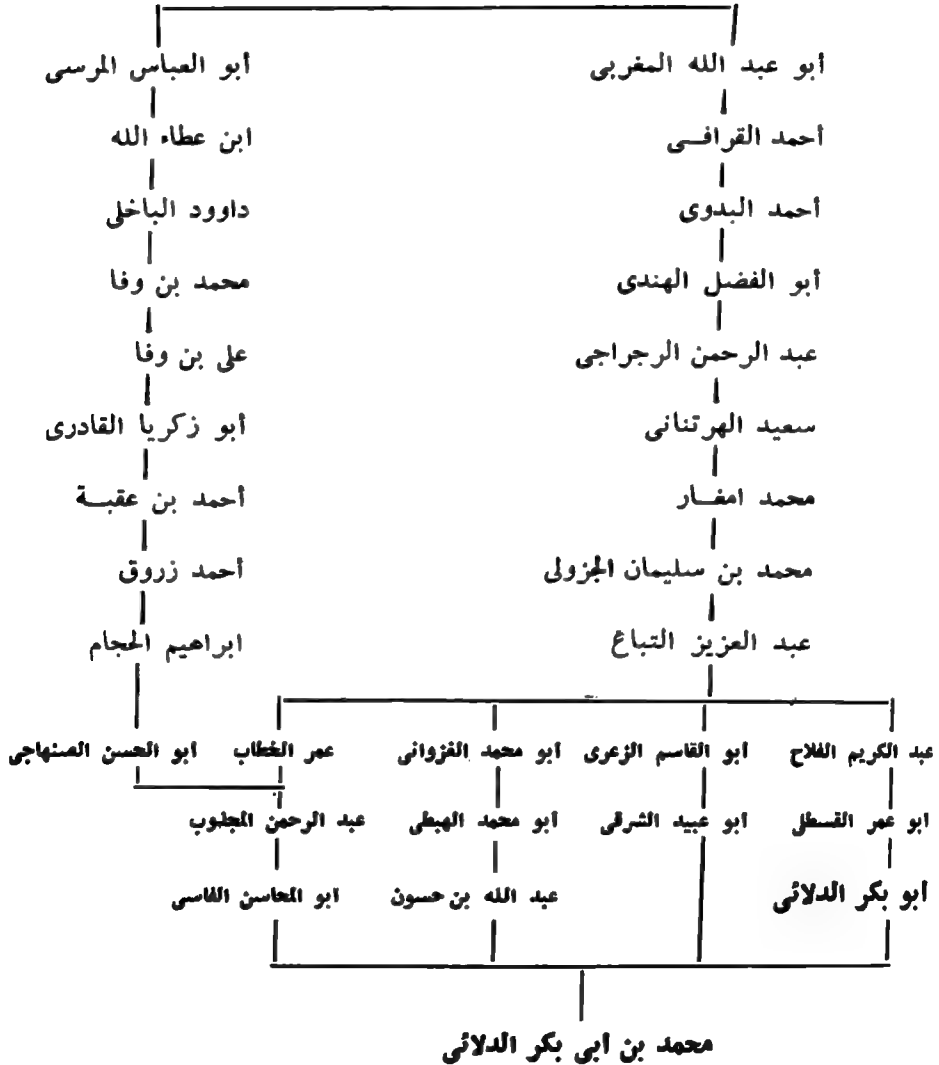
28 نقل أبو حامد الفاسي في كتابه *مرآة المحاسن* ص 194 عن شيخه أحمد بن يوسف الفاسي سند الجزولي الى الشاذلي كما ذكرت هنا. وقال «ولست أعرف من هؤلاء الشيوخ أحدا سوى الشيخ أبي عبد الله أمغار، وأما الامام القراقي فلا أعلم هل هو العالم للتبخر صاحب الذخيرة، والتاريخ يقبله إن كان هو المراد. وأما أبو عبد الله المغربي فلم نجد له ذكرا في لطائف اللعن.. ولا شك أنهم لم يستوفوا أصحاب الشيخ ابي الحسن، وقد تخرج به في المغرب رجال من الصديقين والأولياء، ثم رحل الى مصر واخذ عنه عالم من الناس» — والامام القراقي إن كان هو الفقيه المالكي صاحب أنوار البروق في أنواره القروق، والذخيرة فإنه توفي بمصر عام 684 هـ (1285) أنظر ترجمته في الاعلام للشيخ خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية (بدون ذكر تاريخ ولا مكان الطبع) ج 1 ص 90.

29 أبو العباس أحمد بن عمر الجزرجي، ولد ونشأ في مرسية بالاندلس واليه نسب. وهو أشهر مؤيدي الشاذلي صحبه في رحلته الى المشرق وأقام معه بالاسكندرية الى أن توفي بها عام 86/ 685 — 1287.

30 أنظر جدول اتصال الشاذلي بالجند من طرق متعددة في باب مصادر تصوف الشاذلي من كتاب علي سالم عمار، *أبو الحسن الشاذلي*.

أبو الحسن الشاذلي

رحمه الله



اتصال الدلايين بالامام الشاذلي عن طريق الجزولي وزروق

المشهوره في جبل زرهون وقد اتصل ابراهيم الحجام بالشيخ أحمد زروق وسلك على يده طريق القوم وكانت وفاته عام 926 / 1520. أما الشيخ زروق فهو أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، كان من أكابر الفقهاء والمتصوفين جمع بين الحقيقة والشريعة وعرف بمحتسب الصوفية، وألف كتباً عديدة أكثرها شروح لأحزاب الامام الشاذلي ولرسالة ابن أبي زيد القيرواني، وتوفي بمسراته ذات الرمال من أطراف برقة عام 899 / 1493. أخذ الشيخ زروق عن أبي العباس أحمد بن عبد القادر ابن عقبة اليمنى الحضرمي ثم المصري المتوفى عام 895 / 1490 صحبه نحو خمسة عشر شهراً وأدرك على يده درجة عالية. وتلمذ ابن عقبة لابي زكريا يحيى بن أحمد القادري الذي أخذ عن الشيخ علي بن وفا المتوفى عام 807 / 1404 دفين القرافة الصغرى بمصر، عن والده محمد بن وفا المتوفى عام 765 / 1364 عن شرف الدين داوود الباخلي، عن تاج الدين بن عطاء الله المتوفى عام 709 / 1309 صاحب الحكم المشهورة وأخص تلاميذ الشيخ أبي العباس المرسي مرید الامام أبي الحسن الشاذلي.

ب) أذكار الزاوية الدلائية

رأينا أن طريقة الدلائيين جزولية زروقية شاذلية، وهي تمتاز على العموم بالخبية الصادقة في النبي الكريم، والاكثار من الصلاة عليه والتسليم. وقد اشتهر أجداد الدلائيين بتعلقهم بالرسول عليه السلام، خصوصاً منهم سعيد بن أحمد الدلائي الذي كان «مواظباً على قراءة دلائل الخيرات لا يفارقه في أكثر الاوقات، وكان يأمر أولاده بها (الصلاة على النبي عليه السلام) ويرغبهم فيها ويحضهم عليها حتى إنه كان يسافر لنواحي البلاد فيأتي بالطرف والفواكه ويقول لهم مرغباً ومدرباً من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم كذا وكذا فله كيت وكيت من تلك الأشياء المشتريات...» (31)

(31) نقله عن تزهة الفكر سليمان الخوات في الدور الضاوية ورقة 6 / ب.

ولما تصدر أبو بكر الدلائي للمشيخة في زلويته، لم يلتزم تلقين أذكار مخصوصة لمن يريد الأخذ عنه، كما كان الشأن عند معاصريه من شيوخ الصوفية ومن سبقهم ممن سلك هذا الطريق، وإنما كان يأمر مريديه بالتوبة بشروطها المعروفة، من الإقلاع عن الذنوب، والعزم على عدم ارتكابها مرة أخرى، وتلافي ما يمكن تلافيه من الحقوق المترتبة من قبل، والاكتثار من الاستغفار. ومع ذلك فقد «كانت له وظيفة لنفسه ولمريديه وهي أستغفر الله وسبحان الله والحمد لله، ولا اله الا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. وكل واحدة من هذه الكلمات يقولها مرة ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونيبك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، مائتي مرة. لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا اله الا الله الملك الحق المبين، سيدنا محمد رسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم. وكان يسمى ذلك بالوظيفة لأن طريقته إنما هي شاذلية ولا تلقين في الطريقة الشاذلية كما قال القسطلاني» (32).

وكانت أوراد الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي من الأذكار التي كان يوظفها على المريدين في الليل والنهار: «أستغفر الله العظيم (مائة مرة) اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي الى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم (مائة مرة) لا اله الا الله (مائة مرة) صباحا ومساء. ومن الأدعية التي كان يرددها الشيخ محمد بن أبي بكر كثيرا في الزاوية الدلائية اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. اللهم اخم بالسعادة آجالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل الى جنتك مصيرنا ومآلنا، وتقبل بفضلك أعمالنا، واجبر برحمتك أحوالنا، واجعل في طاعتك أشغالنا، الاهنا، قطرة من بحار جودك تكفيننا، وغرفة من بحار احسانك تغيننا، فها نحن أسارى الذنوب بين يديك واقفون، وعلى ما عودتنا من فضلك واحسانك معولون، اللهم احفظنا في ظاهرها وباطننا، وعرضنا لنفحاتك القدسية،

ولا تكلنا للاصدقاء، ولا تسلمنا للاعداء، ولكن لنا بما كنت به لاجرائك واصفيائك(33).

وكان الشيخ أبو بكر الدلائي يأمر مريديه أن يصلوا على النبي عليه السلام بهذه الصيغة «اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونييك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما». ثم لما حج محمد بن أبي بكر الدلائي واتصل في مصر بالشيخ محمد البكري وأخذ عنه طريقته الصوفية كان من جملة ما رواه محمد عن هذا الشيخ (صلاة الفاتح لما أغلق) فجعل محمد بن أبي بكر يلقيها لمريديه في الزاوية الدلائية بدلا من الصيغة الأولى التي كان عليها أبوه. والمعروف أن صلاة الفاتح لما أغلق هي الصيغة التي يلتزمها التيجانيون في وردهم حتى اليوم، بل إننا نجد الورد الذي كان يلقيه محمد بن أبي بكر الدلائي يتفق تماما والورد الذي لقنه الشيخ أحمد التيجاني لأصحابه. فكل الوردين يشتمل على مائة من الاستغفار، ومائة من صلاة الفاتح لما أغلق، ومائة من الهيلة. وقد قال أحمد بن بابا العلوي الشنيطي في منية المريد عن الورد التيجاني

أركانه أستغفر الله مائة وصل مثلها على خير الفئة
وكون ذي الصلاة بالفريدة (34) مُفضَّلُ برتب عديدة
وهلكن مائة ولتختم بنسبة الارسال للمعظم (35)
ولا شك أن كلا من الدلائين والتيجانيين استعملوا من البكرين شيوخ
الطريقة الشاذلية بمصر.

وقد كتب الامام الشرقي بن أبي بكر الدلائي الى شيخ الطريقة الناصرية محمد بن ناصر الدرعي يسأله أن يرشده الى أذكار يتلوها في الليل والنهار فأجابه ابن ناصر برسالة جاء فيها

(33) محمد بن علي التكلي السلاوي، الكاشفة العلمية، ص 73.

(34) لراد بالفريدة صلاة الفاتح لما أغلق، إذ كان الشيخ أحمد التيجاني يسميها (الباقوة الفريدة).

(35) انظر في هذا الموضوع محمد العربي ابن السائح بغية المستفيد لشرح منية المريد، ص 250 وما بعدها.

«.. فإذا أصبحت وإذا أمسيت فاتل هذه الأدعية سبعا سبعا اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة تدرأ بها عنا كل شر باطن وظاهر، انك انت الله القوي القاهر. اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله صلاة تجلب بها الي كل خير باطن وظاهر، انك أنت الله القوي القادر، سبحانه ربي الاعلى الوهاب، اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية، في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي وأمن روعتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ومن شمالي ويميني ومن فوقي ومن تحتي أعوذ بك أن أغتال. اللهم يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين حسبي الله لا إله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم...» (36).

ج مريدو الزاوية الدلائية

طالت حياة أبي بكر الدلائي، وظل منتصباً للمشيخة أزيد من ثلث قرن، وكان ذا سند عال في الطريقة ليس بينه وبين الامام الجزولي الا ثلاثة شيوخ، كما كان سمح الحق، كريم المائدة، فقصده الناس من كل حذب وصوب، وامتألت زاويته بوفود المريدين الراغبين في الأخذ عنه وعن ابنه محمد، والانتساب اليهما. وإذا كنا لا نستطيع تحديد عدد مريدي هذه الزاوية العظيمة. فإنه يمكننا أن نذكر بعض النابهين منهم ممن تأهل للمشيخة وانتفع به الناس، وأكثرهم من برابرة الاطلس المتوسط.

من أشهر مريدي الزاوية الدلائية محمد بن أبي بكر العياشي المتوفى عام 1067/ 1657 وهو والد الرحالة أبي سالم العياشي. أخذ محمد العياشي عن الشيخين الدلائين أبي بكر وابنه محمد، وطالت صحبتة لهما وانتفاعه بهما حتى تمياً للمشيخة وأذن له أبو بكر الدلائي في ارشاد قومه وتعليمهم واطعام المحتاجين منهم. فأسس الزاوية العياشية أو الحمزوية كما تسمى اليوم في السفح الجنوبي لجبل

(36) محمد بن علي الدكالي السلاوي، الكاشفة العلمية. ص 93

العياشي بالأطلس الكبير (37). وأخذ عن الشيخ أبي بكر الدلائي أيضا أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسن الدادسي المتوفى عام 1062 / 52 — 1653 بواويزغت من جبال تادلا. كان قوي الحال كثير التواجد لا يتمالك عند تلاوة القرآن. ولما تصدر لتربية المريدين كان أكثر ما يحضهم على المحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها، وحفظ ألسنتهم من الغيبة والهدر. (38)

كما تتلمذ للشيخ أبي بكر الدلائي محمد بن يعقوب الولائي المتوفى عام 1060 / 1650 وهو جد أحمد بن يعقوب مؤلف كتاب مباحث الأنوار. وكان رجلا بربريا لا يخلو لسانه من ضعف في بعض مخارج الحروف، ومع ذلك فإن شيخه أبا بكر الدلائي كان يعجبه أن يستمع إليه وهو يتلو القرآن، لما كان عليه من قوة اليقين والوقوف عند حدود الله. وكان ابن يعقوب يكبر من زيارة أبي بكر بالرغم من بعد المسافة بين بلديهما (مسيرة ثلاثة أيام) ولم يتخذ محمد بن يعقوب لنفسه زاوية خاصة مكثفيا بزواية شيخه الدلائي، وبارشاد قومه وحملهم على الحادة أينما تيسر له ذلك. وتتلمذ للشيخ أبي بكر أيضا أبو علي الحسن علي التاسكڭلتي (39) المتوفى عام 1005 / 96 — 1597. ما كاد أبو علي يرجع إلى قريته الجبلية بعد أخذه عن أبي بكر الدلائي وتزوده بنصائحه حتى جد في تبديل عوائدها الرديئة المتمكنة من عامة أهل البلد، وحب إليهم العلم بعد أن كانوا لا يكثرثون به مكثفين بمجرد حفظ القرآن الكريم وتلاوته. وكان قوي البنية مفتول العضلات فانكب على العمل بجدي يباشر الأشغال بنفسه لا صلاح الطرقات وتمهيدها وحفر الأماكن الصعبة وتسهيلها، لأن بلده يقع في جبال وعرة مكسوة بالثلوج (40). كما

(37) انظر ترجمة محمد بن أبي بكر العياشي وأخباره مع الدلائل عند أبي سالم العياشي اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر الصفحات الأولى. وبعد الله العياشي، الأحياء والانتعاش، الفصل الأول من ورقة 16

(38) انظر ترجمة أبي عبد الله الدادسي عند محمد الأفرائي، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ص 83 وفي نشر الثاني، 2 60.

(39) ترجم أحمد بن يعقوب الولائي في مباحث الأنوار ورقة 41 وما بعدها لجنه محمد بن يعقوب وذكر كثيرا من أخباره، غير أنه لم يشر إلى تاريخ وفاته.

40 انظر ترجمة أبي علي التاسكڭلتي عند سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 23.

وناسكڭلت قرية جبال الأطلس المتوسط جنوبي ميدلت، تابعة لإداريا لمركز تونفيت.

تتلمذ لأبي بكر الدلائي من شيوخ القرى الجبلية أبو الحسن علي بن إبراهيم دفين تدغة، وأبو الحسن علي بن يوسف دفين أركو، وسليمان الغياثي صاحب الكاف (41). وقد زار الحافظ أحمد بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي المتوفى عام 1021/ 12 — 1613 الشيخ أبا بكر في زاويته بالدلاء في شهر محرم عام 1012/ 1603 وأخذ عنه ونال من اكرامه وتعظيمه ما يناسب مقامه العلمي الرفيع؛ ولما رجع الى فاس سأله الناس عن شيخ الدلاء فقال «أخذ الناس بالأوصاف، وأخذ أبو بكر بالانصاف» (42). ألف الحافظ أحمد الفاسي في أسانيد شيخه أبي بكر الدلائي كتاباً خاصاً (43) وكان محمد بن أبي بكر الدلائي يشي كثيراً على الامام أحمد الفاسي ويصفه من بين حفاظ عصره الثلاثة بأنه (الحافظ الضابط الثقة).

3 — علاقة الزاوية الدلائية بغيرها من الزوايا

تكاثرت الزوايا في المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة (السادس عشر — السابع عشر للميلاد) حتى كاد عددها يفوق عدد المساجد، واختلط فيها أمر الصالحين بمذعي الصلاح من ذوي الأغراض الفاسدة والمشعوذين، وعسر بذلك تمييز الطيب من الخبيث. غير أن هناك بعض الزوايا التي أجمع الناس على صلاح أهلها لاستقامة سلوكهم، وظهور نتائج أعمالهم الدينية والعلمية. وأشهر هذه الزوايا في القرن الحادي عشر الهجري ثلاث الزاوية الدلائية والناصرية، والفاسية، ولم تكن هذه الزوايا بمعزل عن بعضها بالرغم من نباهن مواقعها، ولكنها كانت تتصل عن طريق التزاور والتراسل، والخذ والعطاء. فكان بينها من أجل ذلك تفاعل أثمر تقارباً في وسائل العمل وثماناً في النتائج. وما أشبهها في تلك الظروف الحالكة بمنارات شاحنة تشع بالايان والعرفان في وسط المغرب وشماله وجنوبه. «ومن المقرر عند الاشياخ أن العلم انما أحياء بالمغرب ثلاثة من الشيوخ، سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، وسيدي محمد بن ناصر في

(41) ذكر هؤلاء للمريدين الثلاثة الاخوين سليمان الخوات في البدور الضاوية، ورقة 23 /ب وقال إنه لم يقف على

نراهمهم. وتدغة (بضم التاء) قرية بجوار تينغير من عمالة ورزازات.

(42) أبو حامد الفاسي مرآة المحاسن. ص 153

(43) عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص 237

درعة، وسيدي عبد القادر الفاسي»⁽⁴⁴⁾. وإلى جانب هذه المراكز الدينية العظيمة كانت الزاوية العياشية — وهي ريبة الزاوية الدلائية — تقوم بدور مماثل في منحدرات الاطلس الكبير المطلّة على أراضي تافيلالت ووحدات الصحراء. على أنها وإن لم تبلغ ذلك الشأو البعيد فإنها قامت بنصيبها في الارشاد والتهديب، وظلت محتفظة حتى عصرنا الحاضر بذخائر نفيسة في مكتبتها العلمية العامة. وقبل أن أورد نتفاً من أخبار الزوايا الثلاث وتعاليمها وما كان لها من صلة مع الزاوية الدلائية أود أن أشير إشارة عابرة إلى بعض الظواهر المشتركة بينها. فقد أسست كلها في عصر ازدهار الحركة الصوفية بالمغرب وفي زمن متقارب (أواخر القرن العاشر الهجري) باستثناء الزاوية العياشية التي تأخر تأسيسها قليلاً إلى أوائل القرن الحادي عشر بدأت بسيطة في بيت أو مسجد صغير ثم اتسعت مبانيها إلى أن صار بعضها عبارة عن مدينة أو قرية كبيرة. وكان الغرض الرئيسي لمؤسسي هذه الزوايا — وفيها محضاً يرمي إلى هداية الناس وتهذيب أخلاقهم بنشر تعاليم الطريقة الشاذلية — ثم تطور نشاطها فأصبحت مراكز علمية هامة تشد إليها الرحال.

أ) الزاوية الناصرية

تقع الزاوية الناصرية بتامكروت على ضفاف وادي درعة وراء الاطلس الكبير، بعيدة عن مركز زاكورة بنحو 22 كلم في جنوبها الشرقي. أسسها ابو حفص عمر بن احمد الأنصاري⁽⁴⁵⁾ عام 75/983 — 1576. واستقر بها حفيده الصوفي الصالح أحمد بن إبراهيم الأنصاري⁽⁴⁶⁾ مع شيخه عبد الله ابن حسين الرقي⁽⁴⁷⁾ الذي كان يلقي فيها أوراد الشاذلية. وقد جاء أبو عبد الله محمد بن

(44) محمد بن أحمد الفاسي، للورد الحفي، ورقة 2/أب.

(45) ابو حفص الأنصاري أحد أعيان درعة وزهادها. ووالد الصالحة ميمونة الأنصارية أم الشيخ أحمد بن إبراهيم الأنصاري. وهو أول من نزل من أفراد قبيلته بتامكروت، وأسس زاويتها في التاريخ المذكور وكانت وفاة أبي حفص الأنصاري عام 1/1010 — 1602.

(46) أحمد بن إبراهيم الأنصاري، الدرعي العابد الزاهد، قتل عام 1642/1052.

(47) عبد الله بن حسين الرقي — نسبة إلى الرقة — بلد على شاطئ نهر الفرات بالعراق — كان يعرف بالقصاب. وهو من أكبر صلحاء درعة، أخذ عهد الشاذلية عن الشيخ أحمد بن علي الحاجي الدرعي المتوفى عام 89/998 — 1590. تلميذ الشيخ الشهير أبي القاسم الغازي الدرعي المتوفى بسجلماسة عام 73/981 — 1574، وكانت وفاة الشيخ عبد الله ابن حسين بتامكروت عام 35/1045 — 1636.

ناصر الدرعي⁽⁴⁸⁾ الى زاوية تامكروت عام 30/1040 — 1631 لأخذ الطريقة عن الشيخ عبد الله بن حسين. وأقام ابن ناصر في هذه الزاوية مدة بطلب من الشيخ عبد الله بن حسين، وأقبل على التدريس ونشر العلم فيها، وقصده الطلاب من مختلف جهات الصحراء. وقد تصدر أحمد الانصاري للمشيخة الصوفية بزاوية تامكروت بعد وفاة أستاذه الرقي، غير أنه لم يلبث أن مات قبلاً بيد أحد منافسيه من زعماء درعة، فاستقل حيثئذ الشيخ محمد ابن ناصر بهذه الزاوية وأصبح يشتغل فيها بتدريس العلم للطلبة وبتربية المريدين. وتحمل الشيخ ابن ناصر كثيراً من شظف العيش «وصبر في هذه المدة غاية الصبر على معيشته وكسوته حتى كان ينام مع أهله على التراب، لعدم ما يشتري به حصيراً يفرشه، وربما افترش ليفاً أو جريد نخل..»⁽⁴⁹⁾.

وكان محمد بن ناصر يميل الى البساطة في تعليمه، ويقتصر على حل مشاكل المتون وتقريبها لأذهان الطلاب، مجتنباً كثرة النقول والخلافات المتشعبة، فانتفع به كثير من الناس. ومن أشهر تلاميذه الامام أبو علي اليوسي والقاضي عبد الملك التجموعي، والرحالة أبو سالم العياشي⁽⁵⁰⁾ وغيرهم. وقد حج ابن ناصر مرتين، واشتهر أمره بالمشرق مثلما اشتهر بالمغرب، وكثر أتباعه والآخذون عنه فيهما. ولم تكن له أوراد معينة يلقيها لجميع أتباعه، وإنما كان يراعي حالة المريدين ويسلك بهم سبيل التدرج في الازكار. ويمكننا أن ندرك على الاجمال طريقته في التلقين وتخري السنة من صدر رسالة أجاب بها بعض طلبة تلمسان حين كتبوا اليه يسألونه الدخول في زمرة، وأن يبعث اليهم بخديث السبحة والخرقه والضيافة⁽⁵¹⁾.

(48) الشيخ محمد بن ناصر يتصل نسبه بجعفر بن أبي طالب. هاجر أجداده الى درعة في صدر القرن العاشر الهجري، وُلد محمد بن ناصر ونشأ بقرية اغلان في درعة، ثم انتقل الى تامكروت في التاريخ المذكور وعمره إذ ذاك نحو 27 سنة وألت اليه زوايتها بعد وفاة الشيخين الرقي والانصاري، ونسبت اليه ففرقة بالزاوية الناصرية، وبها كانت وفاته عام 74/1085 — 1675. وخلفه فيها أتباعه حيث ما يزال عقبهم هناك حتى اليوم.

(49) أحمد الناصري السلاوي، طلبة المشتري، ج 1، ص 133.

(50) سناتي تراجمهم في الابواب التالية.

(51) يقول بعض الصوفية ان للسبحة والخرقه والضيافة أصلاً في السنة، ويتكرونها أحاديث في الموضوع منها ما رواه الديلمي في مسند الفردوس أن النبي ﷺ قال «نعم للذكر للسبحة»، ولجلال الدين السيوطي رسالة سماها للنحة في استعمال السبحة، ذكر فيها أن جمعاً من الصحابة كتبت لهم سبحة، كعائشة وأبي هريرة وأبي الدرداء،

قال «... وأوصيكم بتقوى الله ولا ترجوا ولا تخشوا الا الله. وأما السبحة والضيافة والخرقة فليس عندنا فيهم رواية. وإنما طريقتنا الذكر، وهو نحو ما ذكره الشيخ السنوسي في آخر شرح العقيدة الصغرى (52) فإن رغبتم في الدخول في السلسلة، فصحبوا التوبة وشروطها وعليكم بتقوى الله والتوكل عليه في جميع الأمور، والتأهب ليوم النشور، والتزود لسكنى القبور. وإذا فرغتم من الأذكار الماثورة بعد صلاة الصبح فقولوا استغفر الله مائة مرة، اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، كذلك لا إله إلا الله، ألف مرة. هذا إذا كان ممن يعاني القراءة وكان ذكراً وأما امرأة فحسبها من الهليلة مائة مرة. وإن كان عامياً فليذكر الهليلة سبعة آلاف مرة، ويزاد عند تمام كل مائة، محمد رسول الله ﷺ هذا هو الورد بين الصبح والصبح...» (53) وهكذا نرى أن محمد بن ناصر كان يراعي أحوال الناس من التفرغ والاشتغال. فيأمر الرجل العادي أكثر مما يأمر به الطالب المهم بدروسه، ويخفف عن المرأة كثيراً لضعفها ومسؤوليتها في البيت. وهناك مسائل أخرى تدل على شدة تمسك شيخ الناصرية بالسنة، وتعزز ما ورد في الرسالة من عدم اتخاذ السبحة والخرقة والضيافة لعدم رواية شيء ثابت في شأنها. من ذلك أنه ترك قراءة الفاتحة بعد الصلوات، لنفس السبب، واقتصر على أذان واحد يوم الجمعة، ولم يكن يدعو في الخطبة لأمر المؤمنين، الأمر الذي كاد يحجر عليه شراً مستطيراً إذ بعث إليه السلطان الرشيد بن الشريف بكتيبة من الجيش للبطش به ولكن الله سلم.

٢٠ وكذلك بعض العارفين الأولين كالجنيد ومعرف الكرخي وعبد القادر الجيلاني. ويقال إن الرسول عليه السلام كسا قرّة بن هبيرة ثوبين من ثيابه لما سأله ذلك. ويروي شيوخ الصوفية لبس الخرقة بسند متصل ينتهي إلى علي بن أبي طالب وأويس القرني، أنظر في هذا للوضوح أحمد الماجري، للنهال الواضح، ص 159 وما بعدها.

(52) أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي عالم تلمسان المتوفى عام 895/89 — 1490 له كتب في العقائد كبرى وصغرى، وصغرى الصغرى، وتعرف الصغرى بأم البراهين وقد طبعت مراراً في مجموع للون بفاس، ومصر ويشير ابن ناصر في رسالته إلى قول السنوسي في آخر أم البراهين عندما تحدث عن كلمتي الشهادة «فعل العاقل أن يكثر من ذكرها مستحضراً لما احتوت عليه من عقائد الإيمان حتى تمتزج مع معناها بلحمه ودمه...».

(53) أحمد الناصري السلاوي، طلعة للشري، ج 1، ص 148.

وإذا أردنا أن نوازن بين الطريقتين الناصرية والدلائية، وجدنا أنهما تلتقيان في نواح كثيرة، فكلتاها متصلان بالامام الشاذلي عن طريق الشيخ أحمد زروق، وإن كان سند الدلائيين أعلى وأوسع، لأخذهم عن شيوخ عديدين وانفرادهم بطريقة الشيخ الجزولي دون الناصريين. وتشابه أורاد الزاويتين كثيراً، إذ يأمر كل من شيعي الدلاء وتامكروت مرديه بالتوبة أولاً، والاكتثار من الاستغفار، والهيللة، والصلاة على الرسول الكريم. ويتفق الدلائيون والناصريون في صيغة الصلاة على النبي ﷺ، إلا أن الدلائيين يزيدون فيها كلمتين هما «عبدك ورسولك» فيقولون اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. بينما يقولها الناصريون بدونهما كما وردت في الرسالة السابقة (54) وإن اختلفت كل منهما بأدعية فإنهما لم تفتاً متشابهتين في التزام البساطة ومراعاة السنة، وعدم الاتيان بالعبارات الصوفية الغامضة، والكلمات المبهمة المحتملة لكل تأويل.

هذا ولم يتلمذ الناصريون للدلائيين مباشرة، غير أن الشيخ محمد بن ناصر درس العلوم اللغوية والفقهية على أبي الحسن علي بن يوسف الدرعي (55) تلميذ محمد بن أبي بكر الدلائي. وكان أبو الحسن هذا كثيراً ما يضيق ذرعاً بضنك عيش تامكروت، ويقصد شيخه ابن أبي بكر في الدلاء، فينال من عطاياه وهداياه ما ينقلب به الى أهله مسروراً. وبعث الشيخ محمد بن ناصر مرة مع أستاذه أبي الحسن بقصيدة يمتدح فيها شيخ الزاوية الدلائية محمد ابن ابي بكر، منها

له يدان يد للظلم مقمعة ويد جود تفيد الناس أنوالا
كأنما هاتف الحق يخاطبه أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا (56)

(54) كاتب هذه الصيغة للصلاة على النبي ﷺ معمولاً بها في الزاوية الدلائية الى أن غيرها محمد بن ابي بكر الدلائي بصلاة «الفاتح لما أغلق» بعد أخذه عن الشيخ البكري كما تقدم في الفصل السابق.

(55) أبو الحسن علي بن يوسف بن احمد بن عبد الخليم الدرعي التامكري. الامام العالم الحليل اشتهد للتفنن في جملة من العلوم العقلية والنقلية كان جل دراسة الشيخ محمد ابن ناصر عليه. ترجم له محمد لكي الناصري في الدرر للرصة، ص 253 ولم يذكر تاريخ وفاته.

(56) في البيتين خلل في الوزن، ويستقيم لو جعل (كف) بدلا من يد في الشطر الثاني من البيت الاول، و(للحق خاطه) بدلا من الحق يخاطبه في البيت الثاني.

فكان لها الوقع الطيب في نفس ابن أبي بكر، ونال أبو الحسن من معروفه فوق ما كان يعهده منه. وإلى ذلك كانت هناك اتصالات ومراسلات بين الناصريين والدلائيين أشرنا في الفصل السابق الى بعضها. ولعل الامام أبا علي اليوسي كان أهم صلة ربطت بين الزاويتين فقد درس بتامكروت على الشيخ محمد ابن ناصر وأخذ عنه عهد الشاذلية وهو ما يزال حدثاً في مقتبل العمر، ثم التحق بالزاوية الدلائية واستقر بها نهائياً تلميذاً ثم أستاذاً، ولم تنقطع صلة اليوسي بشيخ تامكروت طيلة العشرين سنة التي قضاها في الدلاء. وقد امتدح اليوسي الشيخ محمد بن ناصر بقصيدة دالية بليغة يبلغ عدد أبياتها 540. مطلعها

عرج بمنعرج الهضاب الورد بين اللصاب وبين ذات الارمد
وأجز من الجزع الذي يحضيضه أجداث أصداء العشير الحمد(57)

(ب) الزاوية الفاسية

الشيخ الاول لهذه الزاوية هو أبو المحاسن يوسف الفاسي. ولد ونشأ بمدينة القصر الكبير وأخذ فيها عن الشيخ عبد الرحمن بن عياد الدكالي المعروف بالمخدوب المتقدم ولازمه الى أن توفي عام 68/976—1569، فتصدر بعده أبو المحاسن الفاسي للمشيخة وتربية المريدين، وانتقل الى مدينة فاس عام 80/988—1581 وسكن بدار في أقصى الدرب الجديد من حي الخفية بعدوة الاندلس، كان يسكن في أعلى الدار ويجمع المريدين في أسفلها. ثم اشترى دوراً مجاورة لها وأسس فيها عام 1004 مسجداً ومناراً وزلوية. وبعد مدة أمر أبو المحاسن اصحابه بتطوان «بناء رابطة هنالك لأورادهم وأحزابهم واجتماعهم للذكر والتذكير، فبنوها في العيون منها

وذكر في الدرر للرصعة (مخطوط خ.ع. 265 ك. ص 362) أن الرسول الذي حمل كتاب الشيخ ابن ناصر الى الدلاء لما رجع اليه برّد يبلغ من إنشاء محمد للرابطة الدلائي، قرأه الشيخ ابن ناصر وقال «فاتونا هؤلاء بالبيان» أي سبقونا.

(57) اللصاب الشعاب الضيقة، الورد تراب على لون الرمد. والجزع منعطف الوادي، والأصداء جمع صدى والمراد به هنا جسد الميت.

وتشتمل هذه القصيدة كلها على مفردات لغوية جزلة حتى يظن أنها من شعر الجاهلين. وقد جعل لها اليوسي شرحاً سماه نيل الاماني في شرح التها في طبع بمطبعة التقدم بمصر عام 1329.

وقام الرسم بها أحسن قيام، ولم تزل الصلوات راتبة بها ورسوم الخير من تلاوة وذكر وغيرها ثابتة فيها واسم الزاوية جاريا عليها ووقف الناس عليها أوقافاً» (58).

وهكذا أسس الشيخ أبو المحاسن الفاسي في أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) زاويتين إحداهما بحى الخفية بفاس، والآخرى بحى العيون بتطوان كان يجتمع فيهما أصحابه من المريدين. وقد رتب لهم الشيخ أورادا يقرؤونها جماعة على لسان واحد جهرًا في ثلاثة أوقات الأولى بعد صلاة الصبح، ويقرأون فيه حزب الفلاح (59) والمسبعات العشر والمعشرات التسع (60)، ووظيفة الشيخ زروق (61) والحزب الكبير (62). والثاني في العشي. وورده المسبعات العشر ووظيفة الشيخ زروق، إلا أنهم يستبدلون بعبارة (أصبحت وأصبحنا وما أصبح) قولهم (أمسيت وأمسينا وما أمسى). والثالث بعد الغروب. ووظيفته حزب الفلاح ثم حسبنا الله ونعم الوكيل سبعين مرة (63) ثم صلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش (64).

(58) أبو حامد العربي الفاسي، مرآة المحاسن ص 43.

(59) حقيقة الحزب كما قال الشيخ زروق في شرح حزب البحر للإمام الشاذلي «هو الورد المعمول به تعبدًا ونحوه. وهو في الاصطلاح مجموع أذكار وأدعية وتوجهات وضعت للذكر والتذكير والتعوذ من الشر، وطلب الخير واستنتاج المعارف وحصول العلم مع جمع القلب على الله سبحانه بذلك ولم تكن في الصدر الأول ولا من بعده بقرب لكن جرت على أيدي مشايخ المتصوفة» وحزب الفلاح هو من جمع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي أنظره في ملحق 4.

(60) للمسبعات هي عبارة عن عشر جمل من الأذكار تتلى كل منها سبع مرات، وهي من الشعارات القديمة للصوفية ذكرها الغزالي في الإحياء. وللمعشرات التسع من أذكار أتباع الشيخ الجزولي تتلى كل جملة فيها عشر مرات. أنظر للمسبعات والمعشرات في ملحق رقم 4.

(61) انظر. وظيفة الشيخ زروق عند العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 55-58.

(62) الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي وأوله على ما عند ابن عطاء الله وابن عباد والشيخ زروق «بسم الله الرحمن الرحيم. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم» أنظره عند العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 58-63.

(63) (حسبنا الله ونعم الوكيل) سبعين مرة لم يكن يقرأها للمريدين في حياة الشيخ أبي المحاسن، وإنما زادها ولد. الحافظ أحمد بعد موت والده.

(64) أنظرها في ملحق رقم 4

وهناك زاوية فاسية أخرى أسسها يحيى القلقليين⁽⁶⁵⁾ بفاس أخو الشيخ أبي المحاسن وتلميذه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي المشهور بالعارف بعد تأسيس زاوية الخفية بقليل. ظل أبو زيد الفاسي يسير في زلويته على النهج الذي يسير عليه أخوه أبو المحاسن في زاوية الخفية الى أن توفي فخلفه فيها حفيد أخيه، عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن، وكان أخص تلاميذه وأقرب الناس اليه وأكثرهم استفادة منه. وقد عني الشيخ عبد القادر الفاسي بزاوية القلقليين عناية خاصة وانكب فيها على تدريس العلوم وتربية المريدين، ثم جدد له المولى اسماعيل بناء هذه الزاوية ووسعها على النحو الذي هي عليه الآن. وكان المريدون على عهد الشيخ عبد القادر الفاسي يجتمعون فيها للذكر مرتين في اليوم، فيقرأون حزب الغداة بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس وهو يشتمل على ما تقدم من حزب الفلاح والمسبوعات والحزب الكبير مع زيادة ذكر لا اله الا الله خمسمائة مرة، ثم محمد رسول الله عشر مرات، ثم اسم الجلالة خمسمائة مرة، ثم محمد رسول الله في أثنائه ما تيسر، ثم يقرأون هذا الدعاء ثلاث مرات اللهم أحينا عليها يامولاي، وأميتنا عليها يامولاي، وأثبتنا عليها يا مولاي عند الشهادة والرجوع اليها ويختمون بلا اله الا الله مرة، ويقرأون الفاتحة وينصرفون. وقد يقرأ بعض المريدين حزيين من القرآن الكريم. ثم يجتمع المريدون في الزاوية أيضا بعد صلاة المغرب لقراءة حزب الفلاح وحزب الشيخ عبد القادر الجيلالي⁽⁶⁶⁾ وصلاة الشيخ عبد السلام ابن

(65) ذكر صاحب أزهار البستان أن أصل زاوية القلقليين دار يعلى البحري الاندلسي وهبت لمجد الرحمن الفاسي العارف عام 1027 فبنها زاوية وجسها على الذاكرين.
لم يدفن الشيخ أبو المحاسن في زلويته بالخفية، ولا أخوه عبد الرحمن بزاوية القلقليين، وإنما دفنا خارج باب الفتوح بروضتهما المشهورة.

(66) الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الشريف الحسني المعروف بالجيلاني للثوق ببغداد عام 561 / 65 — 1166 صاحب الطريقة الجيلانية المنتشرة في جميع البلاد الاسلامية الى أن طفت عليها الطريقة الشاذلية في المغرب منذ القرن السابع للهجرة. وقد ازداد قدم الشاذلية رسوخا بالمغرب في القرن التالي مع الشيخ محمد بن سليمان الخزولي الذي كان يعد أتباعه بالآلاف وأخذ عنه جل شيوخ عصره في هذه البلاد ثم تأكد ذلك في القرن التاسع للهجرة مع الشيخ أحمد زروق شارح أحزاب الشاذلي ومجدد طريقته في أقطار المغرب غير ان بعض شيوخ الامام زروق يرتفع سندهم الى الشيخ عبد القادر الجيلاني. ومن للعلوم أن عبد القادر الفاسي أخذ عن عم والده أبي زيد عبد

مشيش. كما كان المنشدون كثيرا ما يختلفون الى زاوية القلقليين للترنم بالامداح النبوية والاشعار الصوفية بحضرة الشيخ عبد القادر الفاسي «ولا يستعملون شيئا من السماع حتى يقدموا قبله قراءة القرآن، وكان يحب كلام الششتري» (67) بالبحون، وكلام سيدي عبد الرحمن المجذوب وغيره، ولا ينكر شيئا من ذلك ولا يحب آلة مع ذلك سدا للذريعة.. وكان يرخص في الرقص ولكن لذي حال غالب، ومع ذلك يأمر بالسكون، وينهى عما يؤثر في العقول من السماع، ولا يمنع شيئا في الفرح بالمولد النبوي من الرقص والشطح» (68)

وهناك صلات متينة ووشائج قرني تجمع بين الزوايتين الفاسية والدلائية منذ عهودهما الاولى، فأبو المحاسن الفاسي هو أحد الشيوخ الأولين في السلسلة التي تصل محمد بن أبي بكر الدلائي بالامامين أحمد زروق ومحمد بن سليمان الجزولي. وقد تتلمذ الحافظ أحمد بن أبي المحاسن الفاسي على شيخ زاوية الدلاء أبي بكر، وخص أسانيده في طريق القوم بتأليف سبقت الاشارة اليه. وأقام أخوه أبو حامد محمد العربي الفاسي مدة طويلة في الزاوية الدلائية، يدرس الحديث على الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، ويلقي دروسا في مختلف العلوم على الطلبة الى أن تخرج على يده كثير من العلماء الدلائيين على ما سيأتي في الباب الثالث؛ وله مراسلات مع الدلائيين، ومقامة أدبية وقصائد في مدح أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي. «ولما عزم المامون على تسليم العرائش الى النصاري بعث الحافظ أحمد الفاسي الى الشيخ أبي بكر الدلائي يستشيريه، فأشار عليه بالخروج.» (68م) كما شد الرحلة الى المدينة الادريسية كثير من أحفاد الشيخ أبي بكر الدلائي للأخذ عن

الرحمن الفاسي العارف الذي يتصل سنده بالشيخين الجزولي وزروق معا، ولعل ذلك يفسر ما نراه هنا من قراءة مريد الزاوية الفاسية لحزب الشيخ الجيلاني، هذا بالإضافة الى أن الشيخ عبد القادر الفاسي كان صوفيا منحرا يختار من كل طريقة ما يراه صالحا وكان كثيرا ما يستشهد بقوله تعالى «وامر قومك يأخذوا بأحسنها».

(67) أبو الحسن علي بن عبد الله الثميري الششتري شاعر أندلسي متصوف تنقل في البلاد وكان يتبعه في أسفاره ما ينيف على 400 فقير يخدمونه، وله تأليف منها للقاليد الوجدية في أسرار الصوفية وشعره وموشحاته وزجله في غابة الحسن يوجد كثير منها في ديوانه للطبوع بمصر نوفي الششتري بقرية الطينة القريبة من دماط بمصر عام 668 / 1269.

(68) عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، تحفة الاكابر، الباب الثاني عشر، غير مرقم.

(68م) العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 155

الامام عبد القادر الفاسي حفيد الشيخ أبي المحاسن خصوصا في الوقت الذي كانت فاس خاضعة لنفوذ السلطان محمد الحاج الدلائي. ومن أشهر المتخرجين على يد الشيخ عبد القادر الفاسي الطيب بن المسناوي الدلائي مفتي الزاوية البكرية وفقهها الكبير. وبعد النكبة التي أصابت الدلائيين كثر عدد طلبتهم في زاوية القلقليين بفاس وكأنهم وجدوها أشبه ما تكون بزاويتهم القديمة، ففيها تعقد المجالس العلمية وحلقات الازكار وتنشد الاشعار والموشحات والازجال الصوفية. واذا كانت الزاويتان الفاسية والدلائية تتحدان في سلوك نهج الشاذلية فان اذكار الزاوية الدلائية تمتاز بالبساطة والسير مع ما يناسب موقعها في وسط البادية ومريديها من أعراب تادلا، وبرابرة زيان، اذ لا يعقل أن يكلف هؤلاء بحفظ أحزاب الشاذلي والجزولي ووظيفة الشيخ زروق وغيرها من الازكار المعقدة الطويلة، بعكس الحال في زاوية فاس التي كانت تستقبل مريدين متحضرين يمتلك جلهم مبادئ علمية تؤهلهم لادراك الاحزاب السابقة وغيرها من المسبقات والمعشرات. ولعل هذا مما تمتاز به الطريقة الشاذلية التي لا تعين أذكارا لمريديها في كل مكان ولا تقيدهم حتى بقراءة الاحزاب التي وضعها الشاذلي نفسه تاركة للشيوخ مجال الاختيار لما يناسب الحال، فتعددت بذلك مظاهر هذه الطريقة واختلفت صيغ أذكار مريديها لا تجمعهم الا سنة الرسول الكريم التي هي المبدأ الاساسي الذي لا يمكن الخيد عنه في هذه الطريق.

ج) الزاوية العياشية

تسمى الزاوية العياشية اليوم زاوية سيدي حمزة، وتقع في سفح جبل العياشي، على ضفة أحد روافد وادي زيز بعيدة عن ميدلت بنحو 60 كلم جنوبا. أسسها محمد بن أبي بكر العياشي عام 1044/34-1635 بأشارة من شيخه محمد بن أبي بكر الدلائي. «وهو الذي أذن له في اطعام الطعام بالزاوية، وكان (محمد بن أبي بكر العياشي) يعطي الاوراد للناس، ويقصدونه من القبائل البعيدة» (69) ونحن وان لم نعر على ما يبين لنا هذه الاوراد التي كانت تلقن في زاوية

(69) عبد الله العياشي، الاحيا والانعاش، ورقة 18

أيت عياش، فاننا لا نشك في أنها كانت قرية مما يتلقاه المريدون في زاوية الدلاء. فشيوخ ابن أبي بكر العياشي كلهم شاذليون، وأكثر اقامته كانت في الزاوية الدلائية، أخذ فيها أولا عن الشيخ أبي بكر الدلائي، ثم عن ابنه محمد من بعد كما سبقت الإشارة الى ذلك. وقد تكاثر الواردون على الزاوية العياشية حتى ضاق مسجدها بالمصلين يوم الجمعة، فوسعوه، وجددوا بناءه عام 1066/ 1656-55

ولما آل أمر الزاوية العياشية الى أبي سالم العياشي أخذ يشغل فيها بتدريس العلم، وسار على نهج والده في الاتصال بالدلائين وتعظيمهم، وله معهم مساجلات أدبية شعرية ونثرية، ومراسلات علمية، أهمها الاسئلة التي وجهها الى مفتي الزاوية البكرية الطيب بن السنوسي الدلائي وتلقى عنها أجوبة ضافية⁽⁷⁰⁾ ولم تنقطع صلة العياشين بالدلائين حتى بعد تخريب زاوية الدلاء، إذ نجد حمزة بن أبي سالم العياشي يأخذ العلم في فاس عن محمد للسنوسي الدلائي، ويؤلف كتابا في ترجمته⁽⁷¹⁾. وإلى حمزة هذا تنسب الزاوية العياشية، لأن عنايته بها كانت بالغة، فعمل على تنشيط الحركة العلمية فيها، وبذل كل ثروته في اقتناء الكتب واستنساخها. وكادت الزاوية العياشية تلقى نفس المصير المحزن الذي لقيته أختها بالدلاء، فغرب السلطان الرشيد أهلها عنها الى فاس وتركها قاعا صفصفا كزاوية الدلاء. وظل يصم أذنيه عن توسلات العياشين في الرجوع الى ديارهم، بعد أن استوحوا حاضرة المولى ادريس، وكانوا يسكنون أخصاصا فوق حي الفخارين داخل باب الفتوح، لقلّة ذات يدهم وعدم تعودهم على عيش المدن. وقد رجع آل عياش الى زوايتهم باذن من السلطان اسماعيل بعيد توليه الملك في أوائل عام 1083/ 1672. وما زال جبل العياشي يحتضن حتى اليوم هذه الخزانة العلمية العظيمة وهي بحق مفخرة كبيرة لبلادنا، وشاهد ناطق بماضيها العلمي الجيد؛ وحذا لو صرفت العناية الى تنظيمها وتيسير سبيل الاستفادة منها والكشف عن كنوزها الدفينة.

(70) انظر نص الاسئلة وأجوبتها عند سليمان الخوات البدور الضاوية، ورقة 168 /أ الى ورقة 170 /أ.

(71) عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ للغرب الأقصى، ص 222

الباب الثالث

الزاوية الدلائية باعتبارها مركزاً علمياً

1 - الأهمية العلمية للزاوية الدلائية

- أ) العلوم التي كان الدلائيون يدرسونها
- ب) تفوق الدلائيين في اللغة وقواعدها

2 - أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها

- أ) محمد بن أبي بكر الدلائي
- ب) بقية أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها

3 - أساتذة الزاوية الدلائية من غير أبنائها

- أ) أحمد بن القاضي
- ب) أساتذة آخرون درسوا في الزاوية الدلائية

4 - تلاميذ الزاوية الدلائية

- أ) الحسن اليوسي
- ب) أحمد المقرئ
- ج) العربي الفاسي
- د) علماء آخرون تخرجوا في الزاوية الدلائية

1 — الأهمية العلمية للزاوية الدلائية

عني الشيخ أبو بكر الدلائي بالعلم والعلماء عنايته بالتصوف والمريدين، واهم بالغ الاهتمام بتعليم أبنائه الستة، فكان منهم من يدرس على العلماء الوافدين على الزاوية الدلائية ومنهم من ينتقل الى مدينة فاس ليدرس فيها. ولما اضطرت أحوال المغرب بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي⁽¹⁾ وانتشرت الفتن بسبب اختلاف أبنائه وتنازعهم على الملك، أخذ الناس يفرون من المدن الى البادية ؛ وكانت الزاوية الدلائية من أحسن البقاع التي يلتجئ اليها العلماء حيث يجدون الطمانينة وراحة البال وينعمون بكرم ضيافة أهلها، فيتفرغون للعلم وتدارسه. وقد حصل أبناء أبي بكر على بضاعة علمية غير مزجاة، فتصدوا للتدريس في زاويتهم وأقبل عليهم الطلاب من كل حذب وصوب.

نطور أمر الزاوية الدلائية في الثلث الثاني من القرن الحادي عشر الهجري وكثرت فيها المدارس التي ازدحمت بالطلاب، حتى كان يسكن في البيت الواحد طالبان فأكرم⁽²⁾ ينفق محمد بن أبي بكر عليهم جميعا، وكان لطلبة العلم «بالمدرسة التي بازاء جامع الخطبة ألف وأربعمائة مسكن»⁽³⁾ وتكاثر عدد العلماء المشتغلين بالتدريس في مساجد الزاوية الدلائية سواء من أبناء الزاوية نفسها أو من العلماء الطائرين عليها، وتكونت فيها خزانة كتب عظيمة شبهها بعضهم بخزانة الحكم المستنصر بالاندلس «وجميعها عشرة آلاف سفر»⁽⁴⁾.

وقد أجمع كل من تحدث عن الناحية العلمية للزاوية الدلائية على أنها بلغت في هذا المضمار شأوا بعيدا، وبذت فاسا في تلك الفترة وفاقتهما، وقد قال الاستاذ عبد الله كنون في هذا الصدد «ان الثقافة الأدبية واللغوية كانت في الناحية التي

(1) توفي المنصور الذهبي عام 1012 / 1603

(2) أحمد بن يعقوب الولاي. مباحث الانوار الورقات 7 / 1 و 25 / ب و 33 / ب مع الاشارة الى أن أحمد بن يعقوب هذا كان طالبا يسكن في بيت مدرسي بالزاوية الدلائية.

(3) عد السلام القادري، تقايد تاريخية ص 11.

(4) عد السلام القادري، تقايد تاريخية ص 11.

درس فيها اليوسي، أقوى منها في فاس، بل إننا نقول، إن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء، حيث درس اليوسي، هي التي أحيت ذماء الادب في المغرب بعد عدم...»(5)

أم العلوم التي كان الدلائيون يدرسونها

اشتغل الدلائيون بكل ما كان معروفا لعهدهم من العلوم الدينية واللغوية والادبية، وبرز منهم علماء أفذاذ في جميع الميادين. وسأشير هنا إشارة خاطفة إلى كل صنف من أصناف الفنون التي كانت تدرس في الزاوية الدلائية.

القراءات

اشهر الشرقي بن أبي بكر الدلائي من بين إخوته بالتفوق في علم القراءات وكان مختصا بتدريس هذا الفن في الزاوية الدلائية مع أنه كان مشاركا في كثير من العلوم الاخرى ومجازا من قبل شيخه أبي حامد العربي الفاسي لإجازة عامة. فكان الشرقي يلقي الطلبة فن التجويد. ويعلمهم القراءات السبع، ويدربهم على تلاوة القرآن الكريم تلاوة مجودة متقنة. وقد وصفه الامام أبو علي اليوسي بأنه قطب رحي المقرئين في المغرب في قصيدة يمدحه بها

أقطب الرحي في المقرئين بذا الافق ويا نجل قطب كان في مقعد صدق
ولم يعلموا أن لو خلا الغرب كله من الخير كان الخير يرجي من الشرقي

التفسير

كان الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي فارس هذا الميدان، وله فيه سند عال يوصله بأكثر المؤلفين في تفسير القرآن الكريم، عن طريق مجيزه الامام أبي عبد الله القصار(6) وغيره من شيوخه. وبذلك يروى جامع البيان في تفسير القرآن عن

(5) عبد الله كنون، خل وبقل، ص 275.

(6) محمد بن قاسم القصار، امام فاس في التفسير والحديث والفقه لم يؤلف كتابا بالرغم من سعة علمه، وتوفي في طريقه الى مراكش عام 1012 / 1603 فحمل اليها ودفن بازاء باب روضة أبي العباس السبتي.

مؤلفه أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وتفسير الكشاف عن جار الله محمود ابن عمر الزمخشري، وتفسير الرازي عن مؤلفه فخر الدين محمد بن عمر الرازي، وتفسير الثعالبي عن أبي اسحاق محمد بن أحمد الثعالبي، وتفسير اليبضاوي عن ناصر الدين أبي محمد عبد الله بن عمر اليبضاوي، كما يروي بنفس الطريقة تفاسير أخرى⁽⁷⁾

وكان محمد بن أبي بكر الدلائي يرجع الى هذه الكتب وغيرها ليلقي دروسه التفسيرية العالية في مسجد الزاوية الدلائية بين العشائين فيحضرها العلماء والطلبة على السواء، وينطلق في املائه وشرحه بما يبهر عقول الحاضرين.

الحديث

يعتبر محمد بن أبي بكر الدلائي من أكبر حفاظ المغرب وأعلمهم بالسنة «مع الضبط والاتقان بحيث تصحح نسخ الكتب الستة⁽⁸⁾ من فيه ولا سيما الصحيحان»⁽⁹⁾ وهو يروي من طريق شيخه الامام القصار أيضا صحيح البخاري وبقية الكتب الستة و موطأ الامام مالك، و مسند الامام أحمد بن حنبل، و شفا القاضي عياض وسائر منصفاف الحديث الشريف. وكانت مجالسه الحديثة عظيمة الشأن يحضرها الى جانب الطلبة العلماء على اختلاف طبقاتهم وحيثياتهم. ويذكر لنا أبو حامد محمد العربي الفاسي أنه حضر أحد هذه المجالس لقراءة البخاري يوم الاثنين سادس رمضان المعظم عام 1043 / 1634 وقد طال المجلس من قبل صلاة الظهر الى غروب الشمس عدا وقت الفريضة⁽¹⁰⁾. وناهيك بدرس يستغرق القاؤه نصف يوم ! وأعظم بشيخ يستطيع أن يملئ طوال هذه الساعات في مجلس يضم أمثال محمد العربي الفاسي ! ذلك كان دأب ابن أبي بكر دائما،

(7) محمد بن أبي بكر الدلائي، الفهرست، ورقة 1 / ا و ب.

(8) الكتب الستة هي صحيحا الامامين أبي عبد الله البخاري ومسلم القشيري، وسنن محمد ابن ماجه القزويني، وأبي داود السجستاني، وأبي عيسى الترمذي، وأبي عبد الرحمن النسائي.

(9) سليمان الخوات، البدور الضاوية ورقة 51 / ب

(10) نقله عن خط أبي حامد الفاسي، سليمان الخوات في البدور الضاوية ورقة 103 / ا

بدرس صحيح الامام البخاري ويختتمه كل سنة، ويحتفل بيوم الختم احتفالا كبيرا يحضره العلماء من البلدان البعيدة وينظم الشعراء القصائد وتقدم فيه صنوف الأطعمة(11).

وقد كان أخوا الشيخ محمد بن أبي بكر: عبد الكريم ومحمد الخديم الدلائيان محدثين حافظين كذلك، فأكبا بدورهما على تدريس مصطلح الحديث وكتب السنة للطلبة، وتخرج على يدهما كثير منهم.

التوحيد والفقه والاصول

اشتغل كثير من علماء الدلاء بالتوحيد والفقه وأصوله، وكانوا يقومون على تدريسها في زوايتهم مع الفنون الأخرى. ومن الكتب التي كانوا يعتنون بها في هذه المادة جمع الجوامع لتاج الدين السبكي. وورقات امام الحرمين و المختصر للشيخ خليل بن اسحاق المالكي. و مختصر ابن الحاجب، وعقائد الامام السنوسي لا سيما العقيدة الكبرى. وأشهر فقهاء الزاوية الدلائية وآخرهم هو الطيب بن السناوي بن محمد بن أبي بكر امام المنقول والمعقول الذي كان يرجع اليه علماء عصره فيما يحدث من المشاكل الفقهية ويستفتونه في النوازل الطارئة. وقد تقدمت الإشارة في الباب الثاني الى الاسئلة التي وجهها اليه الرحالة أبو سالم فقيه الزاوية العباسية وأديبها وهي تتعلق بمسائل أشكل عليه أمرها، بعضها في فن الاصول من كتاب جلال الدين المحلي.

التصوف

اشتهر عالمان دلائيان بتدريس التصوف وتربية الاذواق، وهما الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائّي وأخوه عبد الرحمن. ومن كتب هذا الفن التي كانت تدرس في الزاوية الدلائية رسالة القشيري، و حكم ابن عطاء الله، و أحزاب الشاذلي. وألف محمد الخديم الدلائّي كتابا في التصوف كما يأتي في الباب السابع.

(11) انظر احدى القصائد التي قبلت في خم البخاري بالزاوية الدلائية في ملحق رقم 5.

المنطق والتوقيت

اهم الدلائون بدراسة هاتين المادتين وأتقنهما كثير من علمائهم وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي الذي أخذهما عن الامام أحمد بن القاضي. ومن الكتب التي كانت تدرس في الزاوية الدلائية مختصر السنوسي في المنطق الذي جعل له الحسن اليوسي شرحا كبيرا، وروضة الازهار للجادري في التوقيت.

ب) تفوق الدلائيين في اللغة وقواعدها

لعل أهم فن تفوق فيه الدلائيون وبذوا فيه معاصريهم قواعد اللغة العربية التي كان لها الحظ الأوفر في حلقاتهم العلمية. وتفوق الأعاجم على العرب في هذا الميدان ظاهرة قديمة عرفت منذ العصر الأول لجمع اللغة وتدوينها، فأبو عبيدة وأبو عبيد بن سلام، وحماد الراوية وخلف الأحمر وغيرهم من رواة الشعر القدامي كلهم من الموالي، وكذلك كان سيبويه والكسائي والفراء وابن السكيت وغيرهم من نخاة البصرة والكوفة. و القاموس المحيط الذي يرجع اليه اللغويون في العربية حتى يومنا هذا هو من تأليف مجد الدين الفيروزيادي الفارسي؛ وقد أقبل الاعاجم المسلمون على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والدين، وجدوا في تعلمها وتعليمها لغرابتها عليهم وتفوقوا في ذلك على العرب الذين كانوا يعتبرون أن العربية لغتهم الأصلية ولا حاجة إلى معاناة دراستها وتدوينها. ومن اشهر نخاة الدلائيين أبو العباس أحمد الحارثي بن أبي بكر الدلائي الذي كان يداوم على اقراء كتاب سيبويه طول عمره، والشاذلي بن محمد بن أبي بكر الذي كان متفرغا في دروسه لمادتي النحو واللغة، حتى قيل إنه أقرأ ألفية ابن مالك مائة مرة، و مقامات الحريري ثلاثين مرة يختمها كلها من أولها الى آخرها، ومن الكتب التي كانت تدرس بالزاوية الدلائية أيضا كتابا للغنى والتوضيح لابن هشام. و الكامل للمبرد، و الامالي لأبي علي القالي، و مختصر العين لأبي بكر الزبيدي، و الكافية، و التسهيل لابن مالك، و الكافية، و الشافية لابن الحاجب. ويعد محمد المرباط

ابن محمد بن أبي بكر الدلائي سيد قومه في هذا الباب. فهو صاحب المجالس النحوية العالية التي كان يحضرها أمثال الحسن اليوسي وأحمد بن عبد القادر القادري وغيرهما من أكابر العلماء.

البلاغة والأدب

يكاد يكون جميع علماء الدلاء من رجال الأدب، فهم يحسنون الإنشاء والترسل ويجيدون قرص الشعر. وكان كثير منهم يلحن لطلبته دروساً أدبية في الكتب المتعارفة آنذاك مثل المقامات الحزبية والدواوين الشعرية. كما كان أبو عمر ابن محمد بن أبي بكر الدلائي يقوم بتدريس كتاب تلخيص المفتاح للخطيب القزويني. وقد ذكر أحمد بن يعقوب الولاي أنه كان يدرس مع زملائه الطلبة على الإمام الحسن اليوسي في الزاوية الدلائية علوم البيان، والمنطق، والفقه، والأصول، دون أن يذكر الكتب التي كانوا يدرسونها⁽¹²⁾.

2 — أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها

عرفت الزاوية الدلائية كثيراً من العلماء الذين انتصبوا للتدريس فيها. ونجد عند المؤرخين المعاصرين للزاوية ما ينبيء عن وفرة العلماء فيها أيام ازدهارها، غير أنه لا يمكننا تحديد عدد المدرسين لعدم إفصاح المصادر عن أسماء الكثيرين منهم. وسأورد هنا تراجم مختصرة لبعض من قاموا بالتدريس في الزاوية الدلائية متحدثاً أولاً عن العلماء الدلائيين باسطة القول قليلاً في ترجمة محمد بن أبي بكر الدلائي، ثم أنخلص لذكر العلماء الذين وفدوا من فاس ومراكش وغيرهما على الزاوية الدلائية وأقاموا فيها للتدريس، وأبسط القول كذلك قليلاً في ترجمة أحمد بن القاضي.

أحمد بن أبي بكر الدلائي

أبو عبد الله محمد — بفتح الميم — بن أبي بكر بن محمد بن سعيد الجاطي الصنهاجي الدلائي، واسطة عقد الأسرة وعالمها الكبير الذي جلب لها

(12) مباحث الانوار، ورقة 7 / 1

الشهرة «خاتمة مشايخ المغرب، انتهت اليه رئاسة الدين والدنيا، واستقل بسياسة الامور الحليّة والرتب العليا. عالم حافظ دراك متوسع في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام حسن المشاركة فيها وفي غيرها، رصين العقل سديد الرأي جميل المعاشرة مراعى لحقوق الصحبة، كريم النفس عالي الهمة، فياض العطاء واسع المعروف. لو تفرغ متفرغ لجمع فضائله في ديوان مستقل، لم يجمع منها الا ما يندر ويقل، ولو صنف من أنواعها أصنافا، وألف من أعدادها آلافا...» (13)

ولد محمد بن أبي بكر بالدلاء عام 967/ 1559 — تقريبا — وحفظ القرآن الكريم وأتقن رسمه وتجويده في العقد الاول من عمره، وقرأ على والده مبادئ العربية وأحكام الدين، ثم أخذ عن العلماء الوافدين على الزاوية البكرية فدرس على أبي العباس أحمد بن القاضي الحساب، والتوقيت، وما كان يعرف آنذاك بالعلوم الادبية الثانية، وهي اللغة، والنحو، والتصريف، والعروض، والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب، وأنسابها. ومن أهم الكتب التي قرأها محمد بن أبي بكر الدلائلي على ابن القاضي المغني لابن هشام، و الكامل للمبرّد، والامالي لابي علي القالي، و مختصر العين لابي بكر الزبيدي، و كتاب القلصادي في الحساب، وروضة الازهار للجادري. وأخذ عن أبي علي الحسن الدرعي، المعروف بالدرابي الفقه والاصلين (14)، والمنطق والبيان، في كتب جمع الجوامع للسبكي، وعقائد السنوسي ومختصره في المنطق. وتزوج محمد بن أبي بكر الدلائلي مبكرا مصهرا الى أسرة الشرفاء الشبوكيين المعروفين بجمال الخلق والخلق، الذين اشتهر منهم علماء وأدباء حظوا برتب سامية في بلاط المرينيين ومن بعدهم. وقد ذكر ابن الاحمر (15) في نثير الجمال نسب الشبوكيين وترجم لأديب منهم يسمى محمد بن يوسف، ونقل عنه ذلك أحمد المقرئ في أزهار الرياض فقال «وأقارب هذا الشريف لم

(13) العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 225.

(14) المراد بالاصلين، العقائد وأصول الفقه.

(15) أبو الوليد اسماعيل بن الأمير أبي الحجاج يوسف بن الاحمر المتوفى عام 807/ 1404 رتب كتابه نثير الجمال على قسمين قسم في أدباء المغرب وقسم في أدباء الاندلس وتخصص بابا لكتاب بني مرين.

يزالوا إلى الآن، ولهم مصاهرة مع ولينا الفقيه المحدث، الحاج الرحالة البركة القدوة الصالح الناصح أبي عبد الله سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي أبي بكر بن محمد صاحب الدلاء (16) أبقى الله علاهم، وأعانهم على ما أولاهم» (17).

وقد رحل محمد بن أبي بكر الدلائي للقاء شيوخ التصوف بمختلف أنحاء المغرب والأخذ عنهم، فاتصل بمحمد بن مبارك بتاستاوت (18)، وبعد الله بن حسن بسلا، وبعد الله الملواني بتاغيا (19)، وأبي عبيد محمد الشرقي في أبي الجعد، وسلك على يدهم طريق القوم متدرجا في مراقي الكمال الروحي. ثم توجه إلى الحج عام 1005 فلقى بالقاهرة الشيخ محمد زين العابدين البكري (20) ولازمه طيلة المدة التي قضاها في مصر وأفاد منه كثيرا، ثم بعد رجوعه من الشرق سافر إلى فاس وأخذ عن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي عهد الشاذلية، وحضر مجالس الإمام محمد ابن قاسم القصار في التفسير والحديث والتصوف. ويطول بنا الكلام لو تعرضنا لذكر كل ما أخذه ابن أبي بكر الدلائي عن القصار، ونكتفي بالإشارة إلى أنه نال منه إجازة عامة (21) وروى عنه بالسند المتسلسل المتصل بالمؤلفين أحد عشر تفسيراً للقرآن الكريم، والكتب الستة وسائر مصنفات الحديث وغير ذلك من المؤلفات التي تشتمل عليها فهرست الإمام القصار (22) ورجع محمد بن أبي بكر في أواخر عام 1012 / 1904م إلى الدلاء عالما عاملا صالحا مصلحا، فتصدى للتدريس بالزاوية، إلى جانب اخوته الخمسة وغيرهم من العلماء الوافدين، وأسهم

(16) علق المصححون للتنبؤ من قبل لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة لتحقيق كتاب أزهار الرياض في الماش (ج 1، ص 294) على كلمة (الدلا) بقولهم «كذا وردت هذه الكلمة في الأصلين ولم نفهم المراد منها ولم نعلم على مرجع آخر لهذا الكلام المنقول عن ابن الأحمر لتعارض به هذا النص» وهكذا نرى نتيجة الأمل الذي لحق الدلائين مع ما كان لهم من العلم والجاه فتتكر لهم أشقاؤهم بالمغرب وأنكرهم اخوتهم بالمشرق!

(17) أحمد المقرئ، أزهار الرياض ج 1 ص 294

(18) تاستاوت قرية جبلية تقع جنوبي ولس، في طريق وادي زم وتبعد عنه بنحو 90 كلم.

(19) تاغيا المراد بها قرية ملوان الواقعة في آيت حديدو فوق ميدلت. وليس للمراد تاغيا للشهورة اليوم التي فيها ضريح مولاي بويزة بين وادي زم وولاس.

(20) الشيخ أبو السرور محمد زين العابدين البكري الصديقي شيخ الطريقة الشاذلية بمصر توفي عام 1007 / 1598.

(21) أنظر نص الإجازة في ملحق رقم 6

(22) توجد فهرست الإمام القصار مخطوطة في مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد 71 ج

بدوره في افادة الطلاب الذين تكاثروا عددهم اذ ذاك بالزاوية حتى ضاقت بهم
بيوت المدارس.

وخلف محمد بن أبي بكر أباه بعد موته عام 1612/1021 في القيام بشؤون الزاوية
البكرية، فسار على نهجه في إطعام الطعام، وإكرام العلماء والمتعلمين، وسعى مثله
في تهذيب الأخلاق، وترقية الأذواق، مجتهدا في اصلاح الأحوال العامة بالانتصار
للمستضعفين من قومه وجيرته، وإنصافهم من الظالمين المتغلبين عليهم من ذوي
قربتهم، فأصابه من شر الفتنة وعنت البغي ما جعله يبتعد عن الدلاء مدة مهاجرا
الى تاغيا، ولكنه لم يستسلم وظل ينشد العدل والأمن، مستعملا طرق الترغيب
والترهيب تارة، وملتجئا الى حد السيف أحيانا، الى أن خضدت شوكة الفئة
الباغية وسادت الطمانينة اقليم تادلا والأطلس المتوسط. وتوسع محمد بن أبي بكر
كثيرا في نشر العلم بالزاوية البكرية، وشيد بها مدارس جديدة لايواء الطلبة
المتكاثرين، ونبغ عدد غير قليل من أحفاد أبي بكر الدلائي وتخرجوا من زاويتهم
علماء وأدباء وشعراء وأقبلوا بدورهم على التدريس فيها، فقامت في هذه القرية
الجبيلية النائية، الآمنة المطمئنة، سوق علمية نافقة راجحة، في الوقت الذي كانت فيه
فاس ومراكش وغيرها من المدن العلمية التقليدية تعاني من ضروب الخن وأهوال
الفتن ألوانا، حتى تعطلت صلاة الجمعة في القرويين فضلا عن مجالس العلم.
وظلت الزاوية الدلائية في هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب تقوم بدورها المشرف
في احتضان الثقافة العربية، والحفاظ على التراث العلمي والديني، تفسح صدرها
الرحب للعلماء والطلاب من مختلف الآفاق وتنفق من سعتها بغير حساب.

وإذا كان محمد بن أبي بكر درس علوما كثيرة، عقلية ونقلية كما رأينا، فإنه برز
في التفسير والحديث، حتى كادت مجالسه العلمية تقتصر عليهما، وكان يحفظ
صحيح البخاري ومسلم وكتب السن وغيرها، ويعرف الروايات المختلفة ورجال
الأسانيد مع كثير من الضبط والتحري والصدق وعدم المبالاة في الجهر بالحق. وهو
القائل عن محدثي زمانه «حفاظ المغرب ثلاثة حافظ ضابط ثقة، هو أحمد بن
يوسف الفاسي. وحافظ ضابط غير ثقة، وهو أحمد المقرئ. وحافظ غير ضابط ولا

ثقة وهو عبد الله بن علي بن طاهر الحسني» (23) وقد تناول الناس هذا الحكم بالتعليق، واشتغل به المؤرخون والمحدثون فكتبوا في تأييده أو الرد عليه صفحات عدة في مؤلفاتهم الى عصرنا الحاضر، دون أن يجزؤ أحد منهم على الغض من ابن أبي بكر أو النيل من ثقته وعدالته. ويمتاز محمد أبي بكر أيضا بفصاحة العبارة وسلاسة الأسلوب، والقدرة على الانطلاق في الحديث، والاستمرار في الاملاء والتقدير، حتى كان درسه أحيانا يستغرق نصف يوم، دون أن يشعر المستمعون اليه بسأم أو ملل. ويمكننا أن نعرف قيمة هذه الدروس اذا علمنا ان ممن كان يحضرها ويستفيد منها احمد المقرئ، وأبو حامد العربي الفاسي، وعبد الواحد بن عاشر، ومحمد البوعناني، وعلي بن عبد الواحد الأنصاري. السلاوي، ومحمد المرابط، وغيرهم من أعلام العلماء وأكابر المؤلفين. ولم يكن تكوين ابن أبي بكر من النوع العادي القاصر على مجرد الرواية والتحمل والحفظ الآلي، وإنما كان تكوينا حقيقيا أعطاه شخصية علمية مستقلة، جعلته يكون لنفسه طريقة خاصة في فهم الحديث، ويرجع إلى أصوله الأصلية. سالكا سبيل المحدثين الأولين في انتقاد الرواية ورجائها، وتعديلهم وتجريحهم والعمل على استخراج الأحكام الفقهية من الكتاب والسنة. «وقد أعطي من القدوة على إقامة الأدلة ما كان يصل به الى الاستنباط من مسالك العلة فتكاملت عنده أدوات الاجتهاد، التي يجب عليها في تحقيق المناط وتفتيحه الاعتماد، حتى كان لا يشق له غبار في المباحثة والمناظرة، ولا يعبر له عباب في المذاكرة والمحاضرة» (24).

وقد رأينا عرضا في البابين السابقين جوانب متعددة من شخصية هذا العالم الصالح، وعرفنا شيئا عن كرمه ومواظبته على تدريس صحيح البخاري في مسجد الدلاء واحتفاله بالمولد النبوي الشريف، وسنقف على جوانب أخرى من

(23) ذكر هذه العبارة جل من ترجم لابن أبي بكر، كالقادر في نشر الثاني 1 323. وقد سبق التعريف بأحمد الفاسي، وسأني ترجمة المقرئ، أما عبد الله بن علي طاهر الحسني فهو المحدث الجافظ تلميذ الإمام القصار ورفيق الشيخ ابن أبي بكر الدلائي في الطلب. توفي عام 1634/1044 ودفن في بلاده مدغرة من أعمال سجلماسة وبنيت على ضريحه قبة. ارجع في موضوع مقالة ابن أبي بكر الدلائي في حفاظ زمانه الى الكتاني، فهرس الفهارس، 1 296 - 300.

(24) سليمان الخوات، الدور الضاوية، ورقة 30/ب.

شخصيته في الأبواب التالية، غير أنه ينبغي ألا يفوتنا هنا أن نعرض بإيجاز لما كان عليه من رقة الطبع ودقة الاحساس وعمق الشعور. ومن بليغ تأثره بالمواعظ ما حكاه عنه تلميذه أحمد بن يعقوب الولايلي بقوله «وحضرته يوماً تقرأ بين يديه همزية البوصيري — شكر الله له سعيه — صبيحة يوم المولد النبوي أو سابعه، وقد بلغ من ينشدها إلى حيث ذكر الصالحين وأنه يحاول أن يصل إليهم وقد فاتوه مع كبر سنه (25) فجعل يبكي رحمه الله بكاءً شديداً حتى بكى لبكائه من حذوه، ثم غلبه حاله فقام يذهب حافياً، وما شاء الناس إلى منزله..» (26). وقد ازداد طبع محمد بن أبي بكر الدلائي رقة في سنيه الأخيرة وأخذ يكسر من الانصات إلى السماع (27) ويتأثر به غاية التأثير فبلغ ذلك شيخه أحمد بن القاضي فكتب إليه

عهدتُك ما تصبو وفيك شبيبةً فمالك بعد الشيب أصبحت صايباً
فأجابه محمد بن أبي بكر بقوله

نعم لاح برق الحسن فاخططف الحشا فليته من بعد ما كنت آيباً
ولما دنا أجل محمد بن أبي بكر الدلائي جمع أولاده بين يديه وكان يستشعر من بعضهم الاستشفاف إلى الإمارة والجاه، وأوصاهم بعدم الانسياق مع الأهواء، والجري وراء الأطماع، وقال لهم إن الله عز وجل أخبر عن قول طالوت لقومه «إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّغُكُمْ بِنَهْرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ» (28) وأنا أقول ولو من اغترف غرفة بيده. ولم يؤلف محمد بن أبي بكر الدلائي على ما كان عليه من علم وتحقيق إلا كتاباً جمع فيه أربعين حديثاً نبوياً، رغبة في نيل الثواب الوارد في ذلك، ومسائل مختلفة من أصول الفقه وفروعه بعث بها إلى تلميذه أحمد المقرئ بالمشرق، شأنه في ذلك شأن شيخه الإمام

(25) يشير إلى أبيات الحمزية التالية

كنت في نومة الشباب فما استيقظت إلا ولني همطاء
ومناديت أقتفي أثر القوم فطالت مسافة واقتفاء
فوراً السائرين وهو أمامي ببل وعرة وأرض عراء

(26) أحمد بن يعقوب الولايلي، مباحث الأنوار، ورقة 50/أ.

(27) المراد بالسماع إنشاد الأشعار والموشحات ملحنة على حسب الطبع الموسيقية.

(28) سورة البقرة، الآية 247.

القصار الذي لم يترك بعد وفاته إلا تقايد في وريقات بيعت بوزنها ذهباً على ما قبل.

وفي شرح العربي الفاسي لدلائل الخيرات قال أنشدنا لنفسه شيخ الاسلام محمد بن أبي بكر بن محمد (الدلائي)

عليك بأذيال النبي فَلَذْ به نرى (?) عجا في الوقت من غير مرتبة
فيا مُدَّج للوصل دون طريقه ضللت وأضللت وثوت بخيبة
فكل طريق دون باب محمد مؤد الى الخسران لا غير فائتبت

وتوفي محمد بن أبي بكر يوم الاربعاء 11 رجب عام 1046/1046 دجنبر 1936 عن سن تناهز الثمانين، ودفن ضحى الغد الخميس قرب روضة والده بالدلاء وشيد على ضريحه الملك السعدي محمد الشيخ بن زيدان (1045 — 1636/1063 — 1653) قبة حسنة بعث لبنائها من مراکش وصيفه الأمين مبارك السوسي مزودا بالمال والمواد اللازمة ومعه عدد من العمال والصناع «فبنيت على أحسن ما ينبغي من التتميق، والتبهيج والتزويق» (29) وكتب بأعلى مشهد الدريوز أبيات من نظم الأديب محمد بن سعيد السوسي المرغتي، وهي

هذا ضريح التقى والمجد والكرم هذا الولي الوفي العهد والذم
هذا المحب لأهل الله قاطبة محمد بن أبي بكر الرضى العلم
قد سار في رجب لله عام مشوا به الى جنة الرضوان والنعم (30)
من أجل ذا قام في تشييد روضته محمد الشيخ مولى العرب والعجم

وقد مهدم سقف هذه القبة، ولم يبق منها اليوم إلا جدرانها العارية من الجص، تبدو لبنانها الأحمر أفقية في الجدران، وقائمة أو منحرفة في أقواس الأبواب الموجودة في جهاتها الأربع. وبوسطها ساريتان مربعتان، بينما يوجد القبر محلودبا

(29) سليمان الخوات، البعور الضاوية، ورقة 101/ب.

(30) عدد حروف كلمة (مشو) بحساب الجمل 1046. إذ الشين بألف، واليم بأربعين والولو بستة. والتواريخ الشعرية تنبئ غالبا على هذا الحساب الانجدي السهل.

كسائر القبور العادية مغطى ببقايا القرميد الأخضر الذي كان يزين أعلى القبة، وقد قيلت في مدح محمد بن أبي بكر الدلائي قصائد شعرية وقطع نثرية لو جمعت لكونت ديواناً أدبياً ضخماً (31).

ب) بقية أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها

عبد الرحمن بن أبي بكر الدلائي

هو أحد العلماء النابغين في العهد الأول للزاوية الدلائية وفيها أخذ العلم عن أبي علي الحسن بن أحمد الدرعي الشهير بالدرلوي، وأبي العباس أحمد بن محمد بن القاضي المكناسي، وذلك قبل أن يرتحل إلى فاس ليأخذ عن الإمام محمد بن قاسم القصار، ويدرس عليه التفسير والحديث وغيرها وينال منه إجازة عامة. وقد رجع عبد الرحمن إلى الدلاء عالماً كبيراً فتصدر للتدريس وأقبل عليه الطلبة من أبناء الزاوية وغيرها. وكان يدرس لهم التفسير، والحديث وعلم الكلام والفقه وأصوله والنحو، والتصوف. ولا نعرف الكتب التي كان يعتمد عليها عبد الرحمن الدلائي في هذه المواد، غير أنها في الغالب لا تخرج عن الكتب المتداولة في الزاوية مما أشرنا إليه في الفصل السابق. وكان عبد الرحمن ناسكاً سالكاً سبيل والده في الزهد والاعراض عن الدنيا، وانقطع في آخر حياته لعبادة ربه في خلوة خارج الزاوية، وبها توفي عام 1611/1020م وهو الوحيد بين إخوته الذي توفي قبل والده وبنيت عليه «قبة حفيلة مستطيلة» ما تزال جدرانها قائمة حتى اليوم (32).

(31) ترجم لمحمد بن أبي بكر تلميذه أبو حامد الفاسي في ورقة المحاسن ص 225 — 227، ومحمد الأفراني في الصفوة ص 67 — 68، ومحمد القادري في نشر للتاني ج 1، ص 339 وما بعدها، وسليمان الخوات في الدور الضاوية بإسهاب من ورقة 25/ب إلى ورقة 101/ب. ومحمد بن أحمد الفاسي، شرح درة التيجان، مخطوط خ. ع. رقم 1432 ك ص 7—13. والكتاني في فهرس الفهارس ط. بيروت، ص 394 — 402. وعباس بن إبراهيم في الإعلام 4 277 — 279. وأخبار محمد بن أبي بكر الدلائي متفرقة في أكثر الكتب التي ألفت في القرون الثلاثة الأخيرة.

— انظر قصيدة مدح بها العربي الفاسي شيخه محمد بن أبي بكر في ملحق رقم 9.

(32) ذكر ر. هنري في مقاله بمجلة هيسبريس (عام 1944، ص 50) أن هذه القبة للمستطيلة هي لفقهاء الزاوية محمد ابن عبد الرحمن، وذلك بناء على رواية محلية غير صحيحة. انظر ترجمة عبد الرحمن الدلائي عند : سليمان الخوات، الدور الضاوية، ورقة 24/وما بعدها.

محمد المرباط الدلائي

محمد المرباط أو الصغير بن محمد بن أبي بكر الدلائي هو أحد علماء هذه الأسرة الذين طارت شهرتهم بالمغرب والمشرق، وتخطف الناس مؤلفاته باذلين فيها الأثمان الباهظة. وسبب شهرته بالمرباط تقشفه في الملبس منذ صباه، وزهده في الدنيا وإعراضه عنها. أخذ العلم بالزواية الدلائية فقط عن أبيه وأعمامه وإخوته، وغيرهم من العلماء الوافدين على الزاوية كأبي حامد محمد العربي الفاسي، وأبي العباس أحمد بن عمران. تولى المرباط الإمامة والخطابة والتدريس في المسجد الأعظم بالزواية البكرية، وكانت مجالسه النحوية العالية ملتقى نجباء الطلاب أمثال الحسن اليوسي وأضرابه. وقد اشتغل محمد المرباط كذلك بالتأليف في مختلف الفنون، وخاصة النحو والصرف والأصول، كما سنرى في الباب الأخير عند كلامنا على مؤلفات الدلائيين. أما أدب محمد المرباط فرفيع وغزير، وجله يتسم بالطابع الديني، ويختص بمدح الرسول الكريم. من ذلك قصيدته النونية التي تناهز 200 بيت، ومطلعها

حيّ المعاهد طافح الأشجان وانثر هناك لآلئ الأجفان

خرج المرباط مع قومه من الدلاء الى فاس بعد تخريب زوايتهم، وتابع رسالته العلمية والدينية بحاضرة المولى ادريس مقبلا على التدريس في مساجدها متوليا أمر الخطابة بمدرستها المتوكلية⁽³³⁾. ثم توجه الى الحج وأقام مدة في مصر أحاطه أثناءها علماء القاهرة بمظاهر الاعزاز والاكرام، ومدحه أدباؤها بقصائد تنم عن مدى اعجابهم بهذا العالم المغربي الكبير الذي سبق أن عرفوه عن طريق مؤلفاته القيمة. من ذلك قصيدة للإمام أبي السرور الصيداني. مطلعها
فمس الهدى من أمه نال الأرب فرع الكرام ذوي المكارم والحسب⁽³⁴⁾

(33) للدرسة للتوكلية هي للدرسة البوعنانية الشهيرة بحي الطالعة بفاس.

(34) انظر القصائد التي مدح بها أدباء مصر للمرباط الدلائي عند : سليمان الخوات، الدور الضاوية، ورقة 34/ب وما بعدها.

توفي المرابط الدلائي بفاس عام 1678/1089 (35).

أحمد الحارثي بن أبي بكر الدلائي

هو أحد نخاة الزلوية ولغويها. قضى حياة الطلب كلها في الدلاء آخذاً عن علماء قومه، وعن الوافدين على زلويتهم مثل أحمد ابن القاضي، وأحمد بن عمران الفاسي، وعلي بن عبد الواحد الانصاري السلوي، وأبي حامد العربي الفاسي، وقد أجازته هذا الأخير إجازة عامة (36) «وكانت له اليد الطولى في التاريخ، والحساب، واللغة، والبيان، والأدب، والأصول، والفقه، والحديث» (37)، غير أن النحو واللغة غلبا عليه، فكان يقرئ كتاب سيبويه طول عمره كما رأيناه في الفصل السابق وألف في الأصول شرحاً على مختصر ابن الحاجب، تاركاً تقايد كثيرة في التفسير والحديث، وتوفي بالدلاء عام 1641/1051.

المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي

هو أبو عبد الله محمد المسناوي «الفقيه المحدث الأستاذ الكبير، الوارد من حياض المجد منها يروي ويمير» (38) نشأ في الدلاء ثم انتقل الى فاس قبل أن يبلغ الحلم، وأكسب فيها على تحصيل العلوم بجد واجتهاد آخذاً عن الامام محمد القصار، وعبد الواحد بن عاشر الأنصاري وغيرهما. ولم يرجع الى الزلوية الدلائية إلا وهو عالم بارع في الفقه، والأصولين، والتفسير، والحديث، وعلم الكلام، والقراءات، واللغة، والنحو، والأدب، فأخذ يلقي هذه العلوم لتلاميذ الزلوية، وأقبل عليه طلاب العلم إقبالاً كبيراً إلى أن قتل غدراً خارج الزلوية عام 1649/1059. وقيل فيه مراث كثيرة، منها مراثية ولده الطيب التي مطلعها

غواثُ هذا الدهر مرهوبة الفتكِ فإن سرَّ في حين فأكثره مُبكِ (39).

(35) ترجم لمرابط الدلائي محمد القادري في نشر الثاني 2 236 — 241 وسليمان الخوات في البدور الضاوية، من ورقة 133 الى ورقة 164. ومحمد بن جعفر الكتاني سلوة الانفاس، (2 90) وما بعدها.

(36) أنظر نص الإجازة عند سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 102/ب.

(37) نفس المصدر في نفس الورقة.

(38) محمد بن الطيب القادري، نشر الثاني 2 43.

(39) انظر ترجمة المسناوي ومرثيته عند سليمان الخوات البدور الضاوية من ورقة 1/123 الى ورقة 1/125 ومحمد القادري، نشر الثاني ص. 2: 43.

أبو عَمَرَ بن محمد بن أبي بكر الدلائي

علامة أديب، تم تكوينه العلمي بالزاوية الدلائية على يد علماء قومه وغيرهم، كأحمد بن عمران وأبي حامد العربي الفاسي. كان أبو عمر عالما مشاركاً في الحديث، والفقه، والأصولين، والنحو، والبلاغة، والأدب. ودرس كل هذه الفنون بزاويتهم، غير أنه كثيراً ما كان يدرس لتلاميذه كتب تلخيص المفتاح، وجمع الجوامع، وألفية ابن مالك، كما رأينا في الفصل السابق. وله آثار نثرية وشعرية كثيرة ندل على رسوخ قدمه في ميدان الأدب. توفي أبو عمر بالزاوية الدلائية عام 1658/1069 (40).

أحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي

عالم أديب، درس في الزاوية الدلائية على علمائها المتوافرين دون أن يبرحها، ثم اشتغل بالتدريس فيها. كان موسر الحال، عظيم الحناء، يتقلب في رغد العيش وينعم بالحياة المترفة الى جانب أخيه السلطان محمد الحاج، متخذاً بطانته من أدباء الزاوية وشعرائها، الى أن زارهم الشيخ محمد بن عبد الله السوسي (41) عام 1660/1071 في طريقه الى حج بيت الله الحرام، فأخذ عنه أحمد الدلائي وصلح حاله، ورق قلبه، وأعرض عن الدنيا وزخرفها الى أن مات بالدلاء عام 1665/1075 (42).

(40) توجد ترجمة أبي عمر وبعض رسائله وقصائده عند سليمان الخوات البدور الضاوية، من ورقة 1/128 الى نهاية ورقة 130/ب.

(41) الشيخ محمد بن عبد الله السوسي اشتهر أمر ولأيته بمراكش. ووثق به الى السعديين فأوقفوه عن نشاطه الصوفي، ثم وجه الى البقاع المقدسة للمجاورة فيها، ومر في طريقه بالزاوية الدلائية فأقام عند سلطانها محمد الحاج عشرة أيام. وفيه ألف أحمد بن يعقوب الولاي كتابه مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، توفي الشيخ محمد السوسي بمكة عام 1668/1079.

(42) ترجم لأحمد الدلائي محمد بن يعقوب الولاي في مباحث الأنوار، ورقة 33/ب، وسليمان الخوات في البدور الضاوية، ورقة 1/165.

الطيب بن المسناوي الدلائي

«كان إماما كبيرا، وأديبا ماهرا شهيرا، وعالما عاملا، وفاضلا كاملا» (43)
درس في الدلاء أولا على أبيه وأعمامه وغيرهم من العلماء المقيمين بالزاوية
كالشيخ حمدون الأبار، ومحمد بن سودة، ومحمد العربي الفاسي وغيرهم. ثم شد
الرحلة الى فاس وهي اذا ذاك خاضعة لنفوذ الدلائين، فأقام فيها معززا مكروما وأخذ
عن علمائها، خصوصا منهم الشيخ عبد القادر الفاسي، وطال مقام الطيب
الدلائي بفاس إلى أن تمكن من المعارف تمكننا متينا فرجع الى الزاوية الدلائية،
ونصدر للتدريس والفتوى، وازدحم الطلبة على حلقاته العلمية. ولم تقتصر براعته
على الناحية الفقهية الدينية وإنما كان الى ذلك أديبا ماهرا، جيد الانشاء، طويل
النفس في الشعر نصل احدى قصائده الى 175 بيتا مع متانة لغوية وسمو تفكير
ورقة أسلوب. توفي الطيب بالدلاء عام 1077 / 1666. ورثاه أبو العباس أحمد بن
عبد القادر التاستاوتي بقصيدة حزينة مطلعها

اليومَ آنَ لمدمني أن يَهَمَّعا ولهجتي بالوجد أن تنقطعاً (44)

محمد الشرقي بن أبي بكر الدلائي

هو أحد أعلام الدلائين المشاركين في مختلف الفنون، الجامعين بين العلم
والدين والادب. كانت دراسته كلها بالزاوية الدلائية على علماء قومه وغيرهم.
وأجازه أبو حامد محمد العربي الفاسي إجازة عامة. واختص من بين أساندة الزاوية
كما رأينا في الفصل السابق بتدريس علم القراءات والتجويد. وهو يتقن الى جانب
ذلك اللغة، والنحو، والبلاغة، والادب، والتاريخ، والمنطق، والتفسير، وألف في
السيرة والبلاغة كما سيأتي في الباب الاخير، وترك آثارا أدبية رفيعة. وكانت وفاته
بالدلاء عام 1079 / 1668 (45)

(43) محمد القادري، نشر الثاني ج. 1، ص 264.

(44) انظر ترجمة الطيب الدلائي وبعض آثاره النثرية والشعرية وما قيل فيه من رثاء عند سليمان الخوات البدور الضاوية
من ورقة 167 / ب الى ورقة 181 / ا.

(45) ترجم للشرق محمد القادري، نشر الثاني 2 361—364؛ وسليمان الخوات في البدور الضاوية، ورقة
104 / ا. ومحمد الكتاني في سلوة الانفاس ج 2، ص 94 وما بعدها.

الشاذلي بن محمد بن أبي بكر الدلائي

«كان أعجوبة الزمان، في الحفظ والاتقان، يجيد الشعر، ويرع في النثر» (46) قرأ في الزاوية الدلائية وحدها على علمائها من أهله وغيرهم، كالامام أبي حامد الفاسي، والشيخ أبي العباس بن عمران. ونبغ في اللغة وقواعدها وآدابها، وكرس حياته لتدريس ألفية ابن مالك، و مقامات الحريري حتى قيل إنه أقرأ الأولى مائة مرة والثانية ثلاثين مرة كما رأينا. وقد خرج الشاذلي مع قومه بعد تخريب الزاوية الدلائية الى فاس ودرس بها فتنخرج على يده علماء كثيرون، منهم الاخوان القادريان عبد السلام والعربي، وادريس المنجرة. وخلف الشاذلي أخاه محمد المرابط في الخطابة بالمدرسة البوعنانية، وفيها كان يلقي أكثر دروسه متصدرا للافتاء وابداء النظر في المشاكل الفقهية والنوازل العويصة، ثم تخلى عن هذه الخطة تورعا منه، ومات بفاس عام 1103 / 1691 (47).

محمد بن محمد الشاذلي الدلائي

أديب بليغ وعالم مشارك، تكون على يد علماء الزاوية الدلائية ثم درس فيها أيام عمه السلطان محمد الحاج. وكان ميله الكبير الى علوم البلاغة والادب، وله قلم بارع في الترسل ورقة متناهية في الشعر. ولما أخرج مع قومه من الزاوية الدلائية بقي يحن اليها طول عمره، ويتنقل في البلدان يكتب إلى والده وإخوته مراسلات رفيعة طويلة يستلها دائما بقصائد رصينة حزينة. ومما جاء في مطلع إحدى رسائله

أحمّل أنفاس الصبا عبت نشرا تحية مشتاق تبيجّه الذكرى
متى هتفت بالبان تملّي شجونها مطوقة أذكت بأحشائه جمرا..

وكانت وفاة محمد الشاذلي عام 1107 / 1695 (48).

-
- (46) محمد القادري، نشر للثاني 3 58
(47) ترجم للشاذلي محمد القادري في نشر للثاني 3 58، وسليمان الخوات في البدور الضاوية، ورقة 131،
ومحمد بن جعفر الكتاني في سلوة الانفاس، 2 96
(48) أنظر ترجمة محمد بن محمد الشاذلي عند محمد القادري، نشر للثاني 3 74، وسليمان الخوات في البدور
الضاوية ورقة 230. ومحمد بن جعفر الكتاني، سلوة الانفاس، 2 : 89.

3 — أساتذة الزاوية الدلائية من غير أبنائها

أحمد بن القاضي

أبو العباس أحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي، نسبة إلى مكناسة القبيلة البربرية الزناتية، لا إلى مدينة مكناس. وجده الأعلى موسى بن أبي العافية الذي حارب الأدارسة في مستهل القرن الرابع للهجرة. وأمن في قتلهم وتشريدهم حتى كاد يفنيهم⁽⁴⁹⁾. ولد أحمد ابن القاضي في فاس عام 960 / 1553، وتخرج على يد أكابر علمائها مثل القصار، والسراج، والمنجور، ورحل إلى الشرق فحج للمرة الأولى عام 987 / وجاور في الحرمين الشريفين مدة، وأخذ في مصر عن الامامين سالم السنهوري⁽⁵⁰⁾ ويدر الدين القرافي⁽⁵¹⁾ وغيرهما.

«وكان حافظاً، ضابطاً، محققاً، مؤرخاً، اخبارياً ثقة، سيال القرحة بالشعر، حسن العبارة، لطيف الإشارة، مستجمعاً العلوم والادب، ماهراً في معرفة علوم الأوائل، مشاركاً في غير ذلك للأئمة الامائل، وانفرد بعلم الحساب والفرائض في وقته شرقاً وغرباً»⁽⁵²⁾. اتصل أحمد بن القاضي بالسلطان أحمد المنصور الذهبي، وخدمه ونال عنده الحظوة الكاملة. «ثم ثاب له رأي في معاودة البلاد الشرقية للتطوع بحجة أخرى واستزادة العلم والتحصيل. وكانت له نية بالغة في نشر مآثر مولانا

(49) نسب ابن القاضي نفسه في كتابه جفوة الانقباس إلى موسى بن أبي العافية، واستنكر عمله ضد الاشراف «الأدارسة». وقد استشكل صاحب سلوة الأنفاس (3 133) صحة نسبة ابن القاضي إلى ابن أبي العافية، لما ذكره بعض المؤرخين من أن يوسف بن تاشفين اللمتوني استأصل شاقة ذرية ابن أبي العافية. ويظهر أن ذلك يعني قتل عدد كبير من آل ابن العافية لا استئصالهم، إذ يصعب القضاء على جميع النسل بعد نحو قرن ونصف خصوصاً وأن آل أبي العافية كانت لهم مجالات واسعة للانتشار في المغربين الأقصى والأوسط. زيادة على بلاد الأندلس التي كانت تربطهم بعرضها روابط متينة.

(50) أبو النجا سالم بن محمد السنهوري، شيخ المالكية بمصر في وقته. له حاشية على مختصر الشيخ خليل، توفي عام 1016 هـ 1607 م.

(51) بدر الدين محمد بن يحيى المعروف بالقرافي، قاضي المالكية بمصر، شارح مختصر الشيخ خليل، و قاموس الفيروغادي، و مؤلف ذيل فيج ابن فرحون في طبقات المالكية. توفي عام 1009 هـ - 1600 م

(52) محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس 3 : 134.

الامام أمير المؤمنين أيده الله في الآفاق، فجمع من مفاخر الدولة وفتوحها ومآثرها وأمداحها ما أمل بثه في الاقطار، ونشره في المشارق لو ساعدته الأقدار، واستأذن أمير المؤمنين أيده الله فأذن له ووصله، وتوخى الطريق على البحر، فركب السفن من ثغر تيطاون فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق فأسرهم، وحصل في ورطة عظيمة لولا ما تداركه من الطاف الله تعالى وشمله من عناية مولانا أمير المؤمنين...» (53)

هكذا نرى ابن القاضي يقوم في رحلته الثانية هذه بمهمة علمية — سياسية في آن واحد، فيجمع الوثائق الضرورية ويسافر الى الشرق ليزيع محاسن الخليفة المنصور، وينشر مآثر الدولة السعدية فيما قد يعقده من مجالس للتدريس، أو يصنفه من الكتب، لولا طالع النحس الذي أوقعه في أيدي القرائصة الافرنج. وظل ابن القاضي في الأسر أحد عشر شهرا (54) عانى خلالها شدة عظيمة، وبلاء كثيرا، وصور لنا ما كان يعامل به النصارى أسراهم المسلمين من التجويع والاعراء والضرب والتكليف بما لا يطاق، مدفوعين بالتعصب الديني الاعمى وبالرغبة في الحصول على الفداء والغراء. وقد كتب ابن القاضي أيام محتته مرارا الى الخليفة أحمد المنصور يشكو له سوء حاله ويرجو منه العمل على تخليصه من ورطته. ومما جاء في احدى قصائده الاستعطافية قوله

وكن يا امام العدل في عون حائِر
لقد مرّقت أيدي الزمان وريدَه
أسير كسير ذي جناح مُذَلَّل
ودارت عليه الدوائر كجُلجل
وأخنى عليه الدهر من كل جهة
وداست عليه النابات بِأرجل

ولما استرد أحمد بن القاضي حريته بفضل أحمد المنصور الذهبي ألف فيه كتاب المنتقى للمقصود على محاسن الخليفة المنصور، كما أهدى اليه كل الكتب التي ألفها بعد ذلك، ومدحه بقصائد عديدة. وتولى ابن القاضي خطة القضاء في مدينة سلا فيما بين عام 998 و 1590/1010—1601 وكان له نائب بها هو

(53) عبد العزيز الفشتالي، مآهل الصفا، ص 368.

(54) أسر ابن القاضي في 24 شعبان 994 / 1586 وأطلق سراحه في رجب 995 / 1587

الأديب حسين الملوكي ثم عزل فرجع الى مسقط رأسه فاس واشتغل بالتدريس. (54م)

وقد أقام ابن القاضي في الزاوية الدلائية مدة غير قصيرة يدرس العلم ويفيد الطلبة. وأخذ عنه في هذه الفترة محمد بن أبي بكر الدلائي وإخوته علوم الادب والحساب والتوقيت وغيرها، وكان لابن القاضي طريقة مفيدة في التدريس، يقتصر على المهم من المسائل، ولا يتوغل في التفصيلات المتشعبة العقيمة، معتنيا باللب والجوهر، خصوصا في الفقه الذي تكثر فيه عادة الاقوال والاحتمالات. فكان يقرئ مختصر الشيخ خليل ويختتمه كل أربعة أشهر، بينما لا ينتهي منه غيره إلا في سنوات. واشتغل في آخر عمره بتدريس صحيح البخاري في جامع الأبارين بفاس، فكان الذي يسرد الحديث بين يديه هو الشيخ عبد الواحد بن عاشر صاحب المرشد للعين، ويحضر مجالسه الحديثية الحافظ أحمد بن يوسف الفاسي، والامام أحمد المقرئ صاحب نفح الطيب وغيرهما من أكابر العلماء.

تأليف ابن القاضي

ألف أحمد بن القاضي كثيرا من الكتب في الفقه، والفرائض، والحساب، والهندسة، والمنطق، والتاريخ. ويذكر أصحاب التراجم أن المادة التي كان يتفوق فيها ابن القاضي على معاصريه هي الرياضيات، غير أن كتبه في هذا الفن قد ضاعت للأسف أو لم يعثر أحد عليها بعد فيما أعلم (55). وبالعكس من ذلك بقيت لنا جل الكتب التي ألفها في التاريخ والتراجم. ولعل أهمها جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس بدأه بمقدمة تحدث فيها عن موقع المغرب في الاقليم الرابع من الاقاليم السبعة التي رسمها حكماء اليونان القدماء. وذكر مزايا هذا الاقليم

(54م) ذكر ابن القاضي في شرح الاكسر أنه شرع في تأليفه بفاس عام 1608/1017

(55) بعد كتابة هذه الترجمة وقعت في الخزانة الملكية بالرباط وفي خزانة ابن يوسف بمراكش على بعض هذه المؤلفات كـ سياتي في الجداول التالي :

الأوسط بقوله «وهو أعمرها، وفيه أرض بابل وجزيرة العرب، وفيه بغداد فلاعتداله اعتدلت أبدان أهله، فسلموا من شقرة الروم وسواد الزنج وغلظ الترك وجفاء أهل الجبال. وكما اعتدلوا في الخلقة اعتدلوا في الفطنة والذكاء والعلم» (56). وتنبه للوحدة الجغرافية لبلاد المغرب الكبير، فقال إن أول بلاد المغرب من ناحية الشرق جبال بركة. التي هي آخر أعمال مصر وأول أعمال القيروان مستدلا على ذلك بأن جبل درن (الاطلس الكبير) يمتد عبر الجزائر وتونس ولا ينتهي إلا في بركة ثم انتقل للكلام عن حكم أرض المغرب هل فتحت صلحاً أو عنوة، واستعرض أقوال الفقهاء مرجحاً انها «مختلطة هرب بعضهم عن بعض فمن بقي بيده شيء كان له» (57) وبعد ذلك تكلم عن قدوم إدريس الأول إلى المغرب ومبايعة قبائل أوربة له، وارتداد إدريس الثاني فحص سايس الذي أسس فيه مدينة فاس يوم الخميس فاتح ربيع الأول عام 192، بدأ بعدوة الاندلس وأدارها بالسور ثم بعد سنة بنى عدوة القرويين. وقد تتبع ابن القاضي مراحل بناء المدينة بما فيها من مساجد ودور وأسواق وأسوار وأبواب، وتعرض للتغيرات الطارئة على فاس عبر القرون والدول. ثم سار على النهج الذي اختطه لنفسه في المقدمة عندما قال «أذكر على ترتيب حروف المعجم ملوكها (فاس) وعلماءها وأعلامها، وما لهم من نظم وتآليف، ومن أخذوا عنه أو أخذ عنهم، سواء كان من الغرباء القادمين عليها أو من أهلها. الا أنني ان شاء الله تعالى أفرد في كل حرف ترجمة للغرباء الوافدين عليها» (58).

وكتاب المنتقى للمقصود على محاسن الخليفة المنصور هو كاسمه خاص بتمجيد الملك السعدي أحمد المنصور الذهبي، ألفه ابن القاضي بعد فكاهه من الاسر اعترافاً بجميل هذا الخليفة الذي بذل لتخليصه من أيدي الروم فدية عالية. ورتبه على مقدمة وستة وعشرين باباً وخاتمة، تكلم في المقدمة على نسب المنصور

(56) النسخة الخطية من جذوة الاقتباس خزنة الرباط، 2362، ورقة 3 / أ
(57) نفس المصدر، ورقة 3 / ب. وتجدر الإشارة إلى أن أكثر ما ورد في مقدمة الجدوة وبعض فصولها من الاخبار العامة منقول من القوطاس لابن أبي زرع، أو من زهرة الآس لابي الحسن الجزنائي أو من غيرهما. وتكمن أهمية كتاب ابن القاضي فيما اشتمل عليه من تراجم أعلام فاس والوافدين عليها.
(58) ابن القاضي، الجدوة، ورقة 2 / أ

وحقيقة الخلافة وما يجب للسلطان على الرعية، وتحدث في الباب الاول عن حسن خلق المنصور وعقله وكإل خلقه، وفي الثاني عن محافظته على التكالييف الشرعية، وفي الثالث عن عدله في رعيته وقيامه بالشرعية، وفي الرابع عن تعظيمه للمولد النبوي وهكذا الى آخر الابواب، وذكر في الخاتمة «نكتا غريبة، وطرفا عجيبة، يصغي اليها المنتهي والشادي، والعاكف في ريع الأدب والبادي» (59) ويظهر ابن القاضي في خلال الكتاب أستاذًا مرحًا منطلقًا على سجيته يمزج التاريخ بالأدب، ويستطرد القصة والخبر، وينشد ما يستحضره من الشعر الذي يناسب الموضوع، ويعتذر في الباب الرابع عن عدم إيراد المولديات الكثيرة التي كانت تنشأ بين يدي الخليفة المنصور لضياعها منه في المحنة التي أصابته عندما أسره الروم في البحر. ونجده في المقدمة يثير انتباه القارئ الى طريقته هذه بقوله «وقد أذكر بعض حكايات وقصائد ومقطعات أنشدتها وملح غريبة استفدتها، ليكون ذلك كالعين على مطالعة الكتاب، لأن النظر في فن واحد قد ترغب عنه النفوس، بخلاف ما اذا ثمق بغيره فقد يسلي العيوس.

لا يُصْلِحُ النفس إذْ كانت مَدَابِرُهُ إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ (60)

أما كتاب لقط الفرائد من لفاظة حقايق الفوائد فجعله ابن القاضي ذيلًا لوفيات ابن الخطيب القسنطيني المعروف بابن قنفذ (61) وأرخ فيه لثلاثة قرون،

(59) أحمد بن القاضي للتقي للقصور، ورقة 2
(60) للتقي للقصور، ورقة 1 هذا وقد وقفت على ثلاث نسخ قديمة متبوعة من كتاب للتقي للقصور، أولها مصورة عن مخطوط الخزنة النيدانية بمكناس ومسجلة في الخزنة العامة بالرباط تحت عدد 1057 د. والثانية مخطوطة بالخزانة العامة أيضا تحت عدد 764 د. والثالثة مخطوطة في الخزنة الملكية بالرباط تحت عدد 1153. وبين هذه النسخ بعض اختلاف في عناوين الابواب وترتيبها. على أن أقربها الى الكمال النسخة الأولى للمصورة. وبعد للمقارنة وتكميل ما أمكن تكميله من نقص في بعضها بما تنفرد به النسخ الأخرى تبين أن الابواب المفقودة من الكتاب هي التاسع عشر، والعشرون، والواحد والعشرون.

(61) ابن قنفذ الخطيب القسنطيني (741-810/40-1341-7-1408) هو القاضي إغث أحمد بن حسن ابن علي بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني، تلميذ الخطيب ابن مرزوق الجد وأستاذ ابن مرزوق الحفيد. ارتحل من قسنطينة الى المغرب وبقي فيه 18 سنة صحب خلالها الشيخ أحمد بن عاشر السلاوي وألف تأليف كثيرة منها كتاب الوفيات الذي ذكر فيه وفيات الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين، ورتبه على التين من السنين.. وانتهى بذكر وفيات العشرة الأولى من المائة التاسعة. وهذا الكتاب هو الذي ذيله ابن القاضي بلقط الفرائد.

يبتدىء من أول المائة الثامنة الى آخر المائة العاشرة. وقد أهداه كذلك الى ولي نعمته الخليفة المنصور الذهبي. ولم يقتصر ابن القاضي في لقط الفرائد على ذكر وفيات علماء الاسلام في الشرق والغرب، بل اهتم الى جانب ذلك باعطاء نظرة موجزة عن يترجم لهم. يذكر للبعض ما تولاه من المناصب خصوصا القضاء ويشير الى ما للبعض الآخر من انتاج علمي أو أدبي. ويمزج ذلك بذكر الأحداث البارزة في السنوات التي يؤرخها سواء كانت تتعلق بالسياسة والحروب، أو بالتشييد والعمران. فعندما تعرض مثلا للسنة الخامسة من المائة الثامنة 705 ذكر استيلاء أهل الاندلس على سبتة قبل أن يذكر وفاة شرف الدين الدمياطي وغيره. وكذلك فعل في سنة 721 أتى بطائفة من أسماء العلماء الذين توفوا فيها ثم قال «وبنى أبو الحسن(62) مدرسة الصهريج، وبنى حولها سقاية... ودارا لسكنى شيوخ جامع الاندلس، وجلب الماء الى ذلك كله من عين خارج باب الحديد ورتب الفقهاء والاساتيد لتدريس العلم، وأسكنها بالطلبة، وحبس ريعا كثيرة للنفقة عليها(63) وكانت وفاة أحمد بن القاضي بفاس عام 1025 / 1616. (*)

(62) أبو الحسن الميني (731-752 / 1331-1351) أو السلطان الاكل كما كان يدعو العامة، لان أمه سودانية هو أعظم ملوك بني مرين، امتد نفوذه الى اقطار المغرب كله والاندلس، وكانت له علاقات طيبة مع ملوك مصر والسودان، وأسس كثيرا من المدارس والزوايا، وبنى القناطر والسقايات.

(63) أحمد بن القاضي، لقط الفرائد، ص 140
(6) انظر مصادر ترجمة أحمد بن القاضي في كتابنا الحركة الفكية، 2 : 368 والمماش 65.

مؤلفات أحمد بن القاضي

ذكر ليفي بروفنسال في مؤرخي الشرفاء أن لأحمد بن القاضي أربعة عشر مؤلفاً، منها أربعة في التراجم وثلاثة في التاريخ، أضفت إليها ثلاثة، وذكرت ما وقفت عليه منها مخطوطاً في الخزانات العامة والخاصة، كما نهت على ما طبع منها.

عنوان الكتاب	مكان الكتاب
1 جذوة الاقتباس، فيمن حل من الأعلام مدينة فاس.	طبع على الحجر بفاس عام 1309 هـ. ثم أعيد طبعه بالرباط عام 1974 م
2 درة المجال، في أسماء الرجال.	نشره ب.س. علوش بالرباط سنة 1934 ثم أعيد طبعه بمصر عام 1970 بمصر، بتحقيق محمد الأحمدى أبو النور. والطبعان مشوهتان.
3 درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك أرجوزة ضمنها أسماء الملوك مرنين حسب بوارخ وفيامهم.	مخطوط خ.ع. رقم 52 د.
4 بدر الخلوک، المشرق بدرة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك. شرح به الأرجوزة السابقة.	مخطوط خ.ع. رقم 52 د.
5 رائد الفلاح، يعوالي الأسانيد الصحاح. فهرس ضمنه مقروءاته وتراجم شيوخه، وأجاز به الأمير زيدان بن أحمد المنصور عام 1010 /	كان يوجد بفاس في خزانة الشيخ علال بن عبد الله الفاسي. وتوجد النسخة الأصلية بخط المؤلف في 156 ورقة بالمكتبة الأكاديمية بمديرية تحت رقم CAYANGOS XVIII
6 غبة الرافض في طبقات أهل الحساب والرافض	
7 لقط الفرائد، من لفاظة حقائق الفوائد ذيل به وفيات ابن قنفذ	طبع بالرباط سنة 1976 ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات.
8 المنتقى للمقصود على محاسن الخليفة أبي العباس المنصور.	طبع أخيراً بالرباط سنة 1986 في جزئين بتحقيق محمد رزوق.

فقه وفرائض وتفسير	
التيسير العجيب في تفسير الغريب.	9
مخطوط زاوية تنغملت رقم 344، الثاني في المجموع.	
مخطوط خ.م. رقم 8840.	
الرائض، لطالبي الناهض، بأعلاء علم الفرائض وهو شرح لارجوزة ابن داود التلمساني	10
القانون الوفي، مجداول الحوفي - في الفرائض	11
نيل الامل، فيما به بين المالكية جرى العمل.	12
حساب وهندسة	
فتح الخبير، بحسن التدبير، لفك رموز الاكسير. شرح به منظومة الاكسير في الهندسة لسعيد التجيبي المتوفي عام 1349/ 570	13
الفتح النيل، بما تضمنه من أسماء العدد ومعنى الحساب التزليل.	14
مخطوطة خزانة ابن يوسف بمراكش رقم 472 لعلها بخط المؤلف. وفيها انه فرغ من تأليفه يوم الاثنين 16 رجب 1008 بسلا.	
المدخل في الهندسة	15
كتب ضاعت في أسر المؤلف	
نظم منطق السعد.	16
نظم تلخيص ابن البناء.	17

ب) أساتذة آخرون درسوا في الزاوية الدلائية

الحسن الدرعي

أبو محمد الحسن بن أحمد الدرعي المعروف بالدرراوي، العالم المعقولي، المشارك المتبحر، مؤلف شرح صغرى السنوسي في التوحيد، وشرح لامية الامام

المجراة السلوي في قواعد الجمل. اشتهر هذا العالم بالانكباب على التدريس وبذل الجهود في افادة الطلاب، والحرص على نفعهم، سواء في موطنه الأول بدرعة أو في فاس، أو في الزاوية الدلائية «وكانت له اليد الطولى في معرفة العقائد والمنطق، وفي النحو، والقراءات، مع كمال التحقيق، وجودة الفهم والتدقيق. أقام مدة في الزاوية الدلائية يقرىء حتى عم النفع به هناك..» (65).

حط الحسن الدرعي رحاله في الدلاء في السنوات الأولى لتأسيس الزاوية، ونال من حظوة أبي بكر ورعايته ما يليق بمقامه العلمي والديني، وأقبل عليه الطلبة يأخذون عنه، وفي مقدمتهم محمد بن أبي بكر الدلائي الذي درس عليه التوحيد والفقه، والأصول، والمنطق، والبيان، وغير ذلك من منقول العلم ومعقوله، كما أخذ عنه كثير من إخوة محمد بن أبي بكر وغيرهم. وارتحل حسن الدرعي في أواخر أيامه الى فاس حيث وافته المنية عام 1598/1006 (66).

أحمد بن عمران الفاسي

أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسي ثم الفاسي العلامة المحدث الحافظ الأديب البليغ مفتي فاس، والمدرس بجامع القرويين، كان أبوه علي قاضي الجماعة، وجده عبد الرحمن من شيوخ الفقه والنحو. وسبب مجيئه الى الزاوية البكرية انه أصابه عسر في فاس وضاعت حاله بها فقصد الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي تاركا عياله وأولاده بفاس، وأقام عنده يقرىء أبناءه وغيرهم من الطلبة. فأرسل ابن أبي بكر الدلائي الى أسرة الفقيه ابن عمران كثيرا من المواد الغذائية والملابس والنقود، دون أن يعلمه بشيء من ذلك، ثم غمره بالعطايا حينما أراد الرجوع الى مسقط رأسه. وكان الشيخ ابن عمران يخلث نفسه وهو في طريقه الى فاس أنه سيأتي أهله بهذا الرزق الوفير ليبدل عسرهم يسرا، فإذا به يجدهم في رغد من العيش لا عهد لهم به. فلما علم بجلية الأمر أسرع بالرجوع الى الزاوية الدلائية وألقى عصا التسيار بها، واستقر مطمئن الخاطر مرتاح البال،

(65) سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 25/ب.

(66) ترجم للحسن الدرعي محمد القادري نشر الثاني 1 : 63. سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 25/ب.

منقطعا للتدريس والافادة. «وحضر الشيخ محمد بن أبي بكر يوما مجلسه، وهو غاص ببنيه وذوي قرابته ومودته فقال لهم من أحبني منكم فليعط لهذا الشيخ، يعني أبا العباس بن عمران. فأثنى كل من الحاضرين بما يقدر عليه، ثم بلغ ذلك النساء فأعطت كل واحدة منهن ما قدرت عليه من قوط أو سوار أو غيرهما، ثم بلغ ذلك الخبر أهل السوق وأهل البوادي فانتقلوا إليه، فكان الرجل يأتي بالفرس وغيو مما تيسر له فيعطيه له وقامت لذلك سوق عظيمة..» (67).

ومن أخذ عن أبي العباس بن عمران بالرواية البكرية محمد المرباط اللاتني وأبو عمر بن محمد اللاتني المتقدمان، والحسن اليوسي الذي أخذ عنه كبرى الشيخ السنوسي مع شرحها في التوحيد (68).

وكانت وفاة أحمد بن عمران بفاس عام 1654/1065 (69).

حملون الأبرار

أبو العباس أحمد المدعو حملون بن محمد بن موسى الأبرار الفاسي العلامة الخطيب البليغ، شيخ الجماعة بفاس، وخطيب جامع الأندلس. كان أهله من التجار الموسرين فسلك سبيلهم أولا فتجولا في الأقطار للتجارة وكسب الأموال، ثم شغف بالعلم فانصرف عن ذلك الى الدرس والتحصيل، حتى صار اماما في كثير من العلوم، خصوصا النحو والفقه. وسار في حياه العلمية سيرته في حياته التجارية، فجال في البلدان ينشر العلم، وحل بالرواية اللاتنية مدة يدرس لطلبتها مختلف الفنون حيث أخذ عنه فيها الطيب بن المسنوي اللاتني المتقدم وغيو، وكان أكثر ما يقرئ مختصر الشيخ خليل و ألفية ابن مالك «وتخرج به جماعة من الأعلام، بل جل طلبة المغرب عليه انتفعوا في اختصار. وله عليه حاشية هي موجودة بأيدي الطلبة. وله فتوى كثيرة حسنة» (70).

توفي بفاس في 23 جمادى الأولى عام 1661/ 1071 (*)

(67) سليمان الحوات، البور الضلوية، ورقة 46/ب.

(68) الحسن اليوسي، الفهرست، ورقة 66/أ.

(69) توجد ترجمة ابن عمران عند : محمد الألفاني، الصفوة ص 141. وعبد القادري نشر الثاني 2 74 — 75.

(70) محمد القادري، نشر الثاني، 2 109.

(٥) ترجم لحملون الأبرار محمد القادري، نشر الثاني، 2 109. وعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، أزهار البستان، (مخطوط خ. ح. رقم 583، ورقة 12/أ).

محمد بن سودة

أبو عبد الله محمد⁽⁷¹⁾ بن محمد بن أبي القاسم ابن سودة. الفقيه المشارك الذي اشتهر بالعلم والدين وقيل عنه إنه آخر قضاة العدل بفاس. أخذ عن خاله عبد الواحد بن عاشر وطبقته، وتعلم له كثير من أعلام فاس، وأقلم مدة في الزووية اللائية يدرس فيها للطلبة، وأخذ عنه هناك جم غفير، في مقدمتهم الطيب بن المسنولي اللائي. وتولى محمد بن سودة القضاء في فاس بأمر من السلطان محمد الحاج اللائي، وكانت وفاة ابن سودة علم 1665/1076⁽⁷²⁾.

محمن بن سعيد المرغيني

أبو عبد الله محمد بن سعيد السوسي المرغيني نسبة إلى مرغينة (وينطق السوسيون الآن بالعين خاء ويقولون مرخت ومرختي) وهي إحدى فروع قبيلة الأخصاص المشهورة بناحية تيزنيت. كان محمد بن سعيد موقتا حيسويا مدققا، وهو صاحب النظم المشهور المسمى بالمقنع في التوقيت وشرحه الكبير والصغير. انتقل إلى مراكش وتصلى للتدريس بمسجد المواسين مدة طويلة وقصده الناس للأخذ عنه. ثم انتقل إلى الزووية اللائية للتدريس فيها، وقد قال عنه تلميذه الحسن اليوسي «حضرت عنده مجلسا واحدا في ألفية ابن مالك أيلم الحداثة، ثم لقيته بالزوية البكرية، فجالسته مرارا، وصافحني عن شيخه أبي محمد عبد الله بن علي ابن طاهر الحسني وقال بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه فأفصح بالحديث ولم يفصح بالسند..» وقد عمر محمد بن سعيد طويلا وكثر الآخرون عنه، واشتهر نظمه المقنع في جميع النواحي المغربية ووقع عليه إقبال كبير حتى

(71) هناك عالم سويدي يسمى كل منهما محمدا، الأب والابن، لم أقف على نص يعين من درس منهما في الزووية اللائية، وقد رجحت أن يكون هو الابن نظرا لذكر اسمه مقرونا باسم حملون الأبلر أثناء وجودهما في اللاء وهما متعاصران وتلرخ وفاتهما متقارب. أما محمد بن سودة الأب فإنه توفي علم 1606/1015.

(72) انظر ترجمة ابن سودة عند عبد الرحمن بن عبد القادر القاسي، أزهار البستان، (مخطوط خ. ح. رقم 583) ورقة 11/ب. محمد القادري، نشر المطالي 2 150.

(73) الحسن اليوسي، الفهرست، ورقة 68/أ.

اليوم. ومن تأليفه أيضا الإشارة الناصحة لمن طلب الولاية بالنية الصالحة، وكتاب المستعان في احكام الاذان، واختصار السيرة اليعمرية، والفهرست التي ذكر فيها أشياخه وأودعها كثيرا من الفوائد والفتاوي. وكانت وفاة المرغيني علم 1679 — 78/1089 (74).

— تلاميذ الزاوية الدلائية

ظلت الزاوية البكرية كعبة الطلاب يحجون إليها من كل أصقاع المغرب طيلة قرن كامل، ويتنافسون في الأخذ عن علمائها المبرزين الكثيرين. ولا شك أنها عرفت خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن عددا كثيرا منهم، ليس لدينا من أسمائهم مع الأسف إلا نزر يسير ورد ذكرهم عرضا عند من تعرض لهذه الزاوية من المؤرخين أو أصحاب التراجم. وتلاميذ الزاوية الدلائية طائفتان، طائفة لازمت الزاوية منذ أول عهدها بطلب العلم الى أن تخرجت منها ثم اشتغلت بالتدريس فيها، وهذا شأن أكثر الدلائين المتقدمين في الفصل السابق وبعض من سنأتي على ذكرهم هنا، مثل محمد بن عبد الرحمن الصومعي، وابن مسعود المراكشي؛ وطائفة أخرى كان لها سابق دراسة في فاس أو مراكش أو غيرها من مراكز الثقافة، ثم وردت على الزاوية البكرية وكرعت من حياض معارفها حتى رويت وتم تكوينها العلمي، فاستقرت بها مشغلة بالتعليم والافادة، كالإمام الحسن اليوسي والأخوين العكاريين محمد وعلي، أو غادرتها بعد مدة طويلة أو قصيرة لترجع الى مساقط رؤوسها أو لتلقي عصا التسيار في بلد آخر، كأبي حامد الفاسي، وأحمد المقرئ،

(74) أنظر ترجمة المرغيني عند

— الحسن اليوسي، الفهرست ورقة 1/68 — 1/69.

— محمد الافرائي، الصفرة، ص 177 — 179.

— محمد القادري، نشر الثاني، 2 241 — 245.

— محمد المكي الناصري، الدور المرسعة، ص 15 — 17.

— عباس التلعرجي المراكشي، الاعلام، 4 319 — 328.

— عبد الحمي الكتاني، فهرس الفهارس، (ط. بيروت) ص 554 — 556.

والسيرة اليعمرية هي نور العين في تلخيص سيرة الامين المامون، لابي الفتح محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الربيعي الاشيلي المتوفى في القاهرة علم 1334/734. أنظر مقال الأستاذ محمد المنوني، مكتبة الزاوية الحملاوية. مجلة تطوان المجلد 8 سنة 1963 ص 176.

وعبد الواحد ابن عاشر، ومحمد ميارة وغيرهم. وسأورد فيما يلي تراجم مختصرة لمن لم يسبق التعريف بهم من تلاميذ الزلوية الدلائية.

أ) الحسن اليوسي

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، من قبيلة أيت يوسي البربرية. مفخرة المغرب وأشهر من أنجبته الزلوية الدلائية من العلماء حتى ارتبط اسمه باسمها وظن البعض أنه من أبنائها. وقد تتلمذ اليوسي لكثير من العلماء الدلائيين مثل محمد المراتب، ومحمد بن عبد الرحمن، وأبي عمر بن محمد بن أبي بكر الدلائي؛ وأخذ عنه عدد وافر من أبناء الدلائيين وغيرهم من الطلبة الذين كانوا يقيمون في الزلوية الدلائية. وكان دخول اليوسي إلى الزلوية الدلائية حوالي عام 1060 وهو ما يزال شاباً طالباً للعلم، فتزوج فيها فور وصوله إليها، وانقطع عن هو الشباب ولغوه (75) ومكث بها نحو عشرين سنة طالباً ثم أستاذاً وفيها أنجب الأبناء والبنات ولم يغادرها إلا بعد أن أزعجه السلطان الرشيد عنها عند تخريبها. وقد انفرد اليوسي بوصف حادثة إخلاء الزلوية الدلائية وعنه نقل ذلك سائر المؤرخين.

يمتاز هذا العالم الكبير بقوة العارضة، وشدة التحصيل، وجدة الأسلوب، فهم يسير في كتبه خصوصاً المحاضرات، على غير ما عهد عند معاصريه من العلماء المغاربة. وإنك لتجد في هذا الكتاب وغيره من مؤلفات اليوسي طريقة جديدة في الكتابة، تذكرك بطريقة أكابر الكتاب القدامى أمثال ابن المقفع، والمبرد وأضرابهما، فالألفاظ جزلة متينة والأسلوب سلس منطلق لا تقيده الأسجاع وغيرها من المحسنات البديعة اللفظية إلا متى أتت عفواً دون تكلف، أو وقعت في رسائل خاصة تستدعي ذلك؛ والمواضيع المطروحة جديدة متنوعة متسلسلة يربط بينها رغم تباينها نوع من التعلق بحيث تتكامل ويستدعي بعضها البعض الآخر.

ويحدثنا اليوسي نفسه في فهرسته عن بعض الكتب التي درسها على أستاذه محمد المراتب الدلائي بقوله «حضرت عنده تلخيص المفتاح بمختصر

(75) الحسن اليوسي، المحاضرات، ص 141. الفهرست، ورقة 70/أ

السعد (76) ومواضع من الخلاصة (77) وصدراً من تفسير القرآن بتفسير الجلالين (78) وأجلزني في فنون العلم كلها..» (79) ويروي لنا كذلك في المحاضرات حادثة أدبية طريفة وقعت له عند وصوله إلى الزاوية البكرية وهي تدلنا على مدى قوة شخصيته وسرعة بديهته منذ حياته العلمية المبكرة، إذ وجد شيخه محمداً المرباط قد ألف كتاباً في الخطب الوعظية قرظها الناس وامتدحوها «فكتب كل ما قدر له من نثر ونظم، فلما رأيت ذلك كتبت أنا أيضاً، فوقع في مكتوبي لفظة القطائف واللطائف، فاعترض عليّ ورام تبكيّتي وقال إنا لا نعرف القطائف إلا هذه المفروشات. فقلت له إن القطائف هنا جمع قطيفة بمعنى مقطوفة فقال هو صحيح في اللغة، ولكن الأدباء لهم الاختيار، وعندهم ألفاظ يستعملونها مخصوصة، فلا يرتكب عندهم كل ما يقع في اللغة، فقلت له حيثذ هذا أبو محمد الحريري (80) يقول في مقاماته

فلا تعذّلوني بعد ما قد شرحته على أن منعّم في اقتطاف القطائف
على أن ما زودتم من فكاهة ألد من الحلوى لدى كلّ عارف
فتلون وجهه رحمه الله وخجل ولم يراجعني بكلمة فلولا معرفة المقامات
واستحضر هذا البيت لأخجلني عوض ما كنت أخجلته» (81).

(76) تلخيص المفتاح في البلاغة تدارسه الناس واعتمدوه في هذا الفن منذ القرن الثامن الهجري حتى الآن لتركيو واختصاره. ومؤلفه هو الخطيب القزويني جمال الدين محمد بن عبد الرحمن الأناضولي المتوفى بدمشق علم 38/739 — 1339. وكتب التلخيص هذا هو اختصار للقسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر السكاكي المتوفى علم 28/626 — 1229. وقد شرح متن التلخيص سعد الدين التفتازاني (نسبة إلى تفتازان. قرية من أعمال خرسان) المتوفى علم 88/791 — 1389 بشرحين، مطبوع، ومختصر. وإلى هذا الأخير يشير اليوسي.

(77) الخلاصة هي الألفية المشهورة لمحمد بن مالك الطائي الأندلسي.

(78) الجلالان المشاركان في تفسير القوان الكيم هما جلال الدين محمد بن أحمد المحلى المتوفى علم 1459/864 وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى علم 1506/911.

(79) الحسن اليوسي، الفهرست، ورقة 66/أ.

(80) أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري، صاحب المقامات المشهورة المشتعلة على كثير من كلام العرب ولغاتها وأمثالها، توفي علم 22/516 — 1123.

(81) الحسن اليوسي، المحاضرات، ص 141.

نفهم من هذه المناظرة القصيرة أن اليوسي قدم الزاوية البكرية وقد حصل على نصيب لا يستهان به من المعلومات، فكان يحفظ المقامات الحربية ويستطيع أن يبدل بدلوه مع الأدباء في تقرّظ كتاب لعالم كبير، بل كان يحاج شيوخ العلم ويحجهم على حلالة سنه، وهو أمر يذكرنا بمناظرة بديع الزمان الهمداني لشيخ الأدباء أبي بكر الخوارزمي⁽⁸²⁾. ويظهر أن هذه الحادثة كانت عابرة لم تتلها ذيل، فاليوسي أخذ مجلسه بين الطلبة في حلقة الشيخ المربط العلمية ليستفيد منه طيلة مقامه بالزاوية اللائية، والأستاذ المربط بدوره قدر في تلميذه النابغة نباهته وكفاءته وأحلّه المنزلة اللاتقة بمقامه الممتاز، ليحيى بعد عشرين سنة من تلك المناظرة ويحليه بقوله «الصدر الرئيس، فارس الاملاء والتدريس، شيخ الجماعة بالديار البكرية، والحضرة اللائية، ذو التدقيق المعهد، أبو الحسن بن مسعود، صاحب النباهة الشائخة، والنزاهة الباذخة، والجلالة العليا، والهمة التي نيطت بالعرا..»⁽⁸³⁾ وقد انتقل اليوسي بعد تخريب الزاوية اللائية الى فاس بأمر من السلطان الرشيد، وتصدر للتدريس فيها، وأقبل عليه الطلبة والعلماء يأخذون عنه ألا طائفة من منافسيه فانهم تخلفوا عن مجالسه العلمية، وفيهم يقول

ما أنصفت فاساً ولا أعلامها علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبّوا إليّ كما صبا راعي سنين إلى الغمام الصيّب

ليس هذا من باب الزهو والغرور وإنما هو نوع من الصراحة البدوية التي يمتاز بها اليوسي، فهو يتحدث بنعمة الله عليه، ويعرف قيمته ومكانته العلمية ويعبر عما يجول في خاطره بدون لبس أو تمويه. وقد ذكرنا في الباب الثاني أحياناً أخرى مشابهة لهذه قائلها اليوسي في علماء الزاوية البكرية وطلبها حينما انتقل منها مرة إلى قرية الدلاء.

وقد حظي اليوسي بتقدير السلطان الرشيد الذي كان يحضر بعض مجالسه العلمية بالقرويين، ويجالس في قصره مع خاصته، ويحدثه بدون كلفة، كما يذكر

(82) أنظر صورة هذه المناظرة الأدبية الطويلة عند زكي مزيك في النثر الفني الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة علم 1352هـ/1934 ج 2 ص 331 وما بعدها.

(83) انظر النص الكامل لاجازة محمد المربط لليوسي في ملحق رقم 7.

ذلك لنا اليوسي نفسه بقوله « أصابني مرة إسهال، فدخلت على السلطان رشيد بن الشريف، وكان يكرمني ويجلني فرأى تغيراً في وجهي، فسألني فأخبرته فقال وماذا صنعت من علاج ؟ فقلت له إن الطبيب يصنع لي شراب الريحان، فتضحك ثم قال سبحان الله، مالنا ولشراب الريحان، وأين عهدته ؟ خذ سويق الشعير واخبطه بالماء، فذلك دواؤه..» (84) وكان السلطان الرشيد يعرف شدة تعلق اليوسي بالزاوية الدلائية وأهلها فلامه مرة على ذلك، فأجابه اليوسي مستترا ومتقياً «لا ناقة لي فيها ولا جمل». وظل اليوسي يتمتع بحظوته في البلاط العلوي حتى بعدما تولى الملك السلطان اسماعيل، وكان من بين العلماء الذين وافقوا على بيعته إثر وفاة أخيه الرشيد بمراكش. ولليوسي مراسلات عديدة مع هذا السلطان العظيم أخلص فيها النصيح لأمر المؤمنين ونبهه إلى مواطن الضعف في حكمه، وخاطبه بصراحة لم يجزؤ غيره على مثلها في جانب هذا الملك المعروف بشدة البأس وقوة البطش. ومنها رسالة مطولة في 147 صفحة بعث بها اليوسي إلى السلطان جواباً عن كتب تلقاها منه يقول في أولها «هذا وقد وردت عليّ كتبُ سيدنا الكرّمة، ومراسمه الجليلة العظيمة، فاذا هو قد أحسن فيها وأجاد، وأبدأ وأعاد، وبلغ من كل فصل المراد، وفوق المراد، ثم رأيت أن أمر سيدنا أيده الله بالجواب عن فصول الكتاب لا ينبغي أن يهمل، ولعل فيه إن شاء الله فوائد تفصل فتُحصّل..» (85) وغادر اليوسي فاساً إلى مراكش حيث أقام ثلاث سنوات متصديراً للتدريس في مساجدها. ونجده في عام 1682/1093 يتشوق للرجوع إلى مسقط رأسه ويحن إلى عشيرته، وكان قد خلف الأهل في جبال الأطلس المتوسط، والكتب وما معها في مكناسة، والقبيلة في ملوية «وجرى يوماً ذكر البيتين اللذين أنشدتهما سيدنا/بلال — رضي الله عنه — فهاج بي إلى الأوطان اشتياق، فقلت على نحو هذا المساق

(84) الحسن اليوسي، المحاضرات، ص 67.

(85) الحسن اليوسي، رسالة إلى المولى اسماعيل، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط 1348 د ورقة 13/1.

ألا ليت شعري هل أيتنَّ ليلةً يسهب الشنين أو يسهب بني ورا
 وهل تعبزن نهر العبيد ركائبي وهل تتركن دايا وأداؤها ورا. (86)
 تحققت لليوسي أمنيته الثلاث في الحياة، فوفر حظه من العلم، وكرم
 ماله، وزار البقاع المقدسة (87). وظل وفياً للزاوية الدلائية طيلة حياته يحن إليها
 ويذكر محاسن أهلها، ولم يَرثها أحد بمثل قصيدته الرائية الشهيرة التي يبلغ عدد
 أبيامها 162، ومطلعها
 اكلف جفن العين أن يثتر الذرا فيأني ويعتاض العقيق بها حمرا
 وأسأله أن يكتم الوجد ساعة فيقشي، وإن اللوم آونة إغرا (88).

مؤلفات الحسن اليوسي

وضع الأستاذ يرك في آخر مؤلفه عن اليوسي جنولا مفصلا لكتب
 اليوسي أتي فيه بأسماء 33 مؤلفا مع الاشارة الى المكتبات التي يوجد فيها بعض
 هذه الكتب. وقد أضفت اليه 14 مؤلفا لليوسي في الطبعة الأولى و 13 في الطبعة
 الثانية فصلر المجموع 60 كتابا أو رسالة. كما أشرت الى مكتبات توجد فيها كتب
 لليوسي لم يقف عليها. وجعلت على كل زيادة هذه العلامة (X).

(86) الحسن اليوسي، المحاضرات، 126.

السهب (بضم السين) من الأرض : البعيد المستوي (وينطق به في اللسان المغربي النارج، بفتح السين مرادا به
 هذا المعنى) وسهب الشنين، وبني ورا موضعان بالأطلس المتوسط، ونهر العبيد يقع في إقليم بني ملال وعليه
 سد بين الريدان المشهور، وداي هي مدينة الصومعة المجاورة لبني ملال الحالية، وكانت مشهورة بكثرة
 الأمراض والوخم.

(87) الحسن اليوسي، القهرست، ورقة 1/64.

(88) شرح هذه القصيدة عالمان دلائيان في مجلد ضخيم ستحدث عنه في كلامنا عن مؤلفات الدلائيين، كما شرحها
 محمد بن المهدي بن سودة في 6 مجلدات، أنظر هذه القصيدة تامة في ديوان اليوسي، وفي البوغ المغربي لعبد
 الله كنون ج 3، ص 277 وما بعدها.

للتوسع في ترجمة اليوسي والتعرف على مصادرها ارجع الى مقدمة الطبعة الثانية للمحاضرات (ط. بيروت
 1982) أ.ل.

اسم الكتاب	المكتبات التي يوجد بها
------------	------------------------

التوحيد والفقه والأصول

- 1 — أجوبة في التوحيد
مخطوط خ. ع. 1241 د ضمن مجموع (ص 8 — 9).
- 2 — (X) تأليف في أصول الدين وفروعه.
مخطوط زاوية تنغملت 408 الأول في المجموع
- 3 — (X) جواب عن سؤال العطار المراكشي عن دليل ابطال حوادث لا أول لها.
- 4 — حاشية على شرح كبرى السنوسي.
مخطوط خ. ع. 1755 د الثامن في المجموع 153 ب — 160 أ.
- مخطوط خ. ع. 2645 ك. وخزانة القرويين بفاس 40 — 837، 40 — 732. وفي دار الكتاب المصرية بالقاهرة 222، 266، 273، 562، 1117 كلام.
- X وفي خ. م. 263 و 1006. وفي الخزانة الحمزاوية بالاطلس 69.
- (X) مخطوط خزانة ابن الطيفور بسوس (م. اختار السنوسي، خلال جزولة 4 (197).
- (X) مخطوط خ. م. 6654.
- (X) مخطوط خ. ع. 9/2223 د ص 149 — 151 (X) م. 6726 نامة في كراسة.
- مخطوط خ. م. 3623 ز. آخر مجموع.
- مخطوط خ. ع. 157 ح ضمن مجموع (ورقة 124. أ — 131. ب). 1164 د (انتسخت في حيلة المؤلف عام 1099) خ. م. 7705.
- مخطوطا خ. ع. 157 ح و 612 ج. (ضمن مجموع، ورقة 27. أ — 42 ب) ومخطوط خ. م. 4660.
- 5 — الرد على القرافي في الفرق القديم واخذت في كلام الله.
- 6 — شرح صغرى السنوسي.
- 7 — شرح قول خليل وخصصت نية الخالف وقيدت.
- 8 — (X) عقيدة صغرى تنبني على معرفة الله وحكمه وحكمته.
- 9 — (X) فقهية منظومة في بحر الرجز على مثال المرشد المعين لابن عاشر شتمل على التوحيد، فالعبادات، فالنصوف.
- 10 — (X) قواعد الاسلام، من مضمون حديث النبي عليه السلام موضوعها واجبات المكلف كالرسالة الآنية رقم 54 إلا أنها أوسع منها وأطول.

- 11 — الكوكب الساطع، بشرح جمع
الجوامع لتاج الدين السبكي، لم يكمله اليوسي
وإنما وصل فيه إلى «إذا الفجائية».
- 12 — مشرب العالم والخاص من كلمة
الإخلاص، أو منهج الخلاص من كلمة
الإخلاص (٥).

التفسير والحديث

- 13 — (X) رسالة في العلم النبوي
رد بها على القاضي عبد الملك التجموعي
مخطوط خ. ع. 115 ح (فيه رسالة
التجموعي بعدها رد اليوسي، فتعليق لمحمد
الحجوي مؤلف الفكر السامي) وميكروفيلم
17/926. ومخطوطا خ. م. 3807 ز.
(وسط مجموع، بعدها مباشرة رسالة
التجموعي المدود عليها). 3838 ز (أواخر
المجموع).
- 14 — (X) فتح الملك الوهاب، فيما
استشكله بعض الأصحاب، من السنة
والكتاب.

المنطق

- 15 — تاج المفسر، في شرح الطالع
المشرق، لمحمد العربي الفاسي (٥٥)
- 16 — (X) رسالة في النسبة الحكيمة
بين الطرفين الموضوع والمحمول.
- 17 — (X) شرح السلم المروني، للأخضري
- 18 — القول الفصل، في الفرق بين الخاصة
والفصل، أو الفرق ما بين الذاتي
والعرضي.
- (X) ذكر أحمد المشتوكي في فهرسه أنه قرأه
على اليوسي.
- مخطوط خ. ع. 2143 د (ضمن مجموع،
ص 193—195.
- ذكو عبد الله كنون في النبوغ المغربي،
أ 303.
- مخطوط خ. ع. 1072 د ضمن مجموع.
(ص 196 — 223)

(٥) عبر بعض مترجمي اليوسي عن مشرب العالم والخاص بكتاب في الهيلة. كالتقديري في نشر المثاني، والصقلي في
الصفحة الأولى من القانون المطبوع في فاس، وقد اختلعت كلمة (الهيلة) على الأستاذ بيك فقرأها هينة،
وجعل — خطأ — لليوسي مؤلفا في الفلك.

(٥٥) سمه الأستاذ بيك شرح الطالع المنتشر وقال إنه لم يكمل.

19 — نفائس الدرر على شرح المختصر،
للسنوسي.

مخطوطات خ. ع. 1072 د (ضمن
مجموع، ص 52 — 195) 451 د.
1.751 ك. وفي خزانة القرويين بفاس دون
رقم. وفي المكتبة الوطنية بالجزائر 2 و
1382. وفي المكتبة الوطنية بباريز 2400
(ورقة 104 ب — 251).
(X) ومخطوطا خ. م. 1999 و 2419.
ومخطوط خزانة ابن يوسف بمراكش 246.

اللغة والأدب والبلاغة

20 — (X) دالية في التوسل.

رب أنت المولى إليك استنادي

21 — الديوان جمعه ولد اليوسي بعد
وفاة والده.

22 — (X) رحلة حجازية كتبها ولد
اليوسي لما صحب والده الى الديار المقدسة
عام 1101.

23 — زهر الأكم، في الأمثال والحكم.

رتبه على حروف المعجم، فلم يتممه
ووقف عند حرف الصاد.

24 — شرح تلخيص المفتاح، للقرويني

— لم يكمل.

25 — شعر في رثاء الشيخ عبد القادر
الفاسي.

26 — شعر في مدح خير البرية، يبتدىء
بقصيدة اليوسي الشهيرة

جد سيراها فلس تلام

هذه طيبة وهذا المقام

مخطوط خزانة تطوان 657.

طبع على الحجر بفاس. وتوجد منه نسخ
مخطوطة عديدة في خ. ع. منها واحدة جيدة
ضمن مجموع 32 ج، وبالمكتبتين الوطنيتين
بباريز والجزائر.

مخطوط خ. م. 2343.

(X) حققته أنا والأستاذ محمد الأخضر،
ونشره مركز الدراسات والبحاث للتعريب
بالرباط سنة 1981 في 3 أجزاء، وتوجد منه
مخطوطات عديدة بالرباط وفاس وسلا
والقاهرة والجزائر وباريز.

؟

؟

(X) مخطوط خ. م. 2343.

طُبعت بمصر مع شرحها الذي سيذكر بعد.
وتوجد منها مخطوطات بالرباط وفاس
والقاهرة وباريز.

مخطوطة خ. ع. 163 د (ضمن مجموع،
98 — 103).

مخطوطة خزانة تطوان 518.

مخطوط خ. م. 916.

طبع بمطبعة الكوكب الشرقي بالاسكندرية
عام 1291.

(X) ثم طبع بمطبعة التقدم بالقاهرة عام
1329. وتوجد منه نسخ مخطوطة بالرباط
والخزائر والقاهرة وباريز.

27 — القصيدة الدالية أو التهاى
في مدح الشيخ محمد بن ناصر عارض
بها دالية البوصيري في مدح الشيخين
الشااذلي والمرسي.

28 — القصيدة الرائية في رثاء الزاوية
الدلائية(*) تشتمل على 162 بيتا.

29 — (X) قصيدة فالية في الاستغاثة
يا رعاة الحمى إغاثة ملهوف.

30 — (X) قصيدة في التوسل، 30
بيتا مطلعها

يا رب باسمك العظيم الأعم.

31 — نيل الأماي، في شرح التهاى
شرح للقصيدة الدالية المتقدمة.

التصوف والرد على المبتدعة

مخطوط خ. ع. 1644 د.

مخطوط خ. ع. 612 ج (ورقة 48 ب —
52 أ).

(X) مخطوط خ. ع. 1224 ك (ضمن
مجموع. 167 — 187) ومخطوط خ. م.
3822 ز، أواخر مجموع. حديثة لكنها
جيدة واضحة.

مخطوطة مكتبة حسن حسني عبد الوهاب
المنقولة الى المكتبة الوطنية بتونس. 178.
أوائل مجموع.

32 — (X) أجوبة أولها في حكم
الصلاة على النبي عليه السلام في الورد.

33 — (X) أربعة وعشرون سؤالاً وجواباً
تتعلق بمصاحبة الشيخ وتأدية الأوراد.

34 — تأليف في العكاكزة الفرقية
الضالة بتادلا وزمور.

35 — (X) جواب في السماع عند الصوفية.

(*) ظن الأستاذ بيوك أن موضوع هذه الرائية الحكم والتصوف، وهي في الحقيقة في رثاء الزاوية الدلائية وان كانت لا
تخلو من اشارات صوفية، وأمثال حكيمية على طريقة زهير بن أبي سلمى في معلقته.

36 — (X) رسالة في التصوف. مخطوط خ. م. 886.

37 — شرح عقد جواهر المعاني، في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني لأحمد بن المختار (بنخدة).

موسوعات

38 — الفهرس لم يكمل.

مخطوط خ. ع. 1234 ك (ضمن مجموع 103 — 147) (X) ومخطوط خ. م. 1183.

39 — القانون في العلوم والتعليم

طبع على الحجر بفاس عام 1310 و1315. وتوجد منه نسخ مخطوطة بالرباط وفاس وباريز مخطوط خ. م. 5995.

40 — (X) كفاية علمية فيها فوائد في التفسير والحديث والتصوف والتراجم، نقلها أحد تلاميذ اليوسي من خطه.

41 — المحاضرات في اللغة والأدب والتصوف.

طبع على الحجر بفاس عام 1317هـ (X) ثم نشرتها بالرباط سنة 1976، وحققها مع الأستاذ أحمد الشراوي إقبال، ونشرها الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر بالرباط في دار الغرب الاسلامي ببيروت في جزعين، سنة 1982.

موضوعات مختلفة

42 — أخذ الجنة، عن اشكال نعيم الجنة

(X) ميكرو فيلم خ. ع. 126. معرض مخطوطات جائزة الحسن الثاني سنة 1973، الثاني في المجموع. 7 ورقات، ومخطوط خ. م. 6602 - ضمن مجموع. مخطوط خ. ع. 1234 ك (101/100)

43 — تقريظ اللمعة الخطيرة، في مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة (*) للمهدي الفاسي.

(*) ذكرت هذا التقريظ — وإن كان صغيرا غير ذي أهمية — نظرا لكون الأستاذ بيرك أثبت في جدولته. ولو تتبعنا آثار اليوسي من هذا النوع لأتينا بلمآت.

مخطوط خ. ع. 612 ج (ورقة 56 أ — 57 ب).

مخطوط خ. ع. 611 د (ص 1 — 4).
1348 د (ص 13 — 36) نقلها صاحب
الاستقصا، 7: 82 — 86.

(X) وتوجد منها نسختان مخطوطتان في خ.
م. 7150 و 7154. وهذه الأخيرة جيدة
مشكولة تامة في 7 صفحات بخروف بارزة.
والأولى كذلك جيدة تامة في 4 ورقات.

مخطوط خ. ع. 849 ج (ورقة 1 — 146)
(X) وتوجد منها نسختان مخطوطتان في خ.
م. 75 و 2998. والأولى نسخة ملوكية
جيدة واضحة مذهبة التجليد.

وأشير الى ان رسائل اليوسي كانت
موضوع رسالة جامعية للأستاذة فاطمة
خليل بكلية الآداب بفاس، وطبعت في
جزعين بالدار البيضاء سنة 1981.

مخطوط خ. ع. 1138 ك (ص 32-39)

مخطوط خ. ع. 612 ج. (ورقة 46 أ —
48 ب) ومخطوط خ. م. 7704
— ضمن مجموع —

44 — الدلالة الوافية، في الرسالة الاسفية.

نصيحة وجهها اليوسي الى من في ثغر
أسفي وما حوله من الاخوان والحسين ختمها
بقصيدة ضمنها ملخص الرسالة وامرهم
بقراءتها، مطلعها

عليكم بتقوى الله في السر والجهر

وإخلاص ما تأتون من عمل البر.

45 — رسالة الى السلطان اسماعيل
ينصحه ويعظه.

46 — رسالة الى السلطان اسماعيل

(أخرى مطولة) يرفض فيها الذهاب الى فاس.

47 — رسالة الى الصوفي الحاج علي

وأبي القاسم بن معمر.

48 — رسالة إلى العربي وعبد السلام ابني

الطيب القاديين.

49 — رسالة إلى المهدي الفاسي.

50 — (X) رسالة حول من لا يحسن

النحو والصرف هل يجوز له ان يفسر

القرآن. مع حكم الرقص والغناء

والتصفيق وضرب الغربال الخ.

- 51 — (X) رسالة صغيرة في التصوف، سماها الناسخ مفتاح الوصول.
- 52 — (X) رسالة في النصائح. بحث بها اليوسي الى من بمكناسة الزيتون وأعمالها.
- 53 — (X) رسالة في نصيح المؤمنين.
- 54 — رسالة في واجبات المكلف — رسالة صغرى —.
- 55 — رسالة في وصل الشعر.
- 56 — (X) رسالة لبعض الاخوان تشمل على نصائح دينية.
- 57 — نذب الملوك الى العدل في آداب الملوك.
- 58 — (X) وصايا دينية.
- 59 — (X) وصايا واجوية.
- 60 — (X) وصية اليوسي لأولاده واخوانه. حبس فيها كعبه على أبنائه وطلبة العلم.
- مخطوط خ. ع. 612 ج (44 ب — 45 ب).
- مخطوط خ. ع. 612 ج (ورقة 57 ب — 64 أ).
- مخطوط خ. ع. 612 ج (ورقة 1 ب — 15 أ) 1138 ك (ص 1 — 31).
- (X) مخطوط خ. ع. 612 ج (12 — 27) ؟
- مخطوط خ. ع. 612 ج (ورقة 42 أ — 44 ب).
- مخطوط خ. ع. 364 د (ضمن مجموع 113 — 116).
- مخطوط خ. م. 2973.
- ميكرو فيلم خ. م. 1523 في مجموع.
- مخطوطا خ. م. 1577 و 3555.

ب) أحمد المقرئ

أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقرئ القرشي التلمساني ثم الفاسي. العلامة الكبير، الأديب البارع المؤلف الشهير، صاحب كتاب «نفع الطيب»، وأزهار الرياض وغيرهما. كان أعجوبة الزمان في القدرة على الكتابة المسجعة المنمقة، وقرض الشعر المحلي بأنواع البديع. كما كان فقيها محدثا. أقام مدة في الزاوية الدلائية يدرس الحديث على محمد بن أبي بكر الدلائي، وكان هذا الشيخ يعجب بقوة حافظة المقرئ وسرعة ادراكه، ولكنه كان يفتقد فيه الثبوت والتحري اللازمين في الرواية فيجرحه على طريقة المحدثين ويقول عنه «انه حافظ ضابط غير ثقة». ولعل ذلك من جنابة الأدب على المقرئ، فالأدباء معروفون منذ القديم بالتساهل في الرواية، والتزيد في النوادر والملح. الأمر الذي يتنافى وطبيعة المحدثين ذوي التشدد في

قبول السند، والدقة في نقل متن الحديث. ويؤيد هذه النظرية ما ذكره أبو سالم العياشي في رحلته (91) من أن المقرئ كان إذا أفتى في نازلة فسئل عنها مرة أخرى امتنع من الجواب ثانياً، مخافة أن يكون في الثانية ما يخالف الأولى. وما أرى ذلك إلا نتيجة لتصرفه الكبير وعدم تقيده بمقررات الفقهاء المدونة، حتى أنه ليوشك أن يفتي في النازلة الواحدة بحكمين مختلفين. وبالرغم من هذا الحكم القاسي الذي أصدره في حق الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائلي وسارت بذكره الركبان، فإن العلاقة ظلت طيبة بين الرجلين إلى آخر حياتهما. بقي ابن أبي بكر يثني على المقرئ في الدلاء ويشيد بقدرته العلمية وأدبه الرفيع، والمقرئ بدوره يرسل أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائلي من الشرق ويبعث إليه بنسخ مما يؤلفه هناك من الكتب، ويظهره بالنسخة الأصلية لقصيدة العمامة التي كتبها بجوار القبر النبوي الشريف بالمدينة، ويقول في مطلع رسالة وجهها إليه من مصر عام 1041هـ:

خَلِيلِي إِنْ جِئْتَ الدَّلا وَجَرَى ذَكَرِي لَدَى حَضْرَةِ الشَّيْخِ الرُّضَى ابْنِ أَبِي بَكْرٍ
نَتِيجَةُ سِرِّ الْأَوْلِيَاءِ مُحَمَّدٍ مَعْرِفِ كَلِيَّاتِ فَضْلِ بَلَا نَكْرِ
فَأَخْبِرْهُ أَنِّي لَمْ أَحُلْ عَنْ وَدَادِهِ وَلَمْ يُؤْهِنِ الْبَيْنَ الْمَلُمُ قُوَى صَبْرِي

ثم يقول المقرئ في أثناء الرسالة «فأما الشوق إلى سيدي وولي فلا يستوفي وصفه القلم واللسان، وحديث عن مسند أحمد بما شئت من طرق هي مع غرابها حسان..» (92) وقد وجه الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائلي إلى المقرئ في البلاد الشرقية أسئلة مختلفة من مهمات الأصول والفروع، وطلب منه أن يكتب على كل واحدة منها ما ظهر له من موافقه أو مخالفه ليختبر مدى تقدمه في العلوم الدينية «فقبلها المقرئ ووضعها على رأسه، وعلم أن يومه بسببها خير من أمنه، ثم كتب عليها ما ظهر له بقدر الامكان، وأبرزها في صورة تأليف حسن الوضع

(91) نقلها عن رحلة العياشي عماد الإفراني، الصفوة، ص 74.

(92) انظر النص الكامل لهذه الرسالة في ملحق رقم 8.

سماء إعمال الذهن والفكر، في المسائل المتنوعة الأجناس، الواردة من الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر، بركة الزمان وبقية الناس، ووجهها الى شيخه بالزاوية البكرية فسر بها كثيرا» (93).

وكان خروج المقرئ من فاس بسبب اهتمامه بالميل الى قبيلة شراكة في فسادها وبغيا أيام السلطان محمد الشيخ المامون السعدي، فارتحل إلى الشرق عام 1617/1027 وحج مرارا وجاور في المدينة المنورة مدة، ألف فيها كتباً عديدة وأملى الحديث بالحرمين الشريفين. ودخل الى مصر والشام ونال فيهما حظوة كبيرة، وألف كتابه العجيب نفح الطيب، لكنه مع ذلك لم يصف له العيش اذ لقي عنتا كبيرا من بعض العلماء الشرقيين الذين نافسوه وشوشوا عليه. وكان المقرئ قد ترك زوجه وبنته وكتبه بفاس، وظل قلبه معلقا بذلك، فأسرع اليه الهرم واشتعل رأسه شيئا. وفي محاضرات اليوسي «حدثني الرئيس الأجل أبو عبد الله محمد الحاج بن محمد أبي بكر الدلائي — رحمه الله — قال : لما نزلنا في طلعتنا الى الحجاز بمصر المحروسة خرج للقائنا الفقيه النبيه أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ، قال وكنت أعرفه عند والدي لم يشب، فوجدته قد شاب. فقلت له شبت يا سيدي ! فاستضحك ثم قال

شَيْبَتْنِي غُرْنَدَرٌ وَفَجَارٌ وَبِحَارٌ فِيهَا اللَّيْبُ يَحَارُ
توفي أحمد المقرئ في مصر عام 1632/1041 (95).

-
- (93) سليمان الحوات، الدور الضاوية، انظر فيه هذا التوليف بتمامه من ورقة 64 الى ورقة 71.
- (94) الحسن اليوسي، المحاضرات، ص 58. والفرنر مشكولة في إحدى النسخ الخطية بضم الفين وفتح الراء والدال وسكون النون. والفجار (يكسر الفاء) الطرق الواسعة بين جبلين.
- (95) ترجم للمقرئ، محمد الأقراني في الصفوة ص 72 وما بعدها. ومحمد القادري في نشر المثالي، 1 157 — 160. والمحيي في خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر. ج 1 ص 302 وما بعدها. وقد ألف الحبيب الجناحاني التونسي كتابا في ترجمة المقرئ.
- أنظر أيضا كتابنا الحركة الفكهية ، 2 : 367، الخامس 63.

مؤلفات أحمد المقرئ

اسم الكتاب	المكتبات التي يوجد بها
في التوحيد والفقه وعلوم القرآن	
1 — إتحاف المغرب المغربي، في شرح الصغرى، للسنوسي.	مخطوط خ م. 3544 و 5928.
2 — إضاءة الدجئة، بعقائد أهل السنة. أرجوزة أقرأها في الحرمين الشريفين وسائر بلاد المشرق التي زارها، وانتسخ منها في حياة المؤلف نحو ألفي نسخة(*).	طبع في مصر بمطبعة محمد أفندي ميصفي عام 1304 بهامش شرح الشيخ عlish للعقيدة السنوسية. وتوجد منها نسخ خطية جيدة في خ. ع، رقم 2742 ك و 1227 د ضمن مجموع (ص 454 — 943)؛ وفي خ. م. رقم 614 و 7193. وهذه الأخيرة مشكولة.
3 — إعمال الذهن والفكر، في المسائل المتوعة الأجناس، الواردة من الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر. بركة الزمان وبقية الناس.	أدجمها كاملة سليمان الخوات في كتابه الدور الضاوية، ورقة 64 أ — 71 ب.
4 — حاشية على شرح أم البراهين، للسنوسي.	ذكرها المحبي في خلاصة الأثر، 1 303.
5 — قطف المهتصر، في شرح المختصر حاشية على مختصر خليل.	المصدر السابق في نفس الجزء والصفحة.
6 — مقصورة في سور القرآن.	ذكرها العباس بن إبراهيم في الأعلام 2 113 في جملة ما أخذه أحمد البوسعيدي عن المقرئ بفاس.

(*) لما زار محمد الحاج الدلائي مصر عام 1630/1040 أعطاه المقرئ نسخة من هذه القصيدة بخطه، فكانت النسخة الأصلية في المغرب، وعنها أخذ الناس جميعا (انظر الدر الثمين لمحمد ميارة ج 1، ص 82).

في التاريخ والتراجم والأدب

- 7 — أزهار الرياض، في أخبار عياض.
- طُبعت منه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام 1358/1939 ضمن مطبوعات المعهد الخليفي للأبحاث المغربية بتطوان. ثم أعادت وزارة الأوقاف المغربية طبعه في المحمدية سنة 1980 في 5 أجزاء بتحقيق الأساتذة أعراب وابن تاويت والمهراس وفي خ. م. 5 مخطوطات لأزهار الرياض، أحداها تامة في سفين.
- مخطوط خ. ع. 984 د ضمن مجموع (ورقة 99 ب 106 أ).
- كانت هذه الأرجوزة موضوع دراسة جامعية وترجمت إلى اللغة الفرنسية.
- مخطوط خزانة حسن حسني عبد الوهاب المنقولة إلى المكتبة الوطنية بتونس رقم 507. في 104 ورقة. وثمة مخطوط آخر للجمان رقم 568.
- ذكره المحي في خلاصة الأثر، 1 303.
- مخطوط خ. م. 6735 — ضمن مجموع —
- مخطوط خ. ع. 565 ج. — في الأخير —
- لا تعرف منه لحد الآن إلا نسخة واحدة مبتورة من الأول في خ. م. تبتدىء أثناء ترجمة أحمد النصور الذهبي، وعنها طُبعت في المطبعة الملكية بالرباط سنة 1383/1964. ثم أعيد طبعها بالانفيسط بنفس المطبعة.
- 8 — أزهار الكمامة، في شرف العمامة. رجز في العمامة النبوية نظمها بالمدينة في 320 بيت، وأرسل نسخة منه كتبها هناك إلى الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي..
- 9 — الجمان، في مختصر أخبار الزمان.
- 10 — الدر الثمين، في أسماء الهادي الأمين.
- 11 — ديوان صغير في الأمداح النبوية. يبدو أن المقرئ نفسه هو الذي جمعه، لأنه يذكر فيه أحيانا تاريخ ومكان نظم القصيدة.
- 12 — رجز في النعال الشريفة. جعله المقرئ خاتمة لكتابه فتح المتعال، ثم أفرده في نسخة بعث بها إلى الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، فانتشرت في المغرب.
- 13 — روضة الآس، العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس.

ذكره صاحب كشف الظنون، 2 106.

ذكره المحيي في خلاصة الأثر، 1: 303.

توجد منه عدة مخطوطات في خ. ع.

أحسنها رقم 565 ج. ومخطوط خ. م.

4915 بخط شرقي جميل ملون الا ان به

رطوبة

كثيرة. ومخطوط خزانة حسن حسني عبد

الوهاب المنقولة الى المكتبة الوطنية بتونس رقم

712. وهي مؤرخة سنة 1110.

والكتاب مطبوع بالهند:

ذكره القادري في المقصد الثاني بخاتمة نشر

المثالي (4 270) ونقل عنه.

طبع مرارا وآخر طبعة وأحسنها صدرت في

بيروت سنة 1968 بتحقيق إحسان

عباس في 8 مجلدات. آخرها خاص

بalfهارس. ويوجد طرف من مسودة نفع

الطيب بخط المؤلف في خ. م.

موضوعات مختلفة

ذكره المحيي في خلاصة الأثر، 1 303.

ولعله هو المخطوط رقم 427 بخزانة حسن

حسني عبد الوهاب للمنقولة إلى المكتبة

الوطنية بتونس، اذ جاء عنه في الفهرس

«مجموع أدبي يحتوي على قصائد ومقاطع

كثيرة من نظم مشاهير الأدباء المتقدمين بين

مشاركة ومغاربة وأفريقيين وأندلسيين خاصة.

الراجح أن جامعه أحمد بن محمد المقرئ

اللمساني».

ذكره المحيي في خلاصة الأثر، 1 303.

14 — شرح مقدمة ابن خلدون.

15 — عرف النشق، من أخبار دمشق.

16 — فتح المحال، في مدح النعال.

جمع فيه ما ورد في النعال الشريفة من

الأحاديث النبوية والأشعار، وتوسع في الشرح

والاستطرادات الأدبية.

17 — كنوز الأمرار في الأنساب.

18 — نفع الطيب، من غصن الأندلس

الوطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن

الخطيب.

19 — البداية والنشأة.

كتاب مملوء أدبا وشعرا.

20 — الفث والسمين، والرث والشمين.

21 — نيل المرام المخطوط، لطالب الخامس
الخالقي الوسط. وهو رجز في علم الوقف وسرّ
الأسماء مطلعه
أحمد مَن وفقنا وأفهما
ما لم نكن نعلمه وألما

(ج) العربي الفاسي

أبو حامد محمد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي، المؤرخ
الأديب، العلامة المشارك، مؤلف كتاب مرآة المحاسن، يمتاز بالجرأة النادرة في
الحق، والدعوة الى الدفاع عن حوزة الوطن. وهو الذي أفتى بوجوب الجهاد لطرد
الاحتلين الأجانب من الثغور ولو مع عدم وجود الإمام، تأييدا للمجاهد العياشي
السلوي. وما ورد في هذه الفتوى الطويلة قوله «ولا يتوهم متوهم أن ترك مدائن
المسلمين في أيدي الكفرة يدل على عدم الوجوب، لأن ذلك من تقصير الملوك،
وهم بذلك في محل العصيان، لا في محل الاقتداء بهم والاستئنان، ولا فرق في الحكم
بين ما أدركنا زمن أخذه كالعرائش والمعمورة، وإن كانت غير معمورة، وبين ما لم
ندركه كسبته وطنجة» (97)، لأن الوجوب متعلق بالمسلمين لا بقيد زمان ولا
مكان. «(98).

وكانت حادثة تسليم العرائش للاسبانيين على يد محمد الشيخ المامون
السعدي طمعا منه في نصرة طاغية النصارى ومساعدته له على استخلاص الملك
من يد أخيه زيدان، وما ترتب عن ذلك من استفتاء المامون علماء فاس لتبرير
فعلته الشنيعة مدعيا اضطرابه لاقتداء أولاده وحشمة المهونين في بلاد العدو بهذا
الثغر الاسلامي، كانت هذه الحادثة سبباً في خروج أبي حامد الفاسي وأخيه
الحافظ أحمد من فاس فراراً بدينهما، وامتناعاً من ممالأة ذلك الأمير الضال على

(97) كان استيلا الاسبانيين على سبتة عام 1416/819م، وعلى طنجة عام 1437/841 وعلى المعمورة عام 1515/911، وعلى العرائش عام 1610/1019.

(98) عبد العزيز الزياتي، الجواهر المختارة، مما وقفت عليه من التوازل بجبال غمارة، 2: 121/ب.

فساده وبغيه، وقصدا قبيلة مصمودة بناحية وزان، حيث توفي الامام أحمد الفاسي هناك بعد نحو سنة من خروجهما⁽⁹⁹⁾، وبقي أبو حامد متنقلا في البوادي، وكان أكثر إقامته في هذه الفترة بالزاوية الدلائية، حيث أخذ عن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، وسمع منه صحيح البخاري، وتصدر للتدريس فتتلمذ له أكثر علماء الدلاء، وأجاز منهم الشرقي بن أبي بكر الدلائي، وأخاه أحمد الحارثي وغيرهما. وقد ذكر العربي الفاسي في آخر كتابه مرآة المحاسن محمد بن أبي بكر الدلائي في جملة شيوخه وخصص له ترجمة حافلة قائلا عنه «عالم حافظ دراك، خاتمة مشايخ المغرب، انتهت اليه رئاسة الدين والدنيا، واستقل بسياسة الأمور الجليلة والرتب العليا»⁽¹⁰⁰⁾.

وكانت تطوان خاتمة مطاف أبي حامد، وبها توفي عام 1642/1052⁽¹⁰¹⁾.

(د) علماء آخرون تخرجوا من الزاوية الدلائية

محمد العكاري

الأخوان العكاريان محمد وعلي درسا بالزاوية الدلائية وتخرجوا فيها على يد الامام أبي علي اليوسي وغيره، ثم قصدا مدينة فاس واشتغلا فيها بالتدريس مدة. وأخيرا رجع محمد العكاري الى مسقط رأسه بمراكش وأقام بها الى أن توفي، بينما قصد أخوه العدوتين واستقر بهما الى أن وافاه الأجل بمدينة الرباط. هذا ما اتفق عليه كل من تعرض لخبر هذين الشيخين، خصوصا أبا الحسن العكاري الحفيد

(90) كان خروج الأخوين أحمد وأبي حامد من فاس صبيحة يوم السبت السابع عشر من صفر عام 1611/1020 كما ذكره في مرآة المحاسن، ص 55. وتوفي الحافظ أحمد الفاسي عام 1612/1021.

(100) العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 225 وما بعدها.

(101) ارجع في ترجمة العربي الفاسي الى : نشر المثالي، 2 10 — 20. السلطان سليمان العلو، عناية اولي المجد، ص 29 — 32، محمد بن جعفر الكتاني، السلوك 2 313 — 315. وإلى كتابنا الحركة الفكرية، 2 420، والمماش 12.

في كتابه **البدور الضاوية** في ذكر الشيخ وأصحابه وبناء الزاوية الذي ترجم فيه لجدّه علي العكاري صاحب الضريح المشهور في الرباط. لكن المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان صاحب **اتحاف أعلام الناس** بجمال أخبار حاضرة مكناس جعل الرباطي من الأخوين العكاريين هو محمد (102) ونسب إليه كثيراً مما ذكره الناس لأخيه علي، معبراً عن مؤلف **البدور الضاوية** المذكور بأنه حفيده، ناقلاً عنه بالنص فقرة طويلة لم أجدّها في النسختين المحفوظتين بقسم الوثائق من الخزّانة العامة بالرباط (رقم 88 د و 2392ك) وإن كانت بعض الأخبار التي يتحدّث عنها النص المنقول موجودة في النسختين المذكورتين بعبارة أخرى. لذلك نتساءل هل هناك كتابان في مناقب شيخ الرباط العكاري؟ أم أن الأمر يتعلق بنسخ مختلفة لكتاب واحد؟ ويرجح الاحتمال الثاني لما ذكره المؤرخ الرباطي محمد بوجندار في كتاب **الاغتياب** من أن النسخ الموجودة من **البدور الضاوية** كلها مبتورة من الأوائل والأواخر والأثناء، وأنها وقعت أولاً في يد الفقيه الحاج محمد بن الغازي الرباطي فلفق ما عر عليه منها وأنشأ لها خطبة وخرجها بعد التنبيه على ما بها من البتر (103) ولعل الخزّانة الزيدانية تحتوى على نسخة سالمة من ذلك البتر كله أو بعضه. غير أن تسمية شيخ الرباط محمداً العكاري سبق قلم لا يحتمل الشك ولا يقبل الجدل، إذ المتواتر عند الناس خلافه، والقصائد الكثيرة التي قيلت في رثاء شيخ الرباط تكتيه أبا الحسن أو تسميه علياً

فغدا مع الشيخ الشريف أبي حسن عليّ أوحّد العصر

وفي مريّة الأديب أحمد بن محمد عمور الفاسي

ذخري أبو الحسن الشريف أخو الإفضال والإكرام ذو العزم

والخلط واقع كذلك لا محالة عند المؤرخ ابن زيدان في قوله أن أبا الحسن

العكاري مؤلف **البدور الضاوية** هو حفيد الشيخ محمد العكاري، مع أن ترجمة

(102) عبد الرحمن بن زيدان، **الاتحاف**، ج 1، ص 340.

(103) محمد بوجندار، **الاغتياب**، ورقة 239/.

العكاري الحفيد معروفة بخلاف ذلك، بل نجده هو نفسه يترجم في كتابه **البدور الضاوية** لوالده محمد ولجده علي، ويذكر محمداً العكاري دفين مراكش على أنه أخو جده. وقد عدَّ ابن زيدان من تلاميذ العكاري الرباطي القاضي عبد الله بناني، وأحمد عاشور، مع أن الأول اتصلت حياته الى حدود عام 5/1220 — 1806 والثاني الى حوالي عام 34/1250 — 1835. والثابت في كتب التراجم أن الشيخ عبد السلام بناني جد القاضي عبد الله بناني هذا هو الذي أخذ عن الشيخ علي العكاري بالرباط.

والعكاري المراكشي هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الشريف الحسني. كان أديبا خطيبا مصقعا، استقر بالزاوية الدلائية طالبا للعلم مدة طويلة، ساكنا مع رفيقه محمد بن عبد الرحمن الصومعي في بيت واحد من بيوت مدارسها. ولما لحق به أخوه علي من مراكش ليدرس كذلك بالزاوية أقام معهما في نفس البيت. وقد حضر محمد العكاري مجالس الدلائيين في مختلف الفنون، ولزم دروس الشيخ الحسن اليوسي آخذاً عنه النحو والبيان والمنطق والفقه والأصول والتوحيد إلى أن نال منه إجازة عامة. ولما حصل على ملكة علمية أخذ يدرس بالزاوية الدلائية للمبتدئين من الطلاب، وكان من جملة الآخذين عنه فيها رفيقه محمد بن عبد الرحمن الصومعي.

وبعد تخريب الزاوية الدلائية توجه محمد العكاري إلى فاس، وأقام بها مدة يطلب العلم، وأجازه الشيخ عبد القادر الفاسي إجازة عامة قبل أن يرجع إلى مسقط رأسه مراكش. لكنه لم يستقر به المقام طويلا حتى ورد عليه كتاب السلطان إسماعيل يأمره بالقدوم إلى مكناس ليكون إمامه في الصلوات، وخطيب الجمعة والأعياد في المسجد الكائن داخل القصبة السلطانية؛ فاستقر محمد العكاري بالعاصمة الاسماعيلية مدة اشتغل فيها علاوة على الإمامة والخطبة بالتدريس وإفادة الطلاب، وتخرج على يده عدد كبير منهم. وقد ابتلي هذا العالم في أواخر حياته بالمرض المعروف (بالضيق) فطلب من السلطان أن يأذن له في الرجوع الى مراكش «فأعفاه وتركه بعد أن كتب له عهدا كبيرا بليغا باحترام

جميع من هو في جواره، وتوقيعهم ومحاشاهم» (104) وألح المرض على الشيخ العكاري في مراكش الى أن توفي، ودفن بترية جده الإمام الشيخ التركي، إذ هي مقبرة آل العكاري بمراكش. ولم يذكر له حفيد أخيه ولا غيره ممن ترجم له تاريخ وفاة. ولعله هو الذي توفي عام 81/1092 — 1682 لا أخوه شيخ الرباط على ما ذكره ابن زيدون في الاتحاف نقلا عن كناشة الوزير اليعمدي (105).

علي العكاري

وأما العكاري الرباطي فهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسني، العلامة المشارك المدرس النفاع، ورد الزاوية البكرية طالبا للعلم بعد أن سحب الشيخ محمد بن عبد الله الموسوي وأخذ عنه طريقة التصوف في مراكش «فكان مع أخيه في البيت فإذا هو بحالة أخرى من التحري ومجاهدة النفس والوقوف على الحدود، فكان لا يُغتاب أحد بين يديه، ومع ذلك فهو يشاركنا في أخذ العلوم الآلية عن الشيخ ابن مسعود مثل البيان والمنطق وأصول الفقه وغيرها كالفقه وأصول الدين (106) وكان ذكيا حسن الإدراك لا يحفظ القرآن الكريم ولا المتون، خلافا لما كان شائعا في ذلك الوقت من تغلب الحفظ على الفهم، فكان رفاقه الطلبة يتعجبون من حسن تحصيله بالرغم عن عدم إمعانه النظر في الشروح والخواشي، خصوصا وقد كان يدرس معهم كتباً صعبة مثل جمع الجوامع في الأصول بشرح جلال الدين المحلي، فيطالعه مرة واحدة قبل حضور المجلس ويكفيه ذلك لتفهم الموضوع والاحاطة به. وقد أجازاه مع أخيه محمد المتقدم الامام الحسن

(104) علي العكاري الحفيد، الدور الضاوية، ص 108.

(105) اليعمدي هو العلامة محمد بن أحمد وزير السلطان اسماعيل وأمين مكتبته. له كناشة علمية هامة في 10 مجلدات بالخزانة الريدانية بمكناس، وفي الخزانة العامة بالرباط نسخة في مجلدين ضخمين بخط دقيق تحت عدد 5330.

انظر ترجمة محمد العكاري عند علي العكاري، الدور الضاوية، في صفحات متفرقة. وعباس بن ابراهيم، الاعلام، ج 4 ص 363. وأحمد الولا، مباحث الأنوار، في صفحات متفرقة.

(106) أحمد بن يعقوب الولا، مباحث الأنوار، ورقة 7/7.

اليوسي إجازة عامة، ذكر فيها أنهما لازما دروسه في مختلف الفنون. كما أجازهما الشيخ عبد القادر الفاسي⁽¹⁰⁷⁾. وبعد تخريب الزاوية الدلائية قصد علي العكاري مدينة فاس واشتغل بالتدريس فيها. ويحدثنا القاضي أبو عثمان سعيد العميري المكناسي⁽¹⁰⁸⁾ عن هذه الفترة من حياة علي العكاري بقوله «لما دخل الشيخ العكاري حضرة فاس حين قفل من الزاوية الدلائية، والعلماء اذ ذاك متوافرون بها غاية، وكنت حينئذ بالحضرة المذكورة بصدد تحصيل العلم، شرع يدرس كبرى الامام السنوسي⁽¹⁰⁹⁾ بجامع القرويين منها. فسمع بذلك فقهاء الحضرة، وكان هذا الكتاب من أجل ما يتنافس فيه المتنافسون، فاجتمعت جماعة من الفقهاء، وجئنا قاصدين مجلسه لننظر قراءته ونختبر حاله، بقصد الانتقاد عليه والامتحان له، فحضرنا مجلسه بهذه النية، فألفيناه جالسا وقد غص عليه المجلس بالطلبة، وضربوا عليه حلقة عظيمة حفيظة، وهو يدرس بصوت فصيح جهير، وشاشيته مائلة لأحد شقي رأسه إشارة إلى ممهره، وعدم اكرائه بمنتهى عليه، لمعرفته لأحكام الفن المذكور، وكأنه تحدى بذلك الكتاب اذ ذاك...»⁽¹¹⁰⁾.

وبعد ذلك توجه علي العكاري إلى مدينة سلا، وأقام فيها يدرس العلم بمسجدها الأعظم، وأخذ عنه كثير من أعلامها، كالقاضي أبي عبد الله محمد المنصوري السوسي⁽¹¹¹⁾ والقاضي أبي عبد الله محمد زنيبر⁽¹¹²⁾ والفقيه أبي محمد عبد

(107) أنظر نص إجازة الامام الحسن اليوسي وعبد القادر الفاسي للاخوين العكاريين عند: علي العكاري، البدور الضاوية. ص 2 — 5.

(108) سعيد بن أبي القاسم العميري — بفتح العين وكسر الميم نسبة الى بني عمير قرب تادلا المشهورين — كان آية في النحو والبيان، واختاره السلطان اسماعيل للتدريس بحضرته وولاه قضاء عاصمته، وجعل له الشورى في مهماته، فكان له بذلك نفوذ كبير في البلاط الاسماعيلي بمكناس، حتى كان يعمر عنه بعض معاصريه بالوزير. أخذ العميري عن الشيخ علي العكاري والحسن اليوسي وطبقهما، وتولى بمكناس عام 1718/1131.

(109) الامام السنوسي هو محمد بن يوسف عالم تلمسان وامامها الكبير، صاحب العقائد الكبرى والوسطى و صغرى الصغرى، وصاحب الجواشي على صحيح مسلم. تولى تلمسان عام 89/895 — 1490.

(110) علي العكاري الحفيد، البدور الضاوية، ص 7.

(111) محمد المنصوري السوسي قاضي سلا والمجلة البخارية. له شرح على مختصر السنوسي في المنطق، وشرح على كبراه، وحواش على العقيدة الكبرى للسنوسي أيضا. توفي عام 1729/1142 ودفن بزاوية سيلني مغيث في حي الطالعة بسلا.

(112) أبو عبد الله محمد زنيبر المحدث الأديب قاضي سلا. صاحب شرح ههنة البوصيري وقعت له محنة مع عامل سلا عبد الحق فيش فهاجر الى الرباط. كان حيا عام 1752/1165 وقبره في سلا معروف بالقرب من ضريح الشيخ أحمد بن عاشر. أنظر ترجمته عند : محمد بن علي الدكلي، الاحكام الوجيز، ص 105.

الله الجزار بن أحمد حجي (113). والعلامة أحمد بن عاشر الحافي (114) والأديب محمد ملاح (115). وكان الأمير عبد الواحد بن السلطان اسماعيل (116) ساكنا بالرباط، فلما سمع بالشيخ علي العكاري قصده بسلا للأخذ عنه، ثم طلب منه أن ينتقل الى العلوة الأخرى، فلبى الشيخ طلبه، ونزل معه بداره في رباط الفتح، وبدأ يلقي دروسه في ضريح أبي العباس أحمد بن موسى العايدي (117) تارة وفي المسجد الأعظم تارة أخرى، وكان يحضر هذه المجالس العلمية علماء العلوتين، كابنه محمد العكاري (118) وأبي العباس أحمد والزُّهراء (119) وعامل الرباط أحمد حجي مرينو الأندلسي (120) وأخيه القاضي محمد مَرينو (121) وأبي عبد الله محمد الزبيدي (122)

- (113) عبد الله الجزار حجي اشعر بالعلم والنسك، وكان من أخص تلاميذ الشيخ علي العكاري وأحبهم اليه، لازمه حتى بعد انتقاله الى السكنى بالعلوة الأخرى فكان يحضر معه صلاة الجمعة في الرباط ولا تغوته مجالسه العلمية فيه. توفي عام 1710/1122.
- (114) أبو العباس أحمد بن محمد بن عاشر بن عبد الرحمن الحافي السلاوي صاحب الفهرست التي ذكر فيها علماء عصره، ومؤلف تحفة الزائر في ترجمة فخر سلا ابن عاشر الذي عرف فيه بالشيخ أحمد بن عاشر الجزيري السلاوي. وتوفي أحمد الحافي بسلا عام 49/1165 — 1750.
- (115) أبو عبد الله محمد ملاح السلاوي. قال عنه أبو الحسن العكاري الحفيد مؤلف البدور الضاوية انه كان يعبر النهر كل يوم ليحضر مجالس الشيخ علي العكاري بالرباط، وقد وقف له على قصائد رائقة بليغة. وكتب بعضهم في المامش انه عاش الى حدود عام 61/1175 — 1762.
- (116) الأمير عبد الواحد بن السلطان اسماعيل العلوي، أمه عنية من قبيلة بني مالك الشهيرة بضواحي سوق أربعاء الغرب. وهي قبيلة المجاهد محمد العياشي السلاوي ولعل لذلك علاقة باقامة الأمير بالعلوتين ولم أقف على تاريخ وفاته. انظر الدور البية للفضلي 1 511.
- (117) يوجد هذا الضريح بحي السوق بالرباط قرب مسجد مولاي سليمان بينهما طريق ممدة بين (البوية) وسيدي فاتح.
- (118) محمد بن علي العكاري العلامة المشارك لم يقرأ الا على والده، وكتب من املاء والده تعاليق مهمة على مختصر الشيخ خليل، و ألفية ابن مالك، و كبرى السنوسي، و سلم الاخصري وغير ذلك، وتصدر بعد والده للتدريس والافتاء بالرباط. لم أقف على تاريخ وفاته.
- (119) أبو العباس أحمد بن يحيى والزُّهراء، عالم مشارك أجازته الشيخ العكاري إجازة عامة، وكان جده من وجهاء الاندلسيين أهل الحل والعقد بالرباط أواخر الدولة السعدية. توفي بعد عام 1698/1110 في سفره الى الحج بعد أداء الفريضة.
- (120) أبو العباس أحمد حجي الأندلسي الأديب الشاعر الوشاح، كان يسود صحيح البخاري على الشيخ العكاري بالمسجد الأعظم بالرباط، مات بعد عام 1722/1135.
- (121) محمد مرينو قاضي الرباط أخذ عن الامام السنائي الدلائي في فاس ثم عن الشيخ العكاري بالرباط. وقد خلف أخاه أحمد في سرد صحيح البخاري بين يدي الشيخ العكاري. توفي بعد عام 1730/1143.
- (122) محمد بن الحاج ابراهيم الزبيدي الأندلسي أحد فقهاء الرباط المتخرجين على يد الشيخ العكاري ومن أكبر خواصه. ترجم له محمد بوجندار في الاغنياء ورقة 57 ولم يذكر تاريخ وفاته.

والحافظ أحمد بن عبد الله الغربي⁽¹²³⁾. وقد لقي الشيخ العكاري السلطان إسماعيل وتحادث معه طويلا. وتختلف الروايات في مكان هذا اللقاء وكيفيته. فيروي أبو الحسن العكاري الحفيد — علي ما ورد في نسخة الخزانة العامة بالرباط — عن الفقيه أبي يعزى بن محمد المسطاسي السلاوي تلميذ الشيخ علي أن الملاقاة كانت بمدينة مكناس وزاد قائلا «وأنا حاضر واقف خلف الشيخ إذ ذاك، فحين تلاقي بالملك خضع له الملك وأهوى ليد الشيخ يريد تقبيلها، فقال له الشيخ لا تفعل وقل السلام عليكم. فطلب منه الدعاء بأن قال له يا سيدي علي ادعُ الله لي. الله يجعلني عبدا مخلصا لله. فقال له عند ذلك : اللهم آمين. الله يجعلك يا مولاي عبداً مخلصا لله. وفرح الملك بذلك فرحا شديدا، وعظمه غاية التعظيم وقال له أردناك أن تكون إمامنا في هذا المسجد، وكان إذ ذاك يبني مسجد الأنوار⁽¹²⁴⁾ بمكناسة دار مملكته. فقال له الشيخ رضي الله عنه حتى يم المسجد بالبناء إن شاء الله ولا يكون إلا ما يحب السلطان..»⁽¹²⁵⁾.

ويذكر ابن زيدان في كتاب **الاتحاف** أن اللقاء بين السلطان إسماعيل والشيخ العكاري كان في المسجد الأعظم بالرباط، وذلك — على ما يظهر — من جملة النص الذي نقله عن **البدور الضاوية**، قال «.. ثم ورد السلطان الأعظم مولانا إسماعيل على رباط الفتح. ولما التقى به نجله المولى عبد الواحد المذكور حدثه بحال الشيخ المترجم ومناقبه وفضائله ومحاسنه. فقال له لا بد لي أن ألتقي معه في هذا اليوم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية تبركا. فركب السلطان وولده، فوجدوا المترجم بالجامع الأعظم يسرد **صحيح الإمام البخاري**، وكان السارد لديه الفقيه العلامة القاضي سيدي عبد الله بناني الأنبدلسي⁽¹²⁶⁾. ولما دخل السلطان صلي تحية

(123) الحافظ أحمد بن عبد الله الغربي العلامة الرحالة النافع الصيت بالمغرب والمشرق توفي عام 1178/1764 ودفن بالزاوية المنسوبة إليه قرب ضريح مولاي ابراهيم بمدينة الرباط.

(124) مسجد الأنوار بمكناس هو المعروف اليوم بمسجد سوق السباط. أنظر أخباره في **الاتحاف** 1 162.

(125) علي العكاري الحفيد، **البدور الضاوية**، ص 44.

(126) لا يوجد اسم عبد الله بناني من بين تلاميذ الشيخ علي العكاري في نسخة **البدور الضاوية** المحفوظة بخزانة الرباط. ولم يترجم بوجندار في **الاحتياط** إلا للقاضي عبد الله بن محمد بن عبد السلام بناني المتوفي في حدود العشرين من القرن الثالث عشر الهجري وقال إن جده قدم من فاس إلى الرباط لنشر العلم بأمر من السلطان إسماعيل.

المسجد وجلس لاستماع الحديث والشيخ لم ينظر اليه. ولما تم الدرس نظر الشيخ الى القاضي وقال له اخم الفاتحة فقال له حاشا معاذ الله والسلطان ينظر بعينه. ولما قام من مجلسه جذبه السلطان وعانقه وجلس بازمائه وقال له عظمي يا ولي الله. وتذاكروا ساعة زمانية واقتروا» (127).

ويذكر ابن زيدان بعد ذلك أن الشيخ العكاري لما رجع الى داره بعد هذه المقابلة وحد بها مالا كثيرا أهده اليه السلطان إسماعيل، فبعث الى تلميذه أبي عبد الله الزبيدي وقال له خذ هذا المال وافعل به ما شئت. فاشترى الزبيدي للشيخ دارا كبرى بدرب البروزي من حومة السوق (128) مجاورة للدار الصغرى التي كان يسكنها ودفن فيها بعد مماته. ولم يفصل السلطان عن الرباط ويتوجه الى سجلماسة — حسب رواية ابن زيدان — إلا بعد أن صحب معه الشيخ العكاري وعشرة من تلاميذه من فقهاء العدوتين وذلك ليوم به في الصلوات الخمس ويختم معه صحيح البخاري، ويتبرك به أنجال السلطان في تافيلالت.

ولما استرجع السلطان إسماعيل مدينة المهدية من يد الاسبان عام 1681/1092 وكان قد شارك في هذا الفتح كثير من المجاهدين السلاويين، منهم الشيخ أحمد حجي رفيق الشيخ علي العكاري وصديقه الحميم، طلب السلاويون من السلطان إسماعيل أن يأذن برجوع الشيخ علي العكاري الى مدينتهم فوافقهم على ذلك وعاد العكاري من جديد إلى سلا، وسار فيها سيرته الأولى من تدريس العلم بمسجدها الأعظم وأقبل عليه طلبتها وعلمائها إقبالا كبيرا. ولا ندري المدة التي قضاها الشيخ علي العكاري في هذه الإقامة الثانية بسلا، ولعلها لم تطل اذ كانت للشيخ تعلقات كثيرة بالعدوة الأخرى، لاسيما وهو يمتلك هناك دارين صغرى

(127) عبد الرحمن بن زيدان، انحاف أعلام الناس، ج 4، ص 96.

(128) ما يزال حفدة الشيخ علي العكاري يسكنون هذه الدار بزقة سيدي عو يحي السوق في الرباط، وهي تتصل بصرخ الشيخ العكاري بواسطة ممر صغير (خراجة) موجود حتى اليوم.

وكبرى كما رأينا. فرجع الى الرباط وقضى بها آخر أيامه في حالة مرضية من النسك والعبادة، ونشر العلم وتعميم الإفادة، إلى أن توفي عام 1706/1118 (129).

محمد بن عبد الرحمن الصومعي

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الزمراني التادلي الصومعي، نسبة الى قرية الصومعة الشهيرة بتادلا (130) العلامة المشارك. الورع الصالح، صاحب شرح سينية ابن بادس (131) وشرح همزية البوصيري (132). مكث مدة طويلة في الزاوية الدلائية مقيما في غرفة من غرف مدارسها مع الأخوين العكاريين المتقدمين. وكان يلزم مجالس الشيخ أبي علي اليوسي وغيره، ثم انقطع مدة عن دروسه للالتحاق (129) جمال ابن زندان وفاة الشيخ العكاري الرباطي عام 81/1092 — 1682 نقلا عن كفاية الوزير الحمدي.

وهذا من ذيل الخلط بين الأخوين العكاريين وربما كان المتوفى في هذه التاريخ هو محمد العكاري دفن مراكش، اذ هو أكبر من علي سنا، فيناسب عادة أن تتقدم وفاته عليه، كما أنه هو الذي يستأثر باهتمام الوزير الحمدي أكثر ما دام قد عاش واباه في بلاط السلطان اسماعيل إماما وخطيبا كما تقدم في ترجمته. أنظر كذلك في ترجمة علي العكاري، زيادة على المراجع المذكورة في الهوامش السابقة

1 — حوز الأمانة في سبب تسمية دار الضمانة لمحمد بن أحمد بن الغازي 1313 في مجلدين (بخزانة محمد ابراهيم الكتاني بالرباط).

2 — رسالة في مناقب وسيرة الشيخ علي العكاري، لأبي يعزى المسطاسي تلميذه.

3 — فهرس أحمد بن عاشر الحافي السلوي — مخطوط.

4 — مجالس الانبساط، لمحمد دنية (طبعة الرباط 1986) ص 86 — 90.

5 — مطلع الدراري في اخبار سيدي علي العكاري، لمؤلف مجهول الاسم.

(130) ما تزال قرية الصومعة قائمة حتى اليوم متصلة بمدينة بني ملال. وقد أنبت كثيرا من العلماء مثل عبد الرحمن بن اسماعيل الصومعي صاحب التشوف في رجال السادات أهل التصوف المعروف بالتشوف الصغير. وأحمد بن أبي القاسم الصومعي شيخ زاوية الصومعة أيام ازدهار الزاوية الدلائية، وهو الذي أجاز المقرئ صاحب نفع الطيب وأخرج له ستين مجلدا كلها من تصنيفه، وكانت له خزانة علمية تحتوي على 1080 مجلدا. توفي عام 1604/1013.

(131) أبو الحسن بن أبي القاسم بن حسن بن باديس القسنطيني، صاحب النفحات القدسية وهي قصيدة سينية مطلعها

ألا صِلْ إلى بغدادَ فهنيَ هنا النفسُ وحلَّتْ بها عن نوى باطنِ الرّس

ذكر فيها الشيخ عبد القادر الجيلاني وأشهر تلاميذه وجعل لها شرحا سماه اللامعات الانسية. وقال محمد القادري في نشر المثاني (2: 108) إنه وقف على شرح الصومعي لهذه السينية وهو شرح عجيب جمع فيه بين الاختصار والتحقيق، وتوفي ابن باديس عام 1385/787 م.

(132) شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري المصري المتوفى عام 696هـ/1296، له قصيدتان شهيرتان في مدح الرسول الكريم احدهما ميمية وتعرف بالبردة والأخرى همزية ولها شروح كثيرة. ويمتاز شرح الصومعي بعدم الاطالة والاستطراد، والاختصار على ما لا بد منه لتحليل الآيات ومعرفته ما تشير اليه من أحداث في السيرة النبوية الكريمة. ويوجد هذا الشرح في قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد 232/ك. ضمن مجموع، وبالخزانة الملكية تحت رقم 2166.

بمراكش من أجل الاتصال بالشيخ الصوفي محمد بن عبد الله السوسي وسلوك طريق القوم على يده. فاعظم اليوسي لسنفره اذ كان يرى فيه استعدادا كبيرا للاستفادة من دروسه وبعده من أنجب طلابه الذين يتوسم فيهم الأهلية لتحمل الأمانة العلمية. ولم تطل غيبة الصومعي في مراكش، فخرج منها مع شيخه ابن عبد الله السوسي راجعاً الى الزاوية الدلائية عام 1660/1071، وانقطع من جديد الى دروس الامام اليوسي وغيره من العلماء الدلائيين، إلى أن تخرج عالماً كبيراً، ومصلحاً ناصحاً. ورجع الصومعي، بعد حادثة تخريب الزاوية الدلائية، إلى مسقط رأسه في تادالا وأقبل هناك على نشر العلم بين طلبة قبيلته وغيرهم من أبناء الاقليم التادالي، وتكاثر الآخذون عنه فيها، ثم سحب الشيخ الصوفي أحمد بن عبد الله صاحب زاوية المخفية بفاس وحج معه الى بيت الله الحرام عام 1688/1100، وظل يتردد اليه في مناسبات الأعياد الدينية. ويحدثنا أحمد الولالي عن حال رفيقه الصومعي عام 1697/1109 وهو التاريخ الذي ألف فيه مباحث الأنوار بقوله «وهو وفقه الله تعالى إلى الآن مقبل على ما يعنيه من العلم والعمل، تخرج عليه في العلم ناس من أصحابه، ومهذبت بمصاحبته أخلاقهم. وهو حسن العهد، منقطع عن الولاة، لا يرى غالبا الا ذاكرا أو مشتغلا بالعلم تعليماً ومطالعة أو مذاكرة. توفي محمد بن عبد الرحمن الصومعي عام 1712/1123 (134).

أحمد بن يعقوب الولالي

أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولالي (بفتح الواو وتشديد اللام الأولى) نسبة إلى بني ولّال أحد بطون قبيلة أيت عطّا (بتشديد الطاء) الصنهاجية المشهورة بأقصى جبال ملوية (135) وكان أحمد بن يعقوب من أعلام زمانه

(133) أحمد بن يعقوب الولالي، مباحث الأنوار، ورقة 31/1.

(134) ترجم للصومعي أحمد الولالي في مباحث الأنوار. ورقة 31/1 وما بعدها، وعحمد القادري في نشر المثالي، 3

211.

(35) لبني ولّال صلات وثيقة قديمة بأبناء عمومهم المجاطين، وكان محمد بن يعقوب الولالي من مريدي أبي بكر الدلائي، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية كما كان ابنه محمد الولالي من تلاميذ محمد بن أبي بكر الدلائي. قضى أحمد

علما وتدينا «يجيد التعبير عن كل ما يريد، متبحرا في العلوم محققاً لها» (136) انقطع الى طلب العلم في الزاوية الدلائية زمنا طويلا مقيما في إحدى مدارس الزاوية، وقد توثقت الصلة بينه وبين محمد بن عبد الرحمن الصومعي والأخوين العكارين المتقدمين. درس على الامام أبي علي اليوسي وأضرابه مختلف الفنون من فقه، وأصول، ونحو، ومنطق. ومن أهم الكتب التي درسها هناك، جمع الجوامع للسبكي، و مختصر الشيخ خليل، و تلخيص المفتاح للقزويني، و التسهيل لابن مالك. ولما حل الشيخ محمد بن عبد الله السوسي بالزاوية البكرية كما تقدم، أخذ عنه أحمد الولالي الطريقة الصوفية، فاكتمل بذلك تكوينه العقلي والروحي. وبعد أقول نجم الزاوية الدلائية قصد أحمد الولالي مدينة مكناس واستقر بها متصدرا للتدريس في قصبة الحضرة السلطانية الإسماعيلية، وأقبل الطلبة على مجالسه العلمية المفيدة. ومن تخرج على يده من علماء مكناس أبو القاسم بن سعيد العميري (137) والطبيب عبد القادر بن شقرون (138). وألف أحمد بن يعقوب كتبا عديدة أغلبها شروح وحواش على الطريقة المعروفة في عصره. منها شرح مختصر المنطق للشيخ السنوسي، وشرح السلم المروني في المنطق أيضا للأخضري (139)، وشرح تلخيص المفتاح، في البلاغة للخطيب القزويني (139م)، وشرح لامية الافعال، في التصريف لابن مالك، وشرح روضة الأزهار في التوقيت

= هذا حياته كطالب للعلم في الزاوية البكرية، ولم تقتصر الصلات بين القبيلتين البربريتين على الناحية العلمية بل شملت الناحية الحرية أيضا، فكان بنو ولال من أهم القبائل المناصرة للرئيس محمد الحاج الدلائي ومن أحسن العناصر التي يعتمد عليها في ناحيتي مكناس وفاس وسهول سايس، لذلك تعرض الولاويون لغارة الرشيد بن الشريف قتلوهم قبل أن يتوجه إلى الدلاء.

- (136) محمد القادري، نشر الثاني (الطبعة الحجرية) 2 114 .
 (137) أبو القاسم هذا هو ابن القاضي سعيد بن أبي القاسم العميري المتقدم. وكان مثل أبيه فقيها تولى القضاء بمكناس وأخذ عنه كثير من العلماء. توفي عام 64/1178 — 1765 .
 (138) عبد القادر بن العربي المنهجي المدغري، المعروف بابن شقرون المكناسي الفقيه التحوي الأديب الطبيب المشارك. من مؤلفاته شرح البسط والتعريف في التصريف للمكودي، و الأجزاء الطبية المعروفة بالشقرونية، مات بعد عام 1140/1727 .
 (139) عبد الرحمن بن محمد الصفيير الاخضري، مؤلف السلم المروني في المنطق و رسالة الحساب و الجواهر المكون في ثلاثة فون — المعاني والبيان والبدیع — وغيرها من الكتب التعليمية المشهورة. من رجال القرن العاشر الهجري.
 (139م) يوجد مخطوطا بمكتبة مكناس تحت عدد 149 وفيه انه أتم تأليفه بمكناس عام 1108 .

للجنادري⁽¹⁴⁰⁾ وحاشية على شرح المحلى لجمع الجوامع، في الأصول. ولعل أهم كتبه وأفيدها جميعا هو كتاب مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، الذي ألفه في مطلع القرن الحادي عشر الهجري للتعريف بشيخه محمد بن عبد الله السوسي، وذكر فيه كثيرا ممن أخذوا عنه، كما ترجم فيه لأبيه وجده، وشيوخهما من الدلائين وغيرهم، ولطائفة مهمة من العلماء الذين لقيهم أو كتبهم. وقد خصص أحمد بن يعقوب الخاتمة لذكر من اشهر شرفه بالمغرب، وفي هذا الكتاب تبدو قدرة المؤلف على التعبير وحسن الأداء في أسلوب سليم خال من التكلف. وقد تحدث فيه كثيرا عن الزاوية البكرية، خصوصا في المبحثين الأول والثاني، وسجل من أخبارها وأوصافها ما لا يوجد عند غيره من المؤرخين. وكانت وفاة أحمد الولائي بمدينة مكناس عام 1715/1128 (141).

أحمد القادري

أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري الحسني، الفقيه الأديب، العلامة الصوفي صاحب نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس^(141م)، وهي رحلة حجازية مفيدة جدا على اختصارها، ألفها عندما حج للمرة الثانية عام 1100/1688 صحبة الامام العارف أحمد بن عبد الله معن⁽¹⁴²⁾ وقد سبق للقادري أن حج للمرة الأولى عام 1083/1672م وزار مصر حيث التقى بشيوخها وأعلامها. وأقام أحمد القادري في الزاوية الدلايمية طويلا يأخذ العلم عن محمد المرباط الدلائي والحسن اليوسي وغيرهما، ثم أصهر الى الدلائين فتزوج بنت

(140) أبو زيد عبد الرحمن بن أبي غالب الشهير بلجنادري موقت جامع القرويين بفاس ومؤلف روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار، وهي أرجوزة تشتمل على 336 بيتا يدرسها الناس ويعتمدون عليها في هذا الفن حتى اليوم، توفي عام 1435/839.

(141) ترجم لأحمد الولائي محمد بن الطيب القادري في نشر المثالي 3 229-233. وعبد الرحمن بن زيدان في الإحاف 1 340 وما بعدها.

(141م) توجد مخطوطة في الخزانة الملكية بالرباط تحت عدد 8787.

(142) أحمد بن محمد بن عبد الله معن الاندلسي الصوفي الكبير صاحب الزاوية المعروفة في فاس بالخففة من عدوة الاندلس. وكان الذي اختطها هو أبوه الصالح محمد بن عبد الله في حدود عام 1048/1638م. ثم جلد الشيخ أحمد بناتها ورفع خزانة الكتب الخمسة عليها في مسهل القرن الثاني عشر الهجري وكانت مجمع فقهاء فاس وعلمائها. توفي الشيخ أحمد عام 1120/1708.

الشاذلي أخي الرئيس محمد الحاج مستقرا نهائيا بالزاوية الدلائية الى أن خرج منها مع أهلها عندما خرجها السلطان الرشيد، فقصد زاوية الصومعة بتادلا حزينا يبكي مجد الدلاء الغابر، ويندب جدها العائر، وقد روى عنه صاحب تحفة المعاصر (143) عبارات مؤثرة وصف بها حادثة إخلاء الزاوية.

كان أحمد القادري يقرض الشعر في سهولة ويسر، وله رجز فيمن هاجر الى الحبشة من الصحابة. وبحث لطيف حول قاعدة ابن خلدون في تقدير الأجيال مع أمور تتعلق بالنسب الشريف من نسل الحسن والحسين بعد أن سأل عن ذلك شرفاء جبل العلم «فأجاب عن جميع مسائل السؤال بما ينبغي من النقل الممتع، وبما هو للمستفيد مقنع، وحقق أن قاعدة ابن خلدون ليست بمطردة..» (144) وقد سافر القادري مرة مع شيخه أبي علي اليوسي ومرا بقرية أزرو ومعهما كثير من الناس فنزلوا بها واجتمع أهلها على الشيخ اليوسي دون أن يظهروا له شيئا من كرم الضيافة. فلما ألح الجوع على الشيخ وأيس من قراهم عمد الى زاده وتناول منه سويقا، فأقبلوا يشاركونه في أكله، وكان فيهم قضاة وأعيان القرية فأنشد اليوسي أبياتا للاديب الدغوشي

قرية لا قرى لابن السيل بها	تباً لها ولأرجاسي بها اجتمعوا
لولا أفادها يقررون واردها	من سؤر باردها في ضمينه وجع
لقلت من زار أزرو زار مقبرة	ورب مقبرة زوارها انتفعوا

فزاد أحمد القادري على هذه الايات مثلها وقال

وإن حلت بها فانزل بروضها	ولا تقم ساعة فالخير ممتنع
لقد أتيناهم يوم الخميس ضحى	فلم يتل منهم قوت ولا شيع
قالوا القضاة أتوا، قلت لكرامنا	إذا هم في سوق الشيخ قد طعموا

(143) تحفة المعاصر في بعض صالحى تلامذة أبي عبد الله محمد بن ناصر، لمحمد بن عبد الله الخوات، أحد المصادر

الهامة التي اعتمد عليها سليمان الخوات في كتاب البدور الضاوية. وقد نقل عبارات القادري في التحسر على

الزاوية الدلائية في ورقة 116

(144) محمد القادري، نشر المثالي، (الطبعة الحجرية) ج 2، ص 121.

توفي أحمد القادري عام 1133 / 20—1721. ودفن بقرب ضريح الشيخ أحمد اليمنى خارج باب فتوح من مدينة فاس (145).

محمد بن مسعود المراكشي

أبو عبد الله محمد بن مسعود المراكشي الفقيه النحوي العالم الصالح. انصرفت همه منذ أول عهده بالدراسة الى تحصيل قواعد اللغة العربية، والفقه المالكي فقرأ ألفية ابن مالك، و مختصر الشيخ خليل أكثر من مرة بالزاوية الدلائية على علمائها حتى أحرز قصب السبق فيهما، فأخذ يدرسهما بدوره لطلبة الزاوية مع كتب أخرى في هذين الفنين. وله تقايد كثيرة وملاحظات مهمة كتبها على مختصر خليل. وكان في ابتداء أمره مفتونا بمظاهر الدنيا شغوفاً بزخرفها وهوها، يعاشر المترفين من شباب الدلائيين أولي السلطة والجاه لا يكاد ينهي من إلقاء دروسه وينصرف من المسجد حتى يغشى مجالس الانس والطرب. وكان محمد بن مسعود بالاضافة الى شبابه وعلمه خفيف الروح حلو النكتة شأن كثير من المراكشيين، فتهافت عليه زملاؤه من شباب الزاوية وصادف ذلك منه ميلا ورغبة فتوثقت الصلة بينهم. ولما قدم الشيخ الصوفي محمد بن عبد الله السوسي من مراكش الى الزاوية البكرية اتصل به محمد بن مسعود في جملة العلماء، فأعجب باستقامة الشيخ وجده، ولازمه طيلة الأيام العشرة التي قضاهما بين ظهرانيهم، فتبدلت حاله وتطهرت روحه من أدران المادة حتى إنه مزق ما كان عليه من ثياب فاخرة واستبدل بها ملابس خشنة، وانقطع عن رفاقه الأمراء، ولم يلبث أن غادر الزاوية الدلائية نهائيا فرارا من مجالس لهو القديم وقصد قرية تمجث بتادلا حيث عاش بجوار الشيخ الصوفي علي بن عبد الرحمن الدرعي (146) يدرس العلم في

(145) ترجم لاحد القادري ابن عمه محمد القادري في نشر المثالي 3: 247—251. وعبد الكافي في سلوة الانفاس

(146) الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الدرعي هو دفين تادلا بمنزله بها المسمى (تمجث) توفي بالطاعون، ولعله وباء

زاويته ويؤم الناس في الصلاة. ثم جرت أحداث سياسية استهدف فيها الشيخ على ابن عبد الرحمن لعسف بعض الولاة، فغادر محمد بن مسعود هذه الزاوية الى قرية تَنَعَّمَتْ بالقرب من مراكش وظل فيها على ديانته وعبادته واشتغاله بالتعليم والارشاد وتدرّس الحديث الشريف الى أن توفي بالطاعون. ولعله الوباء الذي اجتاح المغرب عام 1090 / 1679م (147).

علي بن عبد الواحد الانصاري السلوي

أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد بن أبي بكر الانصاري السجلماسي أصلاً السلوي ثم الجزائري، الفقيه المحدث العالم المؤلف النفع، نشأ بسجلماسة وقرأ بفاس وزاوية الدلاء ورحل الى الشرق فأخذ عن علماء مصر مثل الامام الاجهوري (148). ثم استوطن مدينة سلا، وفيها نشر علمه وألف تأليفه العديدة، مثل اليواقيت الثمينة، وهو نظم في قواعد المذهب ونظائر الفقه على نسق منهج الزقاق (149) وشرح تحفة ابن عاصم (150) كما شرح الأجرومية في النحو (151) وغير ذلك.

وذكر الافراني في الصفوة (ص 135) أن علي بن عبد الواحد الانصاري قرأ صحيح البخاري على الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي نحو إحدى وعشرين مرة،

-
- (147) أنظر ترجمة محمد بن مسعود عند أحمد بن يعقوب الولاي، مباحث الأنوار، ص 103 — 105 عباس بن ابراهيم، الاعلام، 5 49.
- (148) أبو الحسن علي الأجهوري شيخ المالكية بمصر وصاحب شرح مختصر خليل. أدرك شهرة عظيمة بالمغرب حتى كانت توجه اليه منه الاسئلة للإفتاء. توفي عام 1066 / 1655
- (149) أبو الحسن علي بن قاسم بن محمد التجيبي الشهير بالزقاق، القاسي. له نظم للمنهج في أصول المذهب، ولامية في أحكام فقهية جرى بها عمل فاس، توفي عن سن عالية عام 912 / 1506
- (150) أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن عاصم، قاضي غرناطة، صاحب الرجز المشهور تحفة الحكام في الأحكام الفقهية الذي شرحه المقاربة والمشاركة وحفظه الناس لسهولة ورقة أسلوبه. توفي عام 829 هـ — 1425 م
- (151) الاجرومية كتاب صغير يشتمل على مبادئ النحو، أقبل الناس عليه كثيراً. ومؤلفه أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي القاسي المعروف بابن اجرم المتوفي عام 723 هـ — 1323 م

كما قرأ عليه الشفا للقاضي عياض⁽¹⁵²⁾ والموطأ للإمام مالك بن أنس⁽¹⁵³⁾ ورسالة
الإمام القشيري⁽¹⁵⁴⁾ وحكم ابن عطاء الله⁽¹⁵⁵⁾

وقد استوطن علي بن عبد الواحد الجزائر في أواخر أيامه، وتخرج على يده
هناك كثير من الاعلام. وتوفي بالطاعون عام 1054 / 44 — 1645⁽¹⁵⁶⁾.

-
- (152) القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، امام الحديث والفقہ والأدب، دفن مراكش المتوفى عام 544 هـ — 1149 م وقد أفردہ أحمد المقرئ بتأليف أزهار البهاض في أخبار عياض نشر منه بيت المغرب بالقاهرة 3 أجزاء. لم نشرته وزارة الأوقاف المغربية كاملاً في خمسة أجزاء.
- (153) الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة، وأحد أصحاب المذاهب الأربعة المشهورة توفي عام 179 هـ — 795 م
- (154) عبد الكريم القشيري من أشهر الصوفية الذين كتبوا في الورع ومحاسبة النفس. ويعرف كتابه بالرسالة القشيرية. طبعت في مصر مراراً، وتوفي عام 465 / 1072
- (155) تاج الدين بن عطاء الله الاسكندراني الشافلي، من أكبر مقاومي ابن تيمية، ألف نحو 20 كتاباً أشهرها الحكم في أبحاث الصوفية. وتوفي عام 709 / 9 — 1310
- (156) ترجم لعل بن عبد الواحد الانصاري، محمد الاقرني، الصفوة، ص 135 وما بعدها. ويعمد الحجري، الفكر السامي، 4 — 111. وأخباره متفرقة في نفع الطيب، و الدور الضاوية وغيرها.
- وفي تعريف الخلف للحفناوي (ص 69. من القسم الأول) أنه توفي عام 1057 مطعوناً في الجزائر.

الباب الرابع

الدلائون والسياسة

1 – موقف الدلائين من الاضطرابات الداخلية

- (ا) علاقة الدلائين بالملوك السعديين
- (ب) موقف الدلائين من ابن أبي محلي وأبي زكريا
- (ج) موقف الدلائين من أبي حسون السملالي
- (د) علاقة الدلائين بالمجاهد العياشي.

2 – زعامة محمد الحاج السياسية

- (ا) من هو محمد الحاج ؟
- (ب) نزوع محمد الحاج الى الحكم
- (ج) تأسيس مدينة الدلاء
- (د) بيعة أهل المغرب لمحمد الحاج

3 – أعمال محمد الحاج الحربية

- (ا) الحملتان الدلائيتان الأوليان (وقعة أبي عقبة)
- (ب) مهاجمة المجاهد العياشي
- (ج) غزو شرفاء سجلماسة (وقعة القاعة)
- (د) الجهاد ضد الاسبانيين في المعمورة
- (هـ) حملات تأديبية في بلاد زعير والحياينة

1 — موقف الدلائين من الاضطرابات الداخلية

أ) علاقة الدلائين بالملوك السعديين

لم يكن الدلائون في بادئ الأمر يهتمون إلا بالناحيات الدينية والعلمية. فالشيخ أبو بكر مؤسس الزاوية الدلائية كان زاهدا في الدنيا عزوفا عنها، لا يشتغل حتى بتدبير أموره الخاصة، ولا ينصرف عن عبادته وأذكاره إلا ليرشد مريديه ويعظهم ويذكرهم. وسار محمد بن أبي بكر الدلائى على نهج والده في الاعراض عن الدنيا وزخرفها والانقطاع الى عبادة الله وتربية المريدين وتدريس العلم للطلبة المقيمين بالزاوية، وإكرام الوفود والاحسان الى الناس جميعا. وظل يعترف بسلطة السعديين ملوك مراكش، حتى بعد أن مزقت الحوادث هملمهم، وبدا عجزهم وقلة كفايتهم، وآخر من بايع منهم الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور (1040 / 1631 - 1045 / 1636)

وعلى الرغم مما كان لمحمد بن أبي بكر الدلائى من نفوذ قوي لدى القبائل البربرية في الاطلس المتوسط، وما امتاز به بعض أبنائه من شجاعة وفروسية وما آناه الله من بسطة في العلم والمال والجاه، على الرغم من ذلك كله لم يحاول ابن أبي بكر قط استغلال تلك الامكانيات الواسعة التي لم تتح لغيره ليبدل بدلوه في بحر السياسة والسلطان، وإنما كان يدعو الى السمع والطاعة، والتمسك بالوحدة ولزوم الجماعة. وطالما ندد بما كان يشعر به عند بعض بنييه من الزهو وحب الرئاسة. وعاش محمد بن أبي بكر الدلائى أربعاً وثلاثين سنة من عهد القوضى والاضطراب (1012-1046 / 1603-1636) الناتج عن تصدع السلطة المركزية وانقسامها وعجزها عن حفظ النظام في البلاد، خصوصا في الاطراف والجبال. وكان براية الاطلس خلال هذه الفترة يلتفون حول شيخ الدلاء لما يعرفون به من صلاح الحال وطهارة النفس ورحابة الصدر، ورعيا كذلك لعصبية القوية، إذ كان رهطه مجاط في ذروة تلك القبائل شدة بأس وصعوبة مراس. وهكذا نجد

محمد بن أبي بكر الدلائي حكما يختصم اليه قومه، وملجأ يهرع اليه المستضعفون من جيرانه، فلا يألو جهدا في إصلاح ذات البين والعمل على إنصاف المظلومين، ساعيا دائما في الخير والسداد، داعيا الى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد عرفنا مما سبق أنه اضطر مرة الى الهجرة من الدلاء الى قرية تاغيا بناحية ميدلت عندما اشتد عناد بعض القبائل الطاغية، وتألبت على اذايته والكيد له.

وفي هذه الظروف التي لم يبق فيها لسلطة السعديين في جبال الاطلس وبلاد تادلا الا الاسم، كان لابد من وجود قوة محلية في هذه النواحي تعمل على حفظ النظام وتأمين السبل وحماية القوافل، فتكون في الدلاء جيش قوي من فرسان مجاط وأيت اسحاق وغيرهما من القبائل البربرية بقيادة ثلاثة من أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر، اشعروا بالشجاعة والاقدام وهم عبد الخالق، وعمر، ومحمد الحاج (1) ولم تقتصر تحركات هذا الجيش على العمل في النطاق المحلي المحدود، بل ذهب بعيدا عن الدلاء، فسار الى سلا وفاس لمساعدة المجاهد العياشي في القضاء على بعض الفتن الداخلية. كما توجه الى تافيلالت لانجاء أهل قرية تابوعصامت والوقوف في وجه الجيوش السوسية مما سنراه مفصلا في فصل آت. وسيكون هذا الجيش الدلائي السند الأول الذي يعتمد عليه محمد الحاج بعد وفاة والده لاقامة إمارة دلائية مستقلة عن نظر السعديين.

ب) موقف الدلائين من ابن أبي محلي وأبي زكريا الحاحي

أبو محلي أو ابن أبي محلي (بفتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي، كان يزعم أنه من نسل العباسيين. انتقل أبو محلي في مقتبل العمر الى فاس لطلب العلم، وتخلف عن المجاهدين الذين

(1) عبد الخالق الدلائي عالم أديب وبطل مغوار، وهو أول رئيس من الدلائين قتله أعراب تادلا غدرا عندما كان راجعا من حركة تأديبية قام بها ضد أعراب الشاوية ببلاد تامسنا عام 1059/ 1649 وحمل الى الزاوية البكرية فدفن فيها. وأخوه عمر أديب شاعر وشجاع باسل كذلك درس بالزاوية البكرية وقاد الجيوش الى أن مات في أثناء قتاله ضد الحايينة بضواحي فاس عام 1055/ 1645 وحمل مصبرا، وقيل جريحا ثم مات، ودفن بالدلاء. أما محمد الحاج فستاتي ترجمته بشيء من التفصيل.

سارعوا الى لقاء العدو على وادي الخازن فارا الى البادية يحفظ المتون ويتسكع بين الخيام الى أن محدت الفتنة وسكنت بانتصار المسلمين، فرجع إلى فاس وأقام فيها سنين عديدة الى أن تخرج منها عالما متبحرا في اللغة والمسائل الدينية بالخصوص. وألف أبو محلي عدة كتب تحوم كلها حول البدع والمنكرات. ويمكننا أن نأخذ فكرة صغيرة عن هذا الرجل من عناوين كتبه قبل أن نقرأها — أنظر جدول مؤلفات أبي محلي — ويمتاز بشدة التحامل على المبتدعين والمنحرفين عن الدين، فينعمهم بأقبح النعوت، ويدعوهم بالجهلة والسلفة، ولا يرى إلا شذخ رؤوسهم بالمهراس والمدارس والمنجنيق، وتقطع أمعائهم بالسهم الزعاف.

وقد سلك أبو محلي طريق التصوف، وصحب الشيخ محمد بن مبارك الزعري المتقدم، وبقي عنده في تستاوت نحو ثماني عشرة سنة. وكانت تعتربه عند شيخه أحوال، فيصبح قائلا «أنا سلطان ! أنا سلطان !» فيقول له الشيخ «إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا».

وبعد أن أقام أبو محلي مدة في الزاوية الدلائية، اتجه الى وادي الساورة في الصحراء⁽²⁾ وادعى أنه المهدي المنتظر، وبدأ يكتب رؤساء القبائل يأمرهم بالتمسك بالدين والسنة، وينهاهم عن المنكرات والبدع. ولما سلم الشيخ المامون السعدي مدينة العرائش إلى الاسبانيين عام 1019 / 1610، أظهر ابن أبي محلي الغضب والحمية للدين ودعا الناس للجهاد، فاجتمعت عليه العامة، وتقدم بهم الى سجلماسة فملكها، ثم استولى على بلاد درعة، وقصد مراكش فاقترحها عنوة وطرد ملكها زيدان بن المنصور الذهبي. ولما دخل أبو محلي قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ما شاء، وولد له هناك مولود سماه زيدان. ويقال إنه تزوج أم زيدان وبنى بها، ودبت في رأسه نشوة الملك، ونسي ما بنى عليه أمره من الحسبة والنسك⁽³⁾. وبالرغم من كون فتنة ابن أبي محلي لم تدم الا نحو ثلاث

(2) وادي الساورة من جملة الاراضي التي اقتطعها الفرنسيون من المغرب أيام الحماية وأخفوها بالجزائر، وما يزال آل أبي محلي حتى اليوم في هذه المنطقة الصحراوية.

(3) أحمد الناصري، الاستقصا، 6 : 101

سنوات، فانه ضرب السكة باسمه وكتب عليها «ضرب بلكتاوة حرسها الله عام
احدى (كذا) وعشرين وألف»

باسم الله الرحمن الرحيم
القائم بأمر الله
أبو العباس الفاطمي
العباسي أيده الله
الملك لله الواحد القهار
لا اله الا الله
محمد رسول الله
أبو العباس المهدي
خليفة الله(4)

نقش خليفة الله الهاشمي الحجار

ولعل لمسارعة أبي محلي الى ضرب السكة باسمه علاقة بما يذكره عنه المؤرخون
من أنه اشتغل بالكيمياء وتحويل المعادن «فكان صاحب حكمة لم تنقطع النار في
جيشه لتذويب الرصاص وصبغته»(5). وقد توجه السلطان الطريد زيدان إلى زاوية
الشيخ أبي زكريا الحاحي بجبل درن(6) ورجا منه أن يساعده على الرجوع الى
عاصمة ملكه، والقضاء على منافسه أبي محلي. فسار أبو زكريا عام
1022 / 1614 في جماعة كبيرة من أتباعه الى مراكش، حيث التقى بخصمه في
جليز خارجها. ووقعت بين الفريقين معركة حامية الوطيس اسفرت عن مقتل ابن
أبي محلي الذي احتز رأسه وعلق على سور مراكش مع رؤوس جماعة من أصحابه
طيلة 12 سنة.

4) M. Henri Lavoix, Catalogue des monnaies musulmanes, P. 492.

(5) مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 101
(6) جبل درن أو أدرار - ن - درن هو الأطلس الكبير.

اسم الكتاب	المكتبات التي يوجد بها
(1) أصليت الحرث، في قطع بلعوم العفريت، أو عناء الوسائل، وهودج الرسائل، في مرج الأراج، ونفخة الفرج، إلى سادة مصر، وقادة العصر. وهو كتاب ترجم فيه لنفسه وتحدث عن نفسه ونشأته إلى أن قام بالثورة، وضمّنه أخبار رحلته الحجازية الثانية	توجد منه 3 نسخ مخطوطة في خ.م. تحت عدد 100 و 4009 و 4442.
(2) جواب الخروبي عن رسالته إلى الشيخ أبي عمر القسطلي المراكشي	مخطوطة خ.ع، رقم 611 ك.
(3) سلسيل الحقيقة والحق، في سبل الشريعة والخلق.	مخطوط خ.م. 4733 و 5916 أوفما تام انثسخ عام 1022، خط شرقي مذهب.
(4) سم ساعة، في تقطيع امعاء مفارق الجماعة.	مخطوطة خ.ع. رقم 338 ق ضمن مجموع. (ص 2 - 126).
(5) السيف البارق، مع السهم الراشق.	نفس المخطوطة السابقة.
(6) القسطاس المستقيم، في معرفة الصحيح من السقيم تكلم فيه على العلم والعمل والخلافة	مخطوطة خ.ع. 576 ق.
(7) منجنيق الصخور، في الرد على أهل الفجور.	مخطوطة خ.ع. 338 ق (من ص 130 - 453)
(8) مهراس رؤوس الجهلة المتبدعة، ومدارس النكوس السفلة المتدعة، تحدث فيه أبو محلي عن المهدوية ورد فيه على خصومها.	مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط 192 ك. في 221 صفحة.
(9) الهودج	ذكره الناصري في الاستقصا، 6 33.
(10) الرضاح، لكل متمشدق فضاح.	ذكره ابن أبي محلي في طالع كتابه الذي أجاب به الخروبي.

ولعل أهم صلة جمعت بين الدلائيين وابن أبي محلي هي الطريقة الصوفية الشاذلية، إذا أخذ كل من محمد بن أبي بكر الدلائي وابن أبي محلي عن الشيخ محمد بن مبارك الزعري المتقدم، وأقاما مدة في زاوية هذا الشيخ بتستاورت. وبعد ذلك استقر ابن أبي محلي في الزاوية الدلائية زمانا غير قصير بدأ خلاله يحاول التظاهر بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه كان يلقي معارضة قوية من شيخ الدلاء الذي لم تخف عليه نوايا صاحبه القديم ذي الشطحات والصيحات الهستيرية «أنا سلطان ! أنا سلطان !» وتحدى ابن أبي محلي ذات يوم الشيخ محمد بن أبي بكر، وقام في الدلاء بتجربته الأولى في الاتصال بالجمهور والعمل على إغوائه واسمهوائه عن طريق الارشاد الديني المزيف، وقضى يوما في الهرج والشعوذة، واشتبك مع بعض الناس الذين لم تنطل عليهم حيلته، ورجع في المساء الى الزاوية الدلائية منهوك القوى لم يؤد الصلاة في وقتها. فعنفه الشيخ ابن أبي بكر وقال له «أما أنا فقد قضيت مأربي وحفظت ديني، وانقلبت في سلامة وصفاء، ومن أتى منكرا فالله حسيبه، أو نحو هذا الكلام. وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه» (7). ولم يرعو ابن أبي محلي عن غيه بل راح يضرب في الارض باحثا عن مكان صالح لنشر دعوته الباطلة، حتى وصل الى وادي الساورة في الصحراء، فأعلن مهادنته، وكان ذلك آخر عهد له بالدلائيين الى أن قتل في مراكش بعد نحو ثلاث سنوات.

أما أبو زكريا فهو يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي. أسس والده عبد الله بن سعيد زاوية تافيلالت (8) بزداغة الواقعة شمال تارودانت على واد يسميه البربر (أسيف نتامنت) أي وادي العسل، واشتغل فيها بتدريس العلم وتربية المريدن، وكان مثل أبيه سعيد عالما مصلحا أرسل ابنه يحيى الى فاس ليدرس فيها، وطالت اقامة يحيى بفاس سنين عديدة، كان يسكن خلالها هو وابن أبي محلي بيتا واحدا في احدى المدارس، وحصل على نصيب وافر من العلوم الدينية

(7) اليوسي، المحاضرات، ص 91
(8) محمد المختار السوسي، خلال جمزولة، ج 2، ص 51. وقد أخبرني الاستاذ المختار السوسي أن اسم تافيلالت يطلق على أماكن متعددة في سوس.

والادبية، ورجع الى قريته الجبلية عالما كبيرا، وأديبا شاعرا⁽⁹⁾ ليتولى أمر الزاوية بعد وفاة أبيه عبد الله عام 1012 / 1603—1604. وقد سلك أبو زكريا في بداية الامر سبيل سلفه، فوقع عليه اقبال عظيم من قبائل جبل درن وبلاد سوس، وامتلاّت رحاب زاويته بالمريدين وطلبة العلم الذين انكبوا على دروسه واشتغلوا بانتساخ الكتب القيمة⁽¹⁰⁾ وألف أبو زكريا كتابا في العقائد، مثلما فعل جده سعيد من قبل. وشرح العقيدتين معا وعقيدة المهدي بن تومرت العالم السوسي لبورك من رجال القرن الحادي عشر للهجرة (القرن السابع عشر للميلاد).

وقد رأينا أن أبا زكريا استجاب لطلب الملك زيدان السعدي وقضى على خصمه ابن أبي محلي. وظل أبو زكريا مقيما بمراكش في حين كان السلطان زيدان في أسفي ينتظر على أحر من الجمر أوبة السوسيين الى مساقط رؤوسهم ليرجع هو الى دار ملكه. وطال به الانتظار فكتب الى أبي زكريا «أما بعد، فان كنت انما جئت لنصري وكف يد ذلك الثائر عني، فقد أبلغت المراد، وشفيت الفؤاد، وان كنت انما رمت أن تجر النار لقرصك، وتجعل الملك من قنصك، فأقر الله عينك به»⁽¹¹⁾ فاضطر أبو زكرياء الى مغادرة مراكش تحت ضغط أتباعه الذين لم يكونوا يعرفون الا أنهم أدوا واجبا دينيا فرضته عليهم بيعة السلطان التي في أعناقهم، وليس لهم بعد ذلك الا الرجوع الى الزاوية واستئناف حياتهم العادية في المداشر التي طالت غيبتهم عنها. واستولت فكرة الرياسة على نفس أبي زكريا بعد رجوعه من مراكش وفترت همته في تدريس العلم وتلقين الاوراد، وأخذ يرأس السلطان زيدان ويمن عليه بمناصرتة، ويتجنى كثيرا دون أن يفصح عما يحول بخاطره⁽¹²⁾. وأخيرا أعلن أبو زكريا الثورة في سوس ضد السلطان زيدان السعدي،

(9) ذكر المؤرخون أنه وقع تهاج كبير بين أبي زكريا وأبي محلي أن الناصري في الاستقصا، 6 29 — 34 بتأذج هذه النقائص الادبية، كما نقل عن الافرائي أن القاضي أبا زيد السكتاني وقف على تأليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيى وأبي محلي من الشعر في غرض الهجاء وغيره. وأخير في الاستاذ الحسن البونعماني أن العالم السوسي أحمد الجراري وقف في احدى المكتبات الخاصة بسوس على كتاب أدبي ضخيم بعنوان التحلي فيما وقع بين أبي زكريا وأبي محلي.

(10) وقف الأستاذ المختار السوسي في احدى المكتبات الخاصة بسوس على بعض المخطوطات القيمة التي انتسخت في زاوية تافيلالت على عهد أبي زكريا. انظر جلال جزولة 2 : 51

(11) أحمد الناصري، الاستقصا، 6 43

(12) نفس المصدر ، 6 : 46

موهما أتباعه أن عمله هذا يهدف الى حماية الدين، وجمع كلمة المسلمين ! وتقدم بهم الى تارودانت فملكها من يد أبي حسون السملالي بعد قتال شديد، واتخذها عاصمة لامارته. ولم يستطع أبو زكريا بعد ذلك أن يوسع دائرة نفوذه ههنا ولا جنوبا واكتفى بالسيطرة على هذه المنطقة الجبلية الضيقة، الممتدة من تارودانت الى زداغة، الى أن وافته المنية عام 1035 / 1626. فنقل الى زاوية تافيلالت بالاطلس الكبير ودفن بجوار والده وجده. وما تزال جدران ضريحهم قائمة حتى اليوم. ولا يعرف لابي زكريا اتصال بالدلائيين، سواء أيام طلبه للعلم في فاس، أو تصديه للمشيخة بزداغة، أو على عهد استبداده بتارودانت وناحيتها.

ج) موقف الدلائيين من أبي حسون

إذا كان الثائران ابن أبي محلي وأبو زكريا قد فشلت ريجهما وأفل نجمهما بسرعة، فإن أمر أبي حسون بخلاف ذلك، إذ استطاع أن يوطد أركان امارته عشرات السنين، ويستبد بالجنوب المغربي كله حيناً، وبعضه حيناً آخر. وأبو حسون، ويكنى أيضاً أبا الحسن وبودميعة، وصاحب الساحل، من أحفاد الشيخ الشهير أحمد بن موسى السملالي (سيدي أحمد أو موسى) صاحب الزاوية المشهورة في تازورالت بسوس. ولا يعرف لابي حسون باع في العلم الا ما كان من تحلية بعض بلديه له بالفقيه. وليس هو أول الطامعين في الملك من الاسرة، بل سبقه الى ذلك من بني عمه إبراهيم والحسن فلم يم لهما أمر. وكان قيام أبي حسون واستحواذه على بلاد سوس عام 1022 / 1613 — 1614 فأسس قريبا من زاوية جده الشيخ أحمد بن موسى مدينة حصينة سماها إيلينغ⁽¹³⁾ واتخذها عاصمة لامارته. وصفا له أمر بلاد سوس كلها بعد موت أبي زكريا الحاحي، ثم امتد نفوذه الى درعة وسجلماسة حوالي عام 1040 / 1630 — 1631 فصار أمير الجنوب المغربي كله، وتكون في إيلينغ جهاز حكومي تام، يضم الى جانب أبي حسون

(13) في سوس ثلاثة أماكن يطلق عليها إيلينغ. عاصمة تازورالت هذه، وقرية في إدا وزكري، وقرية في الفايحة. اختار السوسي، المصنوع 16 : 12

الذي تلقب بالسلطان، وزيرا يسمى محمدا⁽¹⁴⁾ وقاضي الجماعة على بن محمد التيلكالي⁽¹⁵⁾ والقائد حمو بن بلا⁽¹⁶⁾ وغيرهم من ذوي المسؤولية والنفوذ.

واعترفت الدول الأوربية التي لها مصالح في المغرب بالامر الواقع، فأخذت تفاوض أبا حسون⁽¹⁷⁾ بصفته صاحب الامر في الساحل⁽¹⁸⁾ وتعدّد معه المعاهدات التجارية، في نفس الوقت الذي كانت تتعامل مع السلطان السعدي فيما يرجع الى منطقة نفوذه بمراكش وأسفي وناحيتهما، وتتخابر مع العياشي ثم الدلايين في شأن سائر الثغور الواقعة بمالي نهر أم الربيع. وكانت هذه العلاقات الخارجية من أهم الاسباب التي دعمت نفوذ أبي حسون في سوس، اذ جعلته يفيد أرباحا طائلة من الصفقات التجارية التي كان يعقدها مع الأوربيين، ويتزود منهم بالذخيرة الحربية لتجهيز جيش قادر على الدفاع عن الاقاليم الشاسعة التابعة لايلىغ.

ولما تمكنت قدم أبي حسون في بلاد سوس أخذت أطماعه في التوسع تتجه نحو الشرق. وبدا يتحين الفرصة للانقضاض على درعة وسجلماسة، ويوطد العلاقات الودية مع أعيان هذه الاقاليم ليكونوا له خير عون على تحقيق مطامحه. وفعلا استطاع أبو حسون أن ييسط نفوذه على الجنوب المغربي كله حوالي عام 1040 / 1630-1631 كما سبق. وكان ممن صادقهم في سجلماسة الشريف بن علي جد الملوك العلويين الحاليين. وكان للشريف عداوة متمكنة مع جيرانه بني الزبير أهل حصن تابوعصامت. فاستعدى عليهم أبا حسون الذي قصد تافيلالت في جمع هام من جند سوس. ولم يجد الزبيريون أمامهم سوى الدلايين يستصرخونهم. فسارع الشيخ محمد¹ بن أبي بكر بإرسال كتيبة قوية من فرسان

14 وجد الأستاذ المختار السوسي اسم هذا الوزير (محمد) ضمن رسالة كتبت على غلاف مخطوط فقهي بالخزانة الأزابنية بسوس. انظر خلال جزولة، 2 89

15 كانت وفاة القاضي علي بن محمد بمدينة تيلكات عام 1043 / 1633 - 1634. المصدر السابق، ص 140

16 سيد اسم القائد حمو بن بلة بعد قليل، وسرى أن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي يشي عليه ويقترح تعيينه حاكما لبلاد سجلماسة.

17 يطلق الأوربيون على أبي حسون أسماء كثيرة، فيدعونه

Le Marabout du Sous, Le Saint de Massa, Le Marabout du Sahel, etc...

18 يطلق الساحل على المنطقة الجنوبية الغربية الممتدة من أكدير الى وادي نول.

الاطلس المتوسط الى سجلماسة، بقيادة ابنه محمد الحاج، وأعطاه رسالة الى أبي حسون يناشده فيها الله أن يكف عن البوعصامين، ويحقق دماء المسلمين. وذلك عام 1043 / 1633 — 1634. فافترق الجمعان دون قتال. ولا ندرى أكان ذلك استجابة من سلطان سوس لنداء الواجب أو لإحجاما منه أمام القوة التي وجد أمامه دون أن يحسب لها حسابا. وقد تطورت العلاقات بعد ذلك بين السوسيين والعلويين وانقلب ما كان بينهم من مودة وصفاء الى عداوة وجفاء، وصرف أبو حسون هواه الى البوعصامين وحالفهم قلبا ظهر المحن للعلويين، وانتهى الأمر باعتقال الشريف بن علي وحبسه في سوس عدة سنوات. وتختلف روايات المؤرخين في سبب هذا الاعتقال، فيذكر البعض أن أسر الشريف كان بسبب تسور ابنه محمد في جماعة من أنصار العلويين حصن تابوعصامت على حين غرة، وتحكيمهم السيف في رقاب الزبيريين واستيلائهم على ذخائرهم. فأخذ أبو حسون الشريف بجريرة ابنه الذي فر إلى أقصى الصحراء. بينما يرى آخرون أن الشريف لم يلق عليه القبض الا لكونه تزعم حركة التمرد ضد نفوذ أبي حسون وبايعه أهل تافيلالت. وربما كان الحادثان معا سببا في نكبة شريف سجلماسة.

وفي هذه الفترة التي قضاها جد العلويين سجيناً في سوس تجدد الاحتكاك بين الدلائيين وسلطان إيليغ. ويذكر المؤرخون أن أبناء الشريف توجهوا إلى الزاوية الدلائية للعمل على تخليص أبيهم من الأسر، فكتب الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي الى أبي حسون رسالة يعنفه فيها على سوء معاملته لأهل تافيلالت، ويذكره بنسب الشريف وقرباته من الرسول الكريم، طالبا منه أن يخلي سبيله، ويتخلى له عن بلاد سجلماسة. لكن أبا حسون ذكر في جوابه لشيخ الدلاء أن أهل تافيلالت بايعوه، ثم نقضوا العهد وبايعوا غيره فحل له أن يحكم فيه باجتهاده. وزاد قائلا «وأما ما قلت من أن تترك سجلماسة للشريف المذكور كغيرها من البلاد التي بأيدي غيره، فلا أتركها، لأنهم رضوا بي وبايعوني ورضوا به وبايعوه فإن بعضهم معي وبعضهم معه، كأهل العراق مع الحسين بن علي الذين خرجوا على

يزيد بن معاوية. وانظر ما فعل بهم وبه. وأنا لم أفعل به ولا بهم شيئا من ذلك (19). وبالرغم من خطابات شيخ الدلاء المتعددة التي سنتحدث عنها قريبا، وتحسن الجو بين الجانبين، لم يطلق أبو حسون سراح أسيره الشريف، وإنما خفف من الضغط عليه، وجعله في شبه اقامة محروسة بسوس طيلة سنين عديدة، تسرى خلالها بحارية من سبي المغافرة فولدت له المولى اسماعيل وشقيقه المهدي (20). واستمرت معاملة أبي حسون القاسية لسكان تافيلالت وأثقل كاهلهم بالأتاوات والمغارم، وملاً السجون بالأعيان والأشراف، وحاصر مناوئيه الممتنعين عليه في الحصون، وأطلق أيدي جنده في حقول الناس وبساتينهم، يهلكون الحرث والنسل، ووقع الاستصراخ مرة أخرى بالدلائيين فكتب محمد بن أبي بكر رسالة مطولة الى سلطان سوس يطلب منه أن يكف أذاه عن أهل تافيلالت. وخصص صدر الكتاب للتحدث عن فضل أسرة الشيخ أحمد بن موسى ومجدها وأهلية أبي حسون للإمارة، ثم تخلص لمطالبته بالرفق والاحسان فقال «لكن المرجو منكم، والمأمول من هملكم، رحمة المسلمين، والشفقة على الضعفاء والمساكين، لانكم دار رحمة، لا دار نقمة. ان كان الملك مطلوبكم فأتوه من باب، وتوصلوا اليه بأسبابه. ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا. وخذوا أموركم بسياسة ورفق، لا بشدة وعنف، واسعوا في عمارة البلاد، برحمة العباد..» (21) وبعد ذلك عدّد محمد بن أبي بكر الدلائيين ضروب العسف التي يلقاها السجلماسيون على أيدي عمال أبي حسون بقوله «.. وأقرب الناس من أمركم في حيرة وأعظم حسرة، فمن أطاع، أكثر عليه من التكاليف ما لا طاقة له به حتى ضاع، ومن أئى وخشي ما وقع بمن قبله وعصى، علي بالعصا. الناس في سجون حصونهم، النساء والرجال والدواب كأنهم في حشر، الثمار تجنى وأهلها ينظرون نظر حسرة، والأشجار تقطع، وقد حرم الشرع قطع أشجار الكفار فضلا عن المسلمين» (22)

(19) سليمان الحوات، الدور الضاوية، ورقة 92 / 1

(20) لم يرجع الشريف بن علي الى سجلماسة الا حوالي عام 1047/1637 - 1638 بعد أن افتداه ابنه محمد من أبي حسون بمال كثير، على ما في أغلب الروايات.

(21) سليمان الحوات، الدور الضاوية، ورقة 48 / ب

(22) نفس المصدر في نفس الورقة

وتحدث الفصل التالي من الرسالة عن نقطة هامة يبدو أنها كانت تشغل بال أبي حسون وبطانته. وهي مسألة منافسة الدلائين ومزاحمتهم له في امتلاك البلاد. فأكد محمد بن أبي بكر الدلائي في عبارات يتجلى فيها الصدق، ويدعمها الرأي والمنطق، انصرافه المطلق عن الملك وعزوفه عن الجاه والسلطان «وبلغنا أن من لا يبالي بما يقول ولا فيمن يقول يكتبونكم بسوس أن العبد الفاني، العاجز عن اصلاح نفسه، يريد تافيلالت يتولى أمرها. فتأمل — أرشدك الله وسددك — أدنى تأمل، هل لهذا الكلام وجه أو يلتفت المنصف اليه. هذه البلدة بينكم وبينها نحو ثلاثين مرحلة، وبيننا وبينها ست مراحل. ولضعف ملك المغرب منذ نحو ثلاثين عاما، ما المانع لنا لو كانت لنا فيها شهوة أو رغبة. فمن بلغ أو قرب سنه الثمانين، والتفت للملك المحدود بالسنين، فأعدده من المجانين. حاصلها إن كانت لكم رغبة في الملك ولا بد وعلمت من نفسك القدرة على وظيفها، من احاطتك بالعدل والرحمة لقوبها وضعيفها، فتقدم، ان لم نعنك لم نمنعك، وان كان مرادك جمع المال، والغاء النظر عن مصالح العباد والقاء أمورهم في زوايا الاهمال، فأنت وذلك، فالرب عالم قدير، رحيم بعباده قوي عزيز...» (23)

وفي ختام الرسالة يتحدث شيخ الدلاء عما بلغه من عزم أبي حسون على استلاب زروع الزاوية الدلائية في بلاد غريس بتافيلالت، وينبهه الى شناعة هذا العمل، خصوصا وان هناك روابط متينة تجمع بين الزاوية الدلائية والسملالية، فكلتاهما تنتسبان الى الطريقة الشاذلية بواسطة الامامين الجزولي والتباع. ويتنازل في الاخير عن زرع الزاوية في غريس وبه حلالا لابي حسون شريطة أن يكف أذاه عن المسلمين.

هذه الرسالة العجيبة غفل من التاريخ، غير أن ما ورد فيها من الاشارة الى ضعف الملك بالمغرب منذ نحو ثلاثين سنة. وتحدث شيخ الدلاء عن نفسه بأنه بلغ الثمانين أو قاربها، يدلنا على أنها أرسلت حوالي عام 1045 / 1635 — 1636. كان لهذا الخطاب الاثر الطيب في نفس أبي حسون بالرغم مما اشتملت عليه بعض فصوله من التقريع والتعنيف. ولعل الذي فتح قلب سلطان سوس اليه هو

(23) سليمان الحوات، الدور الضاوية، ورقة 59 /

لهجته الصريحة التي لا تعرف المراوغة ولا الإيهام. فقد اتضح لأبي حسون أن الدلائين يأخذون عليه جوره وعسفه، وسوء معاملته للناس، ولكنهم لا يزاحمون في الحكم والملك ولا يعترضون سبيله إذا ما استقامت أحكامه، بل يعدونه في هذه الحال النصر والعون.

وتوطدت عرى الصداقة بعد ذلك بين الدلائين والسملالين السوسيين، واتصلت المواصلات الودية بينهم، وتبادلوا الزيارات في ايليج والدلاء، ومهادوا بأطيب الطعام والادام وغير ذلك (24)، ومملت الاتصالات بين الزاويتين فيما مملت الناحية العلمية، فكان أبو حسون يستنسخ الكتب القيمة من الدلاء (25). ويمكننا أن ندرك مدى الصفاء والثقة بين الجانبين إذا عرفنا أن محمد بن أبي بكر الدلائي أشار في إحدى رسائله على أبي حسون باجلاء جنوده عن تافيلالت، وتعيين حاكم لها من ذوي الصلاح والكياسة، هو القائد حمو بن بلة الذي سبق أن تعرف عليه في الدلاء، وعرف فيه سعة الصدر، وشدة الحلم، والمبالغة في النصيح لأمير السملالي وللرعية (26).

غير أن هذه العلاقات الطيبة بين الدلائين والسملالين لم تلبث أن تغيرت على اثر وفاة الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي وقيام ابنه محمد الحاج الراغب في السيطرة على البلاد. واشتدت لهجة المراسلات المتبادلة بين ايليج والدلاء، فكان أبو حسون يرمي الى اقناع محمد الحاج بضرورة التخلي عن أطماعه في الرياسة وحمله على الاعتراف بسلطة الملك السعدي صاحب مراكش — ليخلو له الجو — ثم انقطع حبل الاتصال نهائياً بين الدلائين والسملالين بسبب انصراف محمد الحاج الى نشر سلطته في تادلا وبلاد الغرب، واشتغال أبي حسون بالفتن الخطيرة القائمة ضده في الصحراء، تلك الفتن التي انتهت باقصائه نهائياً عن سجلماسة ودرعة حوالي عام 1050 / 1640-1641 على يد محمد بن الشريف.

(24) من رسالة محمد بن أبي بكر الدلائي الى أبي حسون ذكرها سليمان الخوات في البدور الضاوية، ورقة 60 / ب

(25) محمد المختار السوسي، خلال جزولة، 2 62

(26) سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 60 /

وقد انكمشت امارة أبي حسون بعد ذلك، وعاد نفوذه مقتصرًا على سوس كما بدأ. وتوفي أبو حسون عام 1070 / 1659 — 1960 فخلفه ابنه محمد في امارة ايليج، وظل بها الى أن دكها مدافع السلطان الرشيد بن الشريف وهدمها على رؤوس أهلها عام 1081 / 1670. ووصف الاستاذ مختار السوسي أطلال ايليج المهدامة فقال «لا يزال برجان الى الآن، أما أحدهما فكان متعبدا للشريف العالم سيدي أبي بكر ابن السلطان بودميعة، والثاني يسامت هذا شرقا في زاوية من زوايا السور. وذكر انه مركز المدافع (الصقالة) وبين البرجين دار الامير الكبرى لا يزال بعض جدرانها قائما، وشوارع المدينة طولا وعرضا لا يزال بعض آثارها واضحا. وقد استفاض عند السكان اليوم مواضع الابواب في منمى الشوارع الرئيسية في المدينة، كما لا يزال يظهر موضع مسجد المدينة الكبير الذي كان تهدم مع المدينة، والمدينة المهدامة تالي في همال إيليج المحدثه التي سكنها أهلها الآن...» (27)

د) علاقة الدلايين بالمجاهد العياشي

المجاهد العياشي هو محمد (بفتح الميم) بن أحمد المالكي الزياني (بفتح الزاي وتشديد الياء) العياشي السلاوي. أصله من قبيلة بني مالك بن زغبة من العرب الهلالية المستوطنة في بلاد الغرب، وفصيلته القرى بنو زيان القاطنون اليوم بأحد أولاد جلول بدائرتي القنيطرة وسوق أربعاء الغرب. كان العياشي من أخص تلاميذ الشيخ عبد الله بن حسون الذي أشار عليه بالجهاد في سبيل الله. بدأ يظهر على مسرح السياسة في أوائل العقد الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة (أوائل القرن 17 للميلاد) كمجاهد متطوع في بلاد دكالة يرباط فيها لقتال البرتغاليين في الجديدة. وبلغ خبر تضيقه على النصارى المحتلين وانتصاره على جيوشهم في وقائع حرية متعددة الى بلاط السعديين بمراكش، فكافؤوه بعمالة مدينة آزمور، ليظل

(27) محمد المختار السوسي، خلال جزولة، ج 2. ص 22 وما بعدها.

شوكة في جنب البرتغاليين يقض مضجعهم ويبعث في قلوبهم الرعب والهلع. وتضايق البرتغاليون كثيرا من حركات العياشي ومرابطته الدائمة حول المنطقة التي يحتلونها، فعمدوا الى المكر والخديعة، واشتروا ضمائر حاشية السلطان زيدان بهدايا ثمينة. ونجحت المؤامرة الدنيئة. فجهز زيدان سرية قوية وجهها الى مدينة أزموور للقبض على العامل وقتله. لكن قائد السرية محمد السنوسي الذي كان على علم بحيلة الامر بعث الى المجاهد العياشي خفية أن ينجو بنفسه، وأفسح له المجال للخروج الى مسقط رأسه. ورجع العياشي الى سلا عام 1023 / 1614 — 1615 فوجد الاسبانيين قد احتلوا ثغر المعمورة (28) قبل ذلك بسنة، وعاثوا في ضواحيه فسادا. وكان السلويون استغاثوا بالسلطان زيدان، ووفد جماعة منهم عليه بمراكش طلبا للنجدة والمعونة. «فصار يوعدهم (كذا) بالنصرة وهو يهزأ بهم الى أن خرجت له هدية عظيمة من عند النصارى من البريجة ودفعوها له، ففهم أهل سلا أنه قبض حق البلاد كيف فعل أخوه الشيخ بالعرائش، فانصرفوا راجعين الى بلادهم، وأخذوا في العدة والحزم والعسة على الاسوار..» (29) وهكذا اضطر السلويون الى الاعتماد على أنفسهم في مدافعة العدو النازل بأبواب مدينتهم، وقدموا عليهم المجاهد محمد العياشي وبايعوه على الجهاد واقامة الحدود، وكتبوا بذلك وثيقة أمضاها سكان المدن والقرى من بلاد تامسنا الى تازا. ووافق عليها فقهاء الوقت وقضاة. وبذلك نصب العياشي أميرا للمجاهدين في سلا وسائر بلاد الغرب. وامتد نفوذه فشمّل تطوان وأقاليم الشمال. واتسع نطاق العمل أمامه فصار ينتقل في حركاته الجهادية بين المعمورة، والعرائش، وطنجة، وسبتة، وملييلية، والجديدة، ويقارع في حملات موفقة المحتلين الاسبانيين والبرتغاليين. وجابه العياشي في نفس الوقت صعوبات داخلية متعددة، منها ما كان ناتجا عن التمرد المعتاد لبعض القبائل ونزوعهم الى الاغارة والسلب والنهب وقطع السبل لاثارة الشغب والاضطراب انسياقا مع تيار الاحقاد والضغائن. وكثيرا ما تعرضت فاس لغارات قبائل

(28) ثغر المعمورة، ويسمى أيضا المهديّة وحلق سبو، يقع شمال مدينة سلا على مصب نهر سبو

(29) مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 103

شراكة والحياينة، وتوجه العياشي الى عين المكان لكف المعتدين وزجرهم. وكان بعض رؤساء قبائل الغرب ينافسون العياشي ويحسدونه على ما يتمتع به من نفوذ وشفوف، بالرغم من وشائج القرى التي تربطهم وياه، وقد استطاع العياشي أن يتغلب على جميع الصعاب ويسير في خطته الجهادية قدما، فيصول ويجول ويرعب المحتلين ويدفعهم الى أن يقبعوا وراء أسوار المدن التي يحتلونها، ولا يبرحوها إلا نادرا.

على أن هناك طائفة أخرى من خصوم العياشي كانت أعظم خطرا عليه وأكثر ضررا. وهي جماعة من الفقهاء النفعيين الذين كان يحركهم البلاط السعودي بمراكش ليُفسد على العياشي خطته، وبصرف الناس عنه بعد أن فشل في القضاء عليه بأزمور. أخذ هؤلاء المتفقهون ينشرون بين الناس أن الجهاد لا يجوز الا مع وجود الامام وبإذن منه، فتصدى لدحض هذه المزاعم علماء ذلك العصر وفي مقدمتهم محمد العربي الفاسي الذي أصدر فتوى هامة مطولة في الموضوع، اشتملت على خمس مسائل. ومما جاء فيها فيما يخص الامام واذنه قوله «لا يتوقف وجوب الجهاد على وجود الامام ولا على اذنه في الجملة، وذلك شرط كمال لا شرط وجوب. ومن المعلوم الواضح أن الجهاد مقصد بالنسبة الى الامامة التي هي وسيلة له، لكونه في غالب العادة لا يحصل على الكمال الا بها، فاذا أمكن حصوله دونها لم يبق معنى لتوقفه عليها. فكيف نترك المقاصد الممكنة، لفقد الوسائل المتعذرة؟ ومن المعلوم في الفقه أن جماعة المسلمين تنتزل منزلة السلطان اذا عدم السلطان. وما مهذي به بعض الألسنة في هذه الأزمنة من أنه لا يجوز الجهاد لفقد الامام واذنه، فكلمة أوحاها شيطان الجن الى شيطان الانس وقَرَّها في أذنه، ثم ألقاها على لسانه، في زخارف هذيانه، إغواء للعباد، وتثبيطا عن الجهاد. وحسبك فيمن يقول ذلك أنه من أعوان الشيطان، واخوانه الممددين في الغي والطغيان. والذي تشهد به الادلة أن الجهاد الآن أعظم أجراً من الجهاد مع الامام، لأن القيام به الآن عسير..» (30)

(30) عبد العزيز الزياتي، الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من التوازل بجمال غمارة ورقة 122.

خرست السنة المشاغبين مدة، وتبين للناس تدجيلهم وتلاعيمهم بالدين، لكنهم عاودوا الكرة مرة أخرى واستغلوا فرصة نشوب الخلاف والقتال بين العياشي والاندلسيين المقيمين في الرباط والقصبة، فركزوا دعومهم هذه المرة على أن العياشي طامع في الملك يدعو الناس للدخول في طاعته ويقاثلهم على ذلك، مُضفين حلة الجهاد والقداسة على خصومه الأندلسيين، معللين مهادنة السلطان السعدي للنصارى بأنها ضرورة اقتضتها الظروف ليمون بواسطة سفنهم الحرية قصبة الرباط المحاصرة من طرف العياشي. وكان الذي تصدى للافتاء في ذلك هو أبو مهدي عيسى السكتاني قاضي الجماعة بمراكش⁽³¹⁾، فأسهب في الكلام. وبما قاله في العياشي «.. ان حاصل أمر هذا الرجل المسؤول عنه أنه خلط عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليه إن الله غفور رحيم. أما جهاده ورباطه وحراسته ونسكه فيعينا هي، وأما مقاتلته للمسلمين وعدم اكترائه بدمائهم واعتقاده حليتها، ومحاصرته لسكان الثغر وفساده بلادهم التي هي في نحر العدو، وحل نظامهم والسعي في ضعفها وإخلائها من عمالها فمن الشرع والدين والصواب فيها بمعزل..»⁽³²⁾ ولسنا بصدد البحث عن تاريخ العياشي لندرس بتفصيل موقفه من مهاجري الأندلس، ونناقش أقوال خصومه ومزاعمهم. على أنه بالرغم من نبل مقصد المجاهد السلوي، وثبوت استقامته وصلاحه باجماع كل من تعرض لأخباره من المؤرخين، يبدو أنه اشتط قليلا في القساوة التي عامل بها المورسكيين، وليته غض الطرف عن هفواتهم — مهما كانت عظيمة — وتركهم ولو الى حين على ما يرومون من استقلال في مدينتهم، وعمل على ايلافهم واجتذاب أفئدتهم، وتعويدهم الاشتراك في المجتمع الجديد الذي انتقلوا اليه.

وقد سبق لمحمد بن أبي بكر الدلائي أن تعرف على المجاهد محمد العياشي في مدينة سلا عند الشيخ عبد الله بن حسون، فتوطدت عرى الصداقة والمحبة بين

(31) الشيخ أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني أستاذ الحسن اليوسي صاحب الحاشية على شرح العقيدة الصغرى للسبسي. كان قاضيا بتارودانت الى أن استولى عليها أبو زكريا الحاحي، فالتحق بمراكش حيث سماه عبد المالك بن زيدان السعدي قاضي الجماعة، وظل في عمله الى أن توفي بمراكش عام 1630/1040 — 1631.

(32) عبد العزيز الزياتي، الجواهر المختارة، ورقة 126/1.

الرجلين، وظلا يذكران طوال حياتهما صفاء المنبع الصوفي الفياض الذي كرعا منه معا، ويتبادلان في شتى المناسبات رسائل تبدو فيها الصراحة والثقة والتقدير والاحترام. فالعياشي يكشف صديقه الدلائي بما يعترم القيام به من الحركات الجهادية، ويطلعه على خططه الحربية، ويتحدث اليه في غير كلفة ولا احتراز عما يعترضه من صعوبات مادية ومعنوية. وجاء في رسالة وجهها المجاهد العياشي الى الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي بعد الانتصار الذي كللت به إحدى غزواته ضد الاسبانيين في العرائش، وذلك عام 1631/1040 «وقد ورد علينا كتابكم المعظم أثير المحل لدينا، كريم الورد علينا، بغزوة العرائش أعادها الله دار اسلام، وقد قوي الأمل في الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها، ومقدمة تلزم لعزائم الاسلام نتيجة نجاحها. فالمسلمون نازلون الآن بعقر دارها، ومرسلون الصواعق على أسوارها، حتى تغرق إن شاء الله بكفارها، ويأذن الله عز وجل بيوارها، وتطهيرها من أذناسها وأوضارها، وعَوْدِها الى ملك الاسلام بعد إباقها وفرارها. هذا الذي انعقدت عليه النية، وانطوت عليه الحنية. لكن يا سيدي أين المساعد ؟ والأمر لا ينهض به الواحد..» (33) وكانت الرسائل الواردة من الدلاء تحمل للعياشي من التشجيع والتأييد ما يدفع به للسير قُدما في ميدان المقاومة والجهاد، والذود عن حوزة البلاد. وأخطر عقبة كانت تعترض طريق العياشي هي اختلاف القبائل وتخاذلهم. خصوصا بني عمه أعراب بلاد الغرب. ولما طَرَقَ خَبْرُ فتنتهم سَمِعَ الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي كتب الى العياشي يقول «.. هذا وقد بلغنا وانعمى الينا أن تلکم القبائل المحيطة بسلا، حسبنا نقله الرواة حديثا صحيحا ومسلسلا، ما قاموا بواجب شكر الله في نعمه التي أسداها اليهم، وأسبغها عليهم، وهي ذاتكم التي نابت على الأمة المحمدية في أداء هذا الفرض، الذي حمدت سعيه أهل السموات وأهل الأرض. وإذا كانت عادة القبائل أن يردوا أمورهم لمن فيه خصلة واحدة من شجاعة، أو رأي، أو جود، أو دين، ويجعلوه المعول، فكيف لا يرده قبيلكم لمن جمع الله به وفيه هذه الخصال وزيادة، وأحله

(33) عبد القاهر املاق، الخبر عن ظهور العياشي، ص 34.

بجهاده الرتبة العليا من الرئاسة والسيادة، وسلك بهم مسلك الطاعة، وشيد لهم فخرا تبقى مناقبه الى قيام الساعة، فثق بربك، وشُدْ يدك على الاعتصام بحبله والانتصار به وبأوليائه المؤمنين» (34).

وكتب الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائلي رسالة أخرى في نفس الموضوع الى أحد رؤساء بلاد الغرب من ذوي العصبية القبلية والسلطة الروحية، وهو الشيخ أبو زيد عبد الرحمن العايدي من أعيان أعراب سجير (35) يحثه على نصره المجاهد العياشي وندب القبائل الى الائتمار بأمره ودعوتهم للالتفاف حوله والعمل معه يدا واحدة. وهي رسالة طويلة مؤثرة سلك فيها شيخ الدلاء مسلكا حكيما بين اللين والشدة، والترهيب والترغيب. وكان يعرف من مخاطبه الدين والميل الى التصوف. فحاول أن يؤثر عليه من الناحية الروحية، وذكر له أن للعياشي مددا من نور النبي ﷺ بواسطة شيوخه عبد الله بن حسون، وعبد العزيز التباع، ومحمد بن سليمان الجزولي، وطلب منه أن يبين ذلك لقومه «واشرحوا لهم أصل الهداية، فما هي إلا من النبي ﷺ ومن أهل المدد من نوره، وكل هداية غير هذا ضلال. واستدعوا من الله بقاء هذا السيد المرباط المجاهد في سبيل الله، الولي الصالح، العالم الناصح، العارف بالله المحقق الصوفي الرباني. أبو عبد الله سيدي محمد العياشي — وفر الله أنصاره — فله مدد من هذا النور..» (36) وتحدث ابن أبي بكر بعد ذلك عن المسائل الثلاث التي كانت سبب الخلاف القائم بين العياشي وقبائل العرب، وهي قطعهم للطريق، وامتناعهم عن دفع الزكاة، والجهاد معه في سبيل الله، فقال

«... أما نهى القبائل عن قطع الطريق والظلم ففيه صلاح دنياهم ومعاشهم، وأما الآخرة فما شعروا بها ولا عرفوها، ولو عرفوها ما احتاجوا الى هذا. فالظلم يُخلى الحيام، ويُعمرها بالآيتام. وأما أمرهم بدفع الأعشار والزكوات فلأنه لا يم الإيمان إلا

(34) عبد القادر املاق، الخبر عن ظهور العياشي، ص 18 — 19.

(35) الشيخ أبو زيد العايدي هذا هو قريب سيدي الحسن العايدي صاحب المزارعة المشهورة بحي السوقية بسلا، والمتوفى عام 1718/1131. وهناك صلحاء آخرون من قبيلة سجير ذكر بعضهم الناصري في الاستقصا.

(36) عبد القادر املاق، الخبر عن ظهور العياشي ص 22 — 23.

بذلك. قال الله تعالى **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**، وقد صرفها في مصرفها الشرعي وأعان بها المجاهدين. وأما دعاؤه الناس للجهاد واستنجادهم واجتماعهم عليه فان فيه قهر العدو الكافر، وبه رد الله كيده في نحره. مات والله الاسلام. قد قطع العدو البحر ودهم المسلمين في بلادهم، وتخطف الناس وأسره من بين خيامهم..»⁽³⁷⁾ وسار شيخ الدلاء في رسالته على هذا النمط متفجعا على الاسلام، مذكرا بما جرى للمسلمين في الأندلس، والمراحل التي قطعها العدو في امتلاك بلادهم، إلى أن أخرجهم منها نهائيا، وأخذت أطماعه تتجه لاحتلال هذه العدو أيضا؛ ثم عاد فذكر فضل العياشي وجمعه لكلمة المسلمين، ودفاعه عن بلادهم دون أن يجد منهم مؤزرا أو معينا.

لم يقتصر تأييد الدلائين للمجاهد العياشي على تشجيعه بالمراسلات وندب القبائل لمؤازرته ونصرته، وإنما كانوا يقدمون له الاعانات المادية، وبيعثون اليه بالجنود المقاتلة عند الحاجة. وقد أرسل الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي أواخر عام 1623/1032 جيشا قويا بقيادة ابنه محمد الحاج⁽³⁸⁾ لمساعدة العياشي على إخماد فتنة شراكة⁽³⁹⁾ بضواحي فاس. وكان المجاهد العياشي يهادي الدلائين بما يستطيع من التحف والطرائف اعترافا منه بالجميل. وبعث اليهم عام 1633/1043 — 1634 مع ابنه عبد الله بهدية عظيمة «اشتملت على أنواع الملف والكتان، وغيرها من الثياب الرفيعة الغالية الأثمان»⁽⁴⁰⁾ حتى إن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي تعجب من تلك النفائس التي امتلأت بها صناديق عديّة، ورأى في استعمالها ترفا لا يليق بصوفي زاهد مثله، فوزعها كلها على الشرفاء والضعفاء والطلبة المقيمين بالزاوية الدلائية، ولم يحتفظ منها لنفسه ولا أهله بشيء.

(37) عبد القادر املاق، الخبر عن ظهور العياشي، ص 23.

(38) نفس المصدر، ص 13.

(39) أصل شراكة من أعراب تلمسان، اصطنعهم عبد الله بن الشيخ المامون السعدي سلطان فاس (1022/

1613/1032 - 1623) واتخذ منهم جيشاً خاصاً يعتمد عليه. وكانوا في بادئ الأمر يسكنون قصبات

فاس وفنادقها ثم أخرجوا من المدينة بسبب طيشهم وفسادهم. ولما توفي عبد الله بن الشيخ عاث أعراب شراكة في

ضواحي فاس فسادا. وكانوا ذوي بأس شديد. لم يتمكن العياشي من القضاء عليهم الا بمساعدة فرسان الدلاء.

(40) سليمان الحوات، الدور الضاوية. ورقة 49.

وصفوة القول أن العلاقات بين الدلائيين والمجاهدين السلاويين قامت على أساس متين من الاخلاص والوفاء. وكان الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي يولي الرئيس أبا عبد الله العياشي كثيرا من التقدير والاحلال، ويعتبره قائما بواجب ديني ووطني، نيابة عن جميع المسلمين في المغرب، حتى انه اتخذ دعاء خاصا مع أوراده يدعو به لهذا المجاهد فيقول «اللهم اجز عنا سيدي محمد العياشي أفضل المجازاة، وكافه أحسن المكافأة، واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون أقرب اليه منه. اللهم لا تحرمه توجهه اليك، وانقطاعه لخدمتك. اللهم نفس كربتته، وكمل رغبته، وأجب دعوته، وسدد رميته، واردد له الكرة على من عاداه في الحق، انك على كل شيء قدير» (41).

وسنرى في الفصل الرابع من هذا الباب التطورات المؤسفة التي طرأت على العلاقات بين العياشي والدلائيين الى أن أفضى الأمر بهم الى القتال.

2 — زعامة محمد الحاج السياسية

(1046 - 1636/079 - 1668)

أ) من هو محمد الحاج ؟

محمد الحاج هو أكبر أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي. ولد في الدلاء عام 1588/997-1589 (42) ونشأ كسائر إخوته وبني عمه مكبا على الدرس والتحصيل في الزاوية البكرية. ونال اجازات عامة في مختلف الفنون الدينية من شيوخه أحمد بن القاضي، وأحمد بن عمران السلاسي، والعربي بن يوسف الفاسي المتقدمين. «وكان ذا وجه حسن، وذلاقة لسان، حسن الشارة، بارع الفهم والعبارة، موصوفا بالرجولة والمروعة الفائقة» (43) وتوجه محمد الحاج الى البقاع

(41) أحمد الناصري، الامتضاء، ج 2، ص 91.

(42) أبو القاسم الزياتي، الترجمان العرب، ص 362. ويجمل مؤرخون آخرون ولادة محمد الحاج عام 1591/1000 - 1592.

(43) سليمان الحوات، الدور الضاوية، ورقة 109/ب.

المقدسة عام 1631/1041 — 1632 في موكب حافل ضم كثيرا من رجال العلم والفضل والدين، من جهات مختلفة ختى من بلاد توات. ولقي في رحلته الحجازية كثيرا من مظاهر العناية والتقدير، فخطب الناس في عرفات، ودرس بالمدينة المنورة، وقدم فيها خطيبا واماما، ولدى مروره بالقاهرة خرج للقاءه الامام أحمد المقرئ، فأقام عنده وعند شيخ المالكية بمصر علي الأجهوري مدة كان محمد الحاج خلالها يعقد مجالس علمية بالجامع الأزهر ويلقي دروسا في التفسير والحديث وغيرهما.

وبدت كفاية محمد الحاج السياسية والحربية في حياة والده الذي كان يعتمد عليه في المهمات، ويرسله على رأس جيش الدلاء الى ما وراء نهر ملوية الى بلاد الغرب فيرجع ظافرا منصورا. وقد انفرد أبو القاسم الزياني — فيما أعلم — بذكر أخبار غربية عن نشأة محمد الحاج، زعم نقلها عن الشيخ البيوسي فقال عن أمير الدلاء إنه كان في ابتداء أمره طالبا صعلوكا مملقا، طرده والده لاشتغاله بما لا يعنيه ومصاحبته للبطالين، فكان يأوى الى كهف في جبل يدلا أوقد فيه النار ذات ليلة فرأى أثر باب داخله فثقبه واستخرج منه سبعة قماقم نحاسية في كل منها عشرة آلاف دينار مريني «فأصلح حاله وواسى أقاربه وأصحابه. وولع بركوب الخيل، واستركب الأقارب والأقران، فلم تكمل عليه السنة الى أن كان يركب في مائة من الخيل من الأولياء والمصطنعين. واشتغل بتقوم الأتباع من قبيلة مجاط وغيرهم من صنهاجة أيت أومالو (44). وصار يشن الغارة على من بملوية وتادلا من العرب، فعلا صيته» (45).

وأخبار الصعلكة والبطالة والاملاق تناقض ما أجمع عليه المؤرخون وأصحاب التراجم من حسن تربية أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي جميعا،

(44) أيت أومالو ومعناها بنو الظل هم سكان همال الأطلس. يقابلهم أيت أممار (بتشديد الميم) أي بنو الشمس وهم سكان جنوب الأطلس.

(45) أبو القاسم الزياني، البستان، ورقة 1/5.

وتتنافى وتأثير البيئة الصالحة في نفوس الناشئين فيها، خصوصاً ونحن نعرف ما أولي الدلائيون من بسطة في المال والعلم والصلاح. وكتبُ اليوسي بين أيدينا لم نعر فيما قرأناه منها على هذه الأساطير، بل بالعكس من ذلك نجد اليوسي في المحاضرات يخصص فصلاً طويلاً في نحو 18 صفحة يروي فيه مباشرة عن محمد الحاج كثيراً من الأخبار العلمية والأدبية ويتحدث عنه بكامل التعظيم والتقدير.

ب) نزوع محمد الحاج الى الحكم

بمجرد وفاة الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي عام 13636/1046 ظهر نزوع محمد الحاج الى الاستقلال بالأمر، وبدأت أعناق مختلف القبائل تشرئب اليه، وأحمال أعشارهم وزكواهم تُحمل لديه، فامتألت رحاب الدلاء بالوفود، وتضاعف فيها عدد الأتباع والجنود. ورأى ملك مراكش محمد الشيخ السعدي في ذلك الأداة الفعالة للقضاء الحتمي على ما بقي له من نفوذ، فعمل على تدارك الأمر بالحكمة، وسلك نحو هذا الرئيس الطموح سبيل المجاملة واللين. فسارع في بادئ الأمر الى بناء ضريح الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، وشيد عليه قبة أنيقة بعث لاقامتها الصنائع والأدوات اللازمة من مراكش، وأنفق عليها بسخاء. وبعد ذلك بعث ملك مراكش قاضيه الشيخ محمد المزورقي الى الدلاء، ليستميل اليه محمد الحاج ويحضه على الطاعة والبيعة. لكن نصائح القاضي ومواعظه ذهبت أدراج الرياح، فمحمد الحاج كان مصمماً على أن يقبض على زمام الحكم في المغرب، بعد أن تأكد له اضمحلال نفوذ السعديين واستبداد الثوار عليهم في كل مكان. ويذكر المؤرخون أن محمد الحاج اعتذر لقاضي مراكش بمسائل لم يفصحوا عنها، ولعله أفهم مخاطبه بأن عجز السعديين في ذلك الحين عن القيام بمهمتهم، أفقدهم أهم أركان الخلافة الذي هو الكفاية، فلم تعد لهم عصية قبلية، ولا سلطة روحية مستمدة من نسبهم القرشية، فغداً بذلك جلوسهم على العرش غير ذي موضوع. إذ ليس من المعقول أن تشتعل نيران الفتنة في أرجاء البلاد وتأتي على الأخضر واليابس، وينعدم الأمن ويختل النظام، في الوقت الذي يوجد ملك صوري قابض في قصره لا يحرك ساكناً وكأن الأمر لا يعنيه !

وبالرغم من فشل القاضي لم يئأس محمد الشيخ، وكتب رسالة مطولة الى محمد الحاج وعشيرته، حاول فيها أن يكون لبقا يجمع بين الوعد والوعيد، ويسلك سبيل اللين والتهديد، لكن قلم الكاتب جمع فأسهب في اختلاق المعاييب والنقائص للدلائين، مما يتنافى وما يتطلبه الموقف من اجتلاب قلوبهم والتودد اليهم. وقد جاء في هذه الرسالة «ولم تراقبوا مكر من رفعكم عن غمار عموم البرابر، وأقعدكم في القباب على الأسرة وفي بيوت الله على الكراسي والمنابر. عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبة، لتكون عزيمة نهوضنا اليكم معطلة صعبة، وان لا ندري أين تميل النفوس، ألتلك الصحاري أم إلى إلبليغ السوس. وهذا المغرب لا يخلو ملآن من نواميس كل كاهن ومدع قرقار(46) تمسي فيه البومة خاملة وتصبح بالخلب والمنقار»(47) واقترح محمد الشيخ في آخر هذه الرسالة على الدلائين أن يتنازل لهم عن قسط من الجبايات، يكفي شؤون الزاوية وأهلها، مقابل أن يعترفوا بسلطته ويكفوا أيديهم عما عدا ذلك،.. فقال «وحتى الآن دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كل من أطاع أو عصى، من وجدة الى حدود السوس الأقصى، فنزهد لكم فيما يقوم بحق تلك الزاوية وأهلها، بشرط أن تفيقوا من سنة الغفلة وجهلها، وان أمسكتكم أقدام الانقياد، عن سلوك سبيل السداد، وقبول سوله، فأذنوا بحرب من الله ورسوله»(48).

وقد أجاب محمد الحاج عن هذه الرسالة بأخرى بليغة من انشاء أخيه محمد المسناوي، ظهر فيها استنكاف الدلائين مما لمزهم به محمد الشيخ من النقائص، واعتذروا عن عدم تجديد البيعة بأمرين، أولهما أن قبائل البربر لم تعد تعترف بسلطة السعديين، فلو بايعهم الدلائيون لانفض البربر من حولهم ونزحوا عن ساحتهم. وثانيهما قيام محمد بن الشريف في الصحراء وتقويه ببرابرة صنهاجة وعرب دخيسة، وتشوفه لامتلاك المناطق الخاضعة للدلائين على ضفاف نهر ملوية

(46) القرقار الذي يهدر كالجلل.

(47) أحمد الناصري، الانقضاء، 6 99.

(48) نفس المصدر، ص 100.

ورباط تازا. وبعد أن ذكر الدلائلون ما هم عليه من المنعة وشدة البأس قالوا «وحتى الآن ان قصدتم الغرب أو حصن فاس، فلا تنالكم من جانبنا مساء ولا بأس، فبعد أن يكون لكم في المدينة البيضاء الجديدة والقديمة (49) قرار، يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار، بين أن نومن لك أو نترك لك الديار، أو نستصرخ بمن هو مثلك شريف حقيقي وسلطان، له شغف أكبر منك في ضبط الأوطان، وإن قنعت بحوز الحمراء من مراكش، ورفضت عنك معاناة الهراش والتناوش، فدعنا ومراعاة من تجارته الرئاسة، وهمته اشتراء نفيس السياسة، ضرغام غاب سجلماصة» (50). والرسالتان خاليتان من التاريخ، وقدر الناصري في الاستقصا (51) أنهما تبودلتا خلال عام 1046. (1636 — 1637) والظاهر أنهما كانتا في أواخر عام 1047 أو في أوائل 1638/1048 لأنهما تتحدثان عن الضريح الذي شيده السعديون للشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي المتوفى شتاء عام 1636/1046. وتتعدر الموصلة في هذا الفصل إن لم نقل تنقطع بين مراكش والمنطقة الجبلية التي تقع فيها الزاوية الدلائية. وبذلك فإن العمل في بناء الضريح لم يتبدى إلا في أواخر ذلك العام أو مطلع العام الذي يليه. ولا يمكن عادة نقل المواد اللازمة للبناء من مراكش إلى الدلاء، وتشيد القبة وزخرفتها في أقل من سنة، أضف إلى ذلك فترة سفارة القاضي المزوار التي سبقت الإشارة إليها. على أي حال فإن الرسالتين السابقتين كانتا آخر محاولة للتفاهم بين السعديين والدلائيين، وستقابل الفريقان في معركة حاسمة على ضفاف وادي العبيد ليقررا المصير النهائي لعلاقتهم كما سنراه في الفصل التالي.

ج) تأسيس مدينة الدلاء

عرفت الزاوية الدلائية القديمة في هذه الفترة تطورا كبيرا، فتضخم عدد سكانها حتى ضاقت بهم الأبنية والاحصاص، وامتلات السبل المؤدية إليها على

(49) المراد بالمدينة البيضاء الجديدة فاس الجديد، وبالقدية فاس الادريسية.

(50) الناصري، الاستقصا، ج 6، ص 102.

(51) ج 6، ص 97.

وعورمها بالواردين والصادرين. ورأى محمد الحاج أن يؤسس مدينة جديدة واسعة في منبسط من الأرض يسهل الوصول إليه. فارتاد لعاصمة امارته المكان الذي توجد فيه اليوم زاوية أيت إسحاق في سفح الأطلس المتوسط على الطريق الرابطة بين خنيفرة وقصبة تادلا⁽⁵²⁾ وفي ذلك يقول محمد بن الطيب القادري «وفي عام 1048 [1638] شرع أمير المومنين السلطان سيدي محمد الحاج الدلائي في بناء قصبة الدلاء في منتصف يوم الأحد سادس وعشري ربيع الأول من العام، وانتظر لذلك طالع سعيد»⁽⁵³⁾ وقد أخذت هذه المدينة الجديدة أسماء كثيرة فبعض المؤرخين دعاها قصبة الدلاء، وبعضهم سماها مدينة الدلاء أو مدينة ازغار أو زاوية محمد الحاج، وإلى ذلك كان يطلق عليها اسم الزاوية الدلائية أو الزاوية البكرية، لانتقال الدلائيين إلى السكنى بها وهجرة العلماء والطلبة إليها، حتى إن الزاوية الدلائية القديمة في عهد محمد الحاج لم تعد سوى قرية ثانوية يسكنها الفقراء والعجزة ويدفن فيها موتى الأسرة الدلائية كما سبق. واتخذ محمد الحاج لنفسه قصرا وديوانا عظيمين في وسط المدينة الجديدة كان يحيط بها سور داخلي ما يزال بعضه ماثلا للعيان حتى اليوم.⁽⁵⁴⁾ وأسكن معه في العاصمة خمس قبائل بربرية من أكبر سكان الأطلس المتوسط عصبية وحمية، وهي مجاط، وأيت يمور، وأيت نضير (بني مطير)، وكروان، وأيت إسحاق. فاستكمل الدلائيون بذلك مظاهر الأبهة والسلطان، وتكونت لديهم أهم قوة حربية بالبلاد سيصول محمد الحاج بها ويجول، ويمتلك أهم أقاليم المغرب مدة تنيف عن ثلث قرن.

د) يعة أهل المغرب لمحمد الحاج

لما استتب الأمر لمحمد الحاج، وقضى على خصومه ومنافسيه، ودان له وسط المغرب وغربه وهماله، وكثر جنده وأنصاره، أخذ يفكر في إضفاء صبغة شرعية على موقفه، ويعمل على تنصيب نفسه ملكا على البلاد لاسيما وقد كان تدهور السعديين في مراكش بلغ غايته، وأصبح من السهل التخلص من القائمين في

(52) تبعد مدينة محمد الحاج المعروفة اليوم بزاوية أيت إسحاق عن خنيفرة بـ 35 كلم، وعن قصبة تادلا بـ 64 كلم.

(53) محمد القادري، نشر الثاني، 1، 376.

(54) انظر اللوحة رقم 8.

الجنوب. فطالب الناس ببيعته والتزام طاعته، وذلك في أوائل عام 1061/1651. «فقام أهل المغرب بدعوة سيدي محمد الحاج وأدعوا لطاعته وأمره، وجاءته البيعات من البلدان المغربية، وبايعه أهل فاس الأدرسية والعليا بالخلافة، وكتبوا له البيعة بجامع القرويين، وحضرها من هو أهل لذلك من الأعيان، والجم الغفير من أهل الديوان، في مهل ربيع الثاني عام 1061 وقدموا عليه بها للزاوية الدلائية فقرئت على منبر مسجدھا، ووضعت في صندوق مع غيرها من بيعات أهل نواحي المغرب في خزانة كتب الجامع المذكور..» (55).

4 - أعمال محمد الحاج الحربية

أ) الحملتان الدلايتان الأولىان

قضى محمد الحاج الدلائي السنتين الأولىين في إعداد العدة وتنظيم الجيش، وتأسيس العاصمة وترتيب القبائل، ولم يتحرك جنده إلا في عام 1048/1638، فقام في هذه السنة بحملتين كبيرتين، على ضفاف نهر وادي العبيد وفي بسائط بلاد سائس. وقد ترأس محمد الحاج بنفسه الحملة الأولى، عندما بلغه خبر تحرك جيش محمد الشيخ السعدي من مراکش في اتجاه الدلاء. والتقى الجمعان على ضفة وادي العبيد ببلاد تادلا، في المكان المعروف بأبي عقبة على بعد 12 كلم من المركز الحالي لدار ولد زيدوح. وجرت معركة حامية الوطيس أسفرت عن انهزام محمد الشيخ ورجوع جيشه مفلولا الى مراکش. وانقطع بذلك نظر السعديين نهائيا عما هملة نفوذ الدلائين من البلاد.

وكان سبب الحملة الدلائية الثانية هو استنجد المجاهد العياشي بمحمد الحاج، ليساعده في القضاء على فتنة الحياينة (56) وشراكة الذين قويت شوكتهم، وأمسوا يغيرون على الفاسيين ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم، ويتخطفون أولادهم

(55) سليمان الحوات، الدور الضاوية، ورقة 111/ب.

وذكر خبر قيام أهل المغرب بدعوى محمد الحاج في التاريخ المذكور أيضا محمد القادري في نشر المظالي، 2: 53.

(56) الحياينة قبيلة عربية في همال فاس، مستقرة بين نهري سبو وورغة، تشتمل على ثلاث عمائر كبيرة وعشائر كثيرة - هامش العز والصولة، ص 17).

ونسأعهم. وقد توجه وفد من علماء فاس وأعيانها الى المجاهد العياشي بسلا(57)، ورجوا منه أن يخلصهم من بلاء القبيلتين المجاورتين. فأحاطهم العياشي على محمد الحاج، وبعث معهم بخطاب يشرح له الحال ويرجو منه الاغاثة والنجدة. فلبى أمير الدلاء نداء الواجب، وأرسل الى العياشي جيشا قويا من البربر تحت امرة أحد قواده المسمى شعشوع. وبمكنتنا أن ندرك مدى أهمية هذا الجيش اذا عرفنا أن المجاهد العياشي استطاع به أن يقضي نهائيا على القبيلتين المتمردتين ويلاحق فلولهما في قنن الجبال، ويفرق بقاياهما في القبائل لتتحل عصبيتهما، ويأمن الناس شرهما، وطالما عالج العياشي أمر الحيانة وشراكة قبل ذلك فلم يحصل على طائل.

ب) مهاجمة المجاهد العياشي

لم تطل مدة الصفاء بين الدلائين والعياشي بعد ذلك، إذ كان نظر محمد الحاج متوجها نحو الغرب، بعد أن تركزت قدماءه في ملوية العليا وبسائط تادالا وما والاها من البلاد. وكان لا بد له اذا أراد تحقيق مطامحه أن يتخلص من العياشي صاحب النفوذ في الثغور. ولا نظن حادثة الأندلسيين الا تعلقة اتخذها محمد الحاج لتبرير موقفه العدائي من مجاهد سلا، وفرصة اهتبلها للقضاء على منافسه من أجل التوسع وبسط النفوذ. وقد اهمم العياشي الأندلسيين المقيمين على الضفة اليسرى لنهر أبي رراق بممالة الأسبانيين على المجاهدين، وأفتاه العلماء بجواز قتالهم، فحاصروهم وضيق عليهم الخناق الى أن تمكن من مدينة الرباط، وبقيت القصبة تقاوم الحصار مدة طويلة، اذ كانت حاميتها تتألف من الموريسكيين وجنود الملك السعدي صاحب مراكش، يشدُّ أزرَهُم الاسبانيون من البحر. ومما يؤكد الامهات الموجهة ضد الأندلسيين ما ورد في رسالة بعث بها دورستان «DE RASTIN» القائم بأعمال قنصلية فرنسا في سلا الى رئيس الوزراء ريشوليه «RICHELIEU» بتاريخ 16 يوليوز 1639 يخبره بأن سلا الجديدة (الرباط) قد

(57) أشار الى هذه الزارة التي قام بها وفد علماء فاس للمجاهد العياشي بسلا محمد بن أحمد ميارة في مقدمة شرحه للمرشد المعين، وكان ذلك أواسط ذي الحجة عام 1638/1047.

سقطت في يد العياشي، وان الحصار قائم حول القصبة التي تمون بواسطة الاسبانيين (58).

وقد أهدر العياشي دماء الأندلسيين في الرباط والقصبة وأباح أموالهم، وفرت طائفة منهم الى الدلاء فأجارهم محمد الحاج وشفع لهم عند العياشي فلم يقبل هذا الأخير الشفاعة فيهم، وأبى إلا أن يستأصل شافعهم. فكان رد محمد الحاج أن زحف بجنده على منطقة نفوذ العياشي، في أوائل عام 1640/1050 وملك مدينة مكناس، ثم اتجه الى فاس فاعترض العياشي طريقه، ووقعت الحرب بين الصديقين القديمين، واقتتل الجيشان المتحالفان الى عهد قريب. وكان النصر في البداية حليف محمد الحاج، فتقدم الى فاس وحاصرها مدة. ثم كر عليه العياشي في جموع وفيرة من رجال الغرب فانهزم الدلائيون لأول مرة ورفع الحصار عن المدينة. عرف محمد الحاج أنه لا يستطيع القضاء على خصمه ما دام في عزة ومنعة من قومه وأنصاره قبائل الغرب، فرأى أن يبحث عن منافسي العياشي من بين رؤساء هذه القبائل، وفي مقدمتهم التاغوي والد خيسي، فحالفهم وجذب بواسطتهم الى جانبه طائفة مهمة من الأعراب. واغتنم محمد الحاج فرصة تغيب العياشي في بلاد الفحص لقتال الاسبانيين في طنجة، فحشد جموع العرب والبربر همال نهر سبو، وترصد وهو على أمم أهبة وأكمل استعداد عودة خصمه من الجهاد. وفوجيء العياشي بهذا الجيش الجرار الذي اعترض طريقه، ورأى ألا قبّل له به، فجنح الى السلم والمهادنة، لكن المجاهدين الذين كانوا معه أبوا إلا الدفاع عن أنفسهم ومواجهة خصومهم، فوقعت المعركة الثالثة بين العياشي والدلائين في ضواحي سوق أربعاء الغرب أواخر 1641/1050. وكان من الطبيعي أن لا يصمد المجاهدون الذين أنهكهم الاغارات على الاسبانيين، خصوصاً وهم قلة أمام هذه الحشود المستريحة، وقتل فرس العياشي تحته في المعركة فلجأ الى قبيلة الخلط (59) وهو لا يعلم أنها

58) De Castries, Les Sources inédites, France I, 3 384

(59) الخلط قبيلة غربية مساكنها بين سوق أربعاء الغرب وعرباوة.

انخرفت عنه فيمن انخراف من الأعراب . فلم يستقر به المقام عندهم حتى اغتالوه في عين القصب التي تبعد عن مركز سوق أربعاء الغرب بنحو 20 كلم غربا، واحتزوا رأسه وبعثوا به الى خصومه، وذلك في 9 محرم عام 1641/1051 . وموت العياشي وتفرق أنصاره خلا الجو للدلائيين وتساقطت في أيديهم المدن والأقاليم تباعا . فملكوا فاسا بعد حصار دام ستة شهور، ثم استولوا على سلا وتطوان وسائر بلاد المغرب .

وقد عدد أبو القاسم الزياني المدن والقبائل التي هملها نفوذ محمد الحاج فقال «استولى الرئيس محمد الحاج بن الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي على وادي ملوية كيف جرى، والريف، وقبائل صنهاجة(60) والاحماس وغمارة(61) وتطوان . وقصر مصمودة(62) والبصرة (63) وقصر كتامة(64) وقبائلهم، وبلاد ورغة(65) وتازة، ومكناسة الزيتون، وبنى يازغة(66) وقبائلها من الجبال»(67).

حاول عبد الله العياشي(68) أن يثأر والده المجاهد القاتل فحشر لذلك أنصاره من قبائل الغرب، ولقي جيش الدلائيين بقيادة محمد الحاج على ضفاف واد الطين بالقرب من مركز أحد كورت الحالي، في أوائل ربيع الأول عام 1643/1053 وجرى بين الفريقين قتال شديد كان التفوق فيه للدلائيين، وطارد محمد الحاج أنصار العياشي وجاس خلال ديارهم، فعمت الفتنة قبائل الغرب وفشا فيهم القتل والنهب .

(60) يراد بقبائل صنهاجة ما يعرف اليوم بأيت أومالو في الأطلس المتوسط، وتشمل زيان واشقرن وأيت شخمان وبنى مكيلد .

(61) الاحماس وغمارة من جملة قبائل جباله . وديارهم في ضواحي مدينتي شفشاون وتطوان .

(62) قصر مصمودة ويقال له أيضا قصر الحجاز والقصر الصغير يقع بين طنجة وسبتة .

(63) تقع البصرة بين عرابة ووزان . وهي الآن خراب .

(64) قصر كتامة ويقال له أيضا قصر عبد الكريم هو مدينة القصر الكبير الشهيرة جنوبي العرائش .

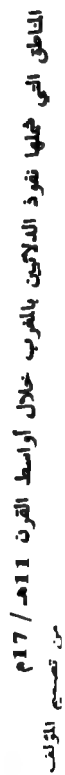
(65) نهر ورغة أحد روافد وادي سبو، يجري شمال فاس وتقطع حوله قبائل جباله .

(66) بنى يازغة تابعة لدائرة صفرو ومن أشهر قراها المنزل .

(67) أبو القاسم الزياني، رسالة اللدنيين، ص 479 .

(68) عبد الله بن محمد العياشي عالم أديب وبطل مغوار أثنى عليه الشيخ محمد ميارة في مقدمة شرحه للمرشد العين

(1 3) وحلاه بألقاب علمية عالية . كان عبد الله العضيد الأمين لوالده في الحركات الجهادية ورسوله الى الدلائيين وغيرهم . توفي عام 1663/1073 ودفن على ساحل المحيط الأطلنطيقي بالقرب من مولاي بوسلهم .



ج) غزو شرفاء سجلماسة

بعد أن قضى محمد الحاج على منافسيه في بلاد الغرب وجه نظره الى ما وراء نهر ملوية، وكان يتوجس خيفة من انتشار نفوذ محمد بن الشريف في الصحراء، وطالما بحث محمد الحاج دون جدوى عن وسيلة تضمن له بسط سلطانه على سجلماسة⁽⁶⁹⁾ وتحد من طموح الشريف وأبنائه. وبالرغم من تفوق الدلائين المطلق في الناحية العسكرية كان يصعب عليهم أن يضايقوا آل البيت وينكلوا بهم. ولعل لإحجامهم عن الاساءة الى العلويين في الوقائع الحربية العديدة التي ظهروا عليهم فيها يرجع قبل كل شيء الى ما وُفِّرَ في صدور آل أبي بكر الدلائي من حب صادق في الجنب النبوي، بالاضافة الى ما يفرضه عليهم انوسط السجلماسي المشيع بتعظيم الشرفاء. ولكن السياسة تُعْمي وتُصم، والرئاسة تدفع بصاحبها الى حيث يريد وحيث لا يريد. وهكذا أكلت الغيرة صدر محمد الحاج وأعياء الصبر فزحف الى تافيلالت على رأس جيش جرار من البربر في أوائل عام 1056 / 1646 ليقتضي على منافسه محمد ابن الشريف. وكانت بينهما وقعة القاعة المشهورة التي أسفرت عن انتصار الدلائين ودخول محمد الحاج الى مدينة سجلماسة، حيث أباح للبربر أن يفعلوا فيها ما يشاءون، فروعوا السكان، واستباحوا الدماء والأموال والأعراض. ثم استجاب الدلائي لتوسلات أعيان تافيلالت وشفاعهم، وكف أيدي الجند عن الناس، وصالح محمد بن الشريف على اقتسام مناطق النفوذ، فجعلوا ما دون جبل العياشي من الأقاليم الصحراوية من نصيب ابن الشريف، وما فوق ذلك من البلاد خاصا بالدلائين. واستثنى محمد الحاج من منطقة نفوذ الشرفاء خمسة مراكز احتفظ بها لنفسه، لما كان له فيها من مصالح حيوية خاصة، وهي الشيخ مغفر في أولاد عيسى بالرتب⁽⁷⁰⁾ والسيد

(69) سجلماسة مدينة عتيقة أسسها بنو مدرار في القرن الثاني للهجرة، ولعبت أدوارا مهمة في تاريخ المغرب، وظلت آهلة بالسكان بل عاصمة لأقليم تافيلالت الى ما بعد القرن الحادي عشر/القرن السابع عشر. وما زالت أطلالها ماثلة للعيان بالقرب من الريصاني، ويسمى الفيلاليون المدينة الكبيرة أو القديمة.

(70) أولاد عيسى قصر يقع على الضفة الغربية لوادي نيز، ويبعد عن قصر السوق بنحو 40 كلم جنوبا. والقصر في اصطلاح أهل تافيلالت يعني قرية صغيرة، ويُطلق عليها البربر اسم إغرم (بكسر الهمزة وفتح الراء وتسكين الغين والميم)، وإذا صغر القصر ولم يضم الا منازل قليلة سمي قُصيرا أو تَغْرمت (بفتح التاء وتسكين الغين والراء والميم والتاء).

الطيب في قصر السوق⁽⁷¹⁾ والسيد أحمد بن علي العثماني في بني عثمان من الخنق⁽⁷²⁾ وقصر كلميمة في وطن غريس⁽⁷³⁾ وأسرى في بلد فركلة⁽⁷⁴⁾. غير انه لم يكذب ينصرف محمد الحاج من الصحراء حتى هجم محمد بن الشريف على القصور التابعة للدلائيين واستولى عليها. وتطورت العلاقات بين الطرفين تطورا سيئا كان السبب في القضاء على الزاوية الدلائية كما سنرى في الباب التالي.

(د) الجهاد ضد الاسبانيين في المعمورة

لم يهجم محمد الحاج كثيرا بالجهاد ولو أن النصارى كانوا يحتلون ثغورا عديدة بجوار المراكز التي يسيطر عليها. ولعله كان مشغولا عنه بالأحداث الداخلية. فهو بالرغم من اتساع رقعة نفوذه ووفرة جنده، لم يستطع أو لم يجرؤ على التخلص نهائيا من منافسيه بمراكش وسجلماسة وإيليج، زيادة على خصومه شيعة العياشي المنبشرين في بلاد الغرب وأقاليم الشمال. على أن محمد الحاج دعا الناس للجهاد في أواخر رجب عام 1643/1053 واشتغل نحو نصف شهر بتهيء الحملة لكنه انصرف عنها لأسباب خاصة⁽⁷⁵⁾ ثم قام بغزوة كبرى ضد الاسبانيين بثمر المعمورة عام 1647/1057 بعد أن استنفر المجاهدين للحركة معه من جميع الأقاليم⁽⁷⁶⁾. وكان ممن استجاب لدعوته أهل فاس ومعهم الشيخ محمد بن عبد الله معن صاحب زاوية الخفية بعدوة الأندلس، وابنه الصالح أحمد، فأبليا البلاء الحسن في قتال العدو. وضعف الشيخ يوما عن صعود عقبة بضواحي المعمورة لكبر

(71) قصر السوق ويسمى اليوم الراشدية هو مقر عمالة تافيلالت، ويبعد عن مكناش بنحو 330 كلم.

(72) بني عثمان ويعرف اليوم بأيت عثمان. عبارة عن عدة قصور تقع على بعد نحو 27 كلم من الراشدية شمالا. ويوجد الآن مشروع بناء سد على وادي نيز يعرف بمشروع خزان أيت عثمان.

(73) تقع كلميمة على ضفة نهر غريس على بعد نحو 60 كلم من الراشدية غربا في طريق ورزازات. ويسكنها حتى اليوم أيت مرغاد من البربر.

(74) أسرى قصر على ضفاف وادي فركلة. بعيد عن الراشدية بنحو 86 كلم غربا.

(75) سليمان الحوات، البدور الضاوية، ورقة 110/ب.

(76) محمد القادري، نشر الثاني، 2 41.

وقد ذكر المحققان لكتاب الاستقصا، في الهامش (6: 98) احتمال وقوع هذه الغزوة عام 1052 وهو خلاف الواقع لتضارب النصوص العربية والأفريقية على تحديد عام 1647/1057 تاريخا لحصار المعمورة من طرف محمد الحاج الدلائي.

سنه، فحمله ابنه أحمد على ظهره حتى قطع به المواضع المخوفة، وكان ذا نجدة وإقدام، وحمية في الدفاع عن حوزة الاسلام.

وقد أورد الكونت دو كاستر⁽⁷⁷⁾ رواية مفصلة لحصار المعمورة. تتحدث بإسهاب عن مراحل الهجوم والدفاع والإغاثة. وتحدد تاريخ الحصار من 10 غشت الى 3 شتنبر 1647. وهذا التاريخ يتفق في المبدأ تماما مع ما ذكرته المصادر العربية. فالقادي في نشر المثالي وغيره يقولون إن المسلمين خرجوا للجهاد في المعمورة في 7 رجب 1057. وهو يوافق 7 غشت 1647 ومن الطبيعي ألا يقع الزحف على الحصن الا بعد ثلاثة أيام من خروج المجاهدين من فاس مثلا. لكن تختلف الروايات الاسلامية والفرنجية في مدة الحصار. فالمصادر العربية تقول ان المسلمين رجعوا الى ديارهم بعد 18 يوما بسبب تفشي المرض والموت فيهم من ماء فاسد شربوه هناك، بينما تدعي الرواية الأخرى استمرار الحصار نحو شهر. وتؤكد انتشار الحمى حتى في صفوف الاسبانيين. ويمكن الجمع بين الخبرين بأن انسحاب المسلمين بدأ بعد 18 يوما وبقي بعض المجاهدين في نحر العدو بضعة أيام أخرى. وبالرغم مما يمتاز به الرواية الأفرنجية من دقة تحديد الأيام والساعات للمعارك، وذكر أسماء الضباط المشاركين فيها، والمراسلات المتبادلة في الموضوع بين الحامية المحاصرة وملك اسبانيا، فانها لا تخلو من مبالغات ومهويلات. ومجمل الخبر الذي أورده دو كاستر أن حصار المعمورة أو كما يسمونها

S. Miguel de Ultramar ou Saint-Michel d'outremer.

بدأ بهجوم ثمانية آلاف من برابرة جبال سوس⁽⁷⁸⁾ جاؤوا للجهاد ومع كل واحد منهم خنجر، وسنة «Hâche à deux tranchants» وبندقية خفيفة Escopette⁽⁷⁹⁾

77) De Castries, Les Sources inédites, France I, 3 618

(78) من المعلوم أن بلاد سوس كانت خاضعة في ذلك العصر الى أي حسون السلافي، لذلك فان البرابرة الذين تتحدث عنهم الرواية الاسبانية هم بدون شك من المنطقة الخاضعة للدلائين بالأطلس المتوسط والكبير. ونلفظ «جبال سوس» في الرواية إما أن يكون غلطاً، أو باعتبار الاصطلاح القديم الذي كان يعتبر أن السوس الأدنى يشمل المناطق الواقعة بين وادي ملوية ووادي أم الربيع.

(79) « Escopette » نوع من البنادق الخفيفة المشهورة منذ القرن الخامس عشر

وقد لوحظ وجود السوسيين في الخندق (80) يومي السبت والأحد 10 و 11 غشت 1647 لكن جنود الحراسة الاسبان لم يأخذوا حذرهم، فزحف المسلمون يوم الاثنين 13 غشت حوالي الساعة الرابعة صباحا، وارتموا في خندق باب سلا وبدؤوا يقطعون الجسر المتحرك دون أن يشعر بهم الاسبانيون، الى أن استيقظ القبطان أنطونيو دي باديللا « Antonio de padilla » على إثر أصوات الطرق، وما كاد يصيح « الى السلاح ! أيها الاسبانيون ! » حتى سقط ميتا بطلقة نارية من إحدى البدقيات الخفيفة. وتراجع المسلمون من الخندق بعد أن أخذت مدافع الاسبانيين تطلق النار عليهم، ثم كروا بسرعة وتسلقوا بسهولة البرج SAINT JOSEPH دون أن يدافعهم جنود الحراسة الذي أدوا ثمن إهمالهم بموت عشرة منهم وجرح اثنين آخرين. وحاول المسلمون أن يستولوا على الآبار التي تمون الحصن، لكن الاسبانيين استماتوا في الدفاع عنها طيلة ثلاث ليال.

وقد بعث السوسيون إلى الأمير عبد الله الدلائي في سلا يخبرونه باستيلائهم على القنطرة والبرج، فأمر أن ينادى في جميع مناطق امارته لياقي رعاياه في ظرف ثلاثة أيام الى مدينة سلا لجهاد النصارى، فاستجاب لندائه في الأجل المحدد جميع من كانوا يستطيعون حمل السلاح، واجتمع أكثر من 30.000 راجل و20.000 فارس، علاوة على كثير من باعة المؤونة للجند. وتحرك جيش المسلمين من سلا حاملا معه ثلاث قطع من مدفعية القصبه، اثنتان من الحديد، ومدفع صغير من النحاس، واحتل هذا الجيش المراكز التي كان المقاتلون البربر قد استولوا عليها، وأخذ يوجه قذائف المدافع الى المواقع الأمامية للاسبانيين، وبقي يتقدم إلى أن لم يعد يفصل بينه وبين أسوار الحصن الا أقل من 30 قدما أمام قنطرة فاس وسلا. وكانت مقاومة الجنود الاسبانيين ضعيفة لأن معظمهم كان مصاباً بالحمى الثلاثية. وأرسل القبطان دون فرانسيسكو بانوس دي هيريرا Don FRANCISCO BANOS DE HERRERA الذي كان قائما بقيادة حامية

(80) يبدو أن حصن المعمورة كان محاطا بخنادق دفاعية، يسمى ما يقع منها في الناحية الجنوبية خندق باب سلا.

المعمورة زورقا سريعا الى إسبانيا وفيه رسالتان احدهما الى الملك والأخرى الى دوق المدينة والقلعة، يخبرهما بحالة الحصار ويطلب الاغاثة والنجدة بأسرع ما يمكن. وبمجرد ما توصل الدوق بهذا الاعلام يوم 16 غشت سارع الى مهيء الأسطول بالرغم من كونه كان في طور النقاها من حمى ثلاثية خبيثة، وبدأت الاستعدادات في نفس اليوم، وانتهت في اليوم الرابع، وانتظرت المراكب الريح المواتية فلم تنصب أسرعها الا في يوم 24 غشت. وكان أسطول الاغاثة يحتوي على سفينة دانكيرك المسماة سان بيدرو « SAIN PEDRO » وسفينة انجليزية كبيرة، وعشر سفن طويلة، هم انضمت اليه في الطريق سفن حرية أخرى مليئة بالضباط والجنود. ولما وصل الأسطول الى العرائش طلب قائده من حاكم المدينة الاسباني أن يزوده بأخبار المعمورة، فأجاب بأنه لا علم له تماما بهذا الحصار لأنه لم يصل إليه أي رجل من المغاربة المتعاونين⁽⁸¹⁾. وقد أعد قائد الأسطول الترتيبات اللازمة للقتال في حالة ما اذا وجدوا الحصن قد سقط في أيدي المسلمين. وفي يوم الاربعاء 28 غشت على الساعة العاشرة وصل أسطول الاغاثة واقترب إلى أن صار بمرأى من الحصن وخيام المسلمين، لكنه لم يستطع الدخول إلى وادي سبو نظرا للطلقات النارية التي توجهها مدفعية المسلمين المركزة على ضفة النهر. وفي اليوم التالي عُين بطريق القرعة مركبان على ظهر كل منهما ضابطان وأربعة جنود للتوجه — بالقوة — الى الحصن، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، وفي يوم الجمعة 30 غشت عاودت سفينتان أخريان الكرة بدون نتيجة، فقر رأي قائد الأسطول على أن يقتحم النهر بنفسه تفاديا لأخطار الانتظار والتردد. وفي يوم السبت 31 غشت على الساعة الرابعة صباحا وصل الى الأسطول زورق كبير قادم من الحصن دون أن يصيبه سوء أو يشعر به المسلمون. وكان يحمل رسالة من قائد الحامية المحاصرة يطلب فيها بالحاح كبير من قائد الأسطول أن يدخل الى النهر في أسرع وقت ممكن، لأن الحصن المحاصر من مسافة قريبة جدا معرض للسقوط، ولأن الحاجة ماسة إلى

(81) المغاربة المتعاونون أو من يسمونهم MOROS DE PAS عبارة عن مغاربة شبه جواسيس كانوا يؤدون بين الاخلاص الى ملك اسبانيا ويستخدمهم النصارى في مفاوضاتهم مع المسلمين.

الرجال بسبب كرهه المرضي والجرحى . فتقدم قائد الأسطول بسفينته الكبرى تتبعه السفن الحربية الأخرى، إلا السفينة الانجليزية التي تمرد قائدها وهدد بنسفها إذا ما أرغم على الدخول الى النهر، ووقعت معركة حامية بين المسلمين والبحارة الاسبانيين تبادل الطرفان خلالها طلقات المدافع في النهر، ثم وقعت اشتباكات عديدة في البر، وتمكن الاسبانويون أخيرا من الدخول الى الحصن وربط جبل الاتصال معه .

وفي يوم الاثنين 3 شتبر 1647 أخذ المسلمون المدفع الصغير النحاسي، وتركوا المدفعين الحديديين محطمين، ورفعوا الحصار عن حصن المعمورة، بعد أن أضرموا النار في مصف المدافع ليلا أثناء انسحابهم .

هـ) حملات تأديبية في بلاد زعير والحياينة

قام محمد الحاج خلال العشرين سنة الأولى من ولايته بغارات عديدة في مختلف الأقاليم حالفه النصر في غالبيتها، واستطاع أن يثبت الأمن ويقضي على الثوار واللصوص والعابثين . ومن أشهر حملاته التأديبية قتاله لقبائل زعير بالقرب من وادي الشراط(82) خلال عام 1650/1061 — 1651 فشنت جموعهم وطارد رئيسهم الدقاق، وجاست جنود الدلاء خلال ديار زعير وتعقبت آثار رؤوس الفتنة فيها الى أن أذعنت القبيلة كلها بالطاعة، وركنت الى الخضوع والاستكانة واستراح الناس من عيشها مدة طويلة . وفي السنة الموالية قام محمد الحاج بحركة مماثلة في ضواحي فاس، قارع فيها قبيلة الحياينة وكسر شوكتها، وكانت قد رجعت الى سابق عهدها في السلب والنهب وقطع الطرق وسفك الدماء . وتوجه وفد من علماء فاس الى مدينة الدلاء يرجون من السلطان محمد الحاج أن يكف عنهم القبيلة الباغية ويخلصهم من أذاها . وحملوا معهم سبعا من فتاوي أكابر فقهاء المدينة الادريسية

(82) يبعد وادي الشراط عن الرباط بنحو 37 كلم جنوبا .

تصرح بوجوب مقاتلة الحياينة الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فساداً(83).

وستحدث في الباب السادس عن باقي العمليات الحربية التي خاض غمارها الدلائيون في العقد الأخير من دولهم، لأن تلك الفترة تمثل عهد التدهور والانحدار نحو النهاية الحتمية للزاوية الدلائية.

(83) انظر نص هذه الفتاوي عند سليمان الخوات في الدور الضاوية، من ورقة 112/أ الى ورقة 114/أ. كما توجد بالخزانة العامة بالرباط رقم 3270 ك نسخة مخطوطة خاصة بهذه الفتاوي. وأصحابها هم القاضيان أحمد الأزموري ومحمد بن سودة، والعلماء محمد ميارة، ومحمدون الأبار، وعبد السلام بن محمد، وعلي بن محمد المري، وعبد القادر الفاسي. وما جاء في فتوى القاضي ابن سودة «وقال مالك أيضا في أغراب قطعوا الطريق، جهادهم أحب إلي من جهاد الروم».

الباب الخامس

انتشار نفوذ الدلائيين السياسي

1 – الموريسكيون ينضون تحت لواء الدلائيين

- أ) المدجنون والموريسكيون
- ب) الموريسكيون في تطوان
- ج) الموريسكيون في الرباط
- د) أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية
- هـ) عبد الله الدلائي أمير سلا

2 – علاقات الدلائيين بأوروبا

- أ) الدلائيون وفرنسا
- ب) الدلائيون وإنجلترا
- ج) الدلائيون والبلاد الواطئة (هولاندا)
- د) السفارة المغربية في لاهاي
- هـ) قضية تنصر أمير دلائي

3 – الدلائيون في فاس

- أ) أحمد بن محمد الحاج أمير فاس
- ب) محمد الدلائي يخلف أخاه في إمارة فاس

4 – آثار الدلائيين

- أ) المباني في الدلا وفاس
- ب) النقود الاشقوية

1 — الموريسكيون ينضون تحت لواء الدلائين

أ) المدجنون والموريسكيون

المدجنون أو «MUDIJARES» هم الأندلسيون الذين رضوا بحكم النصارى عندما استولى هؤلاء على بلادهم فلم ينزحوا عنها تشبثا بما لهم فيها من ضياع ومتاع. وتكاثر عدد أهل الدجن بتوالي سقوط القلاع والحصون الاسلامية، وتسامح معهم الاسبان في بادىء الأمر، ثم ضيقوا عليهم الخناق وألزمهم المقام في أحياء منعزلة خاصة بهم كاليهود، ومنعهم من حق شراء الأراضي وحمل السلاح، وانتهى الأمر بالمدجنين بتوالي السنين والأجيال الى فقد لغتهم ودينهم.

ولما استولى الاسبانيون على غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس عام 1492/897 هاجر كثير من أشرف هذه المدينة الى المغرب، وتخلف آخرون واثقين بالعهود التي قطعها الملكان (فرديناند) و (إيزابيلا) «FERDINAND et IZABELLA»⁽¹⁾ على نفسيهما بتأمين المسلمين في أنفسهم وأموالهم، واحترام دينهم وشعائهم. غير ان الاسبان ما لبثوا أن نكثوا عهدهم وسلكوا حيال المسلمين المغلوين سياسة وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلا. فأرغمهم على التنصر، وطاردهم بالامهات الملفة على يد ديوان التحقيق⁽²⁾ وقتلوا آلاف الأبرياء ومثلوا بهم، وأحرقوا الكتب العربية أكدا في ساحات غرناطة. وعُرفت هذه الطائفة

(1) ارتقى (فرديناند) الخامس عرش مملكة (أرجون) بعد وفاة أبيه الملك يوحنا الثاني سنة 1479. وكان تزوج قبل ذلك بالأميرة (إيزابيلا) التي جلست على عرش مملكة قشتالة على إثر وفاة أخيها الملك (هنري الرابع) سنة 1474. وهكذا أخذت المملكتان الاسبانيتان في ظل عرش واحد، وتعاهد الملكان الكاثوليكيان المتعصبان على متابعة حرب المسلمين والقضاء عليهم نهائيا في اسبانيا.

(2) لديوان التحقيق أصول قديمة في الديانة المسيحية. أحدث لأجل التأكد من سلامة العقائد الكنيسة الرومانية، وتطور مفهوم ديوان التحقيق فقدا يطارد الزيف في العقيدة والسحر معا. وتأسس ديوان التحقيق في قشتالة سنة 1478 بمرسوم من البابا «لناهضة الكفر ومحاكمة المارقين» وابتدأ الديوان أعماله في اشيلية وصب نعمته أولا على اليهود المنتصرين وكانوا كثيرين في هذه المدينة فقتل منهم وأحرق ألوفاً خلال عام واحد، ثم أنشئت محاكم التحقيق في سائر أنحاء اسبانيا، وبث عيونها في كل مكان للتجسس على المدجنين ثم على الموريسكيين، فكان من أكبر الجرائم التي يعاقب عليها بالتعذيب الوحشي والقتل والحرق، أن يكون لباس الممهم يوم الجمعة أفضل من لباسه يوم الأحد، أو أن يمتلك كتابا عربيا أو يقرأه أو يتكلم باللغة العربية.

المتنصرة من الأمة الأندلسية بالموريسكيين «MORISCOS» أو العرب الأصاغر، ذاقوا الأمرين على يد الاسبانيين المتعصين طيلة القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، وعوقبوا أشد العقاب على كل بادرة منهم تنبئ عن تدمير أو مقاومة. ويحدثنا المقرئ عن نهاية مأساة الموريسكيين في الأندلس بقوله «وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصرا، إلى أن كان إخراج النصارى لإياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف آخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المضرة. وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطوان وسلا وفيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكريا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا⁽³⁾ وبنوا بها القصور والحمامات والدور. وهم الآن بهذا الحال»⁽⁴⁾.

ب) الموريسكيون في تطوان

تطوان مدينة قديمة أسست قبل الاسلام لتخلف جاريها مموودة الرومانية، وقد خربت تطوان القديمة وخلت من السكان في مسهل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، ثم جدد بناءها في أواخر هذا القرن نفسه المهاجرون الأندلسيون الذين نزحوا الى المغرب قبيل سقوط مملكة غرناطة، وكانوا قلة لا يتجاوزون أربعين أسرة، وتلاحقت وفود المهاجرين من الفردوس المفقود لتسكن المدينة المجددة في فترات متقطعة الى أن قضى الملك قليب الثالث PHILIP III⁽⁵⁾

(3) المراد بقلعة سلا قصبة الوداية الحالية.

(4) أحمد المقرئ، نفح الطيب، 2 617.

(5) نولى فيليب الثالث عرش اسبانيا بعد وفاة والده الملك فيليب الثاني سنة 1598. وكان قتي ضعيف الرأي يتأثر كآتيه بآراء الرهبان المتعصين والوزراء المستبدن. وقد أصدر قرار النفي النهائي للموريسكيين في 15 شتنبر 1609 وأمرهم بالاحتشاد في الثغور، وألا يأخذوا من متاعهم الا ما يستطيعون حمله على ظهورهم، لتقلهم السفن الاسبانية الى عدوة المغرب.

بطرد جميع الموريسكيين من أرض شبه جزيرة ايبيريا عام 1609/1018 (6) فغبروا البحر الى العدو الافريقية، واستقر عدد كبير منهم في تطوان.

وقد توارث آل المنظري الغرناطيون حكم مدينة تطوان منذ تجديدها واشتغل مهاجرو الأندلس بالجهاد في البر والبحر والاعارة على البرتغاليين الذين كانوا يحتلون مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة(7). وكان قوام جيش المجاهدين التطوانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) أربعمائة من الفرسان ومحمسمائة من المشاة، ومحمس عشرة سفينة حربية يهاجمون بها السواحل الاسبانية بمساعدة مراكب القراصنة الجزائريين. ثم تضخم عدد المجاهدين بكثرة المهاجرين المبعدين في القرن الحادي عشر (السابع عشر) وانتقل حكم مدينة تطوان الى أولاد النقيس الذين ظلوا على رأس هذه المدينة مدة طويلة (1006 1597/1083 — 1672). وأول من ذكره المؤرخون من أفراد هذه الأسرة هو المقدم(9) أحمد بن عيسى النقيس الذي انتصر على الاسبانيين انتصارا كبيرا حتى كاد يطردهم من مدينة سبتة أيام أحمد المنصور الذهبي. وبعد انقسام الدولة السعدية الى مملكتي فاس ومراكش، انضم أولاد النقيس الى سلطان فاس لقربه منهم ولم يخضعوا للمجاهد العياشي عندما امتد نفوذه على أقاليم مملكة فاس المنقرضة، فاقترح عليهم قائده سليمان بن يوسف تطوان عام 1631/1041 وجند نحو ثمانية آلاف رجل من الأندلسيين لمطاردة عبد الله النقيس الذي فر

(6) انفق المؤرخون الأوربيون على أن اقضاء المسلمين عن شبه جزيرة ايبيريا قد تم خلال سني 1609 — 1610 وهذا يوافق من التاريخ الهجري 1018 — 1019 وهو لا يختلف عما ذكره المقرئ في النص السابق من أن هذا الحادث قد وقع «أعوام سبعة عشر وألف» لما تشعر به كلمة «أعوام» من التقريب.

(7) احتل البرتغاليون مدينة سبتة عام 1415/818 — 1416 بعد حصار دام ست سنوات، وظلت تحت حكمهم أكثر من قرنين ونصف، ثم سلموها الى الاسبانيين حوالي عام 1669/1080 — 1670. وملكوا القصر الصغير الذي يسمى أيضا قصر مصودة وقصر الحجاز، بين سبتة وطنجة، عام 1457/862 — 1458. واحتل البرتغاليون بعد ذلك طنجة عام 1464/869 — 1465 وحكموها ما ينيف عن قرنين، ثم تنازلوا عنها لانجلترا عام 1661/1072 كمهر قدمته كاترين دوراكانس شقيقة ملك البرتغال لزوجها شارل الثاني ملك انجلترا. وقد استرد المولى اسماعيل مدينة طنجة من انجلترا عام 1684/1095.

(8) محمد داود، تاريخ تطوان، القسم الثاني من المجلد الأول، ص 174.

(9) المقدم لقب خاص برئيس جماعة المجاهدين.

الى بلاد غمارة أولا ثم التجأ عند الاسبانيين في سبة. وظل نفوذ العياشي قائما بتطوان حتى أواخر أيامه. وبعد ذلك «استقلت هذه المدينة بحكم نفسها، وباشر الحكم فيها مجلس من أهلها الذين كان جلهم في هذا العهد من مهاجري الأندلس، ثم بعد مدة عاد الأمر فيها الى أولاد النقسيس»⁽¹⁰⁾ والدلائيون هم الذين أعادوا أولاد النقسيس الى تطوان ونصبوهم عمالا عليها يحكمونها باسمهم، غير انه نظرا لبعدها مدينة تطوان من عاصمة الدلائيين وضعف وسائل المواصلات آنذاك، ووقوع الاضطرابات في القبائل من حين لآخر، كان لرؤساء تطوان نوع من الاستقلال في الحكم، فكانت صلتهم برؤسائهم الدلائيين تقوى أو تضعف تبعاً لاستقرار الأحوال الداخلية أو اضطرابها. لكن لا يمكن بحال أن نعتمد على بعض مظاهر التصرف المطلق لأولاد النقسيس لنزعم أن مدينة تطوان كانت مستقلة لم يشملها نفوذ الدلائيين. والنصوص الصريحة المتقدمة تعد هذه المدينة من جملة مناطق نفوذ محمد الحاج⁽¹¹⁾، والمعاهدة التي أمضاها سلطان الدلاء في 8 ذي القعدة عام 1067/19 غشت 1657 مع الحكومة الانجليزية تؤكد انه صاحب النفوذ في تطوان⁽¹²⁾ وظلت هذه المدينة وفيه للدلائيين حتى بعد قيام الثورات ضدهم في بلاد الغرب. ولم تستسلم تطوان الى الخضر غيلان إلا بعد أن اندحرت أمامه جيوش محمد الحاج في وقعة «وادي بوحيرة»⁽¹³⁾ بالقرب من ساحل مولاي بوسلهام عام 1070/1660.

(10) محمد داود، تاريخ تطوان، ج 1 ص 232.

(11) بعث إلي الأستاذ عبد السلام بنسودة — مشكوراً — بقصيدة نظمها بعض الشعراء من أهل تطوان حين دخل

الأمير محمد الحاج الدلائي مدينتهم أيام ولايته، مطلعها

بشرائك تطوان بشري سموت عزاً وفخراً
ونلت كل للعالي وحزت صينا وذكرها

ومنها

وكيف لا قد أتانا رب اللوالب خيراً
مولانا سلطان عدل قد صار فضله نجراً

12) De Castries, *Les Sources inédites*, Angleterre I, 3 588

(13) وادي بوحيرة يقع بالقرب من للرجة الزرقاء غرب مركز سوق أربعاء الغرب، لا في ناحية القصر الكبير كما يظن ذلك بعض الأوربيين.

ج) الموريسكيون في الرباط

إن أهم جالية أندلسية قدمت الى المغرب استوطنت الرباط والقصبة (14) وقبل أن يُلزم الموريسكيون بالجلء العام عن شبه جزيرة ايبيريا، هاجر الى المغرب سكان هورناتشو (15) المعروفون بصدق عقيدتهم الاسلامية وثرائهم الواسع، فاستقروا بقصبة سلا وحصنها وبنوا فيها الدور والقصور والحمامات، ثم كانت الهجرة الاندلسية الكبرى في مستهل القرن السابع عشر فازدحمت الرباط والقصبة بالموريسكيين، ودخلوا في طاعة زيدان بن المنصور ملك مراكش فأمر عليهم القائد فاضل الزعروري الأنصاري. وحدث بعد بضع سنوات من تولية هذا القائد أن رجع المجاهد العياشي الى سلا ناجيا بنفسه من المؤامرة التي دبرها السعديون ضده في أزمو، فبعث زيدان الى قائده الزعروري أن يقبض على العياشي أو يقتاله، لكن شيوخ الاندلسيين وأعيانهم عارضوا في تنفيذ هذا الأمر، وتطوعت جماعة منهم لملازمة مجاهد سلا وحمايته من كل اعتداء (16) ثم صدر أمر ثان الى الزعروري بتجهيز جيش من الاندلسيين المقيمين في القصبة وتوجيهه إلى درعة لآحمد فتنة قامت هناك، فوجه منهم أربعمئة مقاتل وطالت غيبتهم بالصحراء الى أن فر أكرهم ورجعوا الى ديارهم متسللين، وامتنع الاندلسيون بعد ذلك من الاستجابة للقائد الزعروري الذي كان يبلغهم أوامر ملك مراكش، يالتجنيد والمساهمة في العمليات العسكرية بالجنوب، ورأوا أن يتخلصوا منه بوسيلة أو بأخرى فوشوا به الى السلطان زيدان ولفقوا ضده اتهامات مثيرة، فبعث زيدان من قبض على القائد الزعروري، وولى على المدينتين مملوكا له يسمى عجيبا، لكن الموريسكيين لم يلبثوا أن ثاروا على هذا المملوك وقتلوه، قاطعين بذلك صلحهم ببلاد مراكش، وأقاموا عنهم

(14) كانت الرباط والقصبة قبل حجيء الأندلسيين إليهما تنسبان معا الى سلا، فيقال رباط سلا وقصبة سلا. ثم صارت المدن الثلاث تدعى إجمالا مدن سلا. وعند التفصيل يعبر عن سلا الحالية بسلا القديمة، وعن الرباط بسلا الجديدة، وبقيت القصبة منسوبة إلى سلا إلى أن سكنها جيش الودايا أيام السلطان عبد الرحمن بن هشام العلوي فسميت قصبة الودايا، كما استرجعت الرباط الاسم الذي أطلقه عليها مؤسسوها الموحدون وهو رباط الفتح.

(15) هورناتشو HORNACHOS مدينة تقع بإقليم بطليوس BADAJOZ في جنوب غربي اسبانيا بين اشيلية وماردة، بعيدة على الأولى بنحو 170 كلم شمالا، وعن الثانية بنحو 50 كلم جنوبا.

(16) عبد القاهر املاق، الخبر عن ظهور العياشي، ص 10.



مناظر العلوتين في منتصف القرن السابع عشر

عاملا جعلوه مسؤولا أمام مجلس مختار لمدة محدودة يقع تجديده بطريقة الانتخاب . فتكونت بذلك الجمهورية الموريسكية الأولى بالرباط، ثم فعل سكان القصبة ما فعله جيرانهم فكونوا جمهورية ثانية مماثلة وذلك حوالي عام 1630/1440 . وربطت الجمهوريتان في بادئ الأمر علاقات طيبة مع المجاهد العياشي الذي كان نفوذه يمتد من سلا الى تطوان، واعترفتا بسلطته مع الاحتفاظ باستقلالهما الداخلي، وساعده في حركاته الجهادية «بالرماة والبارود والانفاط» (17) ثم فسد الجو بين العياشي والموريسكيين حين امتنعوا عليه فيما كان يريد من توحيد وادماج، وأبوا الا أن يظلوا متميزي الشخصية . وبحث الموريسكيون عن سند يعتمدون عليه، وحليف يظاهروهم على خصمهم الرابض أمامهم وراء النهر، فلم يجدوا غير الملك السعدي صاحب مراكش، لكنه كان عاجزا عن أن ينجدهم بله أن يرجح كفتهم . فمدوا أيديهم الى الاسبانيين — حسب الروايات المستفيضة — ووطدوا الصلات مع حامية المعمورة وأمدوها بالطعام والذخيرة في الوقت الذي كان العياشي وصحبه يرابطون حول هذا الحصن ويضيقون عليه الخناق حتى كاد يسقط في أيديهم . وقد رأينا ما فعل العياشي بالموريسكيين من الحصار والقتل والتشريد اعتمادا على فتاوي العلماء الى أن تدخل الدلائيون لصالح مهاجري الأندلس، فكان في ذلك نهاية المجاهد العياشي . وعلى اثر ذلك تكونت في سلا جمهورية ثالثة على غرار الجمهوريتين القائمتين في الرباط والقصبة . ولم يكن تكوين الجمهوريات على هذا النحو بدعا من النظم في ذلك العصر خصوصا في مراكز القرصنة الغنية . وقد أقر الدلائيون هذا الوضع في الجمهوريات الصغرى الثلاث بعد أن أسندوا أمر النيابة عنهم فيها جميعا الى قائد سلا الأمين سعيد الجنوي (18) وبذلك أصبح له الاشراف على قائد الرباط أبي الطيب بن عبد الرحمان عيدون (19) وقائد القصبة الحاج يوسف السنسياض (20) . ثم ترك سعيد الجنوي أمر قيادة سلا الى عامر بن

(17) عبد العزيز الزبالي، الجواهر المختارة، ورقة 125/ب.

(18) الأمين سعيد الجنوي قائد سلا وحاكم العدوتين من طرف الدلائيين . صار خليفة للأمير عبد الله الدلائي عام 1651/1061 وظل أمين سره الى أن توفي بسلا في أوائل ذي الحجة عام 1655/1065 .

(19) أسرة عيدون أندلسية كانت في الرباط ثم انقرضت .

(20) السنسياض (بفتح السين الأولى، وسكون النون والسين الثانية، وضم الغناد) اسم اسباني من جملة الأسماء التي احتفظ بها الموريسكيون المهاجرون الى المغرب وقد انقرضت هذه الأسرة الآن .

محمد⁽²¹⁾ ليتفرغ هو للإشراف على الشؤون العامة وتنفيذ سياسة الدلائيين في العدوتين. وسارت الأمور في المدن الثلاث سيرا عاديا بضع سنوات، غير ان الموريسكيين في القسبة عاودهم الحنين الى الاستقلال التام، ورغبوا في الانفصال عن الدلائيين، وجددوا صلاهم بالملك السعدي صاحب مراكش فتصدى لقتالهم محمد الحاج الدلائي. وبعد أن أمر الرباطيين بأن يهاجموهم من البر، أغرق في مدخل النهر سفينة لتعزيز حصار القسبة من البحر. ولم تجد النجدة التي قدمها للمحاصرين (بالفتح) أترك الجزائر وسلطان مراكش، واستسلم الموريسكيون في النهاية، فأخرجهم الرئيس محمد الحاج من القسبة ولم يترك فيها الا جنودا مغاربة.

(د) أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية

لا أقصد بالقرصنة هنا ما يدل عليه أصلها الأعجمي «Course» من لصوصية بحرية، وإنما أعني بالقرصنة السلاوية أولئك المجاهدين الأندلسيين والمغاربة الذين خاضوا بسفنهم عباب البحر للدفاع عن حوزة الوطن، أو للثأر من الاسبانيين الذين ساموا المسلمين في الأندلس سوء العذاب وأخرجوهم من ديارهم وأمواهم بغير حق. وإذا كان تاريخ البحرية في مصب أبي رقراق يرجع الى القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) أيام الملك الموحي عبد المومن صاحب الأسطول الحربي الجبار ومؤسس دار الصناعة البحرية بضاحية مدينة سلا، فإن القرصنة لم تعرف في المغرب الا على عهد المرينيين حينما استقر وكر قرصني في حلق المعمورة «فعظم شأنه واستفحل أمره. وكان القائمون عليه اخلاطا من أجناس، فيهم من المسيحيين أكثر من المسلمين، ثم صارت سلا المدينة القرصنية الرابعة — حسب دو كاستر — بعد طرابلس الغرب، وتونس، والجزائر»⁽²²⁾. وقد كوّن المهاجرون الأندلسيون بالرباط والقسبة في مستهل القرن السابع عشر أسطولا حريا قويا أخذوا يغيرون به على مراكب الأعداء في عرض البحر، ويهجمون على السواحل الاسبانية، كما فعل اخوانهم المقيمون في تطوان. وتطورت هذه القوة

(21) عامر بن محمد من أسرة حركات الشهيرة بسلا حتى اليوم.

(22) عبد العزيز بن عبد الله، البحرية المغربية والقرصنة. مجلة تطوان 1958 — 1959. العددان 3 — 4 ص. 68.

البحرية في عهد العياشي والدلائين، وظلت تثير الرعب في نفوس البحارة المسيحيين طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، الأمر الذي حمل الدول الأوروبية على أن تخطب ود المغرب وتؤدي له الجزية لضمان سلامة سفنها التجارية التي تمخر عباب الاطلنطيق⁽²³⁾. وازدهرت مع أسطول الجهاد من جديد صناعة السفن على ضفاف نهر أبي رراق، وزودت هولاندا، وهي من أعظم الدول البحرية في ذلك العصر، هذه المصانع بما تحتاج اليه من المواد. وكان البحارة العاملون في أسطول الجهاد مزيجاً من الموريسكيين وال슬اويين وغيرهم من المتحمسين للقتال في سبيل الله، أو الطامعين في الكسب والإثراء. وقد سماهم الأوربيون قراصنة سلا «LES CORSAIRES DE SALE» واشتهروا بهذا اللقب فدعوناهم كذلك، على أن القرصنة البحرية كانت عامة في ذلك العصر يُقبل عليها المسيحيون والمسلمون دون نستر أو استحياء، وكأنها نوع من الحرب القائمة باستمرار بين الدول الغير المتعادنة أو المتحالفة. وقد غنم هؤلاء المجاهدون أو (القراصنة السلاويون) في ظرف عامين فقط أربعين سفينة، واستولوا فيما بين سنة 1618 وسنة 1626 على ستة آلاف أسير من الافرنج، وخمسة عشر مليون ليرة⁽²⁴⁾ وكان الاسترقاق شائعاً آنذاك عند المسلمين والأوربيين على السواء، فنفتت أسواق النخاسة في العدوتين، وملك المسلمون المسيحيين عبيداً وإماء، وامتلأت أيدي البحارة بأثمان الأسرى الممالك أو بالأموال التي يحصلون عليها مقابل إطلاق سراحهم وردهم إلى ذويهم أو حكوماتهم.

هـ) عبد الله الدلائي أمير سلا

رأى السلطان محمد الحاج الدلائي بعد أن حُملت اليه بيعات المدن والقرى عام 1651/1061 أن يغير سياسته تجاه منطقة الغرب التي تعد أهم ناحية في مملكته، والا يكتفي باستنابة أحد الأهالي مهما بلغ حزمه وإخلاصه

(23) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(24) نقل ذلك عن دو كاستر محمد بوجندار في مقدمة الفتح، ص 54.

فأسند أمر المدن الثلاث سلا والرباط والقصبة، الى ابنه عبد الله الذي تلقبه المصادر الاوربية بأمير سلا أو سيد سلا «LE SEIGNEUR DE SALE» واستقر عبد الله الدلائي في قصر الامارة بالقصبة، وقرب اليه الأمير سعيد الجنوي وجعله خليفته وأمين سره، وأخذ يرجع في مهام الأمور الى أعيان العدوتين فلا يقطع أمراً دون مشورهم. واتخذ الفقيه الأديب عبد المالك التاجموني (25) كاتباً خاصاً له، فكان يحبر الرسائل التي تصدر عن أمير سلا إلى مدينة الدلاء وغيرها. بل وحتى المراسلات الموجهة باللغة العربية الى الأعاجم في أوروبا لم يخل بعضها من سجع وجناس ومحسنات بديعية أخرى. وكان ديوان الأمير الدلائي يضم الى جانب التجموعتي كتاباً آخرين من الموريسكيين يحبرون الرسائل والمعاهدات باللغة الاسبانية. وكان مجلس الأمير الدلائي في سلا لا يخلو من علماء وأدباء يداكرهم ويدارسهم على نحو ما درج عليه في الزاوية الدلائية، كما كان يساجل اخوانه وأقرانه في الدلاء وغيرها، ويعقد المجالس العلمية في المساجد بحيث لم تنقطع صلته بالعلم والأدب بالرغم من أشغاله السياسية والحربية.

لم تكن مهمة الأمير عبد الله الدلائي تقتصر على النيابة عن والده في تولي شؤون مدن أبي رقراق، وإنما كان يقوم الى ذلك بوظيفة وزير الخارجية في الحكومة الدلائية، فيستقبل ممثلي الدول الأجنبية ويفاوضهم ويعقد معهم المعاهدات التجارية وغيرها، ويراسل رؤساء الدول باسم والده ويتلقى خطاباتهم. كما كان كثيراً ما يتولى قيادة الجيوش في تحركاتها بمختلف الأقاليم الخاضعة لنفوذ الدلائيين، فينوب عنه في نصريف الأمور عندما يتغيب عن سلا خليفته الأمين سعيد الجنوي. وهكذا امتاز هذا الأمير الدلائي بالعلم والأدب والشجاعة والاقدام، فكان رب السيف والقلم معاً. إلا أنه كان مفرط الرزانة كثير التأنى والتريث، يدرس الأشياء

(25) أبو مروان عبد المالك بن محمد التجموعتي قاضي سجلماسة. أديب شاعر ناثر. ألف كتابين في الرد على الامام البوسي. أوفى ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب يعني بأستاذ حلب أبا العباس الحلبي دفين فاس، ولما انتقده البوسي ألف فيه رسالة ثانية سماها خلع الاطمار البوسية بدفع الاسطار البوسية. توفي عام 1706/1118 — 1707.

على مهل، ويقَلَّب وجوه النظر في الأمور قبل أن يبت فيها. وقد لا يبدو له وجه الصواب في المسألة فيتركها معلقة، أو تردُّ عليه قضايا مستعجلة وهو يشتغل بأخرى، فيؤجلها إلى أن يتفرغ لها دون أن يعير جانب الاستعجال أي اهتمام. أما جوابه عن الرسائل فكان بطيئاً متثاقلاً سواء في ذلك المراسلات الرسمية والاخوانية. وقد كتب له أبوه في الأيام الأولى من اضطراره بمهام الأمور في مدن سلا يستخبره عن الأحوال فلم يرد عليه بشيء. فكتب إليه مرة ثانية يستحثه الجواب ويؤنبه على هذا التأخير الذي يقلق بال الوالد ويجعله فريسة الهواجس والأوهام. وكذلك فعل عبد الله مع بني عمه تباطأ عنهم فلاموه وعاتبوه، ورماه بعضهم بالترفع والتكبر. وكاد هذا التريث الغريب يجبر على الأمير عبد الله الدلائي شروراً كثيرة في علاقاته مع ممثلي الدول الأجنبية، فقد همَّ مرة قائد الأسطول الهولندي أن يقبر العدوتين بعد أن طال انتظاره في عرض البحر أمام سلا دون أن يتلقى جواب الأمير عبد الله عن الوثائق التي حملها إليه من حكومته، وعد هذا الإبطاء اهانة له واستخفافاً بشأنه (26).

وهناك جانب آخر من شخصية الأمير عبد الله الدلائي لا ينبغي اغفاله، وهو غيرته الدينية وحميته الإسلامية. فقد كان يزن أعماله بميزان الشرع ولا يتساهل في أي شيء مهما كان ضئيلاً إذا خالف أصلاً من أصول الدين. ويكفي للتدليل على ذلك معارضته للمعاهدة التي أبرمها قبيل مجيئه إلى مدن سلا رؤساء هذه المدن مع الولايات العامة (هولاندا) لأن الفصل الرابع منها نص على مجافاة طائفة من المسلمين وعدم التعامل معهم بالبيع والشراء، وقطع العلاقات معهم نهائياً في سبيل حلفاء غرباء لا تكاد مصالحهم تتبدل حتى ينقلبوا خصوماً محاربين. وظلت المخاضات جارية بين الرباط ولاهاي نحو 7 سنوات لتعديل هذه المعاهدة، والرسائل تتردد بين البلدين حاملة الاقتراحات المضادة في الموضوع،

(26) بقي قائد الأسطول الهولندي G. DE WILDT في عرض البحر ينتظر جواب الأمير عبد الله الدلائي من 27 يوليو إلى 5 غشت 1658. انظر دو كاستر، وثائق غير منشورة لتاريخ المغرب، سلسلة البلاد الواطئة، 6 : 392 — 416.

والعلاقات تتوتر حتى تؤذن أحيانا بشر مستطير. ومع ذلك لم تلن قناة الأمير عبد الله الدلائي ولم يصادق على الاتفاقية مع هولاندا الا بعد حذف الفصل الرابع وادخال تعديلات أخرى لصالح المسلمين.

2 — علاقات الدلائين بأوروبا

للمغرب علاقات قديمة مع أوروبا يرجع تاريخ توطيدها إلى أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) حينما تردد في أوروبا من أقصاها الى أقصاها صدى الانتصار الباهر الذي أحرز عليه المغرب ضد البرتغال في معركة وادي المخازن عام 1578/986. وأدركت الدول الأوروبية اذ ذاك أهمية القوة الحربية لهذه البلاد، فسارعت إلى إرسال السفراء والهدايا الى بلاط مراكش للتودد إلى الملك السعدي أحمد المنصور الذهبي، وللعمل على كسب صداقته والتحالف معه. وبعد موت المنصور وانقسام السعديين على أنفسهم بتكوين مملكتي فاس ومراكش، وقيام الثوار في كثير من الجهات، رأت الدول الأوروبية أن تسابير الواقع للمحافظة على مصالحها وسلامة رعاياها في المغرب، فأخذت تفاوض ذوي السلطة والنفوذ في كل منطقة مهمها، سواء كانوا من السعديين أو غيرهم. حتى إذا آل أمر وسط المغرب ومماله الى الدلائين مدّ الأوربيون أيديهم وعقدوا معهم الصفقات التجارية، وأمضوا المعاهدات السلمية التي تقوم على التعاون والتحالف، وبعثوا بقناصلهم الى سلا وتطوان.

وقد استفاد الدلائون كثيرا من احتكاكهم بالأوربيين، واستغنوا بالاعشار التي فرضوها على البضائع المصدرة الى أوروبا والمستوردة منها. وازدهرت في أيامهم المبادلات التجارية، فكان المغرب يصدر الى الخارج الجلود والصوف، والشمع، زيادة على القصدير الذي اكتشف منجمه بالقرب من سلا أيام الجهاد العياشي، وأعطى امتياز استغلاله الى تجار فرنسيين. ويجلب المغرب في مقابل ذلك من أوروبا التبغ والأقمشة وبعض المصنوعات الأخرى. وكان الدلائون يتملصون من التعهد بالمحافظة على قيمة الضرائب المفروضة على البضائع في الموانئ، واذا اضطروا الى قبول مثل هذا الشرط تحت إلحاح المفاوضين الأجانب، وأمضوه في الاتفاقيات

والمعاهدات، فانهم لا يلبثون أن يغتتموا أول فرصة سانحة للتحرر من هذا القيد والزيادة في التعريفات الجمركية. ومنذ أن عُيِّن الأمير عبد الله الدلائي حاكماً على مدن سلا (عام 1651/1061) أخذ يتاجر بطريق البحر مع أقطار همال أفريقية، وخاصة الجزائر، ولم تنقطع السفن التجارية صادرة عن سلا أو واردة إليها، وعلى ظهرها حمولات هامة من البضائع المختلفة التي تدرُّ على الدلائيين أرباحاً طائلة. وكانت هذه الحركة التجارية، ومسألة تأمين السفن والتجارة، وتعويضهم عن الخسائر التي تصيبهم عن أعمال القرصنة، محور كثير من المفاوضات مع الأجانب وموضوع مراسلات ومعاهدات. على أن هناك ناحية أخرى أفاد منها الدلائيون في اتصا لهم بأوروبا، وكانت مهمهم أكبر من مسألة المداخل الوفيرة، وهي ناحية التزود بالأسلحة والذخيرة الحربية من بندقيات ومدافع ومسحوق البارود. وكانت البلاد الواطئة (هولاندا) في مقدمة الدول الأوربية التي تمد الدلائيين بهذه المواد الهامة، زيادة على الأدوات والقطع اللازمة لسير معامل صنع السفن وترميمها القائمة على ضفتي نهر أبي رفاق.

وشملت العلاقات بين الدلائيين والأوربيين فيما شملت الناحية الثقافية وإن لم تلمسها إلا لمساً خفيفاً. فقد كان المستشرق (جاكوب كُوليوس) JACOB GOOL « ou GOLIIUS » أستاذ اللغة العربية في جامعة ليدن يستجلب المخطوطات العربية من المغرب، لا سيما المتعلقة منها بالتاريخ، أو بقواعد اللغة العربية. وكانت حكومة البلاد الواطئة تقتني هذه الكتب لحسابها الخاص بواسطة قنصلها في سلا (دافيد دو فريس) « DAVID de VRIES » وسبق لهذا المستشرق في المدة التي قضاها بالمغرب مع القنصل الهولاندي (الير رويل) « ALBERT RUYL » أن اقتنى كثيراً من المخطوطات العربية النادرة وحملها معه إلى بلاده. وعندما زار السفراء السلطانيون مدينة لاهاي (1659/1069) قدمت لهم الحكومة الهولاندية من جملة الهدايا كتباً عن جغرافية البلاد الواطئة، وأرسلت بواسطتهم إلى الأمير عبد الله الدلائي كتاباً ثميناً في نفس الموضوع.

وإذا كانت لبعض الدول الأوربية مطامع توسعية تهدف إليها من وراء تشجيع الثوار والخارجين على السلطة الشرعية في المغرب، فإن مساعدة هولاندا للدلايين كانت لأمرين، أولهما ضمان سلامة أسطولها التجاري في المحيط الاطلنطيقي والبحر المتوسط، والثاني الانتقام من اسبانيا عدوة الهولانديين والمغاربة على السواء. وقد ظلت مسألة اتصال الدلايين بأوروبا مجهولة عند المؤرخين المغاربة الى أن كشف عنها القناع الكونت دو كاستر في كتابه مصادر غير منشورة لتاريخ المغرب «LE CONTE DE CASTRIES. LES SOURCES INEDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC» وقد اعتمدت في هذا الفصل على ما نشره دو كاستر من وثائق وما كتبه من مقدمات وتعليقات مقتضرا على ذكر علاقات الدلايين بثلاث دول أوروية بقدر ما يمكن من الاختصار، وهي فرنسا وإنجلترا والبلاد الواطئة (هولاندا).

أ) الدلايون وفرنسا

كانت العلاقات متوترة بين المغرب وفرنسا في مطلع القرن السابع عشر بسبب أعمال القرصنة البحرية وما ترتب عنها من تدهور في تجارة الفرنسيين بالمغرب وأسر عدد منهم في البحر يبعوا عبيدا في سلا. فرأت الحكومة الفرنسية أن تعين (30 نونبر 1629) أحد تجار مرسيليا المسمى أندري برا ANDRE PRAT قنصلا في مدينتي سلا وتطوان ليهم بمشاكل الفرنسيين بالمغرب ويعمل على افتداء الأسرى. غير أن هذا القنصل لم يلتحق بمقر عمله بسبب خلاف نشب بينه وبين حكومته في قضية التعيين وظل بمرسيليا يتمتع بالحقوق القنصلية ويستخلص الأعشار المفروضة على السفن الصادرة عن ذلك الميناء⁽²⁷⁾. وبعد نحو ست سنوات رأى أندري برا أن يرسل كاسبار دورستان «GASPARD DE RASTIN» لينوب عنه في مهمة القنصلية بسلا. وفعلا قام دورستان بالأمر، واستطاع أن

(27) كانت وظيفة قنصل في ذلك العصر تعبر حقا مكسبا لصاحبه يتصرف فيه كيف يشاء، فله أن يباشر العمل بنفسه أو أن ينيب عنه من يراه أهلا للقيام بالمهمة.

يحصل خلال عم 1639/1049 على اتفاق مع المجاهد العياشي لحماية الفرنسيين من القراصنة السلاويين، واعطائهم حق الامتياز لاستغلال معدن القصدير الذي اكتشف بالقرب من مدينة سلا. إلا أن مشكلة المشاكل بين البلدين في ذلك التاريخ هي قضية الأسرى التي سبق لفرنسا أن اتفقت مع المجاهدين السلاويين على تحريرهم في أجل محدد مقابل فداء خاص. لكن لم تف فرنسا بتعهداتها فاضطربت الأحوال وتوقفت التجارة نهائيا بسبب أعمال العنف المرتكبة من الجانبين، ورأى القنصل أندري برا حيثئذ أنه أصبح من الضروري أن يذهب بنفسه الى المغرب ليدلل الصعوبات القائمة، واصطحب معه ابنه هنري «HENRI» وقد عرف القنصل كيف يستميل اليه السلطان محمد الحاج اللائي بما كان يقدم اليه من هدايا، ونجح في إقناعه بأن من مصلحة السلاويين أن يضربوا صفحا عما لهم قديما مع فرنسا، ليربطوا معها علاقات تجارية جديدة. وبعد مفاوضات طويلة مع رؤساء مدن أبي رقراق العاملين باسم السلطان محمد الحاج اللائي عقد معهم أندري برا اتفاقية لتوطيد العلاقات التجارية بين فرنسا والمغرب، ثم أمضى معهم في السنة التالية اتفاقية ثانية في نفس الموضوع. وبالرغم من كون القنصل برا عقد هاتين الاتفاقيتين بصفة شخصية دون تفويض رسمي من حكومته فانهما استطاعتا على الأقل أن تعمل على تحسين العلاقات بين البلدين ولو الى حين. وأخيراً رجع أندري برا الى بلاده متنازلا لولده هنري عن مهمة القنصلية في المغرب، وأقرت الحكومة الفرنسية ذلك وأصدرت مرسوما مؤرخا في 20 أكتوبر 1648 تعين بمقتضاه هنري برا «HENRI PRAT» قنصلا في سلا وتطوان. غير أن هذا القنصل الشاب كان يتسم بالفتور واللامبالاة، فلم يعمل على تحسين العلاقات بين بلاده والمغرب، وجرى في أيامه أحداث عنف متعددة كان من بينها استيلاء القراصنة السلاويين على سفينة فرنسية قادمة من الأرض الجديدة «TERRE NEUVE» (28)

(28) الأرض الجديدة أو TERRE NEUVE هي جزيرة كبرى في أمريكا، تبلغ مساحتها 110677 كلم وسكانها اليوم 361400. بقيت الأرض الجديدة الى سنة 1949 مستعمرة انجليزية، ثم أصبحت من هذا التاريخ مستقلة تكون الولاية العاشرة من ولايات كندا.

وعلى ظهرها أربعون من النصارى، يبعوا جميعا في سلا بطريق المزد العلني، وأضيفوا الى العدد الوافر من العبيد الفرنسيين الموجودين بهذه المدينة.

بقي هنري برا يتولى منصب قنصل فرنسا في سلا وتطوان الى ما بعد نهاية امانة الدلائين، وسلك نفس الخطة التي سار عليها أبوه من قبل، فرجع الى فرنسا وجعل يرسل نوابا عنه يقومون بأعمال القنصلية، منهم أنطوان جوليان بارازول «ANTOIN JULIEN PARAZOL» وفرانسوا جوليان «FRANCOIS JULIEN» وهكذا ظل مشكل العلاقات المغربية الفرنسية قائما لم تستطع الحلول الجزئية والموقته التي أشرنا الى بعضها أن تعمل على حسمه. وسيكون هذا المشكل موضوع مفاوضات وسفارات بين الملكين مولاي اسماعيل ولويس الرابع عشر.

ب) الدلائين وإنجلترا

تمتنت العلاقات بين المغرب وإنجلترا أيام الملك أحمد المنصور الذهبي والملكة اليزابيث (29) وشهد مستهل القرن السابع عشر تعاوناً مشترا بين البلدين خصوصا في الميدان التجاري. ولما قام العياشي بحركة الجهاد ضد الاسبان والبرتغال حاول أن يستعين بالانجليز لطرد المحتلين من شواطئ المغرب، لكن الانجليز كانوا يطمعون في احتلال مدينتي سبتة وطنجة ويميلون الى الموريسكيين المقيمين في تطوان والرباط أكثر مما يميلون الى المجاهد العياشي. لاعتقادهم أن هؤلاء الموريسكيين الغرباء المطرودين من شبه جزيرة ايبيريا يمكن أن يساعدهم في احتلال سبتة وطنجة لمجرد الانتقام من أعدائهم الاسبانيين والبرتغاليين، بعكس الحال مع المجاهد العياشي الذي كان يعمل لاسترجاع الثغور المحتلة الى حظيرة الوطن. هذا الى ما كان يشاع من تفتح قلوب الموريسكيين للمذهب البروتستاني. وقد جاء في تقرير للسفير الانجليزي هاريسون «..كثير منهم قد اعترفوا لي بأنهم في داخليتهم مسيحيو القلوب، وهم يتظلمون بمرارة من تلك الطردة القاسية. ويعرضون خدماتهم باسم

(29) انظر في موضوع العلاقات بين المنصور الذهبي واليزابيث. عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، مخطوط الخزنة العامة بالرباط ص 247 وما بعدها.

جميعهم اذا كانت هناك أية حالة حرب ضد اسبانيا، مشتاقين جداً الى أن يصبحوا تحت حكم مسيحي مرة أخرى..» (30).

وفي منتصف القرن السابع عشر كانت انجلترا فقدت مكانتها القديمة في المغرب كدولة صديقة بعد أن ظهرت أطماعها الاستعمارية في تصرفاتها الملتوية المتناقضة، واغضبت كلا من حلفائها التقليديين الملوك السعديين بمراكش، والدلائيين أصحاب النفوذ في الثغور الواقعة شمال أم الربيع. يتجلى ذلك في حادثة السفينة الانجليزية التي كانت متجهة الى جزر كاناري وألقت بها العواصف بالقرب من أسفي. فقد اعتقل محمد الشيخ الأصغر السعدي ركاب هذه السفينة الانجليزية، وعددهم 27 رجلاً انتقاماً من حكومتهم التي كانت تسمح لرعاياها التجار ببيع الأسلحة الى الثوار في مرسى أكادير. كما أغار القراصنة السلويون خلال هذه الفترة على كثير من السفن الانجليزية وأغرقوا احداها عندما كانت راجعة من اسبانيا (ديسمبر 1651) وأسروا عدداً وافراً من البحارة الانجليز باعوهم عبيداً في مدينتهم.

وكان من نتائج متابعة حرب القرصنة وعدم وجود معاهدة انجليزية لا مع السعديين ولا مع الدلائيين قطع الصلات بين التجار الانجليز والموانئ المغربية. وأخذت انجلترا تحاول افتداء أسراها في المغرب، وتفرض ضرائب جديدة على الصادرات والواردات لهذا الغرض. وقد كلف مجلس الدولة البريطاني بأمر مؤرخ في 15 ماي 1653 أحد أعضائه (روبير بلاكبورن) «R. BLACKBORNE» أن يعقد اتفاقاً مع التاجر (روبير داون) و «R. DOWNE» لشراء الأسرى الانجليز من سلا، وقام هذا التاجر بالمهمة التي أنيطت به، وكتب من مدينة سلا الى (بلاكبورن) بعد نحو أربعة أشهر يخبره بأنه تمكن من شراء 22 أسيراً انجليزياً، وبقي تسعة آخرون، منهم سبعة في ملك الأمير عبد الله الدلائي الذي رفض فداءهم بأي ثمن. ولما استعادت انجلترا قوتها الحربية في البحر، عملت على أن تفرض احترامها على

(30) من تقرير للسفير هاريسون الانجليزي في 8 أكتوبر 1630، المترجم في تاريخ تطوان القسم الثاني من المجلد الأول، ص 226.

البحارة المسلمين في بلاد المغرب، وقد حطم أمير البحر الانجليزي (بلاك) «L'AMIRAL BLAKC» خلال سنة 1655 الأسطول التونسي، وأمضى لصالحه معاهدة مع الجزائر، وكان ينوي أن يفرغ بذلك لقرصنة سلا لولا أنه اضطر إلى العودة إلى إنجلترا حينما أعلنت الحرب على اسبانيا في شهر فبراير 1656. ثم رجع (بلاك) بعد بضعة أشهر إلى سلا على رأس أكثر قطع أسطوله، ومعه مساعده (ادوارد مونتاجي) «EDWARD MONTAGU»⁽³¹⁾ وطلب (بلاك) بمجرد وصوله إلى المرفأ من الأمير عبد الله الدلائي أن يعين له مفوضين يتخابرون معه في تهيئة اتفاقية وفي انتظار حضور هؤلاء المفوضين وصلت سفينتان سلويتان، وقبل دخولهما إلى المرفأ ارتطمتا بالصخور للنجاة من السفن الانجليزية.

وبالرغم من استعداد المفوضين السلوايين لعقد الاتفاقية، فانهم أبوا أن يطلقوا سراح الأسرى الانجليز دون مقابل. وقد قبل الأمير (بلاك) أن يعرض مالكي العيد الانجليز بهدايا من البضائع، دون أن يؤدي لهم الفداء الذي يرى فيه إهانة لبلاده، وبعد نصف شهر من الاتصالات قطعت المفاوضات بسبب رفض الأمير عبد الله الدلائي أن يسلم طفلين انجليزيين ولدا في سلا، ورجع الأسطول الانجليزي من حيث أتى تاركا ثلاث قطع حربية لتابعة حصار العلوتين.

وشهدت السنة التالية 1657 تطورا مرضيا للعلاقات المغربية الانجليزية بسبب السياسة الجديدة التي أخذ ينفجها (كرومويل) في البحر المتوسط، فسُمي (نثانييل لوك) «NATHANIEL LUKE» قنصلا في الثغور المغربية يقيم في تطوان. وهو تاجر انجليزي قضى شطرا مهما من حياته في الاتجار بهذه المدينة. وأطلق السلوايون سراح الأسرى الانجليز، ثم عقد اللورد الحامي (كرومويل) معاهدة سلم وصداقة مع السلطان محمد الحاج في 19 غشت 1657، تلخص كما يلي

(31) (ادوارد مونتاجي) (1625 — 1672) عينه (كرومويل) مساعدا للأمير البحر (بلاك) في قيادة قسم الأسطول الموجه ضد اسبانيا سنة 1656. بالرغم من كونه لم يكن قد عمل قط في البحرية.

- (1) يلتزم الطرفان المتعاقدان بتناسي المظالم القديمة، والعيش في السلم استقبالا. ويمكن لرعاياهما أن يختلفوا الى موانئ القطرين، دون أن يؤدوا من الأعشار الا ما يلزم للسلعة المبيعة في تلك الموانئ.
- (2) يسمح للرعايا الانجليز بمزولة طقوسهم الدينية في البلاد الخاضعة لنفوذ شيخ الدلاء.
- (3) يحظر أسر سفن الجانبين.
- (4) اذا غرقت سفينة يبقى الناجون ممن كانوا على ظهرها أحرارا، وتسلم الأمتعة التي يمكن انقاذها الى أصحابها.
- (5) لا يمكن في المستقبل أن يكون رعايا الدولتين أسرى عند أحد الجانبين وستعطى الحرية للانجليز المقيمين في تطوان أو غيرها من البلاد التابعة لشيخ الدلاء ليغادروا هذه المنطقة مع ذوبهم متى شاءوا.
- (6) يعاقب عن كل قذف أو إهانة تلحق رعايا الطرفين.
- (7) يمكن للسفن الحربية لكلتا الدولتين أن تأخذ المؤنة والزاد من مرافئ البلدين.
- (8) لا يمكن لأية حادثة أن تتسبب في نقض السلم. اللهم إلا في حالة رفض اجراء العدالة. ويمكن للطرفين باتفاق منهما أن يغيرا أو يتما هذه الفصول. وقد وقع هذه الاتفاقية من الجانب المغربي زيادة على محمد الحاج الدلائي، الغزوان (كذا) بن بوبكر، وعبد الكرم النقسييس حاكم تطوان، وأحد العلول(32). وبذلك ساد السلم من جديد وتوطدت عرى الصداقة بين الدلايين والانجليز.

(32) De Castier **Les Sources Inédites**, Angleterre, 3 : 588

ج) اللائيون والبلاد الواطئة (هولاندا)

كانت البلاد الواطئة «PAYS-BAS» تشتمل على هولاندا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ الحالية، مع جزء من شمال فرنسا. وتخلصت البلاد الواطئة من الاستعمار الاسباني والمذهب الكاثوليكي سنة 1581 فكونت حكومة فيدرالية مركبة من سبع دويلات، تحتفظ كل منها باستقلالها الداخلي، تحت اسم جمهورية الأقاليم المتحدة السبعة REPUBLIQUE DES SEPT PROVINCES UNIES وتكون من ممثلي الأقاليم مجلس يحمل اسم (الولايات العامة) LES ETATS GENERAUX فكان المؤسسة الوحيدة القائمة بالمهام السياسية للحكومة الفيدرالية. ولم يمض وقت قصير حتى صار أسطول البلاد الواطئة سيد البحار، وكانت السفن الهولاندية⁽³³⁾ — كسفن سائر الدول المعادية لاسبانيا — لا تستطيع أن تعبر مضيق جبل طارق دون أن تتعرض لخطر مزدوج، فهي ان اقتربت من الساحل المغربي أسرت، وان جنحت الى الساحل الآخر حطمها الاسبان وأخلوا بخازنها للتجديف في سفنهم الكبيرة.

وتعتبر جمهورية الأقاليم المتحدة من الدول الأوربية السابقة الى التحالف مع المغرب أيام أحمد المنصور الذهبي. وكانت هناك عوامل متعددة ساعدت على التقارب بين المغرب وهذه الأقاليم، منها حقدتها المشترك على اسبانيا، واقامة جالية من اليهود المطرودين من الأندلس في البلاد الواطئة نظرا لما اشتهرت به من التسامح الديني. فكون أفراد هذه الجالية اليهود الثرية علاقات تجارية مع إخوانهم المقيمين في المغرب والجزائر، وربطوا معهم صلات متينة، فكانت السفن لذلك تتردد بين الموانئ المغربية والهولاندية بدون انقطاع. واحتفظت البلاد الواطئة بصداقتها بعد موت المنصور مع ابنه زيدان. لكن لما استبد أبو حسون بسوس والجنوب المغربي، واستقل العياشي ببلاد الغرب ومدن أبي رقرق، وجدت البلاد الواطئة نفسها مضطرة للتفاهم مع هذين الحاكمين للمحافظة على مصالحها في هذه الأقاليم.

(33) يعبر أحيانا عن الأقاليم السبعة باسم أهم اقليم فيها وهو هولاندا.

ونظرا لقيام جمهوريات صغيرة في مدن سلا والرباط والقصبة (1040-1071 / 1630-1660) تحت نظر العياشي ثم اللاتيين، كانت الولايات العامة ترأسل رؤساء هذه المدن وتتفاوض معهم بصفتهم المباشرين للسلطة في هذه الثغور، وسمت خلال عام 1643/1053 «هندريك دوير» «HENDRICK DOPPER» (34) قنصلا ممتازا للبلاد الواطئة في المغرب، فكان يتردد بين مراكش وسلا، ويتصل بالملك السعدي ورؤساء العلوتين على السواء.

ولما استحکم أمر اللاتيين وقوي نفوذهم في الأقاليم التابعة لهم، لم يعد رؤساء مدن سلا يبيحون لأنفسهم الاتصال المباشر مع رؤساء الدول الأجنبية. وقد رد سعيد الجنوي النائب العام عن اللاتيين في هذه المدن ردا سلبيا على رسالة وجهتها الولايات العامة — كالعادة — الى حكام سلا، في موضوع الصلح والمهادنة، وأشعر حكومة البلاد الواطئة بضرورة مخاطبة السلطان محمد الحاج اللاتني الذي يرجع اليه وحده أمر الحرب والسلام. ومما جاء في الرسالة «.. والصلح نعم السبيل لمن سلكها، والطريق لمن اقتفى ستها، وثبوت الصلح على هذه المثابة، من الأمور التي فيها الغرابة، قل أن يم فيها المرام (35) أو يتهي بيننا وبينكم الكلام. كيف وقد ترككم في الخطاب من تولى أمرنا، ومن طاعته أوكد الفروض علينا، مولانا عز الاسلام وجاير، ومغيثه حيث عز ناصر، الامام الذي تضاءلت الاغوار والانجاد لصولته، واستكانت الآفاق لهيبته ووطئته، واستنار الاسلام بظهوره، وحمدت نيران الكفر باضواء نوره، المقدام الذي حمل على كاهله راية المسلمين، وساد الأولياء والعلماء والمجاهدين، صاحب الأمر المطاع أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أبي بكر نور الله، ورزق كلا من المسلمين رضاه. ولا غرو إن كان الصلح مطلوبكم فأتوه من أبوابه، وتوصلوا اليه بأسبابه، واعرفوا لكل

(34) هندريك دوير بورجوازي من سكان امستردام، بقي يشغل منصب قنصل البلاد الواطئة في المغرب الى أن توفي سنة 1651.

(35) وقع تحريف في عبارة «قل أن يم فيه المرام» في كتاب دو كاستر باستبدال نون «ان» راء فصارت عنده «قل اريه...».

ذي فضل فضله، وخاطبوا كل رئيس بما يناسب قدره.»⁽³⁶⁾ وقد أجابت الولايات العامة عن هذه الرسالة بكتاب تستبشر فيه بالاستعدادات الطبية التي عبر عنها حكام مدن سلا، وتعتذر عن عدم الكتابة من قبل الى السلطان محمد الحاج. وأرسلت في نفس الوقت رسالة أخرى الى أمير الدلاء، حملها اليه القنصل الهولاندي في المغرب (هندريك دوير) HENDRICK DOPPER وفيها تقدم الولايات العامة الى محمد الحاج لأول مرة هذا القنصل الذي ندبته ليؤكد للأمير ما تكنه له من ود وتقدير، وترجوه أن يطلق سراح الأسرى الهولانديين في سلا، ويضمن الحرية والأمن لرعاياها من التجار، وأن يتفضل باستقبال القنصل الهولاندي كلما رغب في المثل بين يديه.

ظلت العلاقات عادية بين الدلائيين والهولانديين باستثناء بعض الاحداث العابرة الناتجة عن أعمال القرصنة البحرية. وكانت المحادثات مستمرة بين الفريقين لعقد معاهدة سلم وصداقة. وفي أوائل عام 1061 / 1651 قبيل مجيء الأمير عبد الله الدلائي الى سلا أرسلت الولايات العامة مفوضين عنها برئاسة الضابط البحري (جيدون دو ويلدت) «GEDEON DE WILDT» على رأس أسطول، وندب حكام مدن سلا من طرفهم الحاج ابراهيم معنين والحاج محمد فنيش ليفاوضا باسمهم وأعطوها حق التصرف المطلق في التعاقد مع ضباط أسطول البلاد الواطئة. وبعد محادثات طويلة وقع الطرفان في 17 صفر 1061 / 9 فبراير 1651 معاهدة تشتمل على تسعة فصول. مجملها ان يطلق سراح الاسرى الهولانديين مقابل أداء ثمن الشراء لمالكهم في ظرف ثلاثة أشهر، وألا تتسلح أية سفينة سلاوية للقرصنة في البحر ما لم تقدم ضامنا يتكفل بتعويض الخسائر التي قد تلحقها برعايا البلاد الواطئة، وانه سيخلي سبيل الهولانديين الذين قد يوجدون على ظهر سفن محايدة، والا يسمح لقرصنة الجزائر وتونس وطرابلس أن يبيعوا في سلا ما يستولون عليه من أسرى الهولانديين وبضائعهم، وألا يزداد في واجبات الجمرك الحالية، وان يحمي السلاويون التجار رعايا البلاد الواطئة، وألا يسمحوا للأتراك وغيرهم بحمل رسائل

(36) أنظر صورة هذه الرسالة، وبطرتها توقيعات رؤساء سلا والرباط والقصة في اللوحة رقم 13.

امتياز في سلا، وفي مقابل ذلك لن يعترض الاسطول الهولاندي طريق السفن السلاوية، كما ان السلاويين لن يأسروا الاجانب الراكين على ظهر السفن الهولاندية.

وفي أواخر هذه السنة (1061/ 1651) عين الامير عبد الله الدلائي حاكما على مدن سلا. ولما اطلع على نص المعاهدة السابقة لم تعجبه في مجملها، وأنكر منها بالخصوص الفصل الرابع الذي يحرم على المغاربة أن يتعاملوا بالبيع والشراء مع اخوانهم الجزائريين والتونسيين والطرابلسيين، ارضاء ومؤازرة لحلفاء مسيحيين، ورفض امضاء هذه المعاهدة. وفي ذلك التاريخ أرسلت الولايات العامة قنصلا جديدا الى سلا هو (دافيد دوفريس) DAVID DE VRIES⁽³⁷⁾ الذي استقبل استقبالاً حسناً من طرف قائدي سلا والرباط أولاً، ثم حظي بمقابلة الامير عبد الله الدلائي في القصة. وكتب الامير سعيد الجنوي على اثر ذلك الى الولايات العامة يخبرها بوصول قنصلها الجديد، ومصادقة الامير عبد الله الدلائي على معاهدة 9 فبراير 1651 باستثناء الفصل الرابع منها لمخالفته تعاليم الديانة الاسلامية.

وأرسل الامير عبد الله الدلائي بدوره كتابا الى الولايات العامة ردا على الرسالة التي وافته منها جاء فيه «... أما بعد حمد الله الذي لا إله هو فانه ورد علينا كتابكم الوسيم، وقفنا على شروط الرسم وفصوله⁽³⁸⁾ وتأملنا منتخب مسائله وأصوله. فليكن في علمكم انا قبلنا ما فيه واستحسنناه، وسطرنا حقيقة مقتضاه وأثبتناه، وأعملنا بشرطه، وما في قبضه وبسطه، وأبرمنا عقده، وأنجزنا وعده وعهده، وأعلمنا بذلك لأهل بلدنا، ولأصحاب السفن من قرصاننا، وقبلنا أموره الخاصة والعامة قبولاً تاماً، لكن عندنا ما نذكر في بعض الشروط، وسياتيكم مسطراً مع آخر صحبة هذا المکتوب⁽³⁹⁾ واما خديعكم القنص (كذا) دايد دبريس فإننا قد

(37) سبق لدافيد دوفريس أن شغل منصب قنصل الولايات العامة في بلاد أخرى قبل أن يعين قنصلا في سلا سنة 1651. وظل يباشر عمله في هذه المدينة الى أن توفي سنة 1662

(38) يشير الى معاهدة 9 فبراير 1651

(39) الاشارة الى الاقتراحات للمضادة التي بعث بها الامير الدلائي الى الهولانديين.

أنزلناه منزلة العز والكرامة، وفرحنا بقلومه، اذ لنا معرفة سالفة معه وخلطة
قديمة...»(40)

وبعث الأمير عبد الله اللائي صحبة الكتاب المتقدم اقتراحات مضادة
لتعديل معاهدة 9 فبراير 1651⁽⁴¹⁾ وتشتمل على أربعة فصول يختص أولهما
بنقض الشرط الرابع من المعاهدة وإبطاله، وتعلق الثلاثة الأخرى بتحفظات في
بعض الحالات الاستثنائية التي ينتقض فيها العهد وتصبح سفن الهولنديين وخازمهم
وبضائعهم غنيمة للمسلمين. ولما لم يتلق الأمير عبد الله جواب الولايات العامة عن
اقتراحاته بعد نحو ثلاثة أشهر رأى أن يتخذ إجراء يفهم منه عدم تقيده بالمعاهدة
ما دامت على حالها لم تغير، فزاد في الضريبة المفروضة على الصادرات والواردات،
ولم يجد نفعا احتجاجات قناصل الدول المقيمين في سلا، وفي مقدمتهم (دو
فريس) الذي كتب الى الولايات العامة يخبرها بالضرائب الجديدة والمحاولات التي
قام بها في هذا الصدد، مقترحا في الأخير على حكومته أن تكتب الى الأمير عبد
الله وإلى أبيه السلطان محمد الحاج «الذي لا يرغب في ازعاج التجار ولا في
القضاء على التجارة، ولن يلبث أن يبطل هذه الضرائب الجديدة»⁽⁴²⁾ ثم حدث
حادث قرصني جديد زاد في توتر العلاقات بين سلا والبلاد الواطئة. ذلك ان
الاسطول الهولاندي بقيادة الضابط (كورنللي طرومب) CONTRE AMIRAL
CORNELIS TROMP⁽⁴³⁾ استولى على سفينة تجارية سلوية كانت قادمة من الجزائر
بشحنة مهمة في ملك أمير المدينة وحاكمها وغيرها من الأعيان. وتسمى الوثائق
الهولاندية هذه السفينة DE HASEWINDT OU WINDTHONDT والاسمان معا يدلان
على السلوقي. وكانت ملاقة الاسطول الهولاندي لهذه السفينة قبيل غروب
الشمس، فاعترض طريقها بشكل جعلها لا تتجاوز حدود المعمورة، وفي الصباح بدأ

40) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 5 296

41) أنظر صورة هذه الاقتراحات المضادة في اللوحة رقم 14

42) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 5 316

43) كانت هناك فرقان من الاسطول الهولاندي تعملان بالقرب من شواطئ المغرب. أولاهما بقيادة
الضابط (ديرويتز) DE RUYTER تخفر السفن التجارية الهولاندية المتجهة نحو البحر المتوسط
والثانية بقيادة الضابط (كورنللي طرومب) CORNELIS TROMP وهي مكلفة بحماية السفن
التجارية الهولاندية المتجهة نحو موانئ المحيط الاطلنطيقي.

(طرومب) يوجه اليها طلقات مدافعه الى أن استولى عليها واقتادها الى ميناء قادس. وقد أحدث خبر هذه القرصنة التي وقعت على بضعة أميال من سلا أثرا سيئا في نفوس سكان المدينة، وفرضت حراسة قوية على منزل القنصل (دوفريس) حتى لا يلتجئ الى المعمورة أو يفر في البحر. ووقع حجز السفينة الهولندية (دوتيجر) DE TYGER مع بحارتها بأمر من الامير عبد الله الدلائي. وكتب القنصل الى حكومته (20 يوليوز 1654) يخبرها بهياج السلاويين وغضبهم لأسر سفيتهم التجارية، وبالحالة الخطيرة التي أصبح يعيش فيها هو ومواطنوه الهولنديون.

حضر قائد الاسطول (طرومب) الى مرفأ سلا استجابة لدعوة القنصل وأرسل الى الامير عبد الله خطابا يبرر فيه الاستيلاء على السفينة التجارية السلوية ويدعوه — ان لم يقتنع — أن يوجه احتجاجا الى الولايات العامة في (لاهاي) فأجاب الامير عبد الله انه اذا كان (طرومب) لم يستول على السفينة السلوية بأمر من حكومته، فلا حاجة له في اذنها ليرد المركب الى صاحبه. لكن (طرومب) لم ينتظر هذا الجواب ورجع من حيث أتى. فأمر عبد الله الدلائي بأن يسجن الضباط والتجار الهولنديون الموجودون بسلا في مطمورة. وجاءت الاخبار بعد ذلك الى سلا بأن (طرومب) قد باع السفينة السلوية وكل ما كانت تحتوي عليه من البضائع في ميناء قادس. فاشتد الحنق على الهولنديين، وكتب القنصل (دوفريس) الى القيادة العليا للاسطول في أمستردام L'AMIRAUTE D'AMSTERDAM⁽⁴⁴⁾ يطلعها على الحالة، ويرجو فيما اذا كان الاستيلاء على السفينة السلوية بطريقة غير مشروعة، ان تقدم الولايات العامة تعويضا مناسباً للسلاويين. وفعلا توصل القنصل من حكومته برسالة وقرار في الموضوع باسم حاكم سلا. فغير الحاكم العنوان، وقرأ الرسالة على عبد الله الدلائي كما لو كانت موجهة اليه. فرضي الامير بالوعود التي وردت فيها وأفرج عن الهولنديين المعتقلين.

(44) امستردام AMSTERDAM هي العاصمة الحالية لهولندا. كانت مقر القيادة العليا لاسطول الاقاليم المتحدة، بينما كانت (لاهاي) مقر الولايات العامة.

لم تكن مسألة السفينة المأسورة بالقرب من المعمورة هي الحادثة القرصنية الوحيدة التي شهدتها سنة 1654، بل جرت فيها حوادث آخر مماثلة، فقد أسر الضابط الهولاندي (فيليب راس) « PHILIP RAS » مركب ابراهيم الرايس السلوي، وعلى ظهره 44 من المغاربة، و 3 من أسرى النصارى، فأحرق المركب واحتفظ بابراهيم الرايس، وعزم على بيع البحارة لولا أن تعرض القنصل الهولاندي في قانس ضد هذا البيع حتى تثبت شرعية أسر السفينة. واستولى الضابط الهولاندي (طونيس بوسط) « LE CAPITAINE THENNIS POST » على سفينة سلوية كبيرة من نوع (كرافيل) CARAVELLE⁽⁴⁵⁾ ذات خمس سوار، وخمسة مدافع كبيرة، ومدفعين صغيرين، بقيادة الرئيس الحاج فاضل. وكان على ظهرها مائة من المغاربة، وثمانية من أسرى النصارى. واقتيدت هذه السفينة الى ميناء قانس، وبعد التأكد من وجود الجواز القانوني من طرف حاكم سلا وقنصل الولايات العامة بهذه المدينة وقع تحرير الأسرى المسيحيين، وتخلي سبيل السفينة وركابها المسلمين.

هذا النشاط الهولاندي الغير المعتاد في أعمال القرصنة ضد سفن سلا، كان يستهدف ولا شك الضغط على الامير عبد الله الدلائي، واشعاره بضرورة مهادنة الولايات العامة والتحالف معها. وقد رأت الولايات العامة أن تجس نبض الامير عبد الله الدلائي فعزلت قائد الاسطول الهولاندي بالحيط الاطلنطيقي الضابط طرومب الذي خلق لها صعوبات مع السلويين مستعيضة عنه بقائد أسطول البحر المتوسط. وفعلاً وصل (دورويتر) « DE RUYTER » الى مرقاً سلا (أكتوبر 1654) ووجه رسالة الى الامير عبد الله الدلائي يخبره بأنه جاء عندما علم بالصعوبات التي أحدثتها استيلاء الضابط (طرومب) على السفينة التجارية السلوية، ليؤكد للامير أنه اذا كانت هذه السفينة قد أخذت في الظروف التي يشتكى منها، فان ذلك يكون على غير رغبة الولايات العامة. ويأسف لكون

(45) (كرافيل) CARAVELLE نوع من السفن الكبيرة ذات الشهرة العظيمة منذ القرن الخامس عشر. وبهذا النوع من السفن خاض البرتغاليون غمار رحلاتهم الاستكشافية. وقام كريستوف (كولومبوس) بسفرتة الأولى في ثلاثة سفن من هذا النوع. وكانت (كرافيل) من أسرع السفن وأحسنها قيادة، تسع من 50 الى 90 بحارا زيادة على الركاب.

التعليمات الموجهة اليه تمنعه من مغادرة سفينته. ولولا ذلك لكانت مقابلة واحدة مع الامير كافية لتطمينه وترضيته، وإعادة توطيد أواصر الصداقة معه. وجاء رد الامير عبد الله الدلائي على هذه الرسالة بعد يومين يعتذر عن تأخر الجواب وعدم خروج المبعوثين اللذين عينهما — مع القنصل — للترحيب بمقدم الضابط (دورويتز) نظرا لرداءة أحوال المرفأ. وبعد أن بين له الاجراءات التي اتخذت منذ الاسيلاء على سفينة السلاويين، ومنها حجز السفينة الهولاندية « TYGER » تأخر وصول أسطول الولايات العامة الى سلا عدة شهور، وبقيت السفن الهولاندية محجوزة في المرفأ، وضباطها وبحارتها في اقامة محروسة بسلا. وكتب الامير عبد الله الدلائي الى الولايات العامة (15 يونيه 1655) يستحثها على ارسال منلويها ويستتجزها ما وعدت به من التفاوض لحسم الخلافات وانصاف الرعايا الذين سلبت أموالهم وأمتعتهم⁽⁴⁶⁾، وأخيراً تلقى أمير سلا رسالة من قائد الاسطول ديرويتز بعث بها من قادس يعتذر عن تأخر وصوله بسبب تسليح بلاد السويد الذي أرعب الدول المسيحية وخاصة البلاد الواطئة، ويقول انه مكلف من قبل الولايات العامة بتسوية الخلافات السابقة وتوطيد عرى الود والتحالف بين الدولتين، ويرجو أن تأتي المفاوضات المقبلة بنتائج حاسمة، ويأمل — في انتظار ذلك — أن يمنح الامير عبد الله الدلائي المعتقلين المسيحيين قسطاً أوفر من الحرية.

ولما وصل أسطول القائد دو رويتز الى مرفأ سلا طلب من الامير الدلائي أن يبعث اليه بالمفاوضين السلاويين، ومعهم القنصل. فبعث اليه الامير بنسخة مترجمة من مطالب السلويين الذين لحقت بهم أضرار من جراء استيلاء الهولانديين على سفينة أحمد الرايس واعتذر عن عدم السماح للقنصل دوفريس بالتوجه الى الاسطول، لامتناع الديوان من الاذن له بذلك، ووعد بأنه سيعمل للحصول على هذا الاذن فيما بعد. ثم خرجت من مرفأ سلا سفينة صغيرة تحمل أطعمة وأشربة

46 انظر صورة هذه الرسالة وبها توقيع الامير عبد الله الدلائي عند

قدمها الامير اللاني الى دو رويتر وصحبه، فردّ هذا الاخير على ذلك بهدية تشتمل على أربعة قناطير من مسحوق البارود. وهكذا ابتدأت المفاوضات في جو تسوده المجاملة والمهاداة، ووقع الاتفاق على الطريقة التي ستتبع في دراسة الحسابات ومراجعة مطالب المتضررين من الطرفين. وأرسل دو رويتر الى اليابسة نائب الخزينة ديفيانان DE VYANEN والترجمان بنجامن كوهن BENJAMIN KOHEN ليكونا مع القنصل دوفريس الوفد المفاوض باسم الولايات العامة. وكان الوفد السلوي يتألف من عبد الله القصري القائم مقام سعيد الجنوي وابراهيم الدك، وعلى القرطي من أعيان العلوتين. وقد اعترضت المفاوضات صعوبات منذ البداية. اذ لم يقبل السلاويون لوائح تقدير الخسائر المقدمة من طرف أصحاب المراكب الهولندية، ورأوا فيها مغالاة كثيرة وتشبثوا برأيهم في عدم مشروعية أسر السفينة التجارية السلوية في حين رفض الهولنديون بعض الحجج المقدمة من قبل الشاكين السلويين وأبوا أن يقبلوا غير العقود العدلية. وعقد وفد الولايات العامة جلسات عمل مع الامير عبد الله اللاني نفسه مدة يومين لتذليل الصعوبات. وبعد مخاضات طويلة وتنازل الهولنديين عن السفينة ويث فالك WITTE WALCK كتعويض للسلاويين عن سفينتهم الضائعة تم في 22 أكتوبر 1655 التوقيع على اتفاقية مختصرة تشتمل على سبعة فصول. يتضمن الفصل الاول منها أن يطلق الامير عبد الله اللاني سراح دافيد دوفريس القنصل العام للولايات العامة في الثغور المغربية وأن يعيد اليه حريته، وتشتمل الفصول الأخرى على اطلاق سراح أسرى الجانبين، واسترجاع كل منهما السفن التي وقع الاستيلاء عليها وتعويض الخسائر التي لحقت بكلا الجانبين وقد وقع هذه الاتفاقية مبدئيا ابراهيم الدك وعلى القرطي، عن السلويين، ودو فريس « DE VRIES » و دو فيانان « DE VYANEN » عن الهولنديين، ثم صادق عليها الامير عبد الله اللاني وأشعر الاسطول الهولندي المراتب في عرض البحر بذلك بخمس طلقات من مدافع القصة ووقع دو رويتر من جانبه النسخة الاصلية للاتفاقية على ظهر سفينته قبل أن يتجه الى قادس(47).

وقد أعد الوفدان المتفاوضان في نفس الوقت مشروع معاهدة سلم وصداقة بين السلويين والولايات العامة تشتمل على 27 بنداً قدماه الى الامير عبد الله الدلائي وأرسله دو رويتر الى حكومته بقصد الدراسة وابداء الرأي. غير أن الامير الدلائي أمر بقطع المفاوضات على اثر سفر قائد الاسطول دورويتر الذي كان له التفويض الرسمي من الولايات العامة، بالرغم مما أبداه هذا الاخير من رغبة ملحّة في أن تتابع المفاوضات في غيبته بواسطة القنصل ومن معه.

وأرسلت الولايات العامة الى قنصلها بسلا في 23 ماي 1656 تعليمات تحتوي على عشر نقاط، ليتخذها أساساً في مفاوضاته المقبلة من أجل إبرام معاهدة سلم مع الامير الدلائي. وتهدف هذه التعليمات الى أن يستأنف القنصل دو فريس المفاوضات من جديد مع السلويين، مبتدئاً من النقطة التي توقفت عندها المفاوضات الاخيرة، ويعمل بمقتضى التفويض الذي خولته اياه الولايات العامة في هذا الصدد، مستوحياً من الاتفاقية المبرمة بين الفريقين في 9 فبراير 1651 باستثناء التغييرات المنصوص عليها في هذه التعليمات. وخصصت النقطة السادسة في التعليمات للكلام عن الفصل الرابع من معاهدة 9 فبراير الذي كان السبب في معارضة الامير عبد الله الدلائي لهذه المعاهدة وبقيائها معلقة منذ نحو 6 سنوات. وقد أوصت لولايات العامة القنصل بأن يعمل ما في وسعه للاحتفاظ بهذا الفصل على حاله، فان لم يستطع تنازل درجات معينة، فان لم يستطع الحصول على شيء شرط فقط الا يرسل أسارى قراصنة الجزائر من رعايا البلاد الواطئة الى مكان آخر غير سلا ليسلموا الى القنصل مقابل فداء معين بحسب رتب الأسرى(48).

كان الضابط دو ويلدت «DE WILDT» تلقى أمراً من القيادة العليا للأسطول بأمستردام بالتوجه الى سلا على رأس سفن حربية كبرى لمساندة المفاوضات الجارية هناك، لكن قبل أن يصل الأسطول الهولندي الى سلا توصل القنصل دو فريس مع المفاوضين السلويين بعد محادثات طويلة الى الاتفاق على

48) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 6 : 271

مشروع معاهدة سلم وصداقة يتألف من اثني عشر فصلا، وقعه جميع المتفاوضين من الطرفين في 22 مارس 1657 (49) ووجه القنصل الهولندي نص المشروع إلى حكومته للمصادقة عليه. ولما وصل دو ويلدت وجد كل شيء تم بسلام، فكتب إلى الأمير عبد الله الدلائي يشكره على حسن تصرفه، ويعرض عليه استعداده للخدمة، ورجع بعد أسبوع إلى قادس مرتاح البال.

مكث مشروع المعاهدة في البلاد الواطئة أزيد من سنة، إذ لم تصادق عليه الدول العامة إلا في 25 ماي 1658 ولم يتوصل عبد الله الدلائي بالنسخة الأصلية ليوقعها إلا في شهر غشت من نفس السنة. ووقعت في هذه الفترة أحداث كثيرة كادت تعصف من جديد بالعلاقات بين سلا ولاهاي، ومن أخطرها اعتداء القبطان الهولندي براكل BRAKL التابع لأسطوب دورويتر يوم فاتح شتنبر 1657 على سفينة سلوية كانت قادمة من الجزائر بحمولة تجارية مهمة بقيادة الرئيس علي مرشيك، فهاجمها براكل بالقرب من مرسى تطوان، واستولى عليها بعد أن فر الرئيس مرشيك ومن معه من التجار. وقد حرر السلويين لائحة بما ضاع لهم في هذه السفينة، وختم الأمير الدلائي هذه اللائحة بطابعه قبل أن يوجهها إلى الولايات العامة في ربيع الثاني 1658/1068 (50).

ولما طال انتظار عبد الله الدلائي ولم يستلم جواب الولايات العامة على هذه المطالب، ولا المصادقة على المعاهدة، رأى أن يلجأ إلى العنف، فأغلق مخرج النهر على المراكب طيلة شهر كامل وأخطر القنصل دو فريس بأنه سينتصف بنفسه لرعاياه، ويرد عليهم ما ضاع لهم بعد أن يأخذه من الهولنديين المقيمين في سلا. وكتب القنصل إلى حكومته بجملة الأمر، طالبا منها أن تعجل بالمصادقة على المعاهدة، ويتعويض الخسائر التي ألحقت بالسلويين. وبناء على ذلك اتخذت الولايات العامة في 25 ماي 1658 قرارا يقتضي تكليف ضابط بحري بالتوجه على

49) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 6 323

رأس فرقة من الأسطول الى مرفأ سلا لتبادل وثائق المعاهدة المصادق عليها مع الأمير عبد الله الدلائي، وللعمل معه على تسوية المشاكل القائمة لا سيما ما يتعلق منها بسفينة الرئيس علي مرشيك، وإطلاعه على أن الضابط دورويتر لم يعثر في السفينة السلوية المأخوذة في خليج تطوان لا على النقود ولا على البضائع المثبتة في اللائحة، وأنه سار في هذه الحادثة على مقتضى المعاهدة، فحرر أحد سكان سلا الذي عثر عليه في السفينة المأسورة. أما المغربي الأعمى (51) الذي كان كذلك على ظهر السفينة فسيقدم اقتراح بتعويضه ان لم يعثر عليه. ولا تقبل الدول العامة بحال أن يعرض الأمير بنفسه رعاياه على حساب أشخاص وأموال رعايا البلاد الواطئة. وكان الضابط الذي كلف بمهمة الاتصال بالأمير عبد الله الدلائي هو دو رويتر، الا انه فضل أن ينيب عنه الضابط دو ويلدت «DE WILDT» الذي وصل الى مرفأ سلا في 27 يوليوز 1658 على رأس فرقة من الأسطول الحربي. وكتب دو ويلدت بمجرد وصوله الى أمير سلا ينبئه بأنه يحمل مصادقة الولايات العامة على المعاهدة، ويطلب أن يحضر الى سفينته مفوضون سلويون لتبادل الوثائق. وأسرع الأمير عبد الله الدلائي كعادته بتقديم القرى إلى ضيفه، وكان من جملة ما حملته السفينة الصغيرة الى الأسطول الهولاندي المرباط خارج المرفأ أربعون من الغنم. فرد الضابط الهولاندي دو ويلدت على ذلك برسالة شكر وامتنان معتذرا بأنه لا توجد عنده أشياء ثمينة يمكن أن يبعث بها الى الأمير الكريم، لكنه لما كان يعلم أن الأمير جندي كبير مولع بالأسلحة الجيدة فإنه يقدم اليه هدية متواضعة تشتمل على ستة براميل صغيرة من مسحوق البارود الخاص بالمدافع وبندقية جيدة طويلة. وبعد ذلك خرج القنصل دو فريس صحبة الترجمان كوهن للسلام على الضابط والترحيب به، والخبرة معه في المسائل المعلقة وبخاصة قضية سفينة الرئيس علي مرشيك لمعرفة موقف الولايات العامة منها، وأجاب (دوويلدت) بأن حكومته لم

(51) لا ندري من أين عرف الهولنديون أن هذا المغربي الذي لم يعثر عليه كان أعمى وفي رواية أخرى لهم انه كان أسود. والذي ورد في نص لائحة السلويين الرسمية هو «مملوك الحاج ابراهيم الخياط خديم المقام العلمي يع خيل الطر — يعني جبل طارق — ولهذا المملوك علاقة بقضية اختلاق تنصر أمير دلائي على ما سيأتي في الفصل التالي.

تعمر في السفينة الماسورة بالقرب من تطوان على الأموال والسلع التي ورد ذكرها في اللائحة التي بعث بها الأمير الدلائي، وبذلك فإنه لا يمكن إلا أن تكون تلك الأشياء قد اختلست من طرف بحارة لاذوا بالفرار، وتمت المصادقة على المعاهدة من طرف عبد الله الدلائي بعد لأي، (في ذي القعدة 1068/غشت 1658) ولم تنته المفاوضات في شأن السفن والبضائع الضائعة. وسيكون ذلك إحدى المهمات التي يضطلع بها السفراء السلويون في (لاهاي).

د) السفارة المغربية في (لاهاي) (1659/1069)

هناك دواع كثيرة دفعت بالأمير عبد الله الدلائي إلى إيفاد سفراء إلى البلاد الواطئة، فبالرغم عن امضاء معاهدة السلم والصدقة مع هذه البلاد بقيت مسائل كثيرة معلقة تنتظر الحل، كالسفن الماسورة والبضائع الضائعة. وإلى ذلك كان السلطان محمد الحاج قد أصيب في إحدى عينيه بمرض السادة، أو ما نسميه (بالجلالة أو العمى الأزرق) CATARACTE ورغب في استجلاب طبيب للعيون من هولندا يعالجه(52).

تألفت هذه السفارة من ثلاث شخصيات بارزة في العلوتين، هم إبراهيم معينو من سلا، وإبراهيم الدك ومحمد بنيالوز من الرباط والقصبة، مع حاشية مؤلفة من رجال ونساء. واصطحب الوفد معه هدية إلى الولايات العامة احتوت على فرسين عربيين أصيلين وشبل ولبؤة ونعامة(53). ووصل السفراء إلى أمستردام في أوائل شهر شوال 1069/يوليوز 1659 وأدخلوا إلى لاهاي من طرف الأمين

(52) ذكر أخبار هذه السفارة الكونت دو كاستر في سلسلة وثائق البلاد الواطئة، ج 6، من ص 350 إلى آخر الجزء. وبالإضافة إلى الوثائق الرسمية التي تحتوي على معلومات كثيرة في الموضوع، أورد دو كاستر في نفس الجزء مقتطفات من كتاب صدر في أمستردام سنة 1668 — أي بعد ثماني سنوات من قديم السفراء المغربية إلى البلاد الواطئة — للطبيب الهولندي أوليفي دوبر OLIVIER DOPPER تحدث فيه عما شاهده وعرفه عن هذه السفارة. وقد اعتمدت في هذا الفصل على الوثائق والمقتطفات معا.

(53) مات الشبل في البحر، كما ماتت النعامة بعد وصولها إلى أمستردام لكثرة ما ازدردت من كل ما قدم إليها، خصوصاً المسامير التي كان الأطفال الهولنديون يلقون بها إليها، ظانين أن هذا الطائر العجيب يمكنه أن يهضم الحديد كما يهضم الخبز. وقد وجد في بطنها عندما فتح أكثر من 80 مسماراً.



السفارة المغربية في لاهاي عام 1069 هـ (1659 م)

وتتركب من ابراهيم الدك وابراهيم معين ومحمد بنيا لوز

المعروفين من طرف عبد الله اللاني

كتب لأكروا (نوسبورغ) دوسي دو... رواية عامة حول افريقيا القديمة والجدنة بشاهد وفيها حوادث القرصة وغيرها...
والسفارة المغربية - هولندا سنة 1659. انظر العهد الحاضر بذكرى السطوط السماعيل من مجلة بطول ص 88.

هيسلت «L'INTENDANT HESSELT» الذي خف لاستقبالهم في المحطة الواقعة خارج المدينة، وأقاموا في النزل الخاص بالسفراء فوق العادة، وعينت لهم الحكومة الهولندية مترجما خاصا يرافقهم، هوجاكوييس كوليوس «JACOBUS GOLIUS» (54) أستاذ اللغة العربية بجامعة ليدن (55). وفي اليوم السابع من شهر يوليو زارهم الوكيل دو هايد «L'AGENT DE HAYDE» في النزل الذي يقيمون فيه، واصطحبهم في عربتين تجر كلا منهما أربعة خيول الى مقر مجلس الولايات العامة حيث وقع استقبالهم حسب المراسيم المتبعة في مثل هذه المناسبة.

وبعد أن دخل السفراء الى القاعة، وجلسوا على أرائك وثيرة قدموا لأعضاء الولايات العامة تحيات الأمير عبد الله اللائي، ثم عرضوا اقتراحاتهم مشفوعة بعبارات الود والمجاملة المستعملة في مثل هذا المقام، وذلك حسب رسالة اعتمادهم المؤرخة في فاتح رمضان 1069/23 ماية 1659 (56) وإثر ذلك تكلم رئيس المجلس فرحب بمقدم السفراء المغاربة، وهنأهم بسلامة الوصول، ثم رجعوا في نفس الموكب إلى مقر إقامتهم.

وقد طال مقام السفراء المغاربة في البلاد الواطئة أزيد من خمسة أشهر قضاؤها في المفاوضات مع اللجنة السباعية التي عينتها الولايات العامة، باعتبار نائب عن كل إقليم من الأقاليم المتحدة. وقدم السفراء المغاربة في 8 غشت 1659 مذكرة مطولة يقترحون فيها تعديل معاهدة السلم والصداقة المبرمة بين البلدين سنة 1657 بإضافة خمسة بنود جديدة اليها، ويقدمون مطالب تتعلق بحوادث القرصنة

(54) الأستاذ جاكوييس كوليوس هو من رواد الاستشراق في هولندا. ولد في لاهاي سنة 1596 من أسرة عريقة في الأرستقراطية، ودرس في ليدن، وبرز في اللغات والآداب. وتعلم اللغة العربية على الأستاذ طوما ارينوس THOMAS ERPENIUS الذي كان صاحب كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن، ثم جاء كوليوس الى المغرب مع سفير الولايات العامة الير رويل ALBERT RUYL خلال سنتي 1622 — 1623 رغبة منه في اتقان اللغة العربية. وحمل معه من المغرب كثيرا من الكتب النادرة سواء في التاريخ أو غيره، وقام بزيارات عديدة لبلاد الشرق العربي ثم أسند اليه كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن بعد وفاة أستاذه طوما ارينوس سنة 1624. وكانت الولايات العامة تعتمد على الأستاذ كوليوس في ترجمة الوثائق التي توصل بها من المغرب الى أن توفي في 28 شتبر 1667.

(55) ليدن LEYDEN مدينة جامعية في هولندا، وفيها مطبعة بريل الشهيرة والمكتبة الغنية بالمطبوعات والمخطوطات العربية النادرة.

(56) انظر صورة هذه الرسالة في اللوحة رقم 16.

السابقة، وحلولا للمشاكل القائمة، معززين دعاويهم بحجج عدلية ووثائق تؤيد مطالبهم، ثم قدم السفراء إلى الولايات العامة مذكرة ثانية في 23 شتبر 1659 تنازلوا فيها عن الفصلين الأخيرين اللذين رفضهما المفاوضون الهولنديون، وقبلوا بعض المقترحات المقدمة لتعديل معاهدة 1657. وأثاروا من جديد نقط الخلاف مبينين وجهة نظرهم في تسويتها. واتخذت الولايات العامة قرارا نظرت فيه بعين الاعتبار إلى كثير من مطالب السفراء، وسوت بصفة نهائية بعض القضايا المترتبة عن حوادث القرصنة وكتبت إلى الأمير عبد الله اللائي تعرب له عن اغتباطها بزيارة سفرائه، وتشي على حكمتهم ولباقهم.

وقد تم في 22 أكتوبر 1659 تحضير مشروع تعديل المعاهدة ويتلخص في ست نقط

- (1) تثبيت معاهدة 22 مارس 1657.
- (2) حماية رعايا البلاد الواطئة من أي عمل عدائي قد ينالهم من القراصنة السلاويين.
- (3) اتخاذ الجانبين موقفا وديا عند اللقاء.
- (4) تحديد الاجراءات التي يجب على ضباط البحرية الهولندية اتخاذها عند زيارة السفن السلاوية في عرض البحر.
- (5) الزام قناصل البلاد الواطئة المقيمين في الموانئ الاسبانية بحجز كل سفينة سلاوية يقتادها الضباط الهولنديون، وردها إلى اصحابها.
- (6) تبادل المصادقة على هذه الوثيقة في غضون ستة أشهر.

وقد وقع السفراء الثلاثة هذه الوثيقة، كما وقعوا المذكرتين السابقتين وكل الوثائق والرسائل المقدمة إلى الولايات العامة. وكان الناطق باسمهم طيلة المدة التي قضوها في لاهاي هو ابراهيم الدك الذي «سجل مذكرات على الورق، ولم يكن يمل من الحديث عن العجائب التي شاهدها في هذه البلاد. وقد أجريت على السفراء

نفقات باهظة على حساب الدولة، ومع ذلك فانهم كانوا يعملون دائما على اختصار مدة الاقامة والرجوع في أقرب وقت ممكن الى بلادهم..» (57).

والى جانب هذه المفاوضات السياسية اشتغل السفراء بمسألة الطبيب، وامضوا عقدة مع طبيب العيون اسحاق ساسبوط «L'OCULISTE ISHAC SASBOUT» ليتوجه الى الدلاء من أجل معالجة السلطان محمد الحاج. لكن هذا الطبيب تراجع عن التزامه، وأبدى كثيراً من التعنت والتذلل والاعتذار بمرض زوجته، فاستبدل به السفراء طبيباً آخر أكثر منه كفاءة وخبرة، يسمى جوهن دونكارت «JOHAN DONKART» وهو جراح ماهر أجرى عليه اختبار عملي حول العلاج الذي يطلب منه القيام به. وذلك أمام أكبر جراح في البلد، وبحضور أمهر طبيب للعيون. وقد باشر جوهن بمهارة فائقة عملية استئصال السادة لشيخ هولاندي مريض قبل أن يتوجه الى المغرب.

وأخيرا خصصت الولايات العامة مقابلة لوداع السفراء المغاربة، وقررت أن تقدم لهم هدايا فتعطي كل سفير سلسلة ذهبية، وميدالية، وكتاباً في وصف مدن البلاد الواطئة المتحدة، وتحملهم هدية للأمير عبد الله اللائي هي عبارة عن كتاب مماثل بغلاف أكثر زخرفة وتنميقاً. ورجت الولاية العامة أن يعترف هؤلاء السفراء بحسن الاستقبال الذي حظوا به في البلاد الواطئة، ويعملوا في بلادهم على تسهيل قضايا الرعايا الهولانديين. ولما علمت الولايات العامة في 25 أكتوبر نبأ خروج السفراء من لاهاي، المقرر يوم 27 من نفس الشهر، أمرت الوكيل ديهاید بتشجيعهم عند مغادرتهم العاصمة، وكلفت الأمين هيسلت بموافقتهم الى لندن. ثم أرسلت مبعوثاً عنها في 31 أكتوبر إلى امستردام ليقدم الهدايا المذكورة الى السفراء المغاربة الذين كانوا يتأهبون لمغادرة البلاد الواطئة، لكن سفرهم تأخر إلى ما بعد 2 دجنبر 1659. ولما وصل السفراء إلى شواطئ المغرب وجلوا الثورة قائمة ضد

(57) الطبيب الهولاندي أوليفي داير، انظر

الدلائيين في العلوتين وبلاد الغرب، واضطروا إلى النزول في تطوان «المدينة الوحيدة التي ظلت وفية للدلائيين» (58).

هـ) قضية تنصر أمير دلائي

شغلت قضية تنصر أمير دلائي بال الأوربيين مدة طويلة، وتبدلت في شأنها عشرات الرسائل بين الشخصيات والهيئات الكاثوليكية في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا. وظهر أثر ذلك في الأدب الأوربي فألفت مسرحيات في هذا الموضوع مثلت في مدارس اليسوعيين بألمانيا وبولونيا وغيرهما. وهذه القصة إن دلت على شيء فأنما تدل على مدى صيت الدلائيين وانتشار سمعتهم في الأوساط الأوربية. ويبدو أثر الاختلاق والتلفيق واضحاً في أخبار هذا الأمير الدلائي المزعوم. وسأذكر باختصار هذه القصة كما أوردها الكونت دو كاستر (59) ما دامت المصادر العربية لم تعرفها ولم تتحدث عنها بشيء

في سنة 1651 أعلن في جزيرة مالطة (60) عن ركوب حجاج مغاربة في سفن انجليزية، وخروجهم من ميناء تونس قاصدين مكة المكرمة. وفي الحين أبحرت من الجزيرة سفن شرعية كبيرة للتجذيف GALERES بقيادة الضابط البحري بلطزار دوماندولص BALTHAZAR DE-MENDOLS وهو راهب كاثوليكي يشتغل بالقرصنة في البحر المتوسط ضد المسلمين.

اعترض بلطزار طريق السفينة الانجليزية وأسر كل من كان على ظهرها من الحجاج، واقتادهم الى مالطة حيث أودعهم سجن الميناء BAGNE الذي يدخل

(58) من رسالة وجهها السفراء المغاربة الى الولايات العامة في 20 يوليوز 1660.

De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 6 : 620

59) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 6 230

(60) مالطة إحدى جزر البحر المتوسط تقع غربي تونس، وقد سلمها ملك إسبانيا شارل كان CHARLES QUINT

(1500 — 1558) الى فرسان جزيرة رودس سنة 1530 لمقاومة الأتراك في البحر، ثم صارت مالطة مستعمرة

انجليزية منذ مستهل القرن التاسع عشر وأحرزت على الاستقلال سنة 1962 ضمن دول الكومنويلث.

اليه المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة⁽⁶¹⁾ وكان من بين هؤلاء الأسرى شخص ممتاز يعمل على اخفاء حقيقته، حتى لا يقع التغالي في ثمن فدائه. وقد استطاع هذا الأسير أن يحصل من باي تونس على أربعين ألفاً من نقود ايكوس ECUS⁽⁶²⁾ المخلدة لتحريره مع زملائه. وعندما أخذ هذا الشخص الممتاز يتأهب للسفر الى تونس يوم 11 يونيه 1656 حدثت صعاب غريبة منعه من ركوب البحر، واضطر للمبيت عند الرئيس دوماندولص «DE MENDOLS» الذي كان يوليه كثيراً من العطف. وفي الليل حدثت المعجزة ! ورأى في منامه حلماً عجيباً دعاه الى الردة، وأعلن في صباح الغد رغبته في التنصر. ولما مثل بين يدي الرئيس الأكبر بول دولاسكاري كاسطيلار LE GRAND MAITRE PAUL DE LASCARIS CASTELLAR عرف بنفسه، وقال إنه أمير مغربي اسمه محمد من أبناء سلطان الدلاء. فعُلمَ الديانة المسيحية في بيت اليسوعيين بواسطة ترجمان يسمى جان بارى «JEAN-PARIS» وعُمد في مهرجان كبير يوم 31 يوليوز 1656 وأخذ اسم الضابط الذي أسره وصار يسمى «بالطازار لوايولا مانديز» «R. P. BALTHAZAR LOYOLA MENDEZ» وتطور أمر هذا المنتصر ورسخت قدمه في الكاثوليكية حتى أصبح راهباً كبيراً وداعية للديانة المسيحية، وانتدبته هيئة المبشرين لنشر الدعوة النصرانية في بلاد الهند، وتقرر أن يبحر من لشبونة في بلاد البرتغال ويعرج في طريقه على مدينة الجديدة لنشر الدعاية المسيحية في أوساط المغاربة قبل التحاقه بالهند. وهنا تتكرر معجزة تعذر ركوب البحر على الراهب بلطازار لوايولا !! ويرجع من لشبونة ليسلك في سفره طريق البر، لكنه لم يكد يصل الى مدريد حتى توفي بالطاعون في 15

(61) كانت مثل هذه السجون معروفة في المراكز القرصنية، وتسمى في المغرب بالمطامير أو الأهراء. وقد ذكر المؤرخ محمد بن علي الككالي في كتابه عن الرباطات أنه وقف في الدار البيضاء على هري عظيم مشرف على المرسى قرب ضريح سيدي بلوط، وقد نقشَتْ بحيطانه وأقواسه الحجرية ورؤوس سواريه أسطر بالخط البرتغالي تتضمن أسماء سجن من الأسرى اختطفهم قرصان سلوي لأسباب مجهولة من ميناء لشبونة بالبرتغال في دولة السلطان محمد بن عبد الله العلوي، وأودعهم هذا السجن المؤبد. وزاد المؤرخ الككالي أن الفرنسيين نقلوا انقراض هذا الهري الى التكنة العسكرية خارج الدار البيضاء، وأعدوا بناء الهري على الصورة التي كان عليها من قبل.

(62) ايكوس ECUS عملة فضية قديمة، أول من ضربها الملك الفرنسي سان لوي (1215 — 1297) وهي تساوي ثلاث ليرات «LIVRES» في أقل حالات صرفها. وهناك أيضاً نوع آخر منها يسوي ست ليرات،



صورة الراهب بلطازار لوابولا منديز الذي يزعم الاوريون أنه محمد الدلاني

شتبر 1667. ذلك هو مجمل الحياة المسيحية المعروفة للراهب بلطازار لويولا. أما أصله وحياته السابقة في الاسلام فليست الا مجرد رواية وتخمين — باعتراف المصادر الأوربية نفسها — ولم تسفر الأبحاث التي أجريت في مالطة وروما وفلورانس ومدريد وغيرها من المدن التي دخلها هذا الراهب عن أي برهان يثبت صحة نسبه الدلائي، أو حقيقة حاله فيما قبل الأسر. وقد عاد الأوربيون الى افتراض انه حفيد للسلطان محمد الحاج بعد أن كانوا يقولون انه ابنه مباشرة. وزعموا أن هذا المنتصر كان ابنا لمحمد بن محمد الحاج الذي خلف أخاه أحمد في إمارة فاس من عام 1044 الى 1654/1070 — 1660. وادعوا ان المنتصر تولى إمارة فاس مدة بعد وفاة والده في انتظار أن يصير سلطان المغرب في يوم من الأيام.. وكل هذه الافتراضات باطلة، إذ كان الأمير محمد بن محمد الحاج ما يزال حيا في سنة 1651 التي أخذ فيها هذا الأسير المنتصر، بل إن محمد بن محمد الحاج لم يتول إمارة فاس الا بعد ثلاث سنوات من تاريخ الأسر، وامتدت حياته الى سنة 1660. هذا بالاضافة الى أن أسرة الدلائيين في ذلك العصر كانت من الشهرة والنباهة بحيث لا يخفى فرد منها على المؤرخين والنسابة المغاربة. وقد عاصر الدلائيين خصوم ومنافسون كثيرون من السعديين والعلويين وشيعتهم، ما كانوا ليسكنوا عن التشهير بهم لو كان أمر التنصر حقيقة واقعة. ونحن نعلم أن خصوم الدلائيين عيروهم بأصلهم البربري، وقبحوا عليهم اطعامهم الضيوف، وتصدرهم المجالس وارتقاءهم المناير بعد الضعة والخمول، فكيف كانوا يعضون الطرف عن سبة التمسح والمروق من الدين لو كانت.

ويرى المؤرخ السلوي محمد بن علي الدكالي⁽⁶³⁾ أن هذا المنتصر ليس إلا علجاً من ممالك الدلائيين، ادعى عندما أسر أنه أمير دلائي لتحصل له الحظوة عند النصارى، أو لينجو من العقاب الصارم الذي كان يتعرض له كل مسيحي ثبت عليه أنه اعتنق الاسلام. ويعتقد المؤرخ السلوي أن هذا المنتصر هو مملوك

(63) أنظر صورة الصفحة التي يرد فيها المؤرخ السلوي على قضية تنصر أمير دلائي في اللوحة رقم 18.

الحاج ابراهيم الخياط خديم الأمير عبد الله اللائي الذي أسره الهولنديون في سفينة الرئيس علي مرشيك وباعوه في جبل طارق. وهذا لا يصح لما عرفنا من أن أخذ سفينة الرئيس مرشيك كان يوم فاتح شتبر 1657، في حين كان أسر المنتصر قبل ذلك بست سنوات، أي خلال سنة 1651. على أن حوادث الأسر كانت متعددة، والأسرى من الممالك وغيرهم كثيرون، ولا يبعد أن يكون على أي حال هذا المنتصر من قدماء العلوج المسيحيين الذين سبق أن ملكه بعض المسلمين من اللائين أو غيرهم، كما يظهر ذلك من ملاحح الراهب بلطازار لويولا مانديز (64).

3 — اللائين في فاس

لما استولى محمد الحاج على مدينة فاس (عام 1051 — 1641) عقب مقتل المجاهد العياشي، ولّى عليها القائد أبا بكر التاملي، وأسند القضاء الشرعي الى أحمد الأزموري (65) والفتيا الى محمد بن سودة (66). وكانت فاس اذ ذك تشتمل على ثلاث مدن متميزة المدينة الجديدة البيضاء أو فاس الجديد، وعلوة الأندلس، وعلوة القرويين أو فاس القديم. وكان يتولى أمر كل من العلوتين رئيس من أعيانها. وقد توارث آل اللبرني الأندلسيون رئاسة علوة الأندلس بفاس، وأول من ولاه اللائين أو أقروه في هذا المنصب من أفراد هذه الأسرة هو عبد الكريم اللبرني. ولم تنزع أسرة معينة — على ما يظهر — علوة القرويين، والحاكم الذي تولى أمرها على عهد اللائين هو ابن الصغير. وكانت مقاليد المدن الثلاث بيد المتولي علي فاس الجديد دار الامارة ومقل الديوان، ويعتبر قائدا العلوتين مساعدين له يزوران في قصره كل صباح، ويتشاوران معه في مهمات الأمور قبل الرجوع الى مقر عملهما لمباشرة الأعمال العادية وتنفيذ الخطة المتفق عليها.

(64) انظر صورة الراهب بلطازار في اللوحة رقم 17.

(65) القاضي أحمد بن محمد بن علي الأزموري، الشيخ، النحوي الفقيه كان أعجوبة الدنيا في الحفظ والفهم كثير الاستشهاد في التدريس. توفي في جمادى الثانية 1057/يوليوز 1647. انظر ترجمته عند محمد الكتاني سلوة الانقاس، ج 2، ص 70.

(66) الفقيه محمد بن محمد بن أبي القاسم ابن سودة، أستاذ الزلوية اللائية، تقدمت ترجمته في الباب الثالث. وقد ولاه اللائين بعد ذلك القضاء في فاس عام 1447/1057.

وهكذا كان أبو بكر التاملي القائد المسؤول عن مدن فاس في السنوات العشر الأولى من إمارة الدلائيين (1051 — 1641/1061 — 1651) وهو وإن استقر في فاس الجديد، فإنه لم يسكن قصر الإمارة الذي تركه الدلائيون لأبناء الشرفاء السعديين احتراماً منهم لآل البيت النبوي الكريم. ولم يغادر السعديون هذا القصر إلا على يد السلطان الرشيد بن الشريف⁽⁶⁷⁾. وعرفت فاس في هذه الفترة عهداً سعيداً امتاز بالطمأنينة والاستقرار، لكن هذا الصفاء لم يلبث أن تكدر بسبب الخلاف الذي نشب بين القائد التاملي ورئيسي العلوتين، وتطور الخلاف إلى نزاع مسلح، فقامت الحرب على قدم وساق بين المدينتين الفاسيتين الجديدة والقديمة، وقطع القائد التاملي النهر عن المدينة القديمة وحرّم خصومه من الماء وضيق عليهم الخناق، فاستنجد أهل فاس القديم بمحمد بن الشريف صاحب سجلماسة الذي لبي دعوتهم مسرعاً، وقبض على القائد التاملي وزج به في السجن. غير أن محمداً الحاج الدلائي ما كاد يعلم بجلية الأمر حتى زحف إلى فاس في جيش قوي من البربر، والتقى بمحمد بن الشريف في المكان الذي يسمى (ظهر الرمكة) بضاحية فاس، ولم يثبت ابن الشريف في المعركة إلا يوماً أو بعض يوم ثم رجع إلى سجلماسة؛ فتحصن الفاسيون الذين كانوا معه في مدينتهم القديمة، وضرب عليهم القائد أبو بكر التاملي الحصار مدة طويلة، هلك أثناءها عبد الكريم الليريني رئيس عدوة الأندلس وغيره من أعيان البلد، وأخيراً استسلمت المدينة ورجعت إلى طاعة الدلائيين.

أم أحمد بن محمد الحاج الدلائي أمير فاس

رأى السلطان محمد الحاج — بعد القضاء على الفتنة التي قامت في فاس — أن يولي على هذه المدينة ابنه الثاني أحمد. فأقامه نائباً عنه في مدن فاس الثلاث وما يليها من البلاد. واستقر الأمير أحمد الدلائي في المدينة البيضاء (فاس

(67) أبو القاسم الزباني، رسالة البلدتين، ص 479. وورد في كاشة اليمحدي وزير السلطان إسماعيل (ج 2، ورقة 176/ب) أن بنات الشرفاء السعديين خرجن من قصر الإمارة بفاس الجديد عام 1066. وهكذا تتفق الروايتان على بقاء السعديين في قصر الإمارة في معظم السنوات التي كانت فاس فيها تابعة للدلائيين، وإن كان اليمحدي قد حدد لخروج الشريقات تاريخاً متقدماً قليلاً عما ذكره الزباني.

الجديد)، واشتغل في أول عهده بتصفية الجو وتتبع رؤوس الفتنة الذين كانوا قد لجؤوا الى ضريح المولى ادريس، واحتموا ببعض الشرفاء الجوطيين. وكان ضريح الشيخ محمد بن عباد(68) داخل باب الفتوح قد تهدم ولم يبق منه الا الجدار الشرقي، فجدد الأمير أحمد الدلائي بناءه، وجعل على القبر سقيفا. وأعطى كاتبه محمد (المدعوم) الطاهري حق التصرف فيما يحمل لهذا الضريح من الهدايا والصدقات، وكتب له بذلك ظهيرا بقي يده وييد عقبه.

لم يكن أحمد الدلائي رجل حرب وكفاح، ولم تتوفر له صفات البطولة التي كان يتحلى بها أبوه وأخوه عبد الله. فكثرت بسبب ذلك عيث القبائل المجاورة لفاس وفسادهم، ولاسيما قبيلة الحيانة التي طغت ورجعت الى سالف عهدها في السلب والنهب. ولما لم يجد أهل فاس غناء في أميرهم أحمد، توجهت جماعة منهم الى والده في الدلاء تحمل اليه الفتاوي القاضية بمشروعية قتال الأعراب المحاربين، وترجو منه أن يحمي فاسا من المعتدين عليها. فكان ذلك سببا في الحملة التأديبية الكبرى التي قادها محمد الحاج بنفسه ضد قبيلة الحيانة كما سبق. ولم يطل مقام الأمير أحمد للدلائي في فاس الا ثلاث سنين وبضعة أشهر، إذ توفي في ربيع الأول 1651/1064.

ب) محمد الدلائي يخلف أخاه في إمارة فاس

يمتاز الأمير محمد بن محمد الحاج الدلائي بالعلم والأدب وحسن الخلق، وقد «خلف أخاه أحمد في إمارة فاس وما والاها من أعمال المغرب، وسار مع الناس بسيرة حميدة، وأمور سديلة»(69) ولم تجد علينا المصادر بأكثر من ذلك فيما يخص الأعمال التي قام بها هذا الأمير في مدينة فاس، اللهم إلا ما كان من تجديده ضريح ابن عباد الذي بناه أخوه أحمد، وذلك «بعد أن احترق بشمعة، ومات كثير

(68) الشيخ محمد بن عباد النفري الرندي تلميذ الشيخ أحمد بن عاشر السلاوي، هو امام القرويين وخطيبها، ومؤلف الشرح المشهور لحكم ابن عطاء الله، وغيو من الكتب في مختلف الفنون. كانت وفاته عام 1390/792. انظر ترجمته مسهية، وأخبار تجديد ضريحه عند محمد بن جعفر الكتاني، ملوك الانفاس، ج 2 ص 142/133.

(69) سليمان الحوات، البلور الضاوية، ورقة 240% ب.

من الناس ممن كانوا يطفئون النار» (70) وهذه البناية هي الأثر الوحيد الذي بقي حتى اليوم مما شيده اللاتيون في فاس. ونحن لا نستطيع بهذه المعلومات الضحلة أن نأخذ فكرة واضحة عن الأمير محمد اللائي، لكن يمكن أن نعتقد بأن حظه من الفروسية والنجدة والحنكة السياسية لم يكن بأوفر من حظ أخيه أحمد. إذ لم يستطع خلال السنوات الست التي قضاها في عمالة فاس أن يفرض احترام السلطة اللاتية في المدينة ولا في خارجها، وقام ثوار في الأقاليم الشمالية التي كانت تابعة له دون أن يحرك ساكنا أو يحاول معارضتهم والضرب على أيديهم.

وكان لللاتيين علاقة مصاهرة بأسرة الشرفاء القادريين (71) فأعطوهم حق التصرف في فتوحات (72) ضريح أبي الحسن بن حرزهم (73)، الأمر الذي أثار حنق بعض الأسر الفاسية فأخذت تكيد لللاتيين وتعمل على التخلص منهم. ولم يكن هؤلاء وحدهم خصوما للنظام القائم وإنما كان يشاطرهم هذا الرأي كل الذين أصيبوا بسوء في حوادث قمع الثورة الأخيرة، وهم كثيرون. وداخل هؤلاء الخصوم رئيس إحدى الفرق العسكرية اللاتية المرابطة في فاس، وهو القائد أبو عبد الله الدريدي، وربط معه رئيس عدوة الأندلس أحمد بن صالح الليريني علاقات المصاهرة، وتم التآمر على اغتيال الأمير محمد اللائي بالسم (ربيع الثاني 1659/1070). وقد حُمل جثمان الأمير محمد إلى الدلاء ودفن في الزلوية القديمة، واستخلف السلطان محمد الحاج على فاس حفيده أحمد بن عبد الله (74) وكان ما يزال حدثا صغيرا، فرجع بعد قليل إلى الدلاء، ومعه كل ما كان في قصر

(70) أبو عبد الله الضعيف، تاريخ الضعيف، ورقة 12/ب. وقد ذكر خير احتراق ضريح ابن عباد وتبديله أيضا محمد بن الطيب القادري في نشر الثاني 2 108.

(71) عرفنا في الباب الثالث أن أحمد بن عبد القادر تلميذ الزلوية اللاتية تزوج بنت الشاذلي أخ السلطان محمد الحاج. وتزوج بعد ذلك أخوه علال بن عبد القادر القادري — جد محمد بن الطيب القادري صاحب كتاب نشر الثاني — بنت أحمد بن صالح الليريني الذي تولى قيادة فاس من قبل اللاتيين.

(72) المراد بالفتوحات الهدايا التي تقدم لضريح الولي من مال وممع وزيت وماشية الخ.

(73) أبو الحسن بن حرزهم (بكسر الحاء وسكون الراء، بعدها زاي مكسورة) حُرِف اسمه إلى (حرزهم). عالم كبير، وصوفي شهير، ولد ونشأ في فاس، وتلمذ على القاضي أبي بكر بن العربي والشيخ أبي يعزى، توفي في شعبان 1164/559. وابنه محمد هو المعروف اليوم بسيدي حرزهم، في الحمة ذات المياه المعدنية الشهيرة بضاحية فاس.

(74) أحمد اللائي هذا هو الذي سيزعم ثورة البربر أيام السلطان اسماعيل.

عمه بفاس الجديد من العيال والحشم والعبيد. واستقدم السلطان محمد الحاج الى الدلاء جماعة من أعيان فاس تزيد على مائة رجل فوخبهم على غدرهم بولده محمد، وزج بهم في السجن أياما، «ثم بعثهم لفاس الجديد مكبلين فذبحوا جميعا» (75) مهدت هذه المذبحة السبيل أمام القائد الدريدي الذي أعلن نفسه حاكما على فاس الجديد، وآزره في ذلك صهره الليريني في عدوة الأندلس، وابن الصغير رئيس عدوة القرويين، وقطعت فاس بذلك صلتها بالدلائيين. وسنرى في الباب التالي التطورات التي طرأت في العلاقات بين الدلاء وفاس، ونهاية هؤلاء الرؤساء الثلاثة.

4 - آثار الدلائيين

أ) المباني في الدلاء وفاس

شيد الدلائيون كثيرا من المباني سواء في العهد الأول الذي انحصر اهتمامهم فيه بالناحيتين الصوفية والعلمية، أو في عهدهم السياسي الأخير. وكان من أبرز مآثرهم العمرانية الأولى الزاوية الدلائية القديمة التي أسس مسجدها الشيخ أبو بكر الدلائي حوالي عام 1566/974 ثم بنى فيها المدارس والدور والأسواق حتى صارت قرية أهلة بالسكان ومركزا علميا ممتازا. وبنى الشيخ أبو بكر أيضا بالقرب من الزاوية الدلائية جسرين على نهر أم الربيع يسمى أحدهما قنطرة (أمسدل) — بتشديد الدال المفتوحة — والآخر قنطرة (مروض الفان) أي مطحنة الخنازير.

ولما أفضى الأمر الى محمد الحاج الدلائي أسس في سفح الاطلس المتوسط عام 1638/1048 مدينته العظيمة التي جعلها على مثال مدينة فاس بأسوارها الفخمة المسننة، ومياهاها المتدفقة في جميع المنازل بواسطة أنابيب تحت الأرض؛ وشيد في وسطها القصر والديوان، فكانت عاصمة الامارة الدلائية زهاء ثلث قرن. ثم بنى محمد الحاج بالقرب من مدينته ثلاثة جسور على روافد نهر أم الربيع يظن أنها هي قنطرة (أسيف نايت زمور) وقنطرة (خللاطة) — بتشديد اللام — وقنطرة

(75) أبو عبد الله الضعيف، تاريخ الضعيف، ورقة 8/د، انظر تفاصيل نسخة أعيان فاس عند سليمان الحوات، البدور الضاوية، ورقة 205.

اللوحة رقم 19



ضريح ابن عباد داخل باب الفتوح بفاس من بناء الأمير محمد الدلافي

تصوير المؤلف

(تأحيـزونت) أي العرجاء. وكلها « في غير الطريق الرئيسية بين مراكش وفاس بل هي في طريق ثانوية تخرج بالمنتجعين من الأراضي الجبلية للازاعة فـلذلك لا تعرف الا عند الاهالي...» (76) وسنرى في الباب التالي السلطان الرشيد بن الشريف يسلط معاول الهدم على الزلويتين اللاتيتين ليركهما قاعا صفصفا إلا آثاراً يسيرة استطاعت أن تغالب نوابـب الدهر. وكان لمحمد الحاج اللآئي كثير من المآثر العمرانية في مدينة فاس أخنى الزمن كذلك على أكـثرها حتى لم يعد الآن معروفاً منها — فيما أعلم — إلا ضريح ابن عباد داخل باب الفتوح، وهو اليوم غير مسقوف لم يبق منه إلا الباب والسور الخارجي (77). «وبنى (محمد الحاج) السقاية التي بفاس الجديد قرب باب السبع، وبنى المقبرة التي بها مولاي عبد الله مدفون، وبنى المدرسة التي هنالك، والقبة التي على سيدي عبد الرحمن الشريف بباب عجيسة، ودار الضيوف التي على نهر وادي الجواهر» (78).

ب) النقود الاشقوية

إذا كنا لا نعرف أصلاً لكلمة (أشقوب) التي تنسب اليها النقود الاشقوية (79) ولا ندري إن كانت محرفة عن الشقوب التي هي — لغة — كل مهواة بين جبلين أو صدع في كهوف الجبال، فإننا لا نستطيع كذلك أن نجزم بأن اللآئين هم الذين ضربوا هذه السكة لعدم العثور على نص صريح في الموضوع. ولو أن القرائن التاريخية تؤيد أن هذه النقود دلآئية، فقد ظهرت الاشقوية عام 57/1068 — 1658 ووقع التعامل بها في المغرب ولا سيما في فاس التي كانت تحت نفوذ اللآئين، وظلت منذ هذا التاريخ السكة الرسمية في البلاد الى أن حلت محلها النقود التي ضربها السلطان الرشيد بن الشريف عام 69—1670.

76) أحمد بن قاسم المنصوري. تاريخ زيان. فصل «القناطير والآثار على نهر أم الربيع» مخطوط المؤلف غير مرقم.

77) انظر اللوحة رقم 19

78) عبد الوحد التازي، نزهة الاخيار للمرضين، ورقة 4/أ.

وفيما يخص (دار الضيوف) التي على نهر وادي الجواهر ارجع الى ص 25 من هذا الكتاب.

79) نُشير إلى أن في الاندلس مدينة شقوية SEGOVIA تبعد عن مدريد بنحو 90 كلم شمالاً، خربها الرومان وعمرها المسلمون، زارها السفير ابن عثمان المكناسي عام 1193/1779 وقال إن فيها مصانع الملف والكاغد ودار سكة الفلوس النحاسية. ولا ندري علاقة النقود الاشقوية في عهد اللآئين بهذه المدينة. انظر رحلة الاكسبر لابن عثمان المنشورة بالرباط بتحقيق محمد الفاسي سنة 1965. ص 122—133.

وكانت النقود الاشقوية هذه مربعة الشكل، مصنوعة من فضة مخلوطة بنحاس. ووزن الدرهم الاشقوي عشرون حبة وأربعة أسباع الحبة من حبوب الشعير المعمول بها في الوزن⁽⁷⁹⁾ أي أقل من نصف الدرهم الشرعي الذي يزن خمسين وخمسي حبة. والأوقية الاشقوية ثمانون فلساً من النحاس، والدرهم ثلاث موزونات وثلاث، في كل موزونة أربعة وعشرون فلساً. ثم صارت الموزونة تعدل ضعف ذلك أي ثمانية وأربعين فلساً أشقوياً «إلى أن ظهرت الرشيدية سنة ثمانين فطرح السكك كلها ولم يبق معاملة الا بالرشيدية، وصارت (الاشقوية) تجوز في أربعة وعشرين فلساً عند ضرب الفلوس المستديرة في جمادى الثانية سنة احدى وثمانين وألف..»⁽⁸⁰⁾.

(79) عبد الرحمن الفاسي، الاقويم، خاتمة في الاوزان والمكاييل.

(80) عبد الرحمن الفاسي، شرح العمل الفاسي، لدى قول الناظم

والحكم في المطلق من مقدار بسكة فاسية اشتهل

الباب السادس

نهاية الزاوية الدلائية

1 — بدء انتفاض الأطراف على الدلائيين

أ) ثورة الخضر غيلان في الشمال

ب) زوال نفوذ الدلائيين من فاس

ج) قضية البلديين في فاس

2 — الثورة ضد الدلائيين في سلا والرباط

أ) عوامل الثورة

ب) حصار عبد الله الدلائي في القصبة

ج) هل حاول الدلائيون تسليم القصبة إلى دولة أوربية ؟

3 — القضاء على الزاوية الدلائية — تخريبها

أ) ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوي

ب) استيلاء الرشيد على فاس

ج) معركة (بطن الرمان) — تخريب الزاوية الدلائية

1 — بدء انتفاض الأطراف على الدلائين.

أ) ثورة الخضر غيلان في الشمال

الخضر غيلان من بني جرفط القبيلة العربية التي تسكن بين العرائش وتطوان، وليس هو من الموريسكيين المهاجرين من الأندلس كما يدعيه بعض الأوربيين. كان غيلان من أكبر مساعدي المجاهد العياشي والمقدم على الغزاة في بلاد الهبط، ثم اعتصم بجبال الريف بعد موت رئيسه العياشي، وظل يراقب الدلائين ويتربص بهم الدوائر، إلى أن واثته الفرصة خلال عام 1652/1063 — 1653 فانقض على مدينة القصر الكبير واستولى عليها، وقتل فيها علي بن أحمد الذي اغتال المجاهد العياشي. وأخذ الخضر غيلان يوسع دائرة نفوذه شيئاً فشيئاً، ويُغير على المدن والقبائل الخاضعة للدلائين، ويصول ويجول في المنطقة الواقعة بين القصر الكبير وفاس. ولما وقفت قبيلة شراكة في وجهه، وكانت من أقوى القبائل في شمال فاس وأشدّها شوكة، حاربها إلى أن فل حداثها، وأوقع بها هزيمة منكرة، وانهب حلتها وخيامها، «فدخلوا فاسا مسلّوين منتصف جمادى الأولى عام 1070»⁽¹⁾ وقد انتشر نفوذ غيلان في مناطق الشمال، خصوصاً عند قبائل الهبط التي كان يرأسها في حركات الجهاد أيام الرئيس محمد العياشي وانضم إليه جماعة من الفاسيين الناقمين على الوضع القائم في مدينتهم، واجتمع عليه أعراب الخلط وغمارة وسائر القبائل التي كانت ترغب في التخلص من سيطرة الدلائين أو تسعى في الانتقام منهم على ما ألحقوا من أذى بمجاهدي الغرب ورئيسهم العياشي.

أقلقّت أخبار الثورة في الشمال بال السلطان محمد الحاج الدلائي، فأخذ يتبهاً لملاقاة خصمه غيلان في معركة حاسمة. ولم يكد يتبهي شهر الصيام من عام 1070/يونيه 1660 حتى خرج محمد الحاج من مدينة اللاء على رأس

(1) محمد بن الطيب القادري، نشر للثاني 2 108

جيش جرار من البربر، قوامه 80.000 رجل، وتقدم يغذ السير إلى أن وصل إلى مولاي بوسلهام في بلاد الغرب. وهناك على ضفة وادي بوحيرة أحد روافد المرجة الزرقاء، وجد الخضر غيلان ينتظره، وقد اعصوبت عليه قبائل الغرب من أنصار المجاهد العياشي القدماء ودارت بين الفريقين معركة رهيبة، لم تغن فيها وفرة جموع الدلائيين عنهم شيئاً، فولوا الأدبار، ولاذوا بالفرار. وقد مرت فلولهم المهزومة ببلاد الغرب وتامسنا تحمل الى الناس البرهان الواضح على الانتكاسة الخطيرة التي أصابت إمارة الدلاء، والضعف الفاضح الذي نزل بها، فازدرتها العيون، وزالت هيبتها من القلوب. وكانت إفادة الخضر غيلان من هذه المعركة الفاصلة مزوجة، فبالإضافة إلى الأسلاب التي امتلأت بها أيدي أتباعه وأنصاره، تألق نجمه من جديد، وانتشر ذكره في أوساط القبائل. واستطاع أن يستبد بشمال المغرب كله في ظرف وجيز، ولم تمتنع عليه الا مدينة تطوان، فقاومه حاكمها المقدم عبد الكريم النقسيس الذي ظل وفياً للدلائيين إلى آخر حياته. ولم يستطع غيلان أن يبسط نفوذه على تطوان إلا بعد أن أيس حاكمها الجديد أحمد بن عيسى النقسيس الحفيد(2) من وصول نجدات الدلائيين اليه. وانبرم الصلح بين الطرفين عام 1661/1072 — 1662 على أن يظل أحمد النقسيس حاكماً لتطوان ويقدم لغيلان عدداً معيناً من الجنود يساعده في حركاته الجهادية.

رأى الخضر غيلان أن يعزز موقفه ويضمن المكاسب التي حصل عليها في الشمال بالتحالف مع المسيحيين الذين كانوا يحتلون الثغور المغربية المحيطة به، فاتفق مع الحاكم الاسباني لمدينة سبتة (المركز دي لوص أركوس) (MARQUIS DE LOS ARCOS) وعقد معه في أوائل سنة 1661 اتفاقية يقدم فيها غيلان بمقتضاها الى حاكم سبتة 10.000 من الجنود المشاة، و2000 من

(2) هناك مقدمان من حكام تطوان يسمى كل منهما أحمد بن عيسى النقسيس، أولهما أحمد احد الذي كان يحارب النصاري في سبتة أيام السلطان أحمد المنصور الذهبي. وكانت وفاته عام 1622/1031. والثاني هو أحمد بن عيسى النقسيس حفيد أحمد الأول، وقد نولى حكم تطوان عام 1660/1071 — 1661. وظل بها إلى أن قبض عليه السلطان الرشيد بن الشريف العلوي عام 1078%1667. انظر تفاصيل اخبار هذين المقدمين عند محمد داود، تاريخ تطوان، القسم الثاني من اخلد الاول، ص 236 وما بعدها.

الفرسان على أن يدافع عنه المركز ضد جميع خصومه(3). وظل غيلان في نفس الوقت يحافظ على علاقاته الطيبة مع إنجلترا، وأى أن يعارض في نزول الانجليز بطنجة عندما قدمت الأميرة البرتغالية (كاترين) هذه المدينة مهراً لزوجها شارل الثاني ملك إنجلترا، ولم يتدخل غيلان في ذلك بالرغم من إلحاح الاسبانيين — مراعاة لمصلحتهم الخاصة طبعاً — وحثهم إياه على أن يحول دون تنفيذ هذا المشروع بصفة مباشرة(4).

وقد توطدت أواصر الصداقة بعد ذلك بين غيلان والانجليز، فساعدوه في حربه ضد الدلائين، في نفس الوقت الذي كان الأسطول الانجليزي يتصل بالامير الدلائي المحاصر في القصة، ويقدم له المؤونة والذخيرة أملاً في أن يسلم اليه هذا الحصن. ولم تكن أطماع الانجليز في الاستيلاء على قصة سلا وليدة هذا التاريخ فحسب، وإنما حاولوا أن يستولوا عليها لأول مرة من يد الموريسكيين المحاصرين من طرف المجاهد العياشي. وكاد الاميرال (بلاك) (L'AMIRAL BLAKE) قائد الاسطول الانجليزي أن يستلم القصة من ايديهم لولا أن تأخر ورود التعليمات اللازمة من حكومته، بسبب الاضطرابات الداخلية القائمة إذ ذاك في إنجلترا. وبعد أن تمكن الانجليز من مدينة طنجة أبرموا مع غيلان سنة 1664 معاهدة ود وتحالف سعيًا وراء حقيق مطامعهم في الاستحواذ على قصة سلا التي كانت قد دخلت تحت نفوذه، ثم بعد سنتين عززوا هذه المعاهدة بأخرى توطد أواصر الصداقة والتعاون بين الطرفين. وهكذا أصبح المجاهد الثائر الخضر غيلان شخصاً وديعاً مسالماً لخصومه السابقين، بل حليفاً للأجانب الذين يحتلون بلاده، يوقع معهم معاهدات الود والتعاون، رغبة منه في تثبيت نفوذه، ومساندته للتغلب على منافسيه من بني قومه! وكانت نهاية غيلان — عفا الله عنه — القتل على يد السلطان إسماعيل العلوي عام 1673/1084.

3) De Castries, Les Sources Inédites, FRANCE, 1 24

(4) نفس المصدر، ص 23.

ب) زوال نفوذ الدلائيين من فاس

ظلت فاس خاضعة للدلائيين نحو عشرين سنة (1051.1070 1641.1660) تحت إمرة القائد أبي بكر التاملي، ثم الأميرين الدلائيين أحمد ومحمد كما سبق. وبعد ذلك خالفت فاس الدلائيين؛ واجتازت الثورة الفاسية خلال السنوات التالية ثلاث مراحل

المرحلة الاولى (من عام 1070 الى عام 1073 / 1660.1663) وفيها انفصلت فاس عن الدلائيين، تحت تأثير ثورة الخضر غيلان بالشمال. وقد التحقت طائفة من الفرسان الفاسيين بمدينة القصر الكبير لمساندة ثورة غيلان بينما أخذت طائفة أخرى تعمل للقيام بانقلاب داخلي في فاس. وجاءت المذبحة الرهيبة عقب وفاة الأمير محمد الدلائي، فأحدثت ألماً كبيراً واستياءً عميقاً في نفوس الأسر المنكوبة في رجالها وأبنائها وأقاربها، وفي نفوس السكان عموماً، حتى إن الأمير الصغير أحمد بن عبد الله الدلائي الذي عينه السلطان محمد الحاج نائباً عنه في فاس، رأى أن الظروف لم تعد مواتية لاقامته في هذه المدينة التي أصبحت تتأجج حقداً على أسرته، ففكر راجعاً إلى الدلاء.

هكذا انفسح المجال أمام القائد أبي عبد الله الدريدي (5) ليتزعم أمر فاس الجديد، ويعمل باتفاق مع رئيسي العلوتين في المدينة القديمة على الاستقلال بالامر في هذه المنطقة، وقطع كل علاقة لهم بالدلائيين. ولم تمض سنتان على هذا الانفصال حتى قام الدلائيون بمحاولة استرجاع العاصمة الادريسية، وقاد الأمير عبد الله الدلائي جيشاً قوياً زحف به إلى فاس (رمضان 1072/ماي 1662) وحاصرها عشرة أيام دون أن تفتح له أبوابها، أو يجرؤ قوادها على مبارزته وقتاله، فلم يجد عبد الله بداً من الرجوع على عقبه بعد أن أهلك حرث الفاسيين وأفسد زرعهم خارج المدينة.

(5) أبو عبد الله الدريدي كان رئيس جماعة من إخوانه دريد من العرب الهلالية في ديوان السعديين إلى أن دخلت فاس في طاعة الدلائيين، فانخرط الدريدي وقومه في جندهم وظلوا يرباطون في هذه المدينة مع حاميتها إلى أن ثاروا على الدلائيين عام 1660/1070.

المرحلة الثانية (1073.1074 / 1663.1664)

عادت فاس في هذه الفترة تلقائياً إلى طاعة الدلائيين. إذ لم يكن للدريدي ومن معه من الرؤساء المستبدين من الكفاية السياسية والحرية ما يؤهلهم للنود عن المدينة وأهلها، ولرد عادية المغيرين عليها. خصوصاً في تلك الفترة التي كانت الفوضى ضاربة أطنابها في المغرب بصفة عامة، لا سيما في المناطق التي أخذ ظل الدلائيين يتقلص منها. فخرجت جماعة منهم إلى الدلاء تعتذر للسلطان محمد الحاج عما بدر منهم من عناد وعصيان، وترجوه أن يعيد الأمن والطمأنينة إلى مدينتهم التي أصبحت تعيش في جو من الخوف والاضطراب. وفعلاً خرج السلطان محمد الحاج إلى قرية أزرو (صفر 1074 / شتبر 1663) وضرب خيامه فيها حيث مكث نحو شهر ينظر في شؤون الرعية، ويتخذ الاجراءات الكفيلة بتأمين السبل وحفظ النظام في الأقاليم التابعة له. وجاءته وفود القبائل، «وخرج شرفاء فاس وعلمائها، وخطيبها وأعيانها، بقصد التهئة له والتسليم عليه، والاستعفاء من أذية جنوده. فأكرمهم وحزى وفادتهم، ورجعوا إلى فاس مكرومين (كذا) مسرورين. وأقام هنالك في إصلاح أحوال الرعية وتمهيد البلاد الى الشتاء، ورجع الى الدلاء. وكان رجوعه أول ربيع الاول، فانخط القمح والأسعار بسبب إقامته هناك، وأمنت الناس والطرق من القطع والنهب والقتل...»(6).

وقد ولي السلطان محمد الحاج على عدوة فاس الاندلس أحمد بن صالح الليرني، وابن الصغير على عدوة فاس القرويين، وأسند القضاء الى الفقيه أبي عبد الله المري التلمساني.

ج قضية البلديين في فاس(7)

البلديون أو المهاجرون (كذا) هم اليهود الذين أسلموا في فاس بعد الفتنة التي استبيحت فيها دماؤهم وأموالهم بهذه المدينة عام 1275/674 — 1276. وقد كف السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني (1286.1259/685.657) أيدي الناس عن اليهود وأسكنهم حيّ الملاح المجاور للمدينة البيضاء (فاس الحديدي) التي أسسها في تلك السنة واتخذها دار ملكه. واندمج البلديون في حياة المسلمين واشتغلوا بحرفهم، وعمروا أسواق المدينة. لكن ظهر منهم الغش والخيانة في البيع والشراء فمُنِعوا من تعمير الأسواق في فاس وظلّوا منبوذين كذي قبل طيلة أيام السعديين.

وقد شغلت مسألة البلديين الفاسيين علماء المغرب دهرًا طويلًا، وبلغ عدد الفتاوي التي أقرت منعهم من مزولة التجارة في أسواق المسلمين اثنين وخمسين، بينما أفتى علماء آخرون بعدم مشروعية حرمان هذه الطائفة من المسلمين من الكسب والاتجار — مهما كان أصلها — لأن الاسلام يُجِبُّ ما قبله. وألف الشيخ محمد بن أحمد ميارة(8) كتابًا سماه نصيحة المغتربين، وكفاية المضطرين، بالفرقة بين المسلمين، بما لم ينزله رب العالمين، ولا خبر به الصادق الأمين، ولا ثبت عن الخلفاء المهتدين. «جمع فيه فتاوي من قال بالاباحة، وأسقط فتاوي من قال بالمنع، وهو الأكثر عددًا وعدالة وعدة، ثم أتبع تلك الاجوبة بما ظهر له بحسب رأيه من الاخذ والقياس. وذلك الاخذ أكثر خطأ، والقياس غير محكم»(9).

(7) ألف أبو القاسم الزياتي كتابًا سماه قصة المهاجرين المعروفين اليوم بالبلديين بفاس، ذكر فيه تاريخ البرد في فاس منذ أسسها المولى إدريس الثاني، وسيرة من أسلم منهم الى عصره. ويحيط باسم مؤلف هذه القصة غموض، إذ نجد بعض النسخ غفلا من اسم المؤلف، بينما ينسبها البعض لاحد الفاسيين. ويرى الاستاذ محمد إبراهيم الكتاني أن مما يشكك في نسبتها للزياتي كونه بربريا ينكر ما يراه العرب لانفسهم من فضل على غيرهم، وتقريظه لكتاب في الانتصار للبلديين إذ لو كانت فكرته ضدهم ما قرظه.

(8) الشيخ محمد ميارة استاذ الزوئية اللائية وصاحب الشرح المشهور على المرشد المعين تقدمت ترجمته في الباب الثالث. وقد تعامل عليه الزياتي في قصة المهاجرين وقال عنه إن أصله يهودي.

(9) أبو القاسم الزياتي قصة المهاجرين، ص 481.

وفي هذه الفترة التي تُوْرخها (1073.1074) قام البلديون بمحاولة الرجوع الى الاتجار في أسواق فاس، وشكوا أمرهم الى القاضي ابي عبد الله المري وقدموا له فتاوي الفقهاء الذين يبيعون مشاركتهم سائر المسلمين بالبيع والشراء، وأعطوه هدية له وأخرى للسلطان محمد الحاج الدلائي، وطلبوا من القاضي أن يستأذن لهم السلطان على أن يجعلوا لهما خراجاً سنوياً مقابل ذلك. فبعث بالهدية والموافقة الى الدلاء، غير أن محمداً الحاج كان يعلم تاريخ الفتاوي في القضية خصوصاً من والده الذي كان مقيماً مدة بفاس يقرأ على القصار، وكتب لقائده احمد بن صالح بتفصيل القضية، وأمره ألا يترك المري يفعل ما أراد هو والمهاجريون. فجمع القائد أحمد بن صالح أعيان فاس وقرأ عليهم كتاب الأمير فساروا الى المري ووخوه ومنعوه من القضاء أياماً، ولولا خوفهم من محمد الحاج لقتلوه ونهبوا داره، لأجل ما كان بين الفريقين من البغضاء القديمة» (10).

المرحلة الثالثة (1074.1076 / 1664.1666)

لم تكبد ترجع وفود الفاسيين من أزرو ويرد خبر ارتحال السلطان محمد الحاج إلى مدينة الدلاء، حتى ظهرت نعة الانفصال من جديد عند القائد الدردي والي فاس الجديد. غير أن سكان المدينة الادريسية لم يوافقوه على ذلك، وظلوا على وفائهم للدلائيين، سواء منهم أهل علوة فاس الأندلس أو علوة فاس القرويين. وكان الذي تولى أمر معارضة الدردي والوقوف في وجهه هو صهره رئيس الاندلسيين أحمد بن صالح اللبرني. وقد كوّن القائد الدردي عصابة من المقاتلة للقيام بأعمال اللصوصية والنهب، فأخذ يغير على قبائل بسيط سايس وقراها ومداشرها، ويصل الى زرهون ومكناسة الزيتون «ويأتي بأمتعتهم وأموالهم ومواشيهم الى فاس الجديد وبييعها. وكثر القطع والنهب والقتل بسبب ذلك، وانقطع السفر في الطرق. ويخرج أهل فاس العليا (11) الى لقائه بالطبول والغوايط (12) وكثر النكير عليه بفاس الادريسية من الاشراف والفقهاء وأعيان الناس» (13).

(10) أبو القاسم الزباني، قصة للمهاجرين، ص 480.

(11) المراد بفاس العليا (فاس الجديد).

(12) (الغوايط) في اللغة الدارجة المغربية نوع من المزمار الشعبية والمفرد (غيط).

(13) محمد القادري، نشر اللطاني، 2 : 145.146.

انقطعت الصلات بين مدينتي فاس القديمة والجديدة، وتطور الخلاف بينهما الى القتال، وجرت خطوب هلك فيها عدد كبير من الناس. ورأى السلطان محمد الحاج الدلائي أن يردع الدريدي الثائر، فجهز كتيبة قوية من فرسان قبيلة مجاط الى بلاد سايس، ترصدت للدريدي وعصابته حتى إذا خرجوا من فاس وابتعلوا عنها هجم عليهم المجاطيون وحكموا السيوف في رقابهم، ولاذ أفراد العصاة بالفرار ونبعهم فرسان مجاط يطاردونهم الى أبواب فاس، وبقوا يحاصرونهم في المدينة الجديدة أياما. وشكر القائد المجاطي أهل فاس الادريسية على وفائهم وعدم انسياقهم مع العصاة، وظل على اتصال بهم طيلة مدة الحصار إلى أن رجع الى الدلاء. وبقي أهل فاس القديمة على ولائهم للدلائيين الى قيام الدولة العلوية كما سنرى في فصل آت.

2 — الثورة ضد الدلائيين في سلا والرباط

أ) عوامل الثورة

لم تكن هناك خلافات — على ما يظهر — بين الامير عبد الله الدلائي وبين رئيسي العلوتين وسكانهما، بل بالعكس كانت الثقة متبادلة بين الأمير ومساعديه، فهو ينيهم عنه في المفاوضات مع الاجانب ويدافع عن مصالحهم لدى الدول الاوربية، ولم يكن عبد الله الدلائي يرهق كاهل المواطنين بالالتاوت والمغارم لاستغنائه بالضرائب المفروضة على الصادرات والواردات في الميناء، ولا يؤديها في الغالب الا التجار والبحارة الاجانب. هذا بالاضافة الى العمل التجاري الضخم مع أقطار المغرب الكبير الذي يشترك فيه كل من الامير الدلائي وأعيان العلوتين ورؤساء السفن. فما هي ياترى الاسباب التي دعت الى الانقلاب في سلا والرباط؟ وكيف تم تنظيم الثورة والامير الدلائي حاضر يراقب الامور عن كثب؟ للاجابة عن هذين السؤالين ينبغي أن نرجع الى الوراء قليلا لتذكر الحالة التي أدت الى تدخل الدلائيين في شؤون العلوتين خلال عامي

1641.40/1051.50. فعندما كان المجاهد العياشي يحاصر الموريسكيين في القصبة جمع محمد الحاج الدلائي من حوله رؤساء قبائل الغرب الذين كانوا ينافسون العياشي، ووقع إغراء الأعراب للتقاعس عن نصرته المجاهد واغتياله. وتم للدلائيين ما أراحوا من السيطرة على بلاد الغرب كلها، لكن هذا الانتصار لم يكن في الحقيقة إلا عابراً، كما لم يكن خضوع القبائل الا ظاهراً، إذ كان حب العياشي وتقديره متمكناً من نفوس مساعديه وأنصاره، فلم يستسلم قط عبد الله العياشي ولا الخضر غيلان، وظلا يناصبان الدلائيين العداء جهاراً، ويناوشانهم في كل مناسبة. هذا الى ما كان من وحشة الموريسكيين ونفرتهم من الامير عبد الله الدلائي بعد أن حاصروهم في القصبة وطردوهم منها وانتزع من أيديهم السلط الحقيقية غير تارك لديوانهم الا مسائل ثانوية تافهة. فقد كان هناك إذن خصوم للدلائيين من الاعراب والموريسكيين أغراهم انتصار الخضر غيلان في الشمال، فجمعوا شتاتهم ونظموا الانقلاب في جو من التكلم التام. ولم تتحدث المصادر العربية عن هذه الثورة التي قامت في العلوتين الا عرضاً وإشارات خاطفة، ولم نتعرف على بعض التفاصيل الا بواسطة المراسلات التي وجهها قناصل الدول الاجنبية المقيمون في سلا آنذاك إلى حكوماتهم، ولا سيما القنصل الهولاندي دافيد دوفريس الذي عاش تلك الاحداث، وعبر نهر أبي رقراق تحت وابل الطلقات النارية للثوار (14).

(ب) حصار عبد الله الدلائي في القصبة

في يوم هاديء من أيام شهر جمادى الاولى عام 1070 / فبراير 1660 بينما كانت الحالة تسير سيرها العادي في العلوتين، والبحارة يشتغلون في المرفأ ليخرجوا إلى عرض البحر سفينة محملة بالسلع في ملك أمير سلا وأعيان التجار لتتجه الى الجزائر، وفي نفس الوقت الذي كان الامير الدلائي يستقبل القناصل في قصره المطل على نهر أبي رقراق، إذا بالمدافع تقصف قصفاً مزعجاً متوالياً. والبنادق العديدة تطلق نيرانها دفعة واحدة إيذاناً بنشوب الثورة. وكانت القبائل العربية

(14) انظر نص الرسالتين التي بعث بهما دوفريس الى الولايات العامة حول ثورة العدةتين عند

De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 6 : 613 - 616

المجاورة لسلا والرباط على موعد مع هذه الاشارة، فأعلنت العصيان على الفور، وحملت السلاح ضد الدلائيين. وقام الرباطيون بمحاصرة الامير عبد الله في القصة بينما أخرج السلاويون مدافع العياشي الضخمة ونصبوها على ضفة النهر وبدأوا يطلقون النار على القصة، ولم تتمكن مدافع الرباطيين من إصابة حامية الحصن لانخفاض أرضهم فكثروا التراب إلى أن جعلوه عالياً كالأبراج، وبدأوا يُصلُّون القصة بنيران مدافعهم. وكان مع الامير عبد الله الدلائي داخل الحصن ألفان من جنود البربر، ردوا بالمثل على هذا الهجوم المفاجيء، وصوبوا مدافعهم شمال النهر وجنوبه وقاوموا في نفس الوقت السلاويين والرباطيين. ولم تتضرر مدينة سلا لبعدها عن مرمى مدافع القصة، بينما هلك كثير من الرباطيين بالقنابر التي كانت تقذف بها مدافع الدلائيين وسط الشوارع والساحات. وبلغت أخبار الانقلاب الى السلطان محمد الحاج الدلائي فجيش الجيوش وقصد سلا، لكنه وجد الخضر غيلان قد سبقه الى الميدان، ومن حوله أعراب الغرب، وكانت الدائرة على محمد الحاج، وبقي ابنه عبد الله محاصراً في القصة ثمانية عشر شهراً أظهر خلالها بطولة نادرة وجلداً كبيراً.

ج) هل نحاول الدلائيون تسليم القصة إلى دولة أوربية ؟

تقول بعض الروايات الأوربية إن عبد الله الدلائي لما طال عليه الحصار في القصة، وأيقن أن أباه لن ينجده، لجأ الى الأوروبيين ليملوه بالميرة والذخيرة ويساعدوه على فك الحصار. وتتضارب هذه الروايات، فيزعم بعضها أن عبد الله الدلائي طلب المعونة من حاكم سبتة الاسباني المركيز ديلوص أركوص واقترح عليه أن يسلم قصة سلا إلى ملك إسبانيا فليب الرابع، مقابل أن يُحمل فقط الى الجهة التي يريد النزول فيها من شواطئ المغرب، لكن إسبانيا التي كانت مرتبطة بحلف صداقة مع الخضر غيلان، أخبرته بهذا الاقتراح، فأشار عليها برفضه لما كان يعلم من حرج موقف خصمه (15). وتقول رواية أخرى إن عبد الله الدلائي

أرسل الى حاكم طنجة الانجليزي الكونت دي طيفيو (Le Conte de TEVIOT) يطلب منه الزاد والمعونة. وكان هذا الحاكم يخشى غيلان ويعرف رغبته في الاستيلاء على مدينة طنجة؛ لذلك رحب بمبعوثي الامير عبد الله الدلائي، وبعث إليه بسفينة محملة بالطعام والذخيرة الحربية. فمكنت هذه الاغاثة القصبة من أن تتحمل الحصار مدة طويلة. ثم جاء أسطول إنجليزي بمدد آخر إلى القصبة، فاقترح الامير عبد الله الدلائي على قائد هذا الاسطول أن يسلم اليه سلا مقابل ألف قنطار من مسحوق البارود، وألف بندقية(16). على أن التعليمات السرية التي وردت على حاكم طنجة الكونت دي طيفيو من حكومته في 21 دجنبر 1663 (جمادى الاولى 1074) لم تشر الى هذا العرض المزعوم، وإنما طلبت منه أن يمتلك قصبة سلا حالة ما اذا طلب منه الدلائي ذلك مقابل شروط معقولة، وأن يبذل المجهود حتى لا يقع هذا الحصن في يد الخضر غيلان(17) ويبدو أن كلتا الروايتين لا أساس لهما من الصحة، أما الأولى التي تقول بمدد الامير عبد الله الدلائي يده الى الاسبانيين فإن ذلك مُنافٍ للعدولة الصريحة القائمة بين الطرفين باستمرار. وما زلنا نذكر جهاد هذا الامير ضد الاسبانيين في العمورة، ومحالفته للدول الاوربية المعادية لاسبانيا، كهولاندا، وإنجلترا، وفرنسا، ولم يثبت أنه هادن الاسبانيين أو عاملهم بالتجارة أو غيرها. فكيف يُتصور أن يلجأ الامير الدلائي إلى علوه اللدود في أخرج الظروف يرجو منه العون والنصرة؟! وفيما يتعلق بالمساعدة الانجليزية، يبدو من المعقول جدا أن يتوجه الامير الدلائي الى هذه الدولة التي يمكن أن يستنجد بها. لكن مسألة تسليم القصبة الى الانجليز مقابل كمية من الذخيرة الحربية تنقصها الحجة والبرهان. ولا يمكن الاعتماد على ما جاء في التعليمات السابقة التي وردت على الكونت دي طيفيو، لأنها إنما تتحدث عن احتمال تقدم الدلائي باقتراح تسليم القصبة إلى إنجلترا لا عن وقوع ذلك بالفعل. هذا بالاضافة الى أن الامير عبد الله الدلائي كان قد خرج من القصبة قبل ورود هذه التعليمات بنحو عامين ونصف، إذ استطاع أن يفلت من الحصار المضروب عليه في شهر

16) Mission Scientifique du Maroc; Villes et Tribus, Rabat et sa Région) 1 : 84

17) Archives Marocaines, 18 29.

شوال 1071 / يونيه 1661 ويغادر الحصن خلصة إلى تامسنا على ظهر سفينة انجليزية(18) بعد أن أسند القيادة إلى أحمد الجنوي الذي تابع مقاومة الحصار الى فصل الربيع من عام 1074 / 1664. وكان الرئيس غيلان قد مل هذا الحصار الطويل، فأرسل أخاه الطاهر في ثلاثمائة فارس ليوقع اتفاقا مع رؤساء مدن أبي رقراق الثلاث كي يقتسموا بالسوية جميع المداخل «وفي 3 ماي 1664 قطعت القصبة كل علاقة مع الزاوية الدلائية ودخلت في حماية غيلان الذي أقر أحمد الجنوي في منصبه ثم سَمَّوه فمات»(19).

هكذا ترك الدلائيون مكهرين مدن أبي رقراق بعد أن ظلوا فيها نحو ربع قرن، كانوا فيه أصحاب الحكم المطلق والسلطان الذي لا يُحد، ونعموا بكثير من الثراء والجاه، ورهبتهم الدول الأجنبية وخطبت ودهم عن طريق المعاهدات، ولقوا نفس المصير الحزن الذي لقيه العياشي على يدهم، فذاقوا ألم الحصار أعواماً، وتركوا في الميدان ألوف القتلى واكتفوا من الغنيمة بالأياب.

3 - القضاء على الزاوية الدلائية - تخريبها

أ) ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوي

كان للشريف بن علي جد الملوك العلويين الحاليين منزلة رفيعة وحظوة كبيرة عند السجلماسيين، وكان له أولاد عديلون، أكبرهم المولى محمد الذي تزعم بلاد تافيلالت ودرعة منذ منتصف القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد، بعد أن طرد منها أبا حسون السملالي، وجرت بينه وبين الدلائيين من أجل تحديد مناطق النفوذ وقائع حرية عديدة سبقت الإشارة إليها. ولما تُوفي الشريف بن علي (رمضان 1069 / يونيه 1659) خرج ابنه الرشيد من

18) De Castries, Les Sources Inédites, Pays-Bas, 5 27

19) نفس المصدر والجزء، ص 28. وأحمد الجنوي هذا لعلة من أبناء الأمين سعيد الجنوي الحاكم السابق لمدينة سلا وخليفة الأمير عبد الله الدلائي.



أقرب مثال لصورة السلطان الرشيد بن الشيف العلوي

تافيلا لت فاراً من أخيه السلطان محمد بن الشريف، لمنافسة كانت بينهما. وظل الرشيد يتنقل في جبال الأطلس الكبير والمتوسط الى أن وصل إلى الزاوية الدلائية، وأقام بها أياماً. وتقول بعض الأساطير إن أحد الدلائيين أخبر الرشيد بأنهم عرفوا من بعض الاخباريين (20) أن إخلاء زلويتهم سيكون على يد سلطان يسمى الرشيد، وطلب منه أن يغادر الدلاء عاجلاً مخافة أن يصيبه أذى من رؤسائهم بسبب ذلك. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي حل فيها الرشيد بن الشريف بالزاوية الدلائية، فقد سبق له أن أقام بها مدة يدرس العلم أيام الطلب (21) وزارها مرة أخرى مع إخوته عندما سجن أبو حسون السملالي أباهم الشريف بن علي في سوس، وكانوا يرغبون في وساطة الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي لإطلاق سراح والدهم الأسير.

خرج الرشيد بن الشريف من الزاوية الدلائية، وسار إلى فاس وتازا، وانتهى به المطاف إلى حصن اليهودي الري ابن مشعل في أرض بني يزناسن شمال غربي وجدة، «فقتله وأخذ أمواله وذخائره وفرقها فيمن تبعه وانضاف إليه، فتقوى بذلك عضده وتوافر جمعه وتناقل الركبان حديثه» (22) وسارع السلطان محمد بن الشريف إلى ملاقة أخيه الرشيد حين بلغه اجتماع قبائل المغرب الشرقي عليه، وكان اللقاء بين الأخوين في بسيط أنكاد (23) غربي وجدة، ولم تكد تنشب المعركة حتى خر السلطان محمد بن الشريف صريعاً (محرم 1075/غشت 1664) وانضم جنده إلى أخيه الرشيد، فتقوى أمره وتقدم إلى تازا فملكها بعد حروب عصية وصفا له المغرب الشرقي كله، وبايعه أهله على السمع والطاعة. ثم قصد سجلماسة، وكان قد تزعم أمرها ابن أخيه محمد الصغير، فحاصرها سبعة أشهر إلى أن فتحها وانبسط نفوذه على شرق المغرب وجنوبه.

(20) يرد بالأخباريين الكهان الذين يزعمون الاطلاع على أحداث المستقبل وينبئون بالغيب.

(21) عبد الودود التازي، نزهة الاخيار للرزيين، ورقة 7/ب

(22) محمد الصغير الافرائي، نزهة الحادي، ج 1، 301 — 302.

(23) ذكر محمد الحجوي في رحلته الخطية، ص 78، بسيط أنكاد فقال «هو سهل متسع بين الجبل الشمالي أعني بني يزناسن، والجبل الجنوبي وهو من جبل درن أعني جبل بني بوزكوا والزكاة وبني يعل. وابتداءً غرباً من قصبة عيون سيدي ملوك إلى وجدة شرقاً. وسكان هذا السهل عرب رحالة من اصحاب الحيام».

ب) استيلاء الرشيد على فاس

لما علم الفاسيون بنبأ ظهور الرشيد بن الشريف وانتشار نفوذه، عقدوا حلفاً مع جيرانهم الحباينة والبهاليل وغيرهم من القبائل العربية، ليقفوا في وجهه ويمتنعوا عليه، «وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والإكثار منها، ووظفوا على كل دار مكحلة (بندقية) ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب. فاشترى من ذلك فوق الكفاية...» (24) وحاول الفاسيون أن يغزوا السلطان الرشيد في تازا ويبادروه بالحرب قبل أن يتوجه اليهم، لكنهم ما كادوا يقابلون محلته حتى انهزموا من غير قتال، وطاردهم السلطان الى قنطرة نهر سبو خارج مدينة فاس. وقد قضى الرشيد عام 65/1076 — 1666 كله في حصار فاس وقتالها دون جدوى، ولم يتسرع الدخول اليها الا بعد أن عقد اتفاقاً سرى مع بعض أعيانها الذين مهلوا له السبيل، وذلّلوا خصومه وأبعدوهم عن المدينة، في أخبار طويلة (25) هذا محملها

كان للرشيد وزيران يعتمد عليهما، هما أخوه الحران، وابن أخيه أحمد بن محرز، وقد نصحاه بأن يتخذ واسطة يكون بينه وبين أهل فاس، ودلّاه على أحمد بن الشيخ عبد الرحمن الفاسي صاحب الزاوية التي بحمي القلقين لما كان له من الواجهة عند قومه. فأرسل اليه الرشيد بعض خاصته سرا ووعدته ومناه. فقبل أحمد الفاسي أن يقوم بالدعوة للعلويين، واتفق مع طائفة من أعيان المدينة الادريسية على التخلص من أحمد بن صالح الليريني حاكم المدينة من قبل الدلائين. وبذلك اتجه السلطان الرشيد لحصار فاس الجديد واستطاع بمساعدة بعض السكان أن يصعد على السور من جهة الملاح ويدخل الى المدينة ويقبض على رئيسها أبي عبد الله الدريدي. واتفق ابن صالح مع أهل فاس القديم على أن يسير هو الى السلطان محمد الحاج الدلائي ليأتي بجيش من البربر يساعدهم على مدافعة خصمهم، وخرج الحاكم الليريني ليلاً في عشرة من الفرسان من باب الفتوح واتجه نحو خولان (26) في طريق صفرو ليلتحق منها بمدينة الدلاء. غير أن الرشيد الذي

(24) أحمد الناصري، الاستقصا، ج 7 ص 33.

(25) ذكر هذه الاخبار مفصلة عبد السلام بن الخطاط القادري في الصفة القادرية، 150:2 وما بعدها

(26) بلاد خولان هي التي فيها حمة سيدي حرازم بضاحية فاس.

أشعر بذلك اعترض طريقه في الفي فارس وقبض عليه في منتصف الليل، ثم أصبح على أبواب المدينة القديمة يعلن للفاسيين أسره للحاكم ويطلب منهم أن يبايعوه على أن يحسن معاملتهم، ويصفح عن إساءتهم. فلم يجد الفاسيون بداً من الاستسلام والخروج إلى السلطان الرشيد، فبايعوه وقدموا له مراسم الولاء والطاعة. وبعد ذلك قتل ابن صالح شر قتلة في جماعة من اتباعه وأصحابه، وانتهت أموالهم وأمتعته، وبيعت عقاراتهم وضمت إلى بيت المال، بعد أن شهد نحو 26 من العلماء باستغراق ذمهم. وكافأ السلطان الرشيد داعيته أحمد الفاسي بأن صرف إليه فتوحات أبي الحسن بن جرزم بعد أن انتزعها من يد القادرين. وكان للدلائين بالقرب من فاس مركزان هامين، أحدهما مدينة صفرو التي يجاورها برابرة أيت يوسي، والثاني مدينة مكناس التي يرابض على أبوابها برابرة أيت ولال. وقد هجم السلطان الرشيد أكثر من مرة على صفرو دون جدوى، وأمكنه أخيراً أن يستولي على مكناسة الزيتون وينتصر على الولالين.

(د) معركة (بطن الرمان) — تخريب الزاوية الدلائية

في الوقت الذي توالى فيه انتصارات السلطان الرشيد بن الشريف العلوي كان أمر محمد الحاج الدلائي في إدبار، فقد بلغ من الكبر عُتياً، وأصاب مرض السادة إحدى عينيه، وفقد أبناءه ما عدا عبد الله، ولم يكن لإخوته وبنو عمه أبطال حرب وكفاح، وإنما كانوا رجال علم ودين، فضعفت القيادة الحربية للدلائين وإن بقيت قبائل الاطلس الباسلة وفيه لهم. وماذا ياترى يستطيع رجل بلغ الثمانين من عمره أو قاربها أن يعمل في الميدان؟ وماذا يمكنه أن يصنع في ترتيب الجيوش وتجهيزها وقيادتها؟ الحقيقة أن كل شيء كان خلال عام 1668/1078 ينذر بقرب حلول الكارثة بالإمارة الدلائية، جاء السلطان الرشيد واستولى على المغرب الشرقي ومدينتي فاس ومكناس. وعثاً لحاول محمد الحاج أن يقاوم هذا التيار الجارف، فخرج على رأس جنده من البربر وقصد خصمه الرشيد في سهول سايس، والتقى الجمعان على ضفة نهر بومزورة أحد روافد وادي فاس «فتقاتلا قتالا خفيفاً نحو ثلاثة أيام ثم رجع محمد الحاج إلى الدلاء» (27).

(27) محمد القادري، نشر الثاني، 169:2.

تجلى للسلطان الرشيد في هذه المناوشات ضعف اللاتيين وعجزهم، فتوجه اليهم في جموع كبيرة، ولم يعترض طريقه أحد حتى أشرف على الزاوية اللاتية ولم يعد يفصل بينه وبينها إلا نحو 25 كلم. فوجد اللاتيين مُجمعين على حربه في سهل (بطن الرمان)(28) بقيادة أحد أبناء محمد الحاج(29). ودارت المعركة الفاصلة بين اللاتيين والعلويين في الايام الاولى من عام 1668/1079 ولم يصمد البربر إلا قليلا ثم تراجعوا مهزومين، فتبعهم الرشيد إلى أن نزل على أبواب مدينة الدلاء. ويصف لنا أبو علي اليوسي عن مشاهدة هذه الفترة العصبية من حياة الزاوية اللاتية المحتضرة ويذكر حال السلطان محمد الحاج بقوله «فدخلنا عليه وكان لم يحضر المعركة لعجزه من كبر سنه، فإذا بالفل يدخلون، فدخل عليه أولاده(30) وإخوته، وأظهروا جزعاً شديداً وضيقاً عظيماً، فلما رأى منهم ذلك قال لهم ما هذا؟ إن قال لكم حسبكم فحسبكم، يعني الله تعالى. وهذا كلام عجيب، وإليه يساق الحديث. والمعنى إن قال الله تعالى حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين»(31).

ثم خرج محمد الحاج لملاقاة السلطان الرشيد وسأله عما يريد فأجابه الرشيد بأنه يريد الملك. فقال محمد الحاج (هو الآن في محله) وبايعه ودفع له

(28) يكشف الزاوية اللاتية موضعان يحمل كل منهما اسم الرمان. ففي شمال الزاوية اللاتية بطريق خيفرة يقع السهل الذي تسميه قبائل زيان(بورمان) وهو الذي نرجح أن المعركة دارت فيه، لوقوعه على الطريق الطبيعية التي يمكن أن يسلكها الرشيد من فاس إلى الزاوية اللاتية. ويوجد جنوب مدينة الدلاء في طريق قصبة تادلا مكان يسمى (بطن الرمان) تقوم فيه اليوم قرية زاوية الشيخ. ويعد أن يكون جيش العلويين قد سلك طريق الغرب التي تبلغ مسافتها ضعف مسافة الطريق الأولى، لا سيما وأن بلاد الغرب وتامنا وتادلا لم تكن قد دخلت بعد في طاعة السلطان الرشيد، ولا يمكن أن نفترض اختلاط الاسمين على بعض المؤرخين، لأن الامام اليوسي وهو البربري الذي لا تخفى عليه مواقع يثته ولا تلتبس عليه أسماؤها قد عبر في المحاضرات عن ميدان المعركة بطن الرمان، وعنه نقل ذلك سائر المؤرخين. فلم يبق إلا أن نفترض أن (بورمان) كان يسمى آنذاك بطن الرمان، أو أن اليوسي تصرف قليلا وأدخل كلمة (بورمان) في قالب عربي.

(29) لم يبق حيا من أبناء محمد الحاج في هذا التاريخ إلا عبد الله. بينما تعبر جل المصادر عن قائد معركة بطن الرمان بأنه أحد أبناء محمد الحاج، إلا أبا القاسم الزياتي فإنه قال في الترجان، (ص 373) «فلقي محلة أهل الدلاء مع ولد محمد الحاج» وهو عبد الله.

(30) لم يبق لخميد الحاج من الأولاد في هذا التاريخ إلا عبد الله كما سبق، ولعل اليوسي يقصد بالأولاد ما يشمل الاحفاد أيضا.

(31) الحسن اليوسي، المحاضرات، ص 86-87.

•
بعض المال. وقد مكث الرشيد في الدلاء شهراً ونصف شهر (8 محرم — 22
صفر 1079/17 يونيو — 30 يوليو 1668) واستولى على ما كان في عاصمة
الدلائين من مال وذخيرة وخيل وسلاح، وأخذ ما في الخزائن من الكتب والوثائق،
وما في الحظائر من الماشية والدواب، ولم يترك للدلائين إلا ما لا غنى لهم عنه،
وأمرهم بالرحيل إلى فاس. ثم أعمل المعاول والفؤوس في مباني المدينة، وهدم ما
استطاع أن يهدمه منها وتركها خراباً موحشة. ثم صعد إلى الزاوية الدلائية القديمة
وفعل بها ما فعل بالزاوية الحديثة. وكانت مبانيها أقل متانة وصلابة، فهدمها كلها
وطمس معالمها، وتركها قاعاً صفصفاً كأن لم تُغْن بالامس، ولم يترك منها إلا القبتين
المشيدتين على ضريح الشيخ أبي بكر الدلائي وابنه محمد في جوف المسجد.

الباب السابع

أثر الدلائين في خارج زاويتهم

1 - خروج الدلائين الى فاس

- أ) تغريب الدلائين الى تلمسان
- ب) ثورة أحمد الدلائي على السلطان اسماعيل

2 - العلماء الدلائون في فاس ومكناس

- أ) محمد المسناوي الدلائي شيخ الجماعة بفاس
- ب) تلاميذ الدلائين في فاس

3 - الكتب التي ألفها الدلائون

- أ) جدول مؤلفات الدلائين
- ب) جدول الكتب التي ألّفت في الدلائين

4 - بقايا البيت الدلائي

- أ) مساكن قبيلة مجاط اليوم
- ب) أحفاد الدلائين في فاس والدار البيضاء والرباط

1 - خروج الدلائين إلى فاس *

لما استولى السلطان الرشيد على الزاوية الدلائية، أخرج منها جميع من كان فيها من السكان وأجلاهم عنها، فرجع العلماء والطلبة والتجار إلى مساقط رؤوسهم، وتفرقوا في جبال الأطلس وعلى ضفاف ملوية، أو في بلاد تادلا وضواحي مراكش، وتوجه الدلائيون، ومعهم الامام اليوسي، بأمر من السلطان الرشيد إلى فاس، ولم يحدد لهم مكانا معيناً يقيمون فيه بهذه المدينة، فسكنوا حيث أمكنهم السكن، واختلطوا بعامّة الناس، وكان لهم كثير من الأصدقاء والأصهار من بين البيوتات الكبيرة في فاس، مثل القادريين والظاهرين وغيرهم. وقد أقرهم السلطان الرشيد في منازلهم التي اختاروها بعد رجوعه من مراكش، ثم بدا له في شهر رمضان من نفس السنة (1079) أن يخرج طائفة من الدلائين إلى ضريح أبي الحسن بن حرزهم (حرازم) بظاهر فاس، حيث بقوا هنالك إلى آخر السنة، فعفا عنهم وسمح لهم بالدخول إلى المدينة (1) ما عدا محمداً الحاج وبنيه فإنه أمرهم بمغادرة المغرب والالتحاق ببلاد الجزائر.

أ) تغريب الدلائين إلى تلمسان

خرج محمد الحاج وعشيرته الأقربون إلى تلمسان في مستهل عام 1669/1080 ونزلوا بحرم العباد الذي فيه ضريح الشيخ أبي مدين الغوث. وهناك أسطورة تقول إن محمداً الحاج اغتم كثيراً عندما وجد نفسه حاملاً مهملاً لم يعباً

* يشمل هذا الباب على استطرادات موجزة خارجة عن نطاق عصر الزاوية الدلائية، لكنها ضرورية للامام بالطورات الطارئة على أبناء هذه الزاوية حتى عصرنا الحاضر.

(1) ذكر أحمد الناصري في الاستقصا (7:39) أن السلطان الرشيد أخرج الدلائين إلى ضريح الشيخ ابن حرزهم «فغفا عن الجميع وردهم إلى بلادهم الأ...» وهذا سبق قلم لأنه لم يسمح لأحد من الدلائين بالرجوع إلى بلاد. خصوصاً أيام الرشيد. وربما وقع له التباس بقضية آل زلوية أيت عياش، فهم الذين غرهم الرشيد إلى فاس، ثم أذن لهم المولى إسماعيل بالرجوع إلى ديارهم على إثر توليه الملك. على أن محمداً القادري نص في نشره الثاني (2:182) على أن الرشيد ساع الدلائين في آخر العام «وردتهم إلى فاس جميعاً».

به أحد من التلمسانيين، كأنه لم يكن إلى زمن قريب سلطاناً نافذ الأمر عزيز الجانب، فقال لبعض ذويه «كنت وجدت في بعض كتب الحدثن أنني أدخل تلمسان، فظننت أنني أدخلها دخول الملوك، فدخلتها كما ترون!» (2) وكانت مدينة تلمسان خاضعة إذ ذاك للأتراك العثمانيين الذين تربطهم بالللائين أواصر الود والصداقة. وقد رأينا في الباب السادس بعض جوانب التقارب اللائي — التركي، لا سيما في ميدان التبادل التجاري، والتعاون في الجهاد البحري ضد المسيحيين، فكان ميناء سلا مفتوحاً باستمرار في وجه قراصنة الجزائر العاملين في المحيط الأطلنطيقي، ياخذون منه المؤونة المذخيرة، ويحملون اليه غنائمهم للبيع، أو يلجأون اليه من عواصف المحيط الهوج أو من غارات الاعداء ومطاردتهم. كما كانت موانئ الجزائر كثيراً ما تستقبل السفن التجارية للأمير عبد الله اللائي، ومراكب المجاهدين السلويين والتطوانيين. وزاد في التقارب بين الللائين وأنراك الجزائر اتفاقهم في خصومة العلويين ومناصبتهم العداء. فمنذ طلوع محمد بن الشريف من تافيلالت الى المغرب الشرقي في أواسط القرن الحادي عشر الهجري، وهجومه على تلمسان وتوغله في بلاد الجزائر، والعثمانيون يعانون ضروب الخن وصنوف المتاعب من جراء تمرد الجزائريين عليهم، بما أذكاه فيهم السلطان العلوي من روح الثورة والمقاومة. فكان الاتراك يتميزون غيظاً على محمد بن الشريف ولا يستطيعون محاربه لإيغاله في الصحراء، ثم جاء الرشيد بن الشريف فركز نفوذه أولاً في بني يزناسن وبسيط انكاد ووجدة، وتضايق العثمانيون من اجتماع قبائل الحدود عليه والنفافها حوله، وسيمتد الخلاف بين العثمانيين والعلويين الى أيام السلطان اسماعيل ليتطور الى معارك طاحنة.

هكذا يبدو أن الظروف كانت مواتية بعض الشيء للللائين في منقاهم بتلمسان ولو أنهم فارقوا الاهل والوطن، وتركوا النفوذ والصولة، وتجردوا من الثروة والجاه فإنهم وجلوا في ولاة الامر بالجزائر اصدقاء يواسونهم ويعترفون بمجدهم التليد. لكن سوء الطالع وعثر الجدد لاحقاً الللائين حتى في بلاد الغربية، فعاملهم

التلمسانيون بما يعاملون به حكامهم الأتراك من النفرة والجفاء، وعلوهم خصوماً عملاً بقاعدة (صديق العدو). وطالما تعرض اللائيون في السنوات الخمس التي قضاها بتلمسان إلى تهجمات السكان وإيذائهم، فبالإضافة إلى أنواع المضايقات والاهانات، لم يتورع التلمسانيون عن سلب كل ما وصلت إليه أيديهم من مال اللائين ومتاعهم، بل وقتل من تمكنوا من سفك دمه منهم. وقد توفي محمد الحاج اللائي بعد سنتين من مجيئه إلى تلمسان (4 محرم 1082/14 ماي 1671) فدفنه ولده عبد الله في العباد بالقرب من ضريح الامام السنوسي، ثم توجه إلى الحجاز لاداء فريضة الحج، وبقي في بلاد الشرق العربي نحو عامين لعله كان يبحث خلاهما عن مكان ملائم يمكن ان ينتقل اليه بأهله، في مصر أو غيرها من الاقطار الاسلامية. ولا عبة بما يدعيه بعض المؤرخين الاوربيين من خروج عبد الله اللائي بأهله وذخائر أسرته إلى مصر عند استيلاء السلطان الرشيد على الزاوية اللائية وإقامته هنالك إلى أن أدركته الوفاة، فإن ذلك محض افتراض ننقصه الحجة والبرهان، وبجافه الرأي والمنطق، بل تناهضه الوثائق الصحيحة، وإجماع المؤرخين المغاربة. فقد عرفنا في الباب السابق أن السلطان الرشيد العلوي حينما تصدى لحرب اللائين لم يمهلهم ولو فترة قصيرة، فبعد أن تغلب عليهم في بطن الرمان طاردهم إلى مدينة الدلاء، وأخرجهم منها على التو إلى فاس بعد أن استولى على جميع ذخائرهم، من مال وسلاح وماشية وغير ذلك. فكيف يانرى يمكن لعبد الله اللائي أن يخترق الحصار، بعد الانهزام والانكسار، أو يفلت بالذخائر من أيدي جند الرشيد الذين كانوا يتطلعون إلى الاستحواذ على ما لللائين من سلاح وكراع! اللهم الا ان نفترض وقوع ذلك قبل مجيء الرشيد؛ وهذا يعني أن اللائين كانوا قد بلغوا درجة الانهيار واليأس، الامر الذي يتنافى وخروجهم في تجمع عظيم للملاقاة خصمهم على مسافة 25 كلم من الزاوية. وما كان أحراهم — لو صح هذا الافتراض — أن يخرجوا جميعا وفي مقدمتهم الشيخ الهرم محمد الحاج، إذلا يعقل أن يفر بطل الاسرة الشاب عبد الله تاركا وراءه أباه العاجز وحرمة عرضة لهجوم الخصوم.

على أن جميع المؤرخين المغاربة الذين تعرضوا لذكر أخبار الدلائير لم يشيروا الى هذا الفرار المزعوم. بل على العكس من ذلك نرى من اهتم منهم بتفاصيل هذا الحادث التاريخي ينص على أن عبد الله الدلائي كان لا يزال في الزاوية الدلائية عند استيلاء الرشيد عليها «وخرج فيمن خرج من الزاوية مع والده عند تخريبها وسار معه الى تلمسان» (3).

وهناك وثيقة تاريخية هامة تؤيد وجود عيال عبد الله الدلائي في تلمسان خلال عام 1674/1085، وتنص على أنه رجع في هذه السنة من المشرق الى عاصمة الجزائر حيث بقي ينتظر إخماد الثورة القائمة في تلمسان ليلتحق بأهله في هذه المدينة. ورد ذلك في الرسالة التي بعث بها أحمد بن عبد الله الدلائي إلى السلطان اسماعيل بن الشريف معتذرا عن تخلفه بتلمسان، بعد أن رجع أهله الى فاس «..الاعلام لسيدنا بعذري عن التخلف. فليعلم مولانا السلطان نصره الله أن موجبه ما معي من عيال أبي فكرهت أن أفتات عليه وهو غائب، فلم أزل أستدنيه حتى بلغ الجزائر. ولما خرج برسم الوصول الى العباد حرم القطب الغوث أبي مدين نفع الله به، وجد هذه الفتنة بين يديه فتأخر حتى يسكن هرجها، ويحمد وهجها...» (4).

وكانت الفتنة التي تحدث عنها أحمد الدلائي عظيمة في تلمسان، كما كان إخمادها والقضاء عليها من طرف الأتراك أعظم وأشد. وقد سلم الدلائيون منها إذ عاد أكثرهم الى فاس قبيل نشوب الثورة بإذن من السلطان اسماعيل (جمادى الاولى 1085/شتبر 1674) وأوصى عبد الله الدلائي في الجزائر قائد الحملة التأديبية التركية التي توجهت الى تلمسان، وطلب منه أن يجنب جنوده مساكن أهله في حرم العباد. وجاء عبد الله الدلائي فعلا الى تلمسان بعد سكون الهيعة، ومكث فيها الى ان توفي أواخر عام 1676/1086 ودفن بجوار والده محمد الحاج بالعباد، ورثاه ابنه أحمد بقصيدة بليغة مؤثرة تشتمل على 52 بيتا، جاء في

مطلعها:

(3) سليمان الخوات، البذور الضاوية، ورقة 205/أ

(4) انظر نص الرسالة في ملحق رقم 10

ألا هل فتى مثلي كيب أراسله وأشكو له قلباً دهته بلابله
يطارحني أحزائه وهمومه يسائلني عن محنتي وأسائله(5)

ب - ثورة أحمد الدلائي على السلطان إسماعيل

أحمد بن عبد الله بن محمد الحاج الدلائي شخصية فذة تمثل آخر أبطال الدلاء وفرسانها الشجعان. بدت كفايته الحربية في وقت مبكر من عمره، وولاه جده محمد الحاج أمر فاس، وهو ما يزال حدثاً في مستقبل العمر كما سبق، وزعم بعض الرواة أنه هو الذي قاد الدلائيين في معركة بطن الرمان، وسبق أهله الى تلمسان فمهد لهم السبيل وهياً لهم المقام. وليست الغرابة في شخصية أحمد الدلائي آتية من بطولته المبكرة، وتفوقه في التدبير والحرب، أو من علمه الجم وأدبه الرفيع، فقد سبقه الى هذه الميادين أبوه وجده وكثير من بني عمه. وإنما الغرابة في أن أحمد الدلائي كان في نفس الوقت بطلاً مغواراً وعالماً كبيراً وأديباً ممتازاً، لا أغالي إذا قلت إنه أشجع الدلائيين وأشعرهم على الإطلاق. والمراء قد يمتاز في إحدى الناحيتين الادبية أو العسكرية، وقد يشارك فيهما معاً ويكون عادياً في الامرين، أو يتغلب عليه أحد الاتجاهين على حساب الآخر. أما أن يبرز تبرزاً تاماً في الميدانين، ويجمع عن جدارة بين الحُستين، فذلك ما لا يجود به الدهر الا نادراً ولا نجده الا عند أبي فراس الحمداني وأحمد الدلائي. وأديبنا البطل المغربي جدير بأن تتناول آثاره بالدرس والتحليل أقلام الباحثين، وسيجلون في (تلمسانياته) ما يضاهي (الروميات).

وقد تخلف أحمد الدلائي في تلمسان، ولم يعد مع الدلائيين الذين دخلوا الى فاس متعللاً بالقيام على شؤون عيال ابيه عبد الله المتغيّب في الشرق. ولما كثرت الأقاويل في شأنه وبدأت الشائعات تتحدث عن الثورة، خاف أحمد على أهله المقيمين في فاس أن يلحقهم أذى بسبب ذلك، فكتب الى السلطان اسماعيل يطريه ويطمئنه، ويبين له الاعذار التي عاقتة عن الالتحاق بالمغرب. وقد أكدت الاحداث أن أحمد الدلائي لم يكن صادقاً في اعتذاره ولم يقصد من الرسالة التي

(5) انظر نص القصيدة عند سليمان الخوات، البور الضاوية، ورقة 206/ب - 207/أ

وجهها الى السلطان سوى كسب الوقت اللازم لتدبير شؤون الثورة وتنظيمها بمساعدة أتراك الجزائر. واتخذ احمد الدلائي من خروج السلطان اسماعيل من العاصمة واشتغاله بحرب ابن أخيه أحمد بن محرز(6) في مراكش فرصة لاشعال نار الثورة، فدخل الى المغرب في أوائل عام 1677/1088 وقصد الدلاء؛ وهناك التف حوله بربابة الاطلس المتوسط وملكوا بلاد تادلا بعد أن هزموا المخازنية ومن معهم من الاعراب المناصرين للعلويين. ولما علم السلطان اسماعيل بخبر الثورة بعث بجيش يتألف من ثلاثة آلاف فارس تحت إمرة القائد يخلف، لكن احمد الدلائي سرعان ما قضى على هذا القائد وكثير من جنده ونهب محلته وخيله. ثم بعث السلطان بفرقة أخرى من الجند لقيت نفس المصير. «وشن البربر الغارات بعد ذلك على من جاورهم من القبائل الى سايس، ووقعت معركة رابعة بحوز مكناسة بين جيش فاس والبربر، مات فيها من كبراء الجيش عدد كثير، ولجأوا الى مدينة مكناس، وحدث الخوف بأحوازها»(7) وقد اختفى الدلائيون وأنصارهم في فاس محتمين بحرم المولى ادريس وسيدي أحمد الشاوي، وبعث الامام اليوسي إلى أحمد الدلائي يلومه ويستعطفه، بقطعة شعرية جاء فيها

أبا العباس كنت المرتجى في تلاف في تجاف وارتجاف
وكنْتُ أحوال أن الود كَأْسٌ شربناه على الانصاف صاف..

ورأى السلطان إسماعيل أن الأمر جد لا تنفع معه الكتاب والسرايا، فأخذ يستعد لمنازلة خصمه العنيد بنفسه، وأرسل الى جميع الاقاليم يطلب المساعدة بالجند والسلاح وخرج الرماة من فاس وغيرها بعد أن استعملوا استعدادا كبيرا، والتحقوا بالسلطان في مراكش. ودام تجهيز هذه الحملة العظيمة نحو ستة أشهر،

(6) أحمد بن محرز بن الشريف كان وزيرا لعمه السلطان الرشيد، وبايعه المراكشيون والسوسيون بعد وفاة الرشيد ثم دخلت فاس وكثير من قبائل الغرب في طاعته. وجرت بينه وبين عمه السلطان اسماعيل معارك كثيرة، وأخيرا حاصره السلطان في مراكش نحو سنتين ونصف الى أن قُتل غلرا في منتصف عام 1677/1088. وحمله عليه وأنصاره الى تارودانت حيث دفن.

(7) انظر تفاصيل أخبار ابن محرز عند عبد السلام القادري، التحفة القادرية، ص 332 وما بعدها سليمان الخوات، البعور الضاوية، ورقة 215/ب

ثم زحف السلطان اسماعيل الى البربر في 5 صفر 1089/30 مارس 1678. ولم يكذ يقطع وادي العبيد حتى وجد جيش أحمد الدلائي في انتظاره «فكانت الحرب بينهما سجالا، وأظهر كل فريق قوته وما هو له مريد ووقعت حروب بين الفريقين لم يسمع بمثلها في المغرب، ولا خبر بها من ورخ (كذا) من أمره كل أمر عجيب..» (8) وانتصر أخيرا السلطان إسماعيل بعد أن سقط في ميدان القتال عدد كثير من الجانبين، ومات من رماة فاس أربعمئة، وبلغ مجموع القتلى من البربر ثلاثة آلاف، أمر السلطان اسماعيل أن تقطع رؤوس سبعمئة منهم، وبعث بها الى فاس مع قائد هذه المدينة عبد الله بن حمدون الروسي. وكان يوما مشهودا في العاصمة الادريسية كُوت فيه رؤوس الثوار، وأطلقت المدافع، وزُيّنت الاسواق، وفرح الناس بانهاء الفتنة. أما أحمد الدلائي فإنه التجأ الى جبال أيت يسري الوعرة في الاطلس المتوسط، «ويقي بين ظهرائهم، وكلمتهم بيده، وأمره نافذ فيهم نحواً من عام وخمسة أشهر وأيام» (9) الى أن توفي يوم الخميس 21 محرم 1091/23 فبراير 1680. وتتضارب الروايات في سبب موته، فيزعم البعض أنه أصيب بالوباء الذي كان متشرا في تلك الايام، بينما يقول آخرون إنه اغتيل بأمر السلطان اسماعيل، دس له السم ابنُ بركة كبير أيت يمور وابن راحة كبير أيت مقداد في جبال هسكورة.

2 — العلماء الدلائيون في فاس ومكناس

ما كاد العلماء الدلائيون يستقر بهم المقام في فاس، بعد إخلاء زاويتهم، حتى حنُّوا الى المنابر من جديد، وأخذوا يشتغلون بالتدريس كما كانوا يفعلون في الدلاء، وانتشروا في مساجد المدينة الادريسية ومدارسها يعقدون المحالس العلمية، ويفيدون الطلبة الذين أقبلوا عليهم إقبالا عظيما. وكان عدد العلماء الدلائين الذين تصدروا للتدريس في بادىء الامر يربو على عشرة، فيهم المحدثون والفقهاء واللغويون والادباء، وفيهم المشاركون في كثير من هذه الفنون، كمحمد المرباط الدلائي، ومحمد

(8) بن الحاج، الدرر المنتخب المستحسن، ج 6، ورقة 43/أ

(9) سذمان اخوات، البدور الضاربة، ورقة 216/أ

الشاذلي الدلائي، والحسن اليوسي⁽¹⁰⁾. واشتغل بتدريس الادب وقواعد اللغة في فاس من العلماء الدلائين أحمد بن المسناوي، ومحمد بن أبي عمّر، وأحمد بن الشاذلي، ومحمد بن عبد الله بن محمد الحاج، وكلهم من أحفاد الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي. كما توجهت طائفة أخرى من أعلام الدلائين الى مكناسة الزيتون واستوطنوها طيلة حياتهم، منهم الشيخ عبد السلام بن الشاذلي الذي تولى الامامة والخطابة بجامعها الأعظم وانتصب للتدريس والافتاء فيها، وتخرج على يده جماعة من علماء العاصمة الاسماعيلية لم يفصح المؤرخون عن أسمائهم، إلى أن توفي بالطاعون عام 1679/1090 فخلفه في الإمامة والخطابة بجامع مكناس الاعظم أخوه الطيب بن الشاذلي، وكان مثله عالماً كبيراً وزاهداً عابداً، اشتغل كذلك بالتدريس والافتاء في النوازل الفقهية، وكان المعتمد في هذا الميدان الى أن أدركه الوفاة عام 1695/1107.

وقد عانى العلماء الدلائيون في فاس ألم الغربة أولاً، ووقع التضيق عليهم في الحرّم التي لجأوا اليها طيلة عهد ثورة أحمد الدلائي، لكن ذلك كان آخر محنة أصابتهم في فاس ذاقوا بعدها حلاوة العيشة الحرة التي لا قيود فيها ولا حصار وانسجموا مع الفاسيين. وهذا لايعني أن العلماء الدلائين قد انحطت قيمتهم العلمية أو هيض جناحهم، بل كان لهم مزيد من الخطوة والشفوف منذ الايام الأولى التي وطئت أقدامهم فيها أرض فاس، حتى إن السلطان الرشيد كان يُوليهم كثيراً من الاجلال والتقدير، ويحضر بنفسه المجالس العلمية التي كان يعقدها الحسن اليوسي في القرويين، ويجالس في قصره اليوسي ومحمد المرابط الدلائي ويتحدث اليهما في غير كلفة ولا احتراس. وما زلنا نذكر دخول اليوسي يوماً وهو مريض على السلطان الرشيد الذي ضحك من تناول اليوسي شراب الرّيحان،

(10) عدت الامام اليوسي في جملة الدلائين — وإن لم يكن منهم — لارتباط مصيره بمصيرهم وطول مقامه في الزاوية الدلائية تلميذاً وأستاذاً، وتزوجه وإنجابه الأولاد فيها، وللقرابة البرية الصنهاجية التي تربط بين اليوسيين والخطاطيين، حتى إن السلطان الرشيد عامله — من بين سائر العلماء القراء في الدلاء — بما عامل به الدلائين انفسهم ورحله معهم الى فاس.

ونصحه بأخذ سويق الشعير الذي هو دواء أبناء البادية. وأنشد السلطان الرشيد يوماً معرضاً بمحمد المرباط الدلائي الحاضر في المجلس هذا البيت

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

فقال المرباط يأمر المؤمنين إن من حسن حظ المرء أن يكون خصمه عاقلاً. فاستحسن الرشيد والحاضرون بداهته وحسن إجابته.

وقد سلك السلطان اسماعيل مع العلماء الدلائين نفس الخطة التي سلكها معهم أخوه الرشيد من قبل، فأحاطهم بمظاهر الاكرام والاحترام، وولى منهم الشيخ محمد المرباط الخطابة بالمدرسة المتوكلية (11) وهي أهم المدارس بفاس. ثم أسند هذا المنصب الديني الهام بعد وفاة المرباط إلى أخيه محمد الشاذلي الذي بقي يخطب ويدرس في المدرسة العنانية أعواماً عديدة، وخلفه فيها بعد موته محمد بن عبد الرحمن الدلائي (11م) الذي عده المؤرخون آخر خطباء المغرب، لانه بالإضافة إلى غزارة علمه وجمال خلقة وأناقته برته، كان «صيتاً فصيحاً جهوري الصوت حلوه». وله تأليف في الخطب لم يؤلف مثله، وجميع الخطباء عيال عليه (12). ثم نقل السلطان اسماعيل محمد بن عبد الرحمن الدلائي للخطابة في مسجد الشرفاء الذي هو ضريح المولى إدريس الثاني، فكان الناس يقصدون هذا المسجد من كل أنحاء المدينة ويزدحمون للإصناعات إلى هذا الخطيب المفقوه. وتأثر المؤرخ محمد بن الطيب القادري في صغره بإحدى هذه الخطب، وقال في ترجمة ابن عبد الرحمن الدلائي «.. ولم أدرك القراءة عليه، لكن رأيته مرة واحدة في صغري يخطب على منبر جامع الشرفاء، وصوته يسمع في نواحي المسجد، إذ كان صيتاً جداً» (13). وقد تطور مركز الدلائين في فاس بسرعة، ولم يعد اعلامهم يضاهون العلماء الفاسيين فحسب، بل بنوهم وغربوا في وجوههم، «واحتلوا الصدارة من

(11) المدرسة المتوكلية هي المدرسة العنانية المشهورة حي الطالعة بفاس.

(11م) رجه له تحت اسم محمد بن عبد الرحمن المغربي، الحبري في تاريخه عجائب الآثار في التراجم والايخبار، 3: 86 وقال إنه توفي عام 1141، وله نظم الشفا.

(12) سليمان الخوات، البذور الضاوية، ورقة 248/ب

(13) محمد بن الطيب القادري، نشر الثاني، 3: 314

الارستوقراطية الدينية والفكرية في فاس»⁽¹⁴⁾ إذ تكونت طبقة جديدة من العلماء الدلائيين وُلدوا في فاس ونشأوا بها، فكانت صلتهم بالمدينة أقوى وأمتن من صلة آبائهم، وسلمت عقولهم من التفكير في الغربة، وأخذتهم من الحنين الى الزلوية المهتمة، إلا ذكريات عابرة غير ذات أثر. وتم بذلك انصهار الدلائيين وامتزاجهم التام بالفاسيين. ومن أشهر هذه الطبقة من الدلائيين محمد بن أحمد بن الشاذلي الذي كان إماما في اللغة والأدب، مبرزا في العروض والقوافي منفردا بهذا الفن في فاس، وعنه أخذ كل من تعاطي الأوزان الشعرية في العاصمة العلمية في عصره. وقد بدأ شرح رائية الامام اليوسي في رثاء الزلوية الدلائية لكنه توفي قبل إتمامه، عام 1724/1137 — 1725، فأكماله ابن عمه القاضي محمد البكري الدلائي الذي كان إماما خطيباً في ضريح المولى إدريس، مدرسا بجامع القرويين، متوليا القضاء والفتيا في فاس، وألف في النوازل الفقهية وفي الأدب. وكانت وفاته عام 1761/1174 ثم تولى قضاء فاس من بعده ابنه أحمد البكري، وكان مثله فقيها أديباً «يعنى بأيام العرب وأشعارها وحكمها وأمثالها، ويحفظ من ذلك قدراً كثيراً، مع معرفة بالتاريخ والحساب...»⁽¹⁵⁾ واستدعاه السلطان محمد بن عبد الله ليعلم ابنه عبد السلام في تارودانت، وسماه قاضياً في هذه المدينة، فاشتغل بالتدريس والخطابة في مسجدها الأعظم، واستفاد منه كثير من طلبة الاصقاع السوسية إلى أن توفي هناك عام 1784/1198.

واتصلت حلقات العلماء الدلائيين في فاس الى النصف الاخير من القرن الماضي. ونجد الشيخ محمد المكي الدلائي الذي عاش الى عام 1825/1241 — 1826 يعتبر إمام المعقول والمنقول في فاس. صحب الشيخ أحمد التجاني وأخذ عنه الطريقة ولازمه طيلة حياته إلى أن بلغ على يده درجة عالية من الصفاء الروحي. وقد كتب السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله (1206—1238 / 1792 — 1822) ظهيراً بتوقيع هذا العالم الدلائي، بعث به إلى كاتبه في فاس أحمد الرفاعي، وإلى القاضي العباس بن سودة يقول لهما «...فنأمركما أن تقر

14) LEVI PROVENÇAL, LES HISTOIRE DES CHORFA , p 300.

15) سليمان الحوات، البور الضاوية، ورقة 246/أ

(كذا) الفقيه العلامة سيدي المكي الدلائي في مسجده الكائن بحومة زقاق الرواح على حاله من الامامة والتدريس لحفضه (كذا) لكتاب الله العزيز واعتناءه (كذا) بمجالس الدرس وعلى ما بيده من ظواهر اسلافنا الكرام وغيرهم، المتضمنة لتوقيرهم واحترامهم. فعلينا الاقتداء بمن مضى، والاخذ بماخذهم كما تلقوا ذلك بالقبول والرضى، وعلى هذا يكون عملكما والله يعينكما والسلام. وفي ثالث صفر الخير عام احدى (كذا) وعشرين ومائتين وألف» (16) وقد الف في ترجمة الشيخ محمد المكي الدلائي ابنه محمد كتابا سماه بغية الراي بالتعريف بالشيخ ابي عبد الله سيدي المكي الدلائي . ولتحدث الآن بشيء من التفصيل عن أهم شخصية دلالية برزت في فاس، وهي شخصية الامام محمد المساوي الذي انتهت اليه رئاسة العلماء في فاس دون منازع، وأصبحت له السيادة المطلقة في التدريس والإفتاء والتأليف.

محمد المساوي الدلائي شيخ الجماعة بفاس

أبو عبد الله محمد المساوي بن أحمد بن محمد المساوي بن الشيخ محمد بن ابي بكر الدلائي. ولد في اللاء عام 1072/61-1662 وجاء به والده إلى فاس بعد تخريب الزاوية الدلالية وهو ابن سبع سنين، فدرس على علماء أسرته وغيرهم من القادريين والفاسيين. كما أخذ عن الإمامين الحسن اليوسي وعبد الملك التجموعي، وبقي ينهل من معين العلم ويعلل إلى أن تخرج عالماً كبيراً «.. وقد أعطي ملكة التدريس والفتيا، وسلم له أعيان عصره مرتبتها العليا، وانفرد برئاسة العلم في وقته وعصره. كان المرجع في معضلات المشاكل سواء من طرف السلطان المولى اسماعيل أو من طرف علماء الوقت» (17).

(16) محمد بن المكي الدلائي، بغية الراي، ورقة 4/ب

(17) محمد بن الطيب القادري، نشر الثاني 3: 265

وامتاز محمد المساوي زيادة على علمه الواسع بجمال الخلقة وحس السميت وكثرة الوقار. فكان لباسه بالغ الحد في النظافة والاناقة، وكلامه غاية في اللطف والنبيل، ومجلسه محاطاً بالهيبة والسكون، لا يجروء أحد أن يعيث أو يلهو في حضرته، ويحضر دروسه العالية علماء المدينة وطلبتها على السواء، «... وإذا أخذ في تقرير مسألة يأتي على وجه احتمالاتها، ولا يدع شيئاً مما يقع في نفوس الحاضرين من مؤولاتها، مما يقتضيه بحث المعقول والمنقول، مع وجود التحرير التام..» (18) واشتغل محمد المساوي بتدريس جميع العلوم المعروفة في عصره، واهتم في مستقبل عمره بالفقه، والبلاغة، والمنطق، والادب، والتاريخ، وكان يواظب على إلقاء تلخيص المفتاح للخطيب القزويني بالشرح الصغير لسعد الدين التفتازاني، ومختصر الشيخ السنوسي في المنطق. ثم انقطع آخر حياته لتفسير القرآن الكريم وقراءة صحيح الإمام البخاري. وتكاثر عدد تلاميذ الإمام المساوي في فارس، وغصت رحاب القرويين بالآخذين عنه، وتلمذ له كل من كان يتعاطى العلم بالطلب أو التدريس وأصبح شيخ الجماعة باتفاق. وقد قال عنه بروفنسال بحق «إن أكثر كتاب التراجم في القرن الثامن عشر يعدون من تلاميذه» (19).

لم يقتصر نشاط الإمام المساوي على التدريس فحسب، وإنما اشتغل في نفس الوقت بالتأليف، وتمتاز كتابة هذا الإمام بالدقة في التعبير مع السلاسة والوضوح. وقد خلف تراثاً فكرياً هاماً يدل على عقل جبار، وذكاء وقاد، وتحرر في التفكير غريب في ذلك العصر. وما بالك بفقيه مالكي يعتبر شيخ الجماعة بفلسر والاستاذ الأول في القرويين، يجروء على نقد المذهب ومخالفة ما تواضع عليه فقهاء المالكية من سدل اليمين في الصلاة، ويؤلف كتاب نصره القبض والود على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض. على أن قوة ادراك الإمام المساوي وسعة أفقه العلمي إنما تظهران بجلالة في كتابين صغيرين من مؤلفاته تعرض فيهما لمبحثين فقهيين هامين، هما الذمة، والتوكيل. وقد سمي الأول منهما صرف المهمة، إلى تحقيق معنى الذمة. وركّبه على سابقة، ومقصدتين، ولاحقة. تكلم في السابقة عن معنى الذمة لغةً وشرعاً، وفي المقصد الأول عن تعريفه ابن عبد السلام

(18) نفس المصدر ونفس الصحيفة.

(19) E. LEVI-PROVENÇAL, LES HISTORIENS DES CHORFA , P 301.

وابن عرفة للذمة، ولخص في المقصد الثاني ما للشهاب القرافي وابن الشاط في الموضوع وبحث معهما في بعض الأمور، وذكر أربع مسائل (1) تعريف الذمة اعتماداً على ما للقرافي وابن الشباط، (2) شروط الذمة. (3) الفرق بين الذمة وأهلية المعاملة والتصرف. (4) البحث في أن الذمة وأهلية المعاملة هل هما من خطاب الوضع أو من خطاب التكليف. وجعل اللاحقة في مسألة السؤال المرفوع اليه في الموضوع.

أما الكتاب الثاني فهو تقييد كاشف، عن أحكام الاستنابة في الوظائف. جعله في ثلاثة مباحث. المبحث الأول في التوظف للمقصود بالذات بيان ما تصح فيه النيابة ويجوز التوكيل وما لا يصح فيه ذلك ولا يجوز. ويشتمل على سابقة في معنى النيابة والاستنابة والوكالة، ومطلب في حكم ذلك ومحله، وما يتعلق به ويساويه من أجله، ولاحقة فيما يلحق بما سبق وينبغي عليه، من بيان ما يصح نقل ثوابه إلى الغير وما لا يصح نقله اليه. المبحث الثاني في المقصود بالذات من حكم الاستنابة في الوظائف التي عليها مرئب معلوم. وينقسم — كالأول — إلى طائفة في الأرزاق والاجارات والأوقاف، وما بينها من ائتلاف واختلاف. ومقصد في حكم الإنابة في الوظائف التي يؤدي عنها أجر، ولن يكون أجرها حيثئذ هل للمستنيب أو للنائب. وتابعة في الكلام على ما يتبع ذلك من الثواب الآجل، وحكم فائدة أيام العطلة العاجل، وذكر في المبحث الثالث أو الخاتمة كلام فقهاء المذاهب الأخرى غير المالكية في موضوع الاستنابة ليتسع مجال نظر القارئ ويطلع على الخلاف العالمي وأساره.

وقد كاد الامام المسناوي يتعرض لمحنة شديدة على يد السلطان اسماعيل، لولا أن تدخل بعض رجال البلاط لصالحه وأثبتوا براءته. ذلك أن الأمير محمد العالم ابن السلطان اسماعيل كان من أخص تلاميذ الإمام المسناوي وأقربهم اليه. ولما ثار محمد العالم في مراكش بقي يرأسل استاذة المسناوي واغتم بعض منافسي الشيخ هذه الفرصة فأوغروا صدر السلطان عليه، واتهموه باطلاعه على خطة الأمير الثورية ومآلاته إياه على ذلك. غير أن أنصار الامام المسناوي أكلوا للسلطان أنه كان ينهى تلميذه محمداً العالم عن الثورة، وأنشدوا له قوله :

مهلاً فإن لكل شيء غاية والدهرُ يعكسُ حيلة المحتال
فالبدرُ ليس يلوّحُ ساطعُ نوره والشمسُ ظاهرة السنا في الحال
فإذا نوارث بالحجاب فعند ذا يلبو بُلوّ تعزّرُ وجمال(20)

فاستحسن السلطان ذلك وتحقق من براءة الشيخ. وعاش الإمام المسناوي خمساً وستين مقبلاً على العلم، وعلى العلم وحده. كان ينتقل من التدريس بالقرويين أو المدرسة العنانية إلى البحث في المشاكل الفقهية وتدوينها في الكتب، أو إلى إرشاد الناس الذين يستفتونه في الأحكام والمعاملات. وقد جُمعت فتاوي المسناوي في مجلد ضخّم ظل المرجع الهام لرجال القضاء والفتيا حتى اليوم، ولم تنحصر شهرة هذا الإمام داخل أسوار فاس، بل انتشرت في المغرب كله، وقصده العلماء من سائر النواحي ياخذون عنه ويستجيزونه، فأجاز عدداً كبيراً منهم(21) ولما أحس المسناوي بدنو أجله نظم قصيدة يضرع فيها إلى الباري عز وجل وأوصى أن يشيع بها إلى قبره، ومنها

يا ربّ عطفاً على مُسيء أئني به القوم للمقابر
فجاء فرداً بغير زادٍ وخلف الأهل والعشائر

وقد جرى عمل الناس في فاس بعد ذلك بقراءة هذه القصيدة عند تشييع الموتي. ونوفي الشيخ المسناوي يوم 16 شوال 1136/1724 فكان موته مأثماً للمدينة كلها، وشيعه جميع السكان في محفل رهيب الى مدفنه في قبة سيدي العايدي خارج باب الفتوح، وكسروا النعش الذي حُمل عليه، وأخذ كل واحد قطعة صغيرة من الخشب تبركاً بالامام المسناوي الصالح. ورثاه ابن عمه محمد البكري بقصيدة مطلعها

(20) محمد أكتسوس، الجيش العرمم، ورقة 66/أ، وهذه الايات من قصيدة تتكون من 53 مطلعها أهدي السلام معتبر الاذبال ومشيعاً باليمن والاقبال

كان الامام المسناوي بعث بها الى تلميذه الامير محمد العالم بسوس في جملة المراسلات الادبية بينهما
(21) انظر بعض إجازات المسناوي لعلماء عصره عند سليمان الحوات، البلور الضاوية، ورقة 186/ب وما بعد.

ألى القلب أن يسلو ودمعى تحذرا فكفكفته أبغى بذاك تُسْتَر(22)

ب) تلامىذ الللائىن فى فاس

ىصعب على المرء أن ىحدد عدد التلامىذ الذىن تخرجوا على ىد الللائىن فى فاس، لا سىما وقد تعاوب عدد وافر من علماء هذه الأسرة على التدرىس فى العاصمة العلمىة زهاء قرنىن، وكاد ىكون جمىع العلماء الذىن عاصروا الامام المسناوى الللائى من تلامىذه. غىر أنه ىنبغى أن أشىر إشارة خاطفة الى طائفة قلىلة من الاعلام الذىن كان لللائىن فضل تكوىنهم وثقىفهم، وسأقتصر على ذكر بعض تلامىذ ثلاثة من العلماء الللائىن الاولىن محمد الشاذلى، ومحمد المرابط، ومحمد المسناوى.

أما محمد الشاذلى فمن أشهر الآخذىن عنه فى فاس المؤرخان الكبىران الأخوان القادرىان عبد السلام والعربى. وىعتبر عبد السلام القادرى (1698/1110)(23) من أشهر المؤلفىن فى تراجم العلماء والشرفاء والصالحىن، ومن نألفه العدىلة كتاب ترجم فىه لوالد شىخه الشاذلى الللائى وجده سماه نزهة الفكر، فى مناقب الشىخىن سىدى محمد ووالده سىدى أبى بكر. وكان العربى ابن الطىب القادرى (1695/1106) نسابة ثقة كأخىه مشاركاً فى كثر من العلوم الدىنىة كالحديث والفقه، ومن نألفه كتاب وفىات أولاد الشىخ عبد القادر الجىلائى. كما أخذ عن الشاذلى الللائى أيضاً أبو العلاء ادرىس المنجرة — الكبىر — (1725—24/1137) امام القراء فى فاس وشىخ الجماعة بالمغرب صاحب الفهرس المسمى عذب الموارء، فى رفع الاسانىء، ترجم فىه لشىوخه فى المغرب والمشرق.

(22) ارجع فى ترجمة محمد المسناوى الى محمد القادرى، نشر المائى 3: 265—278، ومحمد الكنائى، سلوة الانفاس، 3: 44 وما بعدها. وسلىمان الخوات، البلور الضاوىة، ورقة 182 وما بعدها، وإلى البازغى، حداثق الانهار، الاىات 136—148. وإلى ادرىس الفضلى، الدرر البىة، 2: 342. وإلى

LEVI PROVENÇAL, LES HISTORIENS DE CHORFA., pp. 301-302

BASSET, Rech. bibl., p. 34 n° 92

Codera, libros procedentes de Marruecos, p 372

(23) الأرقام المكئوبة بىن قوسىن فى هذا الفصل ترمز الى سنى الوفاة.

ومن تتلمذ لمحمد المرباط الدلائي في فاس محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (1134/21-1722) مؤلف المنح البادية في الاسانيد العالية، وفيه يقول عن المرباط «شيخنا الامام النحوي الخطيب أبو الرضى محمد بن الفقيه الصالح أبي الإحسان محمد بن الولي الشهير أبي بكر.. المرباط، سمعت منه أوائل الكتب الستة، وسيرة ابن سيد الناس، وأجازني فيما له وكتب لي ذلك بخطه...» (24).

وأبو العباس أحمد بن علي الوجاري (1141/28-1729) الامام اللغوي الكبير الذي كادت تكون كل دراساته على الشيخ المرباط، ثم انتصب للتدريس في فاس مدة طويلة وتخرج على يده أكثر علماء البلد. ولم يؤلف الوجاري كتباً في حياته، وإنما ترك تقايد كثيرة جمع ما يتعلق منها بالنحو في مجلد ضخيم.

وأخذ عن الامام محمد المسناوي الدلائي في فاس خلق كثير، في مقدمتهم المؤرخ الشهير محمد الصغير الافراني المراكشي (1140/27-1728) صاحب الايادي البيضاء على التاريخ المغربي، ومؤلف أشهر الكتب وأوثقها في تاريخ الدولتين السعدية والعلوية، مثل نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، و صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، وفيهما يذكر شيخه المسناوي وينقل عنه. وأبو عبد الله محمد العلمي الحوات (1160/1747) قاضي شفشاون ومؤلف كتاب تحفة المعاصر في بعض صالحى تلامذة أبي عبد الله محمد بن ناصر، وهو والد أبي الربيع سليمان الحوات صاحب البدور الضاوية في اخبار السادات أهل الزاوية الدلائية. ويروي سليمان الحوات في هذا الكتاب كثيراً من أخبار الدلائيين عن والده رواية مشافهة مستمدة من الدلائيين انفسهم أو يقتبس من كتاب تحفة المعاصر. كما تتلمذ للمسناوي أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني (1146/33-1734) الاديب المنشئ المترسل البارع صاحب التأليف الكثيرة، ومنها رسالة في التعريف بالشيخ المسناوي. ومحمد بن الطيب العلمي (1134/1722) الاديب الكبير الذي فتن أهل فاس بشعره وألف كتاب

(24) محمد بن عبد الرحمن الفاسي، المنح البادية، ص 6.

الانيس المطرب فيمن لقيهم مؤلفه من أدباء المغرب، وفيه يذكر شيخه السنوسي الذي كان ينافح عنه في مساجلات أدبية، ويرد على انتقادات بعض الأدباء لقصائد العلمي (25). وأبو عبد الله محمد بن الحسن الكندوز (1148/35-1736) إمام اللغة والنحو في عصره، وأستاذ محمد بن الطيب القادري صاحب كتاب نشر المثاني. ويعتبر أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي (1170/56-1757) من ألمع تلاميذ السنوسي، تربطه بالشيخ زيادة على العلم رابطة الدم. وقد برز الشرقي في علوم اللغة تبرزاً تاماً وأخذها عنه علماء المغرب والمشرق، وألّف في اللغة كتاباً عظيمة، مثل المسفر عن خبايا الزهر الذي شرح فيه كتاب السيوطي في علوم اللغة، و الحاشية الكبرى على قاموس الفيروزبادي في أربعة مجلدات ضخمة، ومنها استمد تلميذه الشيخ مرتضى في كتابه تاج العروس بشرح القاموس.

ومن أشهر محدّثين والفقهاء الذين تتلمذوا للإمام السنوسي محمد بن عبد الرحمن ابن زكري (1144/31-1732) العالم الثري صاحب شرح البخاري و القصيدة الهمزية التي عارض بها همزية الإمام البوصيري الشهيرة، وشرحها في مجلدين. ومحمد بن عبد السلام بناني (1163/49-1750) العالم المتصوف الرحالة صاحب شرح الاكتفا للكلاعي في ستة مجلدات، و شرح الزرقاقية في الأحكام الفقهية، وشرح الحزب الكبير للشاذلي. ومحمد بن قاسم جسوس (1182/68-1769) المحدّث الكبير الذي طال عمره وكثر تلاميذه حتى عد شيخ الجماعة في فاس. ومن تأليفه شرح مختصر خليل في تسعة مجلدات. ومحمد بن حملون بناني (1140/27-1728) فقيه فاس وعالمها الكبير الذي كان إليه المرجع في الفتيا وتحقيق الوثائق. وأبو العباس أحمد بن مبارك السجلماسي (1156/43-1744) الحافظ الكبير والفقير الذي كاد يبلغ درجة الاجتهاد، وهو مؤلف كتاب الذهب الابريز في مناقب سيدي عبد العزيز — الدباغ —. وكذلك كان الامير محمد العالم بن السلطان اسماعيل من أخص تلاميذ الامام

المسنوي وأقرب الناس إليه، لازم دروسه مدة طويلة الى أن تخرج على يده عالماً مشاركاً في اللغة وقواعدها، والفقه والاصول، وأديباً ماهراً يجيد الشعر والترسل. وظل الامير محمد العالم على اتصال دائم بأستاذه المسنوي حتى بعد نزوحه الى تارودانت (26). وقد مدح هذا الامير استاذ المسنوي بقصيدة بعث بها إليه من مراكش أيام قيامه بالثورة في هذه المدينة، فأجابه المسنوي عنها بقصيدة أخرى مطلعها

أنسيم الرياض بالأسحار هاجك اليوم أم شجى الأوتار

3 — الكتب التي ألفها الدلائون

اهتم الدلائون بالتأليف منذ بروزهم في الميدان العلمي. وأول من دون منهم كتاباً هو الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي الذي جمع أربعين حديثاً نبوياً على نحو ما فعل الامام النووي وغيره من المحدثين، وأضاف الى كل حديث قصة تناسب موضوعه من قصص الوعاظ والزهاد، وكتب فهرساً عرّف فيه بشيوخه وما قرأ عليهم. ثم ألف أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي وأحفاده كتباً كثيرة في الحديث والسير النبوية، والفقه، والاصول، واللغة، والنحو، والصرف، والأدب، والأنساب وغير ذلك من المواضيع المختلفة. وقد وصلت اليها — لحسن الحظ — جل مؤلفات الدلائين، ولم يَعدْ الدهرُ إلا على أقلها. غير أن بعضها ما يزال مبعثراً، كاللواوين الشعرية التي توجد منها نتف هنا وهناك، وهي لو جمعت ودرست على الوجه اللائق لكُوت مادة أدبية طريفة ومشرفة للمغرب في نفس الوقت. وقد كانت كتب الدلائين تُحدث دويّاً عظيماً في الأوساط العلمية، يردد صدها المغرب كله، وحتى المشرق أحياناً، كما حدث عندما ألف محمد المرباط

(26) كانت نهاية الامير محمد العالم محزنة، إذ ثار على والده السلطان اسماعيل واستولى على مراكش عندما كان نائباً عنه في إقليم سوس، ثم تغلب عليه أخوه زيدان وحمله مقيداً إلى والده بمكناس. وقبل أن يصل إلى العاصمة بعث السلطان اسماعيل من قطع يد محمد ورجله من خلاف في وادي بهت — بين الخميمات ومكناس — وحمل محمد العالم في حالة مزرية إلى مكناس فلم يدخلها حتى مات عام 4/1116 — 1705.

الدلائلي كتاب نتائج التحصيل في شرح التسهيل، في أربعة مجلدات، فقد سارت بذكر الركبان، وطلبه علماء المشرق، وبيعت بعض نسخه في مصر بأثمان باهظة، وقرظه من علماء الأزهر الإمامان أحمد شهاب وعبد القادر ابن الحلال الخلي. وقد أثبت هنا — في جدول — ما وقفت عليه من أسماء مؤلفات الدلائين، وبينت المكتبات العامة أو الخاصة التي توجد فيها، الا كتباً قليلة لم أعرف شيئاً عن المكان الذي توجد فيه وضعت أمامها علامة استفهام (?) على أمل العثور عليها في الخزنة الملكية أو في غيرها من مكتبات الخاصة، وأردفت ذلك بجدول آخر ذكرت فيه الكتب التي ألقت في الدلائين، دون أن أثبت فيه ما ألفه الدلائيون انفسهم في ذويهم، مكتفياً بإيراد ذلك في الجدول الأول.

أ — جدول مؤلفات الدلائين (★)

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
1 — أربعون حديثاً، يذكر بعد كل حديث قصة مناسبة له مما سمعه من شيوخه	الحديث والسرة محمد بن أبي بكر الدلائلي	خطوط خ.ع. 1295 ح وخطوط خ.م. 8006
2 — حاشية علي الكلاعي	محمد بن عبد الرحمن الدلائلي	نسبها له محمد الفاسي في درة التيجان (مخطوطة خ.ع. 1432 ك)
3 — رسالة في كتب الحديث التي تجوز الرواية منها والتي لا تجوز	محمد بن أحمد السنائي الدلائلي	مخطوط خ.ع. 2259 د (الحادي عشر في انجموع.)
4 — زهر الخدائق، وخلاصة الحقائق، من تحفة سيرة سيد الخلائق، وما يستتبع ذلك من النكت والدقائق	محمد بن عبد الرحمن الدلائلي	خطوط خ.ع. 306 ك

(★) كان عدد هذه المؤلفات في الطبعة الأولى 48، أضفت إليها في هذه الطبعة 23 وقفت عليها بعد فأصبحت 71. كما أضفت معلومات جغرافية أطلعت عليها بعد الطبعة الأولى، ورتبتها على حروف الهجاء — الترتيب المشرقي —.

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
5 — الزهر الندي، في الخلق المحمدي	محمد بن عبدالرحمن الدلائي	مخطوط خ. ع. 157 د.
6 — شرح الشفا للقاضي عياض	الشرقي بن أبي بكر الدلائي	؟
7 — شرح الشفا (ثان)	أبو عَمَر بن محمد الدلائي	؟
8 — شرح الشفا (ثالث)	محمد بن عبدالرحمن الدلائي	؟
9 — فخر الزري، بسيد الوري	محمد بن عبدالرحمن الدلائي	؟
الفقه والاصول		
10 — إلهد العين، في بعض مسائل ذات الولين.	محمد البكري الدلائي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المثاني، 90:4.
11 — إسقاط النصيف، عن وجه المعرفة والتعريف.	محمد البكري الدلائي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المثاني، 90:4.
12 — التقاط زهر الفضا، من رياض عين القضا	محمد البكري الدلائي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المثاني، 90:4.
13 — تأليف في الأصول	الشرقي بن أبي بكر الدلائي	؟
14 — تقايد في نوازل الاحكام	محمد البكري الدلائي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المثاني، 90:4.
15 — تقيد كاشف عن أحكام الاستنابة في الوظائف	محمد المساوي الدلائي	مخطوطا خ. ع. 579 ج و995 ومخطوط القرويين 1530 (الثالث في اخموع) ومخطوط خ. م. 755 (أول مجموع) نسخة جيدة.
16 — جمع حاشية عبد الواحد بن عاشر على شرح التائي مختصر خليل	محمد بن عبد الله البكري الدلائي	مخطوط خ. م. 7643 (الجزء الثاني فقط في مجلد ضخمة بخط دقيق).
17 — الرياض الزاهر في عيون مسائل التصير	محمد البكري الدلائي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المثاني، 90:4
18 — شرح مختصر ابن الحاجب	أحمد الحارثي الدلائي	؟

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
19 — صرف الهمزة الى تحقيق معنى الذمة	محمد المسناوي الدلائلي	مخطوط خ.ع. 579 ج.
20 — فتوى في حكم الجمع ليلة المطر بالمدارس التي إمامها ساكن فيها.	محمد المسناوي الدلائلي	مخطوط خ.ع. 1854 د (الثامن في المجموع. ورقة 1/82 / 1/83).
21 — القول المنشور، يبيع الحبس في المسغبة ليس بمشهور.	محمد البكري الدلائلي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المطاي، 90:4
22 — المعارج المرتقات، الى معالي الورقات.	محمد المرباط الدلائلي	مخطوط خ.ع. 276 ك، ومخطوط خ.م. 4547.
23 — منظومة في مناسك الحج، نحو 200 بيت	محمد بن عبدالرحمن الدلائلي	نسبها له محمد الفاسي في شرح درة التيجان. (مخطوط خ.ع. 1432 ك.).
24 — نصرة القبض، والرد على من أنكر مشروعته في صلاتي النفل والفرض.	محمد المسناوي الدلائلي	طبع في تطوان.
25 — نوازل المسناوي	محمد مسناوي	طبع على الحجر بفاس عام 1345 في 298 صفحة.
26 — واضح الدليل، في اشتراط التبريز في التجريح والتعديل.	محمد البكري الدلائلي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المطاي، 90:4.
27 — تعليق على القاموس المحيط.	اللغة وقواعدها محمد المسناوي الدلائلي	نسبه له الشيخ مرتضى الزبيدي في تاج العروس (الطبعة الاولى بمصر 1306. ص 3).
28 — حاشية على المطول في البلاغة للفتازاني.	الشرقي بن ابي بكر الدلائلي	؟
29 — شرح ألفية ابن مالك في مجلدين.	محمد المرباط الدلائلي	؟
30 — شرح رائية اليوسي في رثاء الزاوية الدلائية	محمد والبكري الدلائيان	مخطوط خ.ع. 248 ك

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
31 — فتح اللطيف على البسط والتعريف، في علم التصريف.	محمد المرباط الدلائي	طبع على الحجر بفاس عام 1316.
32 — نتائج التحصيل، في شرح التسهيل في 4 مجلدات (٥).	محمد المرباط الدلائي	يوجد الجزء الثالث منه في خ.ع. 19 أوقاف، وجزء آخر بالمكتبة الاحمدية بتونس 4019. (من باب نعم ونس الى باب أسماء الافعال والاصوات) وجزء بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب المنقولة الى المكتبة الوطنية بتونس عدد 369. به 240 ورقة.
الادب		
33 — البركة البكرية في الخطب الوعظية	محمد المرباط الدلائي	توجد أوائلها في مخطوط بمكتبة ابن غازي بمكناس ؟
34 — تأليف في الادب	محمد البكري الدلائي.	؟
35 — تأليف في الخطب	محمد بن عبد الرحمن الدلائي	؟
36 — تحريك الساكن، ومبيح الشوق الكامن، الى زيارة طيبة ومن بها ساكن رحلة حجازية منظومة.	محمد بن عبد الرحمن الدلائي	؟
37 — دالية في مدح صالح الرباط سيدي لحسن بن سعيد.	محمد بن العربي الدلائي	أردها كاملة صاحب الاغبتا (المطبوع سنة 1986 بالرباط ص 69 — 70.

(٥) ذكر المؤرخ بوجندار في مقدمة الفتح (ص 150) ان شرح التسهيل هنا كان موجودا في مكتبة الجامع الاعظم بالرباط — وهي تابعة للخزانة العامة — كما أخبرني الاستاذ الحسن البونعماني أنه وقف على هذا الشرح بخط الامام ابي العباس الصوافي في رباط ماسة بسوس.

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
38 — الدرة الدرية، في محاسن الشعر وغرائب العربية.	محمد المرباط الدلائي	؟
39 — ديوان شعر	محمد المرباط الدلائي	مخطوط مكتبة خاصة بطنجة
40 — زهرة الوسائل، في المدح والرسائل	محمد المرباط الدلائي	مخطوط خ.ع. 3179 ك.
41 — فتح الانوار في بيان ما يعين على مدح النبي المختار، كتاب في الموسيقى والامداح النبوية.	محمد بن العربي الدلائي	مخطوطا خ.ع. 74 ك و 2678 ك
42 — قصيدة في التوسل بالمولى ادريس، 43 بيتا، مطلعها إليك يا همس الغرب قد جئت لائذا	محمد المساوي الدلائي	مخطوط خزانة تطوان. 536 (ص 319 — 321)
43 — قصيدة في الغزل، رائية في 30 بيتا	محمد المساوي الدلائي	مخطوط خزانة تطوان. 536 (ص 315 — 316)
44 — قصيدتان 1. أزهري نجوم قد تدلت لجانب 2. أنسيم الرياض بالاسحار	محمد المساوي الدلائي	مخطوط خزانة تطوان. 656
45 — كراسة من ديوان.	أحمد الخارثي الدلائي	مخطوط خ.ع. 3312 ك.
46 — المقامة الفكرية في محاسن الزاوية البكرية (الدلائية)	محمد المساوي الدلائي	مخطوط خ.م. 3907 ز أوائل مجموع.
الانساب		
47 — بغية الراي، في التعريف بالشيخ أبي عبد الله محمد المكي الدلائي.	محمد بن محمد المكي الدلائي	مخطوط خ.ع. 2996 ك.
48 — تحفة القاصد الناري، في التعريف بالشيخ عبد السلام المساوي	بعض أقارب عبد السلام المساوي الدلائي.	مخطوط مكتبة ابن غازي بمكناس
49 — التعريف بالاشراف الادارسة الجوطين	محمد المساوي الدلائي	مخطوطا خ.ع. 537 د. و 1632 د. ومخطوط خ.م. 5716

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
50 — التعريف بالشيخ أبي العباس اليتيمي	محمد المسناوي الدلائي	مخطوطات خ.ع. 471 د و 1419 د و 1914 د.
51 — تقييد في الاشراف الذين لهم شهرة بفاس.	محمد المسناوي الدلائي	مخطوط خ.ع. 487 د.
52 — تقييد في مناقب الشيخ عبد الله الخياط.	محمد المسناوي الدلائي	نسبه له صاحب جواهر السماط (*)
53 — تقييد مشتمل على فروع بني عمران	محمد المسناوي الدلائي	مخطوط خ.ع. 1632 ك
54 — جهد المقل القاصر، في نصرة الشيخ عبد القادر. (**)	محمد المسناوي الدلائي	مخطوط خ.ع. 579 ج، ومخطوط القرويين 1530
55 — درة التيجان، ولقطة اللؤلؤ والمرجان (***)	محمد بن عبد الرحمن الدلائي	مخطوطات خ.ع. 598 د و 522 د و 1180 ك و 1234 ك ومخطوطا خ.م. 838 و 5214 والاولى جيدة مشكولة.

(*) جواهر السماط في مناقب عبد الله الخياط لاحد تلاميذ الشيخ المسناوي الدلائي (دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص 240 طبعة تطوان) نص مؤلفه في الورقة 17 ب من مخطوطة الخزنة الاحمدية بفاس انه وقف على تقييد شيخه المسناوي المذكور ونقل عنه.

(**) توجد نسخة بالمكتبة الاحمدية بتونس، نسبها المفهرس — خطأ — الى محمد بن أحمد المسناوي الايوردي المتوفي عام 507 / 1113 زاعما نقل ذلك عن بروكلمان (الذيل 1 447) مع أن هذا الاخير تحدث عن كتاب آخر هو جهد المقل، وجهل المستطل محمد بن أحمد الايوردي !

(***) درة التيجان. رجز في نحو 500 بيت ذكر في محمد بن عبد الرحمن الدلائي شرفاء المغرب وقد شرحه محمد بن احمد الفاسي شرحا مفيدا في مجلد وسط. ورد نقيب الشرفاء الادارة الجوطيين عبد الرحمن بن عبد القادر الجوطي على ابن عبد الرحمن الدلائي وشيخه عبد السلام القادري صاحب كتاب الدر السني، لانهما رفعا نسب الأسرة الغالية الى جوط، وذلك في ارجوزة من 105 بيت مطلعها

سلام داخل حمي النسي
عليك يا محمد البكري

وانتصر للدلائي مؤرخان كبيران هما محمد بن الطيب القادري الذي نظم ارجوزة تشتمل على 663 بيتا سماها الصوامم الفتكية، ونظم ابو القاسم الزباني ارجوزة اخرى من 99 بيتا مطلعها
حمدا لمن انزل في الذكر الحكيم
أكرتكم اتقاكم لله العظيم

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
56 — نتيجة التحقيق، في بعض أهل الشرف الوثيق.	محمد السنائي الدلائي	طبع بمطبعة الدولة التونسية عام 1296، وعلى الحجر بفاس عام 1309.
57 — النور اللامع البراق، في ترجمة الشيخ محمد الحراق	محمد بن العربي الدلائي	مخطوط خ.ع. 960 د، ومخطوط خزانة تطوان 84.

موضوعات متنوعة

58 — إجازة	محمد السنائي الدلائي	مخطوط خزانة تطوان 536. (ص. 263—268) لم يذكر اسم المخازن وإنما ذكر شيوخ المجيز.
59 — تقايد جيدة في فنون مختلفة	محمد السنائي الدلائي	نقل عنها صاحب سلوة الانفاس
60 — جواب على ما يقع زمن المسغبة من كوة السؤال.	محمد السنائي الدلائي	مخطوطة خ.ع. 1081 د.
61 — رسالة إلى أهل مكناس يتوعدهم	محمد الحاج الدلائي	مخطوط خ.م. 3903 ز (أواخر مجموع)
62 — رسالة إلى السلطان محمد بن الشريف العلوي.	محمد بن أبي بكر الدلائي	مخطوط القرويين 1369.
63 — رسالتان إلى المجاهدين المحاصرين لسبتة عام 1132.	محمد بن عبد الرحمن الدلائي ومحمد السنائي الدلائي.	مخطوط خ.م. 6926.
64 — السيف الصقيل الصارم، في حكم الدعاء على الظالم.	محمد المهنائي الدلائي	مخطوط خ.م. 7248. ونقله كاملاً صاحب الدور الضاوية (261 د) (ورقة 391أ. — 401أ) ؟
65 — شرح نظم المراسد، للعربي الفاسي	محمد السنائي الدلائي	

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
66 — فهرس	محمد بن أبي بكر الدلائي	يوجد طرف منها بمكتبة محمد ابراهيم الكتاني بالرباط
67 — فوائد في التصوف	محمد المساوي الدلائي	مخطوط خ.ع. 984 ك (في مجموع، من ص 129—141)
68 — كناشة علمية	محمد المساوي الدلائي	الخزانة الفاسية
69 — كواعب الحسان، في جوارح الانسان. منظومة في 500 بيت.	محمد بن عبد الرحمن الدلائي	نسبها له محمد الفاسي في شرح درة التيجان (مخطوط خ.ع. 1432 ك. ص 1—2)
70 — مجموع رسائل وقصائد من الدلائين واليهيم.	دلائين وغيرهم	مخطوط خ.م. 199. ومخطوط خ.ع. 3312 ك.
71 — منعي سؤلي وأشواقي، في مسامرة الشريف العراقي	محمد البكري الدلائي	ذكره في ترجمته صاحب نشر المطالي، 4 90.

ب — جدول الكتب التي ألقت في الدلائين (*)

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
1 — اختصار البدور الضاوية في التعريف بالسادات اهل الزاوية الدلائية.	احمد بن الطيب البوعزاوي	؟
2 — اختصار ثان للبدور الضاوية	عباس بن محمد بن عبد الرحمن السجلماسي العلوي	مخطوط خ.ع. 3730 د. بخط المؤلف انتهى منه عام 1297 (ص 1 — 116)

(*) كان عددها في الطبعة الاولى 14، فأضيف اليها 9 وقت عليها بعد، ورتبها كذلك على حروف الفجاء.

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
3 - اختصار ثالث للبدور الضاوية	محمد ابراهيم الكتاني	خزانة المؤلف
4 - اختصار رابع للبدور الضاوية	محمد العابد الفاسي	الخزانة الفاسية
5 - البدور الضاوية في التعريف بالسادات اهل الزاوية الدلائية.	سليمان الخوات	مخطوطات خ.ع. 261 و 1454 د، و 294 ك.
6 - بغية الراوي، في مناقب المساوي	مجهول المؤلف	مخطوط خ.ع. 2996 ك
7 - تأليف في أسانيد الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي	الحافظ أحمد الفاسي	؟
8 - تأليف في ترجمة محمد المساوي الدلائي.	محمد حمزة العياشي	في سجل الخزانة الحمزاوية
9 - تأليف ثان في ترجمة المساوي الدلائي	احمد بن عبد الوهاب الوزير الغسالي	نقله كاملا صاحب البدور الضاوية (261 د) ورقة 184 وما بعدها.
10 - تأليف ثالث في ترجمة المساوي الدلائي	الحسن بن رجال المعداني	ذكره صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى عدد 725
11 - ترجمة الأمير عبد الله الدلائي	مجهول	ميكروفيلم خ.ع. رقم 36 في مجموع
12 - حقائق الأزهار الندية، في التعريف بأهل الزاوية الدلائية البكرية.	محمد بن أبي بكر اليازغي	مخطوط خ.ع. 261 د.
13 - ديوان الدغوشي. فيه قصائد ومقطعات في مدح الدلائين.	أحمد الدغوشي شاعر الدلائين	ميكروفيلم خ.ع. رقم 955
14 - ديوان يشتمل على قصائد في مدح الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي	مجهول	مخطوط خ.ع. 3312 ك
15 - رجز في سند الدلائين - 35 بيتا - أوله الحمد لله الذي أسند له كل ولي بالنبي أو صله.	مجهول	مخطوط خ.ع. 199.

اسم الكتاب	المؤلف	مكان الكتاب
16 — رسالة الى الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي في شأن نافيالت وحكم بودميعة	عبد الرحمن الحناري	أوردها كاملة في الفوائد الجمعة ص 222 + مخطوط خاص
17 — شرح درة التيجان	محمد بن أحمد الفاسي	مخطوط خ.ع. 1432 ك.
18 — شرح رائية اليوسي في رثاء الزاوية الدلائية 6 مجلدات ضخام	محمد بن المهدي ابن سودة	مخطوطة حزانة ابناء المؤند بفاس. ووقفت على الحيد الاول منه عند الاستاذ عبد السلام ابن سودة مشتملا على مقدمة طويلة في التعريف باليوسي وشيوخ الدلاء، مع شرح البيز الاولين فقط.
19 — القصيدة الرائية في رثاء الزاوية الدلائية	الحسن اليوسي	مخطوط خ.ع. 163 د.
20 — مجموع أدبي، رسائل وقصائد، بعضها في مدح الدلائيين	احد نلاميذ محمد المرباط الدلائي	مخطوط خ.م. 199.
21 — المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية.	محمد المكلاقي الفاسي	أثبها كاملة عبد الله كنز في النبوغ المغربي، 2 188 — 200 (الطبعة الثانية 1961)
22 — نزهة الاخيار المرضيين، في مناقب العلماء الدلائيين البكرين. انتهى من تأليفه عام 1230	عبد الودود بن عمر التازي	مخطوط خ.ع. 1264 ك. ومخطوط خ.م. 3772 وهي نسخة جيدة حديثة الخزانة الفاسية.
23 — نزهة الفكر، في مناقب الشيخين سيدي محمد ووالده سيدي أبي بكر.	عبد السلام بن الطيب القادري	

4) بقايا البيت الدلائي

أ) مساكن قبيلة مجاط اليوم

عرفنا في الباب الأول أن أصل الدلائين من مجاط، وهي قبيلة بربرية من صنهاجة⁽²⁷⁾ كانت تسكن في القديم أقاصي الصحراء المغربية حيث لا يزال بعضهم هنالك حتى اليوم يكتبون بالحروف البربرية القديمة. واستوطن المجاطيون الذين طلّعوا إلى المغرب قديما ملوية العليا ثم انتشروا في جبال الأطلس، وعمرت طائفة منهم — مع أربع قبائل أخرى — مدينة محمد الحاج الدلائي في أواسط القرن الهجري الحادي عشر. وبعد انتهاء الامارة الدلائية وفشل الثورات البربرية تفرق المجاطيون في البلاد. وتوجد اليوم في المغرب ثلاث قبائل يطلق على كل منها اسم مجاط: (28)

أولا — مجاط ناحية مكناس، ويقيمون على بعد نحو 10 كلم من هذه المدينة في طريق الحاجب. ومن أشهر عشائريهم بنو محمد، وبنو يحيى، وشرفاء بوفكران.

ثانيا مجاط ناحية مراكش. وتشتمل على فرقتين مجاط التحتية، وتقع مساكنهم على بعد نحو 30 كلم من مراكش في طريق الصويرة. وتكتنف محاطا التحتية قبائل الودايا شمالا وشرقا، وقبيلة أحمر غربا، وأيت يمور جنوبا. وأما مجاط الفوقية فيسكنون في نجد الدير على ضفاف (أسيف المال) جنوبي مساكن إخوانهم التحتيين، ويعلنون عن مراكش بنحو 70 كلم في طريق أمزميز. وتجاور محاط الفوقية قبائل مزوضة وكدمية وهي تابعة من الناحية الإدارية للناحية إيميتانوت.

(27) يقال إن كلمة (سنيكال) هي تحريف لصنهاجة. فهل هذا يعني أن السنيكاليين هم مغاربة صنهاجيون أسود بشرتهم بتأثير الطقس الحار الذي يعيشون فيه وبامتزاجهم مع جيرانهم السودانيين ؟

(28) عرض عبد الوهاب بن منصور في هامش كتاب العز والصولة، (1 154) لقبائل مجاط فذكر أن هناك اليوم بالمغرب أربع قبائل مجاطية، جاعلا واحدة منها بحوز مراكش وأخرى بحوز شوشولة، كما عد زاوية سيدي أحمد بن موسى من جملة عشائر المجاطيين القاطنين بحوز شوشولة !!

ثالثا — مجاط سوس. وهي أهم هذه القبائل الثلاث، تسكن غير بعيدة عن تازروالت حيث زاوية الشيخ الشهير أحمد بن موسى السملالي. وتكتنفها شمالا قبيلة إدا وسملال وجنوبا إفران (الأطلس الصغير) وشرقا أيت عبد الله، وغربا أيت رخا. وتتبع اداريا دائرة بويز كارن. وينفق المجاطيون السوسيون على زاوية الشيخ أحمد بن موسى التي يعتبرونها مدرستهم الخاصة، فيصرفون من زكواتهم على من بها من الطلبة والمحتاجين حتى اليوم لذلك يحيط السوسيون جميعهم قبيلة مجاط بكثير من التقدير والاحلال، ويعتقدون أن حقول المجاطيين لا تمحل حتى في السنين المجدة.

ب) أحفاد اللاتيين في فاس والدار البيضاء والرباط

كانت أسرة اللاتيين كبيرة في فاس، وتشعبت فروعها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر (18—19م) حتى غدت كاللوحدة العظيمة، ثم بدأ عدد أفراد هذه الأسرة يقل الى أن لم يبق منهم في مستهل قرننا الحاضر بفاس إلا بضعة رجال «أهل مروءة ودين غير أنهم لا علم عندهم وإنما يحترفون بحرفة معاشية من تسفير كتب ونحو ذلك..» (29)

واليوم تعيش في فاس خمس أسر دلالية ليس لها من اتصال باللاتيين القدماء الا (حيازة) الانتساب اليهم بالتواتر على الالسنه، حتى إن بعض الناس لما رغب في امتلاك مقبرة اللاتيين الشهيرة بالكغادين في زنقة باب الحمراء قرب وادي الزيتون داخل باب الفتوح بفاس (30) استغل ضعف هؤلاء اللاتيين المادي والمعنوي فاشتراها منهم — عن طريق الاحتيال والاكراه حسب زعمهم — وأشهد عليهم البيع الواحد تلو الآخر. ومهما يكن من أمر فإن تملك مقبرة للمسلمين خصوصا مقبرة تضم أجداث علماء أعلام، وتحويلها الى موقف للسيارات ثم الى ما لا نعلم، منكر يجب تغييره، وبهتان لا ينبغي السكوت عنه.

(29) ادريس الفضلي، الدرر البية، 2 345

(30) سبق للاستاذ عبد السلام بنسودة أن استنكر ذلك في أحد الأعداد الأولى لجريدة «الرأي العام» التي كانت تصدر بالدار البيضاء. ولمعرفة أسماء بعض العلماء اللاتيين الذين دفنوا في مقبرة الكغادين وتزاجهم يمكن الرجوع الى سلة الانفاس، ج 2، من صحيفة 89 الى صحيفة 100

اللوحة رقم 21



محمد بن محمد بن حسن الدلائي تاجر في فاس

من تصوير المؤلف



مقبرة العلماء الدلائين الشهيرة بزنقة باب الحمراء في فاس

من تصوير المؤلف

وكان بعض اللاتين قد انتقل في أواسط القرن الماضي الى السكنى برباط
الفتح. ونشأ منهم في هذه المدينة أديب صوفي هو محمد بن العربي اللاتى. كان
يلتزم دروس الشيخ أحمد دنية ويحضر مجالسه الحديثة والفقهية، ويشغل في نفس
الوقت بالتجارة في سوق العطارين. وقد مدح محمد بن العربي اللاتى شيخه دنية
حينما ختم صحيح البخاري بقصيدة مطلعها

بدا في سماء المجد والسعد طالع وأسفر عن وجه السعادة ساطع
ثم مدحه لما ختم مختصر الشيخ خليل بقصيدة أخرى مطلعها
خليلي حدثني حديث أحبتي فذكرهم أنس لأهل المحبة (31)

وصحب محمد بن العربي اللاتى بعد ذلك الشيخين الصوفيين الشهيرين
العربي الدرقاوي ومحمد الحراق، وسلك على يدهما طريق القوم إلى أن بلغ درجة
المشيخة. وأسس في الرباط الطريقة الحراقية، وعنه أخذها كثير من الناس، منهم
العالم أحمد بن عاشر الحداد الذي شيد أركان هذه الطريقة في الرباط من بعده.
ولمحمد بن العربي اللاتى أزجال كثيرة في طريقة شيخه محمد الحراق، وأناشيد
صوفية حسنة، وشعر كثير أغلبه في مدح الرسول عليه السلام.

وقد ألف محمد بن العربي اللاتى كتابين، أحدهما في مدح الرسول الكريم
بطريقة السماع أو الألحان الموسيقية، سماه فصح الأنوار في بيان ما يعين على مدح
النبي المختار، ذكر فيه أن أركان (السماع) ثلاثة لا بد لكل منشئ من معرفتها، وهي
الشعر المتغنى به، والطبع المترنم بلحنه، والوزن المفروغ ذلك الترنم في قلبه. ثم أتى
بعد ذلك بالبحور الشعرية وتفاعيلها مختصرة، والطبوع الموسيقية مجملة ثم مفصلة.

والكتاب الثاني الذي ألفه محمد بن العربي اللاتى في ترجمة الشيخ محمد
الحراق، ذكر فيه نسب الشيخ ومشاركته في العلوم ولا سيما علم الباطن، وعرض

(31) انظر نص القصيدتين وترجمة ابن العربي اللاتى عند محمد دنية، السمات الندية ص 86-90
وانظر كذلك، محمد المكناسي، أهم مصادر التاريخ المغربي ص 139+140؛ ومحمد بوجندار، الاغباط بتراجم
اعلام الرباط 1 : 207-212.

لرسائله إلى إخوانه ومريديه، وخصص في الأخير باباً لقصائد الحراق وتوشيحاته ومقطعاته مرتبة على البحور، مبتدئاً بالطويل

أَتَطْلُب لَيْلِي وَهِيَ فِيكَ تَجَلَّتْ وَتَحْسَبُهَا غَيْرًا وَغَيْرُكَ لَيْسَتْ...

ثم انتقل الشيخ محمد بن العربي الدلائي إلى مدينة الدار البيضاء حيث أسس زاويته المشهورة في البقعة التي كانت وهبت للشيخ الحراق، غير بعيدة عن المسجد العتيق بطريق دار الخزن في المدينة القديمة، وأخذ يلقي فيها الأوراد ويعمر حلق الذكر بالسماع على الطريقة الحراقية. وكانت الدار البيضاء في ذلك الوقت (أواخر القرن 13 هـ / 19م) خالية قفراً ليس فيها إلا المسجد العتيق المجاور للدار الخزن إذا أقيمت فيه صلاة الجمعة لا يجتمع الحد الأدنى الذي لا تصح هذه الصلاة إلا به وهو اثنا عشر رجلاً. وتزوج الشيخ محمد بن العربي الدلائي في الدار البيضاء، وظل يحن إلى مسقط رأسه الرباط، ويتردد عليه من حين لآخر إلى أن توفي في 15 شوال 1285 / 1869 ودفن بركن الصحن الأول عن يمين المستقبل داخل زاويته في الدار البيضاء. وخلفه ابنه الصالح عبد السلام الدلائي، وكان مثله عالماً ورعاً يتجنب الظهور ويميل إلى الانعزال عن الناس. سلك سبيل والده في التصوف والانقطاع إلى العبادة والذكر وتربية المريدين إلى أن توفي عام 1310 / 92-1893 ودفن بجوار والده في زاويتهم. وما يزال حتى اليوم بعض أقرباء محمد بن العربي الدلائي يعيشون في الدار البيضاء والرباط، وليس بأيديهم من الوثائق ما يوصل عمود نسبهم بالدلائيين القدماء.

هكذا تفرقت قبيلة مجاط العظيمة أيدي سباً، وقل أفراد البيت الدلائي المجيد بعد كثرة، وافتقروا بعد غنى، وارتحل عنهم العلم بعد طول إقامة، ولله عاقبة الأمور.



باب زاوية محمد بن العربي الدلائي في الدار البيضاء — الزاوية الحرفية

الخاتمة

لقد تعاقبت على الزاوية الدلائية أطوار الحياة الطبيعية، من نشوء وترعرع وارتقاء، ثم تقهقر وفناء، في أمد قريب لم يجاوز قرنا واحدا، وهو عمر قصير بالنسبة للمؤسسات الدينية والعلمية التي يفرض فيها أن تخلد خلود الدين والعلم، لاسيما وقد تم تأسيس الزاوية الدلائية في موقع جبلي هام بعيد عن العاصمتين فاس ومراكش، على يد شيخ أصيل في هذه البيئة، لديه كل المؤهلات التي تضمن التفاف الناس حوله، فلم يختلف اثنان في صلاح الشيخ أي بكر الدلائي، ولم يعرف عنه قومه المجاطيون وجيرانهم الزيانيون والتادليون إلا النسك والعبادة منذ حداثة سنه، والزهد في الدنيا والاعراض عن زخرفها الزائل على ما آتاه الله من بسطة في الرزق. ولم يمت هذا الشيخ حتى كانت الزاوية الدلائية قد سارت بذكرها الركبان، واشتهر أمرها في المغرب كله، وقصدها الناس من جميع الجهات، ومن بينهم علماء كبار استطابوا المقام فيها شهورا وأعواما، وازدهرت بهم المجالس العلمية ازدهار حلقات الأذكار بالمريدين. وخَلَفَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَبَاهُ عَلَى رَأْسِ الزَّائِيَةِ الدَّلَائِيَّةِ، وَكَانَ عَالِمًا كَبِيرًا لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ الْأَخُوَّةِ الْعُلَمَاءِ، تَصَدَّرُوا لِلتَّدْرِيسِ جَمِيعًا فَنَفَقَتْ سَوَاقُ الْعِلْمِ فِي الدَّلَاءِ، وَتَكَاثَرَ فِيهَا الطُّلَبَةُ الَّذِينَ أُوْوُوا إِلَى مَنَارِسٍ كَبِيرَةٍ بَلَغَتْ حَجَرَاتِهَا أَلْفًا وَأَرْبَعُمِائَةً، وَاتَّسَعَتِ الْمَكْتَبَةُ الْعِلْمِيَّةُ الدَّلَائِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَسْتَنْسِخُهَا الْكُتُبُ النَّادِرَةُ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ بَلَغَ عَدَدُ الْكُتُبِ فِيهَا عَشْرَةَ آلَافٍ مَجْلُدٍ. وَيَكْفِي الزَّائِيَةُ الدَّلَائِيَّةُ فَخْرًا أَنْ يُعَدَّ مِنْ تَلَامِيذِهَا الْحَسَنُ الْيُوسُفِيُّ صَاحِبُ الْمَحَاضِرَاتِ وَالْقَانُونِ، وَأَحْمَدُ الْمُقْرِي صَاحِبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ، وَمُحَمَّدُ الْعَرَبِيُّ الْفَاسِيُّ مُؤَلِّفُ مِرْآةِ الْحَاسِنِ، وَأَضْرَابُهُمْ مِنْ فِطَاحِلِ الْعُلَمَاءِ، وَأَنْ تُنَجَّبَ مِنْ أَبْنَائِهَا عَشْرَتُ الْأَعْلَامِ فِي مُخْتَلَفِ مِيَادِينِ الْمَعْرِفَةِ، مِثْلُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الدَّلَائِيِّ شَيْخِ الْحِفَافِ بِالْمَغْرِبِ، وَابْنِ مُحَمَّدِ الْمُرَابِطِ إِمَامِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ فِي عَصْرِهِ، وَأَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الدَّلَائِيُّ أَشْعَرُ قَوْمِهِ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْآدَابِ.

و شاء القدر أن يتولى أمر الزاوية الدلائية في منتصف القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) رجل طموح من هذه الأسرة المجيدة، بهر بريق الحياء والسلطان وأعماه حب الرئاسة، فانغمر في ميدان السياسة. وكانت له مؤهلات كثيرة للنجاح، من عصبية صنهاجية قوية ونفوذ روحي كبير وثروة طائلة، إلى راحة عقل وحسن تدبير وبطولة نادرة. ملك السلطان محمد الحاج الدلائي أهم البلاد، وامتد نفوذه فشمّل وسط المغرب وشماله وغربه، ودخلت في طاعته سلا، والرباط، ومكناس، وفاس، وتازا، وتطوان، وأسس بالسفح الغربي للأطلس المتوسط مدينته العظيمة التي ورثت عن زاوية الدلاء القديمة اسمها وعلمها ونفوذها الروحي. وقد انضوى تحت لواء الدلائيين المجاهدون البحريون أو القراصنة السلويون، وأقام عبد الله الدلائي في قصبة سلا نائبا عن أبيه السلطان محمد الحاج في حكم مدن أبي رقراق وما يليها من بلاد الغرب، وفي الاتصال بممثلي الدول الأوربية الكبرى التي كان لها قناصل قارون في سلا وتطوان يمثلونها لدى الأمير الدلائي، ويفاوضونه في موضوع العلاقات التجارية، والمشاكل الناتجة عن القرصنة البحرية وخاصة مسألة الأسرى وفدائهم. وكان لأسطول الجهاد المغربي وزنه الراجح أيام الدلائيين، يرهبه الأوربيون أكثر من رهبتهم الأسطول التركي في الجزائر، ويسعون بحد في مهادنة الدلائيين والتحالف معهم، رغبة منهم في المحافظة على سلامة أساطيلهم التجارية التي كانت تتمخر عباب البحرين الاطلنطيقي والمتوسط. وأمضى عبد الله الدلائي عدة معاهدات مع هذه الدول، ساعدت على نشاط الحركة التجارية في الموانئ المغربية، واستغنت الخزينة الدلائية بالضرائب الجمركية المفروضة على الصادرات والواردات، وتزود الجيش الدلائي بالعتاد الحربي الحديث المجلوب من أوروبا. ووجه الدلائيون سفراءهم إلى هولاندا، فكانوا محل تقدير وأعجاب، واستطاعوا أن يحلوا كثيرا من المشاكل العويصة التي ظلت معلقة بين البلدين طوال سنين عديدة.

غير أنه بالرغم من تمكن سلطة محمد الحاج وانتشار نفوذه لم يستطع أو لم يجزؤ على أن يوحد المغرب كله تحت سلطته، واكتفى بنوع من التعايش السلمي

مع بقايا السعديين في مراكش، ومع العلويين في تافيلالت ودرعة، وأبي حسون السملالي في سوس. وبذلك أصبح لا يعدو أن يكون مجرد حاكم مقاطعة — وإن اشتملت على أهم أقاليم البلاد — وغدا سلطانه غير شرعي بالرغم من البيعات التي حملها اليه علماء المدن والقبائل وأعيانها وفي مقدمتهم أهل فاس، إذ لم يكن من الطبيعي ولا من الممكن أن يظل المغرب مقسما الى مناطق نفوذ تحت سيطرة أربعة من السلاطين بلغ التنافر بينهم منتهاه، بل كان هذا النوع من حكم ملوك الطوائف من مظاهر الضعف والانحلال في البلاد، ومرضاً خطيراً أصاب الأمة إن لم تُشَف منه أدى بها الى الهلاك. وكان لا بد أن يتغلب أحد المتزعمين الأربعة على منافسيه لتخلص له البلاد كلها، أو أن ياتي زعيم جديد قوي ينتزع السلطة من أيديهم جميعاً. والحقيقة أنه كانت للدلايين في السنين الأولى لإمارتهم قوة حرية كبيرة تمكنهم من القضاء على منافسيهم في يسر، وقد حاربوا فعلاً السعديين والعلويين والحقوا بهم هزائم نكراء، لم يكن من الصعب معها الإجهاز عليهم والتخلص منهم نهائياً لولا نسبهم الشريف.

وكان ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوي في المغرب الشرقي واستيلائه على فاس ومكناس بداية النهاية بالنسبة للزاوية الدلائية. وفي الأيام الأولى من عام 1668/1079 غادر الدلايون زاويتهم الى فاس، والحسرة تملأ أفئدتهم، والدموع تترقق في مآقيهم، تاركين وراءهم الدور والقصور، والمال والسلاح، والعز والجاه. وأعمل السلطان الرشيد معاول الهدم في الزاويتين الدلايتين، القديمة والحديثة، فخرهما وطمس ما استطاع أن يطمس من معالمهما، وتركهما خاويتين على عروشهما تعشعش فيهما البوم وتنقع الغربان، باكية سوء طالع الدلايين وعمر جدهم. ثم بعد النكبة والغربة أدرك العلماء الدلايون منزلة رفيعة في العاصمة الادريسية، وزاحموا علماءها على منابر التدريس والخطابة في المساجد والمدارس إلى أن أصبحوا يحتلون الصدارة في هذا الميدان. وتولى كثير من الفقهاء الدلايين خطة القضاء والافتاء في فاس ومكناس وتارودانت، ودرّس علماءهم في هذه المدن وفي غيرها كمراكش، وتعلمذ لهم كثير من الناس من جميع الطبقات، حتى الأمراء

العلويون مثل محمد العالم بن السلطان اسماعيل، وعبد السلام بن السلطان محمد بن عبد الله. وخلف الدلائيون تراثا علميا هاما يتمثل في عشرات الكتب التي ألفوها في مختلف الفنون، وفي آثارهم الأدبية الرائعة المبعثرة في ثنايا الكتب والكراسات والمجاميع في المكتبات العامة ودور الخاصة، والتي لو جمعت ودرست على الوجه اللائق لكونت دواوين أدبية ممتعة.

وصفوة القول أن الزاوية الدلائية أدت رسالتها الأولى على أحسن وجه، وظلت نبعا فياضا يكرع منه رجال العلم والدين طيلة قرن كامل. ولم ينجح الدلائيون في ميدان السياسة لأن البيئة الروحية التي كوّنتهم لم تُعدهم ليكونوا ملوكا ذوي بطش وسلطان، فحاولوا أن (يُصوّفوا) السياسة وقنعوا بالرقعة التي انبسط نفوذهم عليها تاركين حوز مراكش للشرفاء السعديين، وما وراء جبل العياشي للشرفاء العلويين، ولم يحاربوا أبا حسون السملالي لأنه من سلالة الصالحين، ثم ملكوا فاسا فلم يسكنوا قصر الامارة حتى لا يزعمجوا الشريقات السعديات. وظل الدلائيون هكنا حائرين بين المادة والروح والدين والدنيا الى أن جاء السلطان الرشيد بن الشريف العلوي الذي قبض على الأمر بيد من حديد، ووحد المغرب كله تحت سلطته، فرد الى الدلائيين رشدهم وحملهم الى فاس ليتابعوا أداء رسالتهم العلمية والدينية كما أداها آباؤهم الأولون.

ظهر السلطان محمد الشيخ السعدي
بتعظيم الشيخ سعيد بن أحمد الدلائي (*)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم
نسلما.

عن أمر عبد الله تعالى مولانا أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين
المؤيد المنصور بالله، القائم بأمره، الشريف الحسني أدام الله عزه وأيد ملكه آمين،
محمد الشيخ بن محمد، انا جلدنا بحول الله وقوته لحامل أمرنا العلي المبارك الكريم
أسماء الله وخلد مآثره، وهو ولينا في الله سبحانه، الذي نعظم قدره ونلتزم تبجيله
وايثاره، السيد الأفضل، الولي الأكمل، المبارك الخير الصالح، الأستاذ المعلم
الناصح، سيدي سعيد بن أحمد الدلائي، وصل الله كرامته، ووالى بمنه سعادته،
تجدينا تاما، له خاصا ولأخوانه عاما، على ما ييدهم من ظهائر أسلافنا الكرام،
وغيرهم رحمهم الله، المتضمنة لشرفهم وتوقيرهم واحترامهم، ومحاشاتهم من سائر
كلائفنا(2) ووظائفنا المعهودة لغيرهم، بعد أن تصفحنها فألفينها مؤسسة المبني،
ومستقيمة اللفظ والمعنى، في غاية ما يكون من التحقيق والتعظيم والرضى، من غير
تغيير ولا تبديل، ولا تحريف وتحويل. وتركناهم على ما كانوا عليه من التصرف في
بلادهم المعروفة من غير اعتراض لهم فيها ولا نزاع من أهل دائرتنا، ولنعلمهم كافة
عبدا وحرًا، وقائدا ووزيرا، بأننا ألبسناهم لباس التوقير والاحترام، وتوجناهم
بتاج العز والاكرام، فلا سبيل لمخلوق عليهم كائن من كان. ومن حاد عن أمرنا هذا

(*) سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 1/7.

(1) الكلائف جمع محرف عن الكلف، والمفرد كلفة. وهي ما كان يفرضه الملك على رعاياه من اناوة أو خدمة خاصة، ويقال للكلفة أيضا نائبة.

أو خالفه فلا يلومنَّ إلا نفسه. وعليهم بطريق المسكنة(2) والوقوف على ما تعود نفعه ومصلحته لدارنا العلية بالله ولا بد والسلام. وكتب في سادس محرم الحرام عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة.

ملحق رقم (2)

قصيدة الأستاذ أحمد بن قاسم المنصوري بمناسبة زيارة أطلال الزاوية الدلائية *

طلما تشوقت لزيارة رجال الدلاء، بمقرهم الأول بالدلاء، الى أن اقترح علي الصديق الحميم الأديب النشيط سيدي محمد حجي المفتش بوزارة التربية الوطنية أن أرافقه لزيارة الزاويتين الدلايتين، الأولى التي كانت ينبوع رجالهم ومقر عرفانهم في أول مستقرهم بتلك البلاد الزاوية من فخذ أيت إسحاق وحيث مدفن علمائهم وعظمائهم، والثانية التي صارت دار علم وصلاح ومملكة بعد، وهذه جاءت يسار الطريق الرئيسية من مراكش لفاس على نحو 65 كلم من قصبة تادلا. وتعرف الآن بزاوية أيت إسحاق. أما الزاوية الأصلية الأولى الآنفه الذكر، فقد جاءت شرقي هذه بنحو 12 كلم في شعاب جبال الأطلس الزيلاني، يسلك الناهب إليها في شقة بمشقة من ثنايا وشعاب، وتلال وعقاب، تُذكر فيما أنشده الإمام ابن حجر عند زيارته لقبر الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي حيث يقول

قطعنا في زيارته عِقَاباً وما بعد العِقَاب سوى النعم

فيسر الله هذه الزيارة عشية يوم الأربعاء 25 حجة 1381 هـ/30 ماي 1962 م. وعندما وقفنا على تلك الآثار. وهاتيك الديار، التي كانت طافحة بالمعارف زاخرة

(2) المراد بطريق المسكنة طريق التصوف وتسمى أيضا طريق الفقر، لأن المتصوفين الصادقين ينصرفون عن الدنيا ويزهّدون فيها.

* نشرت هذه القصيدة في جريدة الميثاق، لسان رابطة علماء المغرب، العدد 12 من السنة الأولى بتاريخ فاتح ربيع الأول 1382/2 غشت 1962. ص 4 تحت عنوان على أطلال الزاوية الدلائية.

وقد توفي الأستاذ أحمد بن قاسم للمنصوري بمدينة وادي زم عشية يوم الاثنين 16 ربيع الثاني عام 1384 21% غشت 1964. رحمه الله وغفر لنا وله.

بالصلاح والدين والكرم، ثم ما آلت اليه من أطلال خربة، وبلاقع ينقع الغراب
وينعب فيها البوم، هاج القريحة ذلك المشهد الغريب، والمنظر الرهيب. ومن جهة
أخرى أعادت لي تلك الزيارة ذكرى أيام الصبا والشباب التي مرت لي ببلاد زيان،
وأطلسها الفينان، وهنا ما تترجم بعضه هذه القصيدة

ذكرت الصبا وعهده بمربع عشية مرّت في التجائب خلصة
خلال ثابا شاهقات الطوالع ثابا (بكرض الخير) 1 تُسمى وأسيده 2
مضت، وليالي، ما تُرى بروجع ثابا «زيان» 3 لا اثقا 4 والأجارع 5
سقتها غواد(7) بالغوث الهوامع زمان شباني (6) يشي بمربع
بمغنى الدلاء يا لها من مربع مراع كان الجود يمي (8) حياها
وينهمر العرفان من جدرايا انهمار رهاها من غزير النابع
كما انصب رقراق المياه الدوافع وينصب رقراق الخابر دفقة
شبوكة 9 واسرو 10 لانضوب الوقائع 11 من اودبة أم الربيع يُملهاها
النوايا الحسان في حسان المراتع ولم رعت في خصب عرفانها ذوو
وبالعلم شيب مثل كهلي ويافع بها فية بالدين كان هيامها
لصهاجة أولي السيوف الشعاشع(13) عراين(12) في أنسابها من برابر

- (1) كرض الخير عقبة يصعد بها الناهب لزيارة هذه الأضرحة، ومعنى كرض بالعربة عقبة، أي عقبة الخير. والمراد بالخير رجال تلك الزاوية.
- (2) والمراد بأسده الشعبة التي جاءت شرقي هذه الأضرحة المسماة (أقا ازم) بالبرية أيضا ومعناها بالعربة شعبة الأسد.
- (3) زيان هي القبيلة المشهورة وفيها جاءت الزاويتان في فخذ أيت اسحاق.
- (4) النقا رملة مستوية.
- (5) والأجارع رملة مستوية لانتبت.
- (6) كانت نشأة الشاعر بزيان بمدينة خنيفرة، ولد بمكناس ولكن جاء به والده الى المعسكر الذي كان يرأسه بخنيفرة قبل سابع الولادة، وما برحها حتى هاجمهم الفرنسيون في حملة الاحتلال.
- (7) الغواي جمع غلابة: السحاب الذي ينشأ صباحا أو مطرة الغناة.
- (8) يمي يسيل لا يشيه شيء.
- (9) شبوكة واد ينحدر من جبال شرقي مدينة خنيفرة وهو أحد روافد أم الربيع.
- (10) أسرو واد ينحدر من شرقي خنيفرة، في حين يهبط أم الربيع من جبال غربي خنيفرة. ويصب واد شبوكة في أسرو ويذهبان بضعة كلمترات فيصبان في أم الربيع. وتجري هذه فطر ازاء الزاوية بكلمترات.
- (11) الوقائع جمع وقعة نقرة في الجبل يستنقع منها.
- (12) العزيز السيد الشريف.
- (13) الشعاشع الطوال.

أعزاء في أحسابها، إن يهب بها
 وفي ليلها نعثو(14) اغاربت هُجُداً
 ولما أتت اليوم شوقاً أحجُّها
 وقد خلَّد التاريخ ذكرى رجالها
 وقلت إذا ما فاتني من زمانيها
 بها قد ثوى الحجد الرفيع يساق(16)
 يفوح شذاها من أبي بكر الرضى(17)
 محمد(18) من قد طبق الأفق جوذه
 وبرُّ برور الصالحين بوالسد
 سقَّتْهُمْ غوادٍ رائحات تسوقها
 فماذا رأيتُ؟ إذ اتيتُ لروضها
 رمتها فهلت من شواخ ركنها
 تبدل ذاك الفائق الحسَن نضرة
 وعاد رحى شربها رنقا(20) فما
 فشابت نواصي الزائرين بلوعة
 ألا أيها المتاع منها تحسراً
 عزاء، فما ينفك بالقوم غادراً
 وسلم، قضاء الله حتم وناقد

غيوث لدى النكا ليوث الوقائع
 قياماً قعوداً جافيات المضاجع
 وفي حجلي حجلي جمل الطابع
 رجال يراع أو رماح شوارع(15)
 لقاء ففى تلك القباب السواطع
 العلاء والمعالي وهي جد روائع
 وقطب رحي ذا البت دون مضارع
 بعلم ومال، فهو جم الصنائع
 فجوزي، ثم كان خير مضاجع
 هادي(19) العشايا أو هوب المطالع
 رأيت الليالي قد رمت بفواجع
 وعزة هاتيك القصور اللوامع
 بأطلال يوم تعبت وبلاقع
 يلد مذاقاً أو يسوغ لجارح
 وغصت بدمع من ماقٍ مشايخ(21)
 رويدك، ذاك الدهر رب الفواجع
 فلا تغضب فالتعب ليس بنافع
 فكن بقضاء خير راضٍ وطائع

(14) نعثو تقصد ليلاً.

(15) الرماح الشوارع المسددة.

(16) يساق يفاجر.

(17) أبو بكر هو قطب هذه الأسرة علماً وصلاًحاً ودنيا، ولد سنة 943 وتوفي سنة 1021.

(18) محمد فتاح هو النجل الأكبر الذي ملأ الدنيا علماً وعملاً وفيضا ونوالاً وصلاًحاً. ولد حوالي سنة 967 وتوفي سنة 1046.

1046.

(19) هادي الليل أولئله.

(20) رنقا كدرا.

(21) مشايخ موافق ومساعد.

ملحق رقم (3)

أحدى القصائد التي كان يلقيها شاعر الزاوية الدلائية أحمد الدغوي في
مواسم عيد المولد النبوي الشريف بين يدي الشيخ محمد بن أبي بكر يمدحه في
آخرها بالكرم وأحياء الشريعة واتباع السنة *

وسرّوا بليي بين تلك الأرحل	رحلوا وقاطن شوقهم لم يرحل
أسفاً ومن خلدي ذهول البلبل (1)	فألفت من جسدي الذبول لفقدهم
حقى على عبرات دمعي الهمل (2)	فعلى الطلول تزايد الزفرات من
وجاذر بهم جبيدك كم حلي (3)	يا ربع أين ظباء حيك والمها
يزهو نفاك كأنه لم يعطل (4)	يا ربع ويحك أين من بنقائهم
متحملي الأثقال أي تحمل	أجري الضوامر مدلين خدائهم
قطع الوهاد بكل حرف هوجل (5)	ألفوا السهاد من الرقاد وحالفوا
عيس لها شرف يفوق ويعتلي (6)	وسرت بهم تجتاب كل مضلة
من ركبهم حظيت برفعة منزل	وغدت بهم تختال كل مفازة
أعلام مكة كل مغني أفضل	لم لا وقصدهم الذي فضلت به
كل العوالم وهو أكرم مرسل	ويطيب طيبة حيث حل تعطرت
هادي الأنام وسيلة المتوسل	الهاشيئي الأبطحيي محمد

* سليمان الحوات، الدور الضاوية، ورقة 44/ب وما بعدها.

- (1) في النسخ المخطوطة (الدهول البلبل) وهو لا يستقيم من ناحية القواعد النحوية لذلك افترضت أن يكون الأصل (ذهول البلبل). ولعل الشاعر يرى في تغريد البلبل ما يراه غيره في سجع الحمام من تعبير عن الحزن وأثر للذهول.
- (2) تزايد مضارع حذف إحدى تاءيه. والهمل — بضم الهاء وتشديداً للميم المفتوحة — جمع هامل، من هملت العين إذا فاقت بدموعها.
- (3) المها مفردة مهية وهي البقرة الوحشية. والجؤذر — بضم الجيم وبضم النال وفتحها — ولدها. ويضرب بهما المثل في حسن العيون.
- (4) النقاء مصدر نقي أي نظف وطهر. والنقا من الرمل القطعة تنقاد محدودة. وهو يريد هنا مطلق المكان.
- (5) الحرف الناقصة الضامرة أو العظيمة. والهوجل من النوق السريعة في سيرها.
- (6) مضلة — بفتح الميم ويفتح الضاد وكسرهما — أرض يضل فيها السائر. والعيس كرام الابل أو البيض التي يخالط ياضها سواد خفيف. ويقال للجمل أعيس وللناقة عساء.

خَيْرُ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ مَنْ لَه
وَكُنَّا إِلَيْهِ الْجَذْعُ حَنْ وَأَنْ مِنْ
وَمِنْ الزَّلَالِ الْعَذْبُ عَلَى مَحَافِظَا
وَشَكَا الْبَعِيرُ إِلَيْهِ فَرَطَ عَنَائِهِ
وَالضَّبُّ أَفْصَحُ مَعْلَناً بِشَائِهِ
وَأَرَى انْشِقَاقَ الْبَدْرِ أَوْضَحَ آيَةٍ
وَبَكَفَهُ صَمُّ الْحَصَا لِأَخَى الْحَصَا
وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى عِلَاقِهِ سَمُوهُ
أُمُّ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ مَعْظَمًا
مَا زَالَ يُصَحِّبُهُ السَّعُودُ صَعُودُهُ
حَتَّى دَنَا مِنْ قَابِ قَوْسَيْهِ الْأَصْطِفَا
لَوْلَا مَا حَصَلَ الْوُجُودُ لَوَاجِدٍ
لَوْلَا مَا عَرَفَ الْإِلَهِ وَلَمْ يَدْنِ
مَاذَا يَحَاوِلُ مِنْ ثَنَائِكَ حَادِثُ
بِكَ أَقْسَمُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ
يَا مُصْطَفَى الرَّحْمَنِ أَنْتَ حَبِيبُهُ
هَا أَنْتَ أَمْنَعُ مَنْ يُلَاقِي بِهِ حَمِي
كُنْ لِي بِحَقِّكَ مُنْقِذًا مِمَّا دَهَى
وَأَدَمَ لَوَارِثَ سِرِّكَ السِّرِّ الَّذِي
مُحِبِّي شَرَائِعِكَ الزَّكِيَّةِ حَافِظُ
نَعِمَ الْإِمَامُ سَمِيكَ الْعَلَمُ الَّذِي

نَطَقَ الْجَمَادُ رِضَى بِأَفْصَحِ مَقُولِ
شَوْقِ لَوَطَاتِهِ بِمَحْضَرِ مَحْفَلِ
مِنْ بَيْنِ أَعْمَلِهِ جَرَى بِمَسْلَسَلِ
وَشَكَا الْغَزَالِ إِلَيْهِ خِيفَةً مُوَجِّلِ
وَالذَّبُّ سَلَّمَ جَهْرَةً بِتَذَلِّلِ
لِلذَّوِي الشَّقَاقِ لَوْ اهْتَدَوْا بِتَأَمِّلِ
ةً مُسَبِّحًا أَبَدَى الْعَجَابِ لَوْ اجْتَلَى
لَيْلًا عَلَى أَعْلَى الْعِلَاقِ شَرَفًا عَلَيَّ (7)
وَالْمُرْسَلِينَ وَسَادَ كُلِّ مَبْجَلِ
وَاللَّهُ يُزَلِّفُهُ بِكُلِّ تَفْضُلِ (8)
ءٌ بِمَنْزِلِ عَنْهُ الْوُجُودُ بِمَعْزَلِ
لَوْلَا سُبُلُ رِشَادِنَا لَمْ تُعْقَلِ
بِتَبَتُّلِ اللَّهِ جَلْفُ تَبَتُّلِ
بَعْدَ الثَّنَاءِ مِنَ الْقَدِيمِ الْأَوَّلِ
وَعَلَيْكَ صَلَّيْ فِي الْكِتَابِ الْمُتَزَلِ
هَا أَنْتَ أَنْجَحَ مَأْمُلِ الْمُؤْمَلِ
هَا أَنْتَ فِي الدَّارَيْنِ أَكْرَمُ مُوْتَلِ
مِنْ آجَلِ مُتَوَقِّعِ وَمُعْجَلِ
أَوْرَثَهُ أَبَدًا يَزِيدُ وَخَوَّلِ
السَّنَنِ السَّنِيَّةِ ذُو الْعَطَاءِ الْأَجْزَلِ
يَسْمُو السَّمَاءَ سَنَاؤُهُ بِكَ إِذَا حَلَى

(7) (علي) في آخر البيت مضارعه يعلى، كفرح يفرح، بمعنى ارتفع وسما. والاشارة هنا الى قضية المعراج وصعود الرسول الى سدة المنتهى.

(8) السعد مفعول به ثان مقدم للفعل يصحب - الرباعي - والفاعل هو صعوده.

وعليك من صلوات ربك دائماً أهمل سحائبها السوامي الهطل (9)
تنهل ديمتها على ربح به كملت سعادة جيلنا لا تأثل

ملحق رقم (4)

(١) حزب الفلاح لمحمد بن سليمان الجزولي*

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لم
يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيرا،
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا
بالحق. جزى الله عنا سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل ما هو أهله
(ثلاثا) ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت
الوهاب (ثلاثا) أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق (ثلاثا) باسم الله
الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاثا)
سبحان ربي وحمده ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (ثلاثا) أستغفر الله
العظيم الذي لا اله الا هو بديع السموات والأرض وما بينهما من جميع جرمي
وظلمي وما جنبته على نفسي وأتوب اليه (ثلاثا) لا اله الا الله محمد رسول الله
عليه (تسعا) لا اله الا الله سيدنا رسول الله ﷺ ثبنتنا يا رب بقولها، وانفعنا يا
رب بفضلها، واجعلنا من أختيار أهلها، واحشرنا في زمرة قومها (ثلاثا) آمين آمين
آمين رب العالمين.

(9) ضمير (سحائبها) يعود على السماء وهي مفهومة من السياق غير مذكورة. والسوامي جمع سامية. والهطل — بضم
الماء وتشديد الطاء المفتوحة — جمع هاطل أي نازل متتابع. والسوامي والهطل صفتان للسحاب.

* العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 54 وما بعدها.
لم أعلق على نصوص هذا الملحق لاشتغالها على آيات قرآنية وأحاديث وإشارات صوفية يصعب تحليلها في هامش
صغير مكثفا بتصحيح النص تاركا الشرح للتفسير والكتب المؤلفة في الموضوع كشرح ابن زكري للصلاة:
المنشئية وهو مطبوع.

(ب) الصلاة المشيشية لعبد السلام بن مشيش العلمي

اللهم صلّ على مَنْ منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علومُ آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يُدرکه منا سابق ولا لاحق، فرياضُ الملكوت بزهر جماله مُونقة، وحياضُ الجبروت بفيض أنواره مُتدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب — كما قيل — الموسوط، صلاةٌ تليقُ بك منك إليه كما هو أهله. اللهم إنه سرُّك الجامع الدالُّ عليك، وحجائبُك الأعظم القائم لك بين يديك. اللهم الحقني بنسبه، وحقني بحسبه، وعرفني إياه معرفةً أسلم بها من موارد الجهل، وأكبرعُ بها من موارد الفضل، واحمِلني على سبيله إلى حضرتك، حملاً محفوفاً بنصرتك، واقذفني على الباطل فادمعه، وزُجني في بحار الأحديّة، وانثُلني من أوحال التوحيد، وأغرقي في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياةً روحي، وروحَه سرَّ حقيقتي، وحقيقته جامع عوالمِي، بتحقيق الحق الأول، يا أولُ يا آخر، يا ظاهرُ يا باطن، اسمع ندائي بما سمعتَ به نداء عبدك زكرياء عليه السلام، وانصُرني بك لك، وأيّدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحلّ بيني وبين غيرك. الله، الله، الله، (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد). (ربُّنا آتانا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً وَهَيَّأَ لَنَا مِن أَمْرنا رَشَدًا).

(ج) المسبعات العشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (سبعاً) بتكرير البسملة، وأما التعوذ ففي الأولى فقط — سورة الناس (سبعاً). سورة الفلق (سبعاً). سورة الاخلاص (سبعاً). ثم سورة الكافرون (سبعاً) — بالبسملة في الجميع مكررة مع كل واحدة — آية الكرسي (سبعاً). سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (سبعاً). اللهم صلّ

على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد (سبعاً).
 اللهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأَمْوات (سبعاً). اللهم افعل لي بهم عاجلاً وآجلاً في الدنيا والآخرة ما أنت أهله، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن أهله، إنك غفور رحيم، جواد كريم، رؤوف رحيم (سبعاً).

(د) العشرات التسع

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله (عشراً). صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم (مرة واحدة). أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (عشراً).
 باسم الله الرحمن الرحيم (عشراً) اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم (عشراً). أستغفر الله إن الله غفور رحيم (عشراً). لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (عشراً). لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (عشراً). سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم (عشراً). الحمد لله رب العالمين (عشراً). الشكر لله رب العالمين (مرة واحدة). حسبنا الله ونعم الوكيل (سبعين مرة).

ملحق رقم (5)

لشاعر الزاوية الدلائية أحمد الدغوشي في إحدى ختمات الشيخ محمد ابن أبي بكر الدلائي لصحيح الإمام البخاري *

بُخَارِي مِنْ تَأْرَجْهَا الْهَبَاءُ بَخَارٍ دُونَ مَخْبَرِهِ الْكِبَاءُ (١)
 وَلَيْسَ الْمَسْكُ وَالْكَافُورُ إِلَّا شَنَا هُوَ مِنْ تَضَوُّعِهَا شَفَاءُ

* سليمان الخوات، البور الضاوية، ورقة 63/ب.

(١) الكباء — بكسر الكاف — عود البخور. والهباء الغبار. ولعل معنى البيت أن جو مدينة بخارى التي هي مسقط رأس امام المحدثين أبي عبد الله البخاري أطيب من عود البخور.

أَمْنِكِرَ فَضْلَهَا أَحْسَدَتْ أَرْضَا تَنْبَةُ وَبِكَ إِنَّ إِلَى بَخَارَى
لِجَامِعِ جَامِعِ صَحُّ انْتِئَاءِ (2) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أُولَى انْتِقَادِ
بِهِ حَسُنَ انْتِقَاءٌ وَاتِقَاءُ (3) كَانَ كِتَابَهُ وَالْكِتَابُ مِنْهُ
تَمَدَّ سَمِيهِ وَالْأَوْلِيَاءُ (4) فَمِنْهُ بِهِ سَمِيّاً بَلْ سَرِيّاً
تُمَدُّ الْأَوْلِيَاءُ بِمَا تَشَاءُ وَنَفْسٌ وَجُودُهُ لَمَّا اِدْهَمَّتْ
دِيَاغِي النَّازِلَاتِ هُوَ الضِّيَاءُ وَقَاءُ عِلَاكَ مَنْ بِالْأَرْضِ طَرَا
فَأَنْتَ مِنَ الشَّقَاءِ لَهُمْ وَقَاءُ مُمِيتُ الْجَهْلِ مُحْيِي الْعِلْمِ نَصْحاً
كَمَا أَحْيَا مِمَّتِ الْقَحْطِ مَاءُ فَمَنْ عَنْ حَجِّهِ أَقْصَتْهُ مَنْا
مَائِمُهُ وَأَقْعَدَهُ الْقَضَاءُ فَمَكَّةُ حَجْنَا وَمُنَى مَنْا
وَكَعْبَتُنَا وَزَمْزَمُنَا الدَّلَا وَإِنْ لَطِيئَةَ الْغَرَا لَطِيئاً
يَعْطُرُ مِنْهُ نَادِيكَ الْهَوَاءُ عَلَى أَنَا بِجَاهِكَ وَهُوَ بَابُ
مِفَاتِحِهِ لِبَغِيَّتِنَا الرَّجَاءُ نُوْمَلُ أَنْ تُبَلِّغَ لَا حُرْمَنَا
هَنَا وَهَنَّاكَ يُغْتَنَمُ الدَّعَاءُ

-
- (2) يسمى كتاب البخارى في الحديث جامع الصحيح. لذلك عبر الدغوغى عن الامام البخارى بأنه (جامع جامع).
- (3) يلقب البخارى بأمر المؤمنين في الحديث. ويشير بالانتقاد الى ما قام به البخارى من نقد رجال الاسناد بتعديلهم وتزويرهم لتمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها.
- (4) الضمير في (كتابه) و (سميه) يعود على البخارى. والمعنى أن سائر كتب الحديث تستفيد وتستمد من صحيح البخارى، كما أن سائر الأولياء والصالحين يستفيدون ويستملكون من سَمِيِّ البخارى أي مثيله في الاسم، وهو يقصد محمد بن أبي بكر الدلائى.

ملحق رقم (6)

اجازة الامام محمد بن قاسم القصار لمحمد بن أبي بكر الدلائي *

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

يقول كاتبه محمد بن قاسم بن محمد بن علي القيسي الغرناطي أصلاً وأباً، القصار لقباً، عفا الله عنه وعمن دعى (كنا) له. كان من نعم الله علي لقاء الفقيه المتفنن الصالح مربي طلبة العلم والدين، الكثير الاحسان للضعفاء والمساكين، حاج بيت الله الحرام سيدي محمد بن ولي الله باتفاق، الشهير ذكره في الآفاق، سيدي أبي بكر بن محمد أبواه الله فخراً للاسلام، ونفعاً للفقراء والأيتام، آمين. فطلب من محبة اجازة فقلت له

أجرتُ لكم مروئناً مُطلقاً وما لنا سائلاً أن تُتحفوا بدعاء

وسمع من لفظي صحيح البخاري رضي الله عنه وأجرت له جميعه، والموطأ وبقية الستة، ومسنده أحمد وسائر مصنفات الحديث الشريف، وما في الأوراق قبله (1) وجميع ما اشتملت عليه فهارس ابن الزبير (2) والزين العراقي (3) وابن

* سليمان الخوات، البذور الضاوية، ورقة 30/أ و ب. وقد نقلها من خط الامام القصار.

(1) يشير بذلك الى فهرسته الجامعة لاسانيد-اذ هي التي كانت الاجازة عقدياً. وفي قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط مخطوطة (رقم 71 ج) تشتمل على فهرس الامام القصار.

(2) علي بن الزبير السجلماسي الحافظ المشارك، أخذ عنه الامام القصار ثم تتلمذ له مباشرة الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي. توفي ابن الزبير في فاس عام 25/1035 — 1626.

(3) أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، المعروف بالعراقي الكبير من أكبر حفاظ الاسلام، ومسندي الحجاز ومصر والشام. وهو شيخ الحافظ ابن حجر، توفي بمصر عام 3/806 — 1404.

حجر(4) والشيخ زكريا(5) وسيدي يحيى السراج(6) والنيسابوري(7) وابن غازي(8) ومشيخة ابن النجار(9) وأجرت له جميع مروياتي بأنواعها، وجميع مالي. وكتب محمد المذكور أول ربيع الثاني عام اثني عشر وألف(10) مسلماً على من يقف عليه وسائل دعائه. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

-
4. الحافظ ابن حجر حجة الاسلام أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، مؤلف كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري. و الإصابة في تمييز الصحابة توفي بمصر عام 1448/852.
 5. الشيخ زكرياء الأنصاري قاضي القضاة بالديار المصرية ومسندها، شيخ الاسلام صاحب التأليف العديدة. وقد طال عمره وأخذ عنه كثيرون. توفي عام 19/925 — 1520.
 6. يحيى ابن أحمد النفري المعروف بالسراج حافظ فاس والمغرب الذي انتهت اليه رئاسة الحديث وروايته. له فهرست جامعة لأشياخه. توفي عام 2/805 — 1403.
 7. هناك محدثون كثيرون ينسبون الى نيسابور أولهم الامام مسلم صاحب الجامع الصحيح وقد أورد منهم كحالة في معجم المؤلفين عشرات لم أستطع تمييز المذكورين منهم في سلسلة الامام القصار.
 8. أبو عبد الله محمد بن غازي العثماني المكناسي، نزيل فاس وشيخ الجماعة بها. ألف في مختلف العلوم، وله فهرست جامعة لأشياخه توفي بفاس عام 1514/919.
 9. الحافظ محمد بن محمود البغدادى المعروف بابن النجار أحد الحفاظ الكبار، له عدة تأليف. لم أقف على تاريخ وفاته.
 10. كانت وفاة الامام القصار في نفس العام 1604/1012. وبذلك تكون هذه الاجازة قد كتبت قبل موته ببضعة أشهر فقط.
- ترجم للقصار أحمد المقرئ في روضة الآس ، ص 316—332. انظر كتابنا الحركة الفكرية، 2: 346، والهامش 6..

ملحق رقم (7)

إجازة الشيخ محمد المرباط الدلائي للحسن اليوسي (*)

أما بعد حمد الله مؤهل أهل اصطفائه للاقتداء بسيد البشر، ومُنهل خاصة أوليائه مناهل السنن والاثر، الميسر لهم من طريق الاجازة. مدارجها، ومن أعالي الاسانيد معارجها، حتى اجتلوا من سماء معارفها أقمارها، ومن أدواح عوارفها أثمارها، ووقفوا بعرفات العرفان، فتدفقت لهم جداول الاحسان. والصلاة والسلام على سيدنا محمد واسطة عقد النبيين، وصفوة خلاصة الصديقين، وعلى أهل بيته الطهار، وحماة دينه الانصار. وبعد فإن اتصال الاسانيد غاية يتجارى لاجتيازها ذوو النباهة من فضلاء الامصار، ويتبارى في الامتياز بشرفها الكبراء في عامة الأعصار، حتى لقد ركبوها في طلابها التنائف⁽¹⁾، واقتحموا في ابتغائها المخاوف، ورفضوا الأوطار والأوطان، وهجروا المعاهد والاخوان. وكيف وهي العروة التي مدار العرى عليها، والمأثرة التي مرجع المآثر اليها، وقد سلك ذلك السنن الصدر الرئيس، فارس الاملاء والتدريس، شيخ الجماعة بالديار البكرية، والحضرة الدلائية، ذو التدقيق المعهود، أبو الحسن بن مسعود، صاحب النباهة الشائخة، والنزاهة الباذخة، والجلالة العليا، والهمة التي نيطت بالعباء، المتمسك من الرواية بأسبابها، ومن الدراية بأهناجها، من ألقت اليه المعارف زمامها، وجمعت السيادة ما وراءها من الحمد وأمامها، فرغب الي أن أجيزه، وأشابع تبريزه. فأجبت مراده، وبادرت اسعاده، فأجزته إجازة تامة، مطلقة عامة، في كل ما يصح لي وعني روايته، ويرفع في أندية الاجازة بنده ورايته، من كل مقروء ومسموع، ومفرد ومجموع، ومنثور ومنظوم، ومأثور ومفهوم، على الخصوص والعموم، على نهج الرواية المعلوم، مما أحاطت به فهرست الامام ابن غازي بروايتها اياها عن شيخ الاسلام ابي عبد الله

فهرست اليوسي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1234 ك، ورقة 67.

(1) التنائف جمع تنوفة وهي البية التي لا ماء فيها ولا أنيس.

محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي، عن أبي عبد الله القصار عن أبي النعيم رضوان بن عبد الله (2) عن أبي محمد عبد الرحمن بن علي الشهير بسقين (3) عن مؤلفها أبي عبد الله بن غازي. وفهرسة أبي العباس المنجور (4) والامام المنثوري (5) وابن الزبير، وحدّثه بذلك عن مولانا المحدث الزاهد العارف بالله عبد الهادي بن عبد الله الحسيني (6)، عن والده الامام (7) وعن القصار وأبي العباس المعروف بابا السودان (8) وأبي العباس أحمد بن محمد الشهير بابن القاضي وغيرهم من مشايخه، وإجازة الشيخين أبي محمد عبد الهادي، وأبي عبد الله العربي إياي، وهما عامتان في كل ما يحملانه أو يقولانه أو ينقلانه، وأجرت له أن يروي ذلك عني، وأذنت له فيه إذناً تاماً تلقاه لفظاً وكتابة مني على شرطه المعتبر، عند أئمة الاثر. قال ذلك وكتبه بيده متلفظاً بالاجازة وأواخر شهر الله الحرام مفتتح عام تسعة وسبعين بموحدة قبل العين، وألف، محمد بن محمد بن أبي بكر الدلاي عفا الله عنه بمئة أمين.

-
- (2) أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي، المحدث المكثر الراوية، رحالة أهل زمانه، توفي بفاس عام 991 هـ. 1583 م.
(3) أبو محمد عبد الرحمن بن علي المعروف بسقين، الفقيه المحدث الراوية، رحل إلى الشرق وأخذ فيه عن جماعة من أخذته. توفي عام 49/956 — 1550.
(4) أبو العباس بن علي المنجور المكناسي الأصل، الفاسي المولد والنشأة والوفاة. كان أحفظ أهل زمانه وأعرفهم بالتاريخ مشاركاً في جميع الفنون الأخرى من معقول ومنقول له تأليف عديدة وفهرست جامعة. توفي عام 86/995 — 1587.
(5) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك القيسي الفزناطي المعروف بالمنتوري (بكسر الميم) من أشهر الحفاظ المحدثين. توفي عام 30/834 — 1431.
(6) أبو محمد عبد الهادي بن الامام عبد الله بن علي بن طاهر الحسيني السجلماسي. كان من أهل العلم والدين. وهو مؤلف كتاب فلك السعادة، الدائر في فصل الجهاد والشهادة توفي بالحرم الشريف عام 46/1056 — 1647.
(7) الامام عبد الله بن علي بن طاهر الحسيني السجلماسي، كان له باع كبير في العلم والعمل والدين واتباع السنة. توفي عام 34/1044 — 1635 ببلاد مدغرة من أعمال سجلماسة.
(8) أبو العباس أحمد بن أحمد المدعو بابا السوداني الصنهاجي، ألف نحو 40 تأليفاً، منها كفاية المحتاج وفيه ترجم لنفسه، ابتلي في بلاده لما احتلها جيش المنصور الذهبي، وسبق أسيراً في القيد إلى مراكش، ثم أطلق سراحه مع قومه. وقد تتلمذ له كثير من علماء المغرب قبل أن يرجع إلى السودان حيث توفي عام 26/1036 — 1627.

ملحق رقم (8)

رسالة بعث بها احمد المقرئ من القاهرة الى شيخه محمد بن ابي بكر
الدلائلي حينما مرَّ محمد الحاج بمصر لدى رجوعه من الحج عام 1631/1041*
خليلي إن جئت الدلا وجرى ذكرى لدى حضرة الشيخ الرضى ابن ابي بكر
نتيجة سرِّ الأولياء محمدٍ مُعرِّف كليات فضل بلا نكر
فأخبرني أنني لم أحل عن وداده ولم يوهن البينُ الملمُّ قوى صبري
ولا ما أقاسي في اتقاء غوائل يكيد بها ظلما ذوو الضغن والمكر
أناس نسوا حدَّ الزمان وفثكة بمن رآح من رآح الغواية في سكر
فسل سيدي حسنَ الخلاص لحائِرٍ وختمًا بحسنى كي ينير به فكري
يامفرداً علما اهتدى الجمع السلم بالألأئه، وتثنت في رياض ولأئه غصونُ
آلأئه، وروى مسند رأيه عن جابر سعيه عن علائئه، ما يسنده في مجالس إملائه.
أهدي اليك يابركة الزمان، وبقية الناس بهذا الأوان، الذي حار فيه من يروم الامان،
وغلقت فيه الرهان(1)، ولم يثق لولا وجودك بضمان، من ارتاب في حال غريمه
ومان، تحية تنافح خلالك، وتصافح — أبقي الله جلالك — ظلالك، وتؤدي
بعض حقك الذي راق مرأى اجتلائه. وأنهى الى معاهدك الشريفة، ومشاهدك
المربعة الوريقة، على بعد الديار، وجري بعض الاغراض على الاختيار، أن العبد
المخلص على ما تعهد، من الود الذي به القلب يشهد.
سلوا عن محبة الرجال قلوبكم فتلك شهودٌ لم تكن تقبلُ الرُشى
وقد مهد في ديار الغربة فرشاً، وسلم لأحكام الأقدار، في هذه الدار،
الكثيرة الأكدار، ولم يسلك منهج من عاند الدهر وقصد به تحرشا. والدهر ذو
ألوان، ولبعض أفعاله على غيرها عنوان، في إمراره وإحلالئه. فأما الشوق الى
سيدي ووليي فلا يستوفي وصفه القلم واللسان، وحدث عن مسند أحمد(2)

مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 471 ك. ص 47 — 53.

- (1) غلق الرهن في يد المرهين (من باب فرج) صار ملكا له بسبب عجز الزامن عن افثكاكه.
- (2) يورئى المقرئ هنا بكتاب المسند للامام احمد ابن حنبل، وهو يقصد نفسه واشتياقه الى شيخ الدلاء.

بما شئت من طرق هي مع غرابتها حسان. وأما الحال، في الحل والترحال، فقد لبست من الصبر احسن بزة، كبرّ ورقة حالة وفراق أحبة أعزة، محن لو أن أقلها يُرمى به جبل لهزة. اللهم غفراً، وشكراً لا كفوّاً. حج الفقير مراراً خمساً، وأضحى في بعض محاوراً وأمسى، واستجلى من طيبة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام في سبع مرار بداراً وشمساً، وجاور هنالك، ودرس وصنف وأضاء فكره الخالك، ونطق لسانه في الحضرة النبوية، بالمطالب الدنيوية والاخرية همساً، ومما من الله به عليه أنه ألف بالحضرة فتح المتعال، في مدح النعال و أزهار الكمامة، في أخبار العمامة. وكل منهما مجلد كبير، فاح منه عنبر وعبير، وحاز إن شاء الله الشرفين، بالتصنيف في هذين الطرفين، الذين أحاطا بالذات الطاهرة، وكان صنف كتاب العمامة تجاه الرأس الشريف لمناسبة باهرة. وكان قصد العبد أن يرسل بهما الى سيده قبل هذا التاريخ فقدر الله أن بعض كبراء الدولة أخذهما، ولم يبق والله عندي إلا الأصل فقط. وكانت اقامة ابن سيدي (3) في مصر قليلة، لم يمكن في مدتها كتبهما. ولعل الله يسر في ذلك بعد. وقد ختمت كتاب العمامة برجز اشتمل على زبدته وقد وجهته اليكم صحبة هذا المكتوب، وهو مكتوب بالمدينة المشرفة على صاحبها الصلاة والسلام، ثم زرت بيت المقدس ثلاث مرات، ومواطن الانبياء والصحابه والتابعين لهم بإحسان بالشام كرات، ثم عدت في هذا الوقت الى مصر، بقصد الرحلة بالعيال الى الشام، والله المسؤول في تيسير الأمر، ورفع الأصر (4). وما ذكرت بعض هذا إلا على وجه التحدث بنعم الله ذي الامتنان، لا على وجه التفاخر الذي ينبغي للموفق أن يصرف الى غيره العنان، نعم بقلبي يا سيدي — سلّمكم الله — حسرة جلت، وحيرة حلت، خلّفه في كربة في بلاد غربة وخلت، وهي أمر البنت التي بفاس، وقد ضاقت وحق ذا من أجلها الانفاس، اذ لم يمكن اليها الوصول، وتعسر مجيئها إليّ على وجه محكم الوصول. والقصد من بركات سيدي شمولها بالنظر، والاعانة على تزويجها

(3) الاشارة الى محمد اخراج ابن الشيخ محمد بن ابي بكر الدلائي.

(4) الاصـ النقل والذنب.

بلاثق ممن حضر، وهنا غاية المقلور، بل ومنتهى المرام ونفثة مصدور، ولم حشرات في نفوس كرام. وقد أرسلت إليها مع النجل الاجل سيدي محمد شكر الله سعيه، وأدام صونه ورعيه، سبعة وثلاثين ريالاً كبيرة، جهد مقل تراكت عليه لولا تثبيت الله أمور مبيرة (5)، والقصد لإرسالها إليها بغور بلوغه في السلامة، وإذا أبرم القدر شيئاً فلا عتاب ولا ملامة، وقد أرسلت الى الاصهار والفقهاء سيدي عبد الواحد (بن) عاشر وسيدي محمد بن سودة يبيع الكتب على طريقة الاداعة والاظهار والنداء عليها في محل الرغبات، ومطازن الطلبات، ودفع ثمنها في مؤن هذه البنت، التي بوجودكم عليها أمنت. وأما أمها فقد كنت ملكتها أمرها (6) قبل فلم ترض، والآن وقد غلب الظن اني لا أقدر على القيام بما لها من فرض، إذ قدومي متعسر، والعكس غير متيسر، ولا يليق تأخير العصر الى الاصفرار، ولا الهروب من مواقف الابطال والفرار، ولا ضرر ولا ضرار، والحزم عدم الاعتراض، فلها طلبة مملكة إن شاءت، وقد صدرت منهم فعلة أحزنت، وفلانة ساءت، وهي يبيع بعض الكتب التي نعتت في تحصيلها، وجعلت تصحيحها نتيجة العمر، ومن جعلتها ابن غازي والعيني على الالفية وغيرها مما لا يجهل فضله حتى الغمر، وأخبرني بعض الجورارين والتواتيين بحضرة النجل أنها عنده بتوات (7)، وذكر لي علامات في هذا الكتاب بخطي والدهر بردها غير موات، فهل يعدل الكتب شيء، وما بعد الرشد الا الغي، وإذا كانت نفائس الكتب تباع خلصة، فيعها بالملأ أنفى للدلسة. وما أظهرت مثل هذا لسيدي الا لعلمي أنه الثقة الواثق الالوف، بل سيدي واحد العصر المعلوم بالألوف، ولا يفتى ومالك بالمدينة، اللهم احفظ مقام سيدي ودينه. فليكن ما سطرته على شريف علمه، وإن أسأت فليحطني برداء حلمه، فلا عطر بعد عروس، والمشاهدة قد ينوب عنها ما في سطور الطروس، وقد أوصيتهم أن يكتبوا ما بقي من الكتب في زمام، ويرسلوه لسيدي لعله يختار منها ما يراه وهو الامام، الذي به التمام.

(5) الميرة المهلكة، من البوار، والفعل أبلر بمعنى أهلك.

(6) تملك المرأة أمر نفسها عبارة عن ان يجعل الزوج حق الطلاق بيد زوجته لتفك العصمة الزوجية إن شاءت.

(7) بوات إقليم بالصحراء الشرقية المغربية كان الفرنسيون قد اقتطعوه أيام الحماية وأخفوه بالجزائر.

والواصل لسيدي العقيدة التي من الله بنظمها وهي إضاءة الدجّة بعقائد أهل السنة، وقد كتب من هذه العقيدة بالحرمين واليمن ومصر والشام أكثر من ألفي نسخة كتبت خطي على أكثرها ودرستها بمكة وبيت المقدس ودمشق ومصر والاسكندرية ورشيد وغزة، ولله المنّة، والعزم على شرحها الآن متوفر. وأما قصيدة العمامة، الموجهة مع هذه فهي خاتمة أزهار الكمامة، وأرسلتها مع ما فيها من الإصلاح تبركا بكونها كتبت بحضرته صلى الله عليه وسلم في تلك الأوراق غير الورقة الأولى فإنها كتبت بمصر بدلا من التي بالمدينة لعذر اقتضى ذلك. والقصد استمطار الدعاء، من تلکم الحضرة — علم الله — لا التبجح بذلك على وجه الرياء، والأعمال بالنيات، ولم نر من سيدي مكتوباً مع النجل العزيز ولا ندرى ما سبب ذلك.

إذا كان الحب قليل سعد فما حسناته إلا ذنوب

وكل ما يفعل المحبوب محبوب، أستغفر الله فسيدي أجل من أن يعاتب، وما الفرق بين العبد في الشهادة والمكاتب، وقد أكرمت على سيدي فليسمح ويصفح والسلام معاد على حضرة مقامه ورحمة الله وبركاته. وكتب عن عجل أواخر شهر ربيع النبوي سنة واحد وأربعين بعد الألف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

ملحق رقم (9)

أبو حامد محمد العربي الفاسي يمدح شيخه محمد بن أبي بكر الدلائي *

أدارَ بذات السدر في الجانب الشرقي سقاك الحيا ما دام صوبُ الحيا يقسي
وإني لمن عيني عليك سحائب تسحُّ إذا شحَّت بها أعينُ الودق (1)
وقفت على الرسم المحيل فشاقني فأبكي وأستدعي العهد وأستسقي (2)
فما برحت مُزِنُ الغمام حوافلا لحمل من الربعي في ريعها تلقي
تساجلني أني لها دون حامل ولي حامل الذكرى لأهلي والشوق
وتذكرني، لو كنت أنساهم، الصبا تهبُّ بمسراها (وموئل) البرق (3)
وساجعةٌ تفتنُ في نغماتها على الفن اللدن الوريق من الورق
وأحسبها مثلي إذا قلت قد بكت وأين بكأها من بكائي على لفق (4)
فما أذرت الدمع السفوح وشملها جميعٌ وفرخاها لديها على لفق (5)
ولي مقلّةٌ تهمني كأنَّ شؤونها شأيب قد فاضت من الواكف الشرقي (6)
ودون أقرّخي تنائف نيفت على العشر للساوي من أفي إلى أفي (7)
وشمل على حكم الشتات مبدد وقلب على تلك التفاريق في فرق (8)

- * سليمان الخوات، البذور الضاوية، ورقة 170 — 171.
- (1) الودق المطر، وسح نزل وهطل. عكس شح بمعنى اغشى.
- (2) الرسم المحيل آثار الديار القديمة التي أتت عليها أحوال وأعوام.
- (3) في النسخ المخطوطة (موئل) ولعلها محرفة عن موئل.
- (4) اللفق — بكسر اللام وسكون الفاء — الجزء والشقة من شقتي الملاعة. يقال للرجلين لا يفترقان هما لفقان. واللفق الذي اختلعه الشاعر وبكاه هو ابتاع كما توضحه الآيات التالية.
- (5) أذرت العين الدمع صبته، واللمق مصدر لمق إليه — من باب نصر — إذا نظر إليه.
- (6) الشأيب جمع شؤيب وهو الدفعة من المطر. والواكف : السحاب. وآخر كلمة في هذا البيت في النسخ المخطوطة (الرق) لعلها محرفة عن الشرقي.
- (7) التنائف مفردها تنوفة وهي القفر التي لا ماء فيها ولا أنيس.
- (8) الفرق — بفتح فسكون — الانشقاق والتصدع.

وعندي أفيراخ هنا، وسواهم
فَعندهم شقٌّ وآخِرُ هَاهُنَا
تَناءت بنا الاقطار حتى كأننا
وَأُتْسِنِي ضَرْبٌ مِنَ الْفَالِ أَنَهَا
لَمْ يَبْقَ مِنِّي الشَّوْقُ إِلَّا حَشَاشَةٌ
وَهَانَ عَلَيَّ مَا لَقِيتُ وَلَمْ يَهِنْ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ يُرْوَعَ سِرُّهُمْ
وَإِنِّي بِأَحْوَالِ الزَّمَانِ لَعَارِفٌ
وَلَسْتُ عَلَى أُنْبَاءِهِ الدَّهْرِ عَاتِباً
وَإِنِّي أَنَا الطَّائِي عَلَى الْيَأْسِ كَشَحَهُ
وَأَهْجَرُ نَفْسِي إِنْ يَمِلْ بِي وَصَلَهَا
وَلَا أَتَنَّى إِنْ صَمَّمِ الْعِزْمُ جَانِحَا
وَإِنْ سَرَتْ عَنِّي مِنْ لِي عَلَيْهِ وَلَادَةٌ
إِذَا لَمْ تَكُنْ بِالْغَرْبِ أَرْضٌ تَقْلَنِي
وَمَا قِيدَ النَّفْسِ الشُّرُودَ سِوَى الَّذِي
فَنَفَسٌ عَنِ نَفْسِي وَأُتْسَ غَرِيبَتِي
وَسَنُّ لِي الْأَمَالِ حَتَّى حَسِبْتُهَا
فِي جَمْعِ لِي الشَّمْلِ الشَّتِيتِ وَيَلَامُ الـ
وَنَاهِيكَ بِالشَّيْخِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ
بِحَيْثُ تَوَافَى الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ وَالنَّدَى

هناك، وكم فليق لقلبي وكم فرق⁽⁹⁾
وما أن يكاد الشق يبلغ بالشق
حروف بأقطار البيوت من الوفق
لجمع، وهل جمع يُحاول بالفرق⁽¹⁰⁾
وللشوق ما يفني وللشوق ما يُبقي
علي الذي لاقى الأحبة من ضيق
وأن يشربوا بعد الصفاء من الرنق⁽¹¹⁾
فأونة يُحلي وآونة يُعقي
وإن وكسوا حظي وإن غمضوا حفي
إذا بان لي أن الرجاء من الحمق
على ظمأ مني إلى المورد الطرق
إلى وطن أو ساكن فيه أو علق
كفاني فيه مالك الخلق والرزق
بعزة نفس كانت الأرض بالشرق
أجار وأجرى سيبه دائم الدفق
وفرّج لي كربى وحلّ عرى خنق
تُرّف إليّ مسرعات على طرق
فتيت ويلقى الله برّاً بما يلقي
إمام الهدى الهادي الأنام إلى الحق
وحيث تساوى القول والفعل في الصدق

(9) الفلق والفرق — يكرر فسكون — الجزء والقسم من الشيء. يقول الشاعر إن قلبه مرقق كثير، بعضه مع أبياته هنا، وبعضه مع غيرهم هناك..

(10) الإشارة في هذا البيت والذي قبله إلى اصطلاحات علم الوقف وسر الاسماء. الشاعر يشبه نفسه وأهله بالحروف الموزعة على مربعات جدول الوقف، غير أنه يتفاعل بأن يجمع مع ذويه كما تجمع حروف الجدول. ثم يتساءل كيف يمكن جمع الشمل وهو يعم في الابتعاد والافتراق.

(11) الرنق — بفتح فسكون — الماء الكدر.

مَقْلُدُ أَعْنَاقِ الرِّجَالِ قَلَائِدًا مِنْ الْعُرْفِ تَقْلِيدَ الْحَمَامِ بِالطُّوقِ
إِلَيْهِ طَوَى عَرَضَ الْبِلَادِ مُشَرَّدًا نَجَا بِدَمَاءٍ مُسْتَجِيرًا مِنَ الْبُوقِ (12)
إِلَيْكَ إِلَيْكَ آبِي الْعَارِ حَامِي الـ سَـذَمَارَ مَجِيرِ الْجَارِ مِنْ كُلِّ مَا يُشْقِي
فَأَنْتُمْ بَنُو الشَّيْخِ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي حَمَى وَسَمًا بِالْمَجْدِ وَالْدِينِ وَالْخُلُقِ
وَمَا كَانَ ذَاكَ الشَّيْخُ يُسَلِّمُ جَارَهُ وَلَوْ لَامَهُ الْأَمْلَاكُ مَعَ سَائِرِ الْخُلُقِ
وَقَدْ كَانَ حَقًّا عِنْدَهُ نَصْرُ جَارِهِ وَأَنْتُمْ لِعَمْرِي وَأَرْثُو ذَلِكَ الْحَقِّ
بَقِيَّتُمْ وَذَاكَ الْآرِثُ فِيكُمْ مُؤَيَّدٌ وَلِلَّهِ سُرٌّ فِيكُمْ دَائِمًا يَلْقَى

(12) البوق مصدر باق القوم عليه — من باب نصر — إذا اجتمعوا فقتلوه ظلماً. ويشير الشاعر في هذا البيت إلى فراره من الشيخ المأمون السعدي الذي سلم مدينة العرائش إلى الأسبانين وأرغم العلماء على أن يفتوه بمشروعية تصرفه الطائش. ارجع في هذا الموضوع إلى صحيفتي 113 — 114 من هذا الكتاب.

ملحق رقم (10)

رسالة بعث بها أحمد بن عبد الله الدلائي إلى السلطان إسماعيل يعتذر عن تخلفه بتلمسان*

باسم من يضع الملك حيث يشاء، فاختار له على علم قریشا. يتفياً ظلال الدوحة النبوية، ويتنسم عَرْفَ أزهار عوارفها المصطفوية، ويتقى إلى حيث النجوم الشوائك، والمعالى أرائك. من تحمُر من هبة جلاله الانفاس، على خلود الاطراس، ويتشرف بلغم يمين طالما ازدحمت على تقيلها الاملاك، وانجابت لحسن صنيعها عن بني الآمال الأحلاك. أبقاها الله آخذة بيد من زلَّ به الزمان، ولحل رقة كل عان. ولتقيل أفواه وإعطاء نائل وإمساك هندي وحبس عنان، وشيد لراقمه في كنف الدولة الهاشمية كَنفاً(1)، واستوهب له منها عفوا لا يعقب ندامة ولا خوفاً. دولة مولانا الذي ملَّك البواطن بحسن بشره وعفوه، والظواهر بشدة بأسه وسطوه، محيي الدولة، ودرية(2) الإبطال عند الجولة، قاهر الملوك، وواسطة عقد السلوك، من دانت لهيبته فتاكة الاقطار، وترئمت لمآثره حُداة القطار، ظل الله على بريته الظليل، أبو الفتوحات مولانا إسماعيل. لا زالت رياح العز تنشر خوافق ألويته وراياته، والنصر يتلو في مآزق الحروب محكم آياته. وليت شعري بم أحیی ذلك المقام النبوي، والجناب العلوي، وأي عبارة أرتضيها للإفصاح عن قدره، أو تقوم بمواهب حقه وبره، وغاية جهدي يستغرقه عفو فضائله، ولو كنت سحبان وائل، ويخجله أسير فواضله،

* سليمان الخوات، البدور الضاوية، ورقة 114/أ وأحمد بن الحاج، الدر المنتخب المستحسن ج 6، ورقة 34/ب. وكان السلطان إسماعيل بن الشريف قد كتب إلى الدلائين المبعدين في تلمسان عام 1674/1085 يأذنهم بالرجوع إلى المغرب، فالتحقوا مسرعين بفاس ما عدا أحمد هنا فإنه ظل بتلمسان، إذ كان يدبر أمر الثورة مع أراك الجزائر. ولما ألح عليه قومه في الدخول إلى المغرب حسماً للشائعات التي تضر بهم كتب هذه الرسالة إلى السلطان معتذراً وطالبا منه كتابا يبعث به إلى والده عبد الله في الجزائر.

(1) يعني الكاتب نفسه بقوله (لراقمه). وكنف الدولة حرزها وظلها. وكنف الثانية — بفتح الكاف وسكون النون — الحفظ والصون.

(2) الدريرة آلة كالترس يتقي بها الغاربون الطعن والضرب. ويصف الكاتب السلطان إسماعيل بالشجاعة والاقنام حتى كأنه ترس يدرأ عن إبطاله مهالك الحرب.

حتى أكون في الفهامة كباقل. إن قلت تحية كسرى في السنا وتبع (3)، جف القلم استحياء من سلوك هذا المهيع. وأولى ما يحیی به ذلك المقام الذي اتخذ الافلاك مهادا، والنجوم وسادا، بالتحية التي أضاء الشرع نبراسها، وأدار على أمته كاسها، وأغفل الله عنها الامم وأجناسها، وخبأها لهذه الامة المحمدية تكرة لها فلم تستنشق أمة غيرها وردها ولا آسها. سلام على سيدنا ورحمة الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته. من عبد له يخر على طرف بساطه لاثماً، ويقضي من حقوق الخدمة فرضاً لازماً. أحمد بن عبد الله. أوجبها الى الحضرة الكريمة التي يتلقى فيها الصادرُ الواردَ بالبشائر، ويسلو فيها الغريب الخائف بحسن ملاطفتها عن الاهل والعشائر، الإعلام لسيدنا بعذري عن التخلف. فليعلم مولانا السلطان نصره الله ان موجه ما معي من عيال أي فكرهت أن أفئات (4) عليه في عياله وهو غائب، فلم أزل استدنيه حتى بلغ الجزائر. ولما خرج برسم الوصول الى العباد حرم القطب الغوث أي مدين نفع الله به وجد هذه الفتنة بين يديه (5). فتأخر حتى يسكن هرجها، ويحمد وهجها. ولا يصغي مولانا — نصره الله — الى أقوال الوشاة فينا إن بلغه غير هذا ولا يقبله، فإن الله سبحانه وتعالى لم يقبل في مولانا أقوالهم، ولا وافق شهواتهم وأغراضهم. ولو وافق أغراض البعض في البعض، ما أدّى نفل ولا فرض. ولا يضيق علينا مولانا من عفوه ما وسع أهل المغرب. فقد مددنا الى سيدنا أكف الضراعة، مستشفعين اليه بجده صاحب الشفاعة، يمن علينا بعفو يزيل إيحاشنا، ويسكن جاشنا، أبعثه إلى والدي فإن أحب فذلك هو المطلوب، والأمل المرغوب. والا ركبنا الى سيدي عزما يحكي الرياح في الهبوب، فقد طالت في

(3) يشير الكاتب هنا الى اعلام ضرب بها المثل قديماً. فسُحبان وائل عرف بالفصاحة في الجاهلية والاسلام حتى قيل انه أخطب العرب. وباقل بن عمرو الايادي اشتهر في الجاهلية بالمي والفهامة اي العجز عن الكلام. وكسرى أبو شروان اعظم ملوك فارس عرفه العرب عن طريق أمراءهم في الحيرة وضربوا مثل جلاله ورفعة شأنه. ومع واحد التابعة، وهم ملوك اليمن القدماء المعروفون حضارتهم وشدة بأسهم.

(4) أفئات عليه استبد بالرأي دونه.

(5) يشير الكاتب الى احدي الثورات التي قام بها التلمسانيون ففرض عليها الانزاع بعنف شديد. ولم يُصب الدلائين المقيمين في حرم العباد بتلمسان شر هذه الفتنة لان عبد الله الدلائي الذي كان اذ ذاك في عاصمة الجزائر أوصى قائد الحملة التركية المتوجهة الى تلمسان أن يجنب جنوده مساكن الدلائين.

انتظاره الغربة، ونالتني من ذلك كل كربة. والله سبحانه المسؤول، أن يبلغني ما أرجوه بكم من كل مطلوب وسول، فأنا عبدكم المتشرف بخدمتكم، والنبات الذي أنبت تحت رباب سحابكم(6).

ووالله ما فارقتمكم عن قلبي لكم ولكن ما يقضى فسوف يكون والسلام على سيدنا ورحمة الله وبركته.

(6) الرباب — بفتح الراء — السحاب الايض.

مصادر الرسالة

أورد في الثبوتين التاليين أهم المصادر العربية والافرنجية التي رجعت إليها، وهي مرتبة على أسماء المؤلفين بحسب حروف الهجاء (الترتيب المغربي) مع ذكر سنة وفاة من مات من المؤلفين.

أ — المصادر العربية

ابن ابراهيم (ت 1378/1959) عباس المراكشي
1 — الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، 5 أجزاء (فاس 1356/1937). وقد طبع بالرباط في 10 أجزاء سنة 1983.

ابن ابي زرع (ت حوالي 719/1319) أبو العباس أحمد.
2 — الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس جزآن (الرباط 1355/1936).

ابن بطوطة (ت 777/1376) محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي.
3 — تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، (الطبعة الاولى بمطبعة وادي النيل في القاهرة عام 1287).

ابن الحاج (ت 1235/1819) أحمد بن محمد بن حمدون السلمي.
4 — الدرر المنتخب المستحسن في مآثر مولانا الحسن، (مخطوط مكتبة الشيخ خير الدين الزركلي بالرباط).

ابن حزم (ت 456/1063) أبو محمد علي بن سعيد الاندلسي.
5 — جوهرة أنساب العرب، (تحقيق ليفي بروفنسال — مصر 1948).

ابن خلدون (ت 808/1406) عبد الرحمن
6 — كتاب العبر — القسم الاخير المتعلق بالدول الاسلامية بالمغرب جزآن (نشره البارون دوسلان في الجزائر 1263/1847).

ابن زيدان (ت 1365/1946) عبد الرحمن العلوي.

- 7 — اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5 أجزاء
(الرباط 1347/1929).
- 8 — المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف ،
مخطوط الخزانة العامة بالرباط 595 ج.
- 9 — العز والصولة في معالم نظم الدولة ، (المطبعة الملكية بالرباط
1381/1961).
- ابن الزيات (ت 627/29 — 1230) يوسف التادلي.
- 10 — التشوف الى رجال التصوف (نشره أدولف فور بالرباط سنة
1958). وقد أعادت كلية الآداب بالرباط نشره سنة 1984
بتحقيق أحمد التوفيق.
- ابن مرزوق (ت 782/1380) محمد الخطيب (الأكبر) التلمساني .
- 11 — المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابي الحسن، (مخطوط
الخزانة العامة بالرباط 111 ق). وقد نشر سنة 1981 في الجزائر،
بتحقيق ماريا خيسوس ييغرا.
- ابن علي (ت 1364/1945) محمد الدكالي السلاوي.
- 12 — الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين المهدي لمولانا عبد العزيز،
(مخطوط الخزانة العامة بالرباط 42 د). نشرته سنة 1986 الخزانة
العلمية الصباحية بسلا بعناية مصطفى بوشعراء.
- 13 — كتاب في الرباطات، (مخطوط مكتبة ابن غازي بمكناس).
- 14 — كناشة علمية، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 91 ج).
- 15 — مجموع فيه أخبار الدلائين، (ميكرو فيلم الخزانة العامة
بالرباط 36).
- ابن عسكر (ت 986/1578) محمد بن علي السريفي الشفشاوني.

- 16 — دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ،
(المطبعة الحجرية بفاس — بدون تاريخ). نشرته سنة 1976 بمطبعة
دار المغرب بالرباط، ثم أعيد نشره بالأوفسيط سنة 1977 .
- ابن القاضي (ت 1616/1025) أحمد بن محمد المكناسي .
- 17 — جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس (المطبعة
الحجرية بفاس).
- 18 — درة الحجال في غرة أسماء الرجال، جزآن، (نشرهما ي. س.
علوش بالرباط سنة 1934).
- 19 — لقط الفرائد من لفاظة حقايق الفوائد، (مخطوط الخزانة العامة
بالرباط 270 ك). نشرته سنة 1976 ضمن كتاب ألف سنة من
الوفيات بمطبعة دار المغرب بالرباط.
- ابن سودة (معاصر) عبد السلام المري. مات رحمه الله عام 1400/1980 .
- 20 — دليل مؤرخ المغرب الأقصى، (تطوان 1369/1950). وقد أعيد
نشره سنة 1960 بالدار البيضاء في جزأين.
- أكنسوس (ت 1877/1294) محمد بن احمد المراكشي .
- 21 — الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي
(مخطوط الخزانة العامة بالرباط 965 د) وهي النسخة التي اعتمدها .
- وقد طبع على الحجر بفاس عام 1336 هـ .
- أملاق (كان حيا أواخر القرن 13 هـ/19م) عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن
الحسن .
- 22 — الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه
بوظيفة الجهاد، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 91 د).
- البناني (ت. 18/1234-1819) أحمد بن عبد السلام .
- 23 — تحلية الأذان والمسامع، بنصرة الشيخ ابن زكري العلامة
الجامع. (مخطوط الخزانة العامة بالرباط، 650 ك).
- البستاني (ت 1883/1301) المعلم بطرس

- 24 — دائرة المعارف للبستاني، 11 مجلدا، بيروت 1293/1876).
- بوجندار (ت 1345/1926) محمد الرباطي
- 25 — الاغتياب بتراجم أعلام الرباط، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1287 د). وقد نشر سنة 1987 بالرباط مصورا بالأوفيسيت عن المخطوط.
- 26 — مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، (مطبعة الجريدة الرسمية بالرباط 1345 هـ).
- التازي (ت 1247/31 — 1832) أبو محمد عبد الودود بن عمر.
- 27 — نزهة الاخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائين البكرين (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1264 ك).
- كنون (معاصر) أبو محمد عبد الله الطنجي.
- 28 — النبوغ المغربي الادب العربي، 3 أجزاء، الطبعة الثانية (بيروت 1961).
- 29 — خل وبقل، (المطبعة المهدية بتطوان، بدون تاريخ).
- الحافي (كان حيا عام 1160/1747) أحمد بن عاشر بن عبد الرحمن السلاوي.
- 30 — الفهرست، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1421/ك ضمن مجموع من ص 251 الى ص 308.
- الحجوي (ت 1376 / 1956) محمد بن الحسن الثعالبي
- 31 — الرحلة، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 123 ح).
- 32 — الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي، 4 أجزاء، (الرباط — فاس 1345).
- الحجوي (معاصر) محمد المهدي
- 33 — حياة الوزان الفاسي وآثاره، (الرباط 1354/1935)
- الحوات (ت بعد عام 1233/1817) أبو الربيع سليمان بن محمد العلمي الشفشاوني.
- 34 — البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 261 د).

35 — ثمرة أنسي في التعريف بنفسي، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1264 ك).

داود (معاصر) أبو عبد الله محمد التطواني. مات — رحمه الله — في 4 رمضان 1404/6-1984.

36 — تاريخ تطوان، (تطوان 1379/1959)

الدلائي (ت 1046/1636) محمد بن أبي بكر.

37 — الفهرست، (مخطوط مكتبة محمد إبراهيم الكتاني بالرباط).

دينية (ت 1358/1939) أبو عبد الله محمد بن علي الرباطي.

38 — النسمات الندية من نشر ترجمة احمد دنية، (الرباط 1355 هـ).

الزركلي (معاصر) الشيخ خير الدين.

39 — الاعلام، قاموس تراجم. 10 أجزاء، (الطبعة الثانية بدون ذكر

تاريخ ولا مكان الطبع).

الزياتي (ت 1055/45 — 1646) عبد العزيز بن الحسن بن المهدي

40 — الجواهر المختارة، فيما وقفت عليه من النوازل بجال غمارة،

(مخطوط الخزانة العامة بالرباط 66 ج)

الزياتي (ت 1249/1833) أبو القاسم.

41 — البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، (مخطوط الخزانة

العامة بالرباط 1577 د).

42 — الترجمان العرب عن دول المشرق والمغرب، (مخطوط الخزانة العامة

بالرباط 658 د).

43 — الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برأً وبحراً (مطبعة الانباء

بالرباط، عام 1967، بتحقيق عبد الكريم الفيلاي).

44 — قصة المهاجرين المعروفين اليوم بالبلديين بفاس، (مخطوط الخزانة

العامة بالرباط 270 ك).

الكتاني (ت 1323/5-1906) جعفر بن ادريس.

- 45 — الرياضة الربانية، في الشعبة الكتانية، (مخطوط الخزنة العامة بالرباط، 497 ك).
- الكتاني (ت 26/1345 — 1927) محمد بن جعفر
- 46 — سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ثلاثة أجزاء، (المطبعة الحجرية بفاس 1316 هـ).
- الكتاني (ت 1962/1382) عبد الحفي
- 47 — فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والشيخات والمسلسلات، جزآن (فاس 1346). أعادت دار الغرب الإسلامية نشره سنة 1982 بعناية إحسان عباس في ثلاثة أجزاء، الأخير منها خاص بالفهارس.
- الكتاني (ت 1931/1350) عبد الكبير بن هاشم.
- 48 — روض الانفاس العالية في بعض الزوايا الفاسية، (مخطوط الخزنة العامة بالرباط 2.164 ك)
- مؤلف مجهول
- 49 — تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادوتية. (نشره جورج كولان في الرباط 1934/1353).
- مؤلف مجهول
- 50 — التعريف بأحمد الششتري، (مخطوط الخزنة العامة بالرباط 1419 د).
- الحبي (ت 1699/1111 — 1700) أبو عبد الله محمد
- 51 — خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر، (مصر 1284)
- المنصوري (ت. 16 ربيع الثاني 24/1384 غشت 1964) أحمد بن قاسم الزياتي .
- 52 — تاريخ زيان، مخطوط خزنة المؤلف بوادي زم، ويسميه أكباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر.
- ميكروفيلم 946 في الخزنة العامة بالرباط.

- المنوني (معاصر) محمد بن عبد الهادي المكناسي
 53 — ركب الحاج المغربي، (تطوان 1953).
 المقرئ (ر 1632/1041) أحمد بن محمد التلمساني
 54 — أزهار الرياض في أخبار عياض، 3 أجزاء (مصر 1939/1358)
 وقد أعادت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب نشره كاملاً
 في 5 أجزاء سنة 1980 بتحقيق سعيد أعراب، ومحمد بن تاويت،
 وعبد السلام المهراس.
 55 — نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان
 الدين بن الخطيب، أربعة أجزاء، (المطبعة الأزهرية بمصر
 1302 هـ). أعيد نشره في بيروت سنة 1968 بتحقيق إحسان
 عباس في 8 أجزاء، الأخير منها خاص بالفهارس.
 المشرفي (ر 1895/1313) العربي بن علي العسكري.
 56 — الحسام المشرفي لقطع لسان الشاب الجعري الناطق بخرافات
 الجعسوس سيء الظن الكنسوس، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط
 2276 ك).
 ميارة (ر 1662 — 61/1072) محمد بن أحمد.
 57 — اختصار الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين،
 (مصر 1348).
 الناصري (ر 1897/1315) أحمد بن خالد السلاوي.
 58 — الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، 9 أجزاء (الدار البيضاء
 1954).
 59 — طلعة المشتري في النسب الجعفري، جزآن، (المطبعة الحجرية
 بفاس).
 الناصري (ر 1716/1128) أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي.
 60 — الرحلة الناصرية، جزآن (المطبعة الحجرية بفاس 1320 هـ).
 الناصري (كان حيا عام 1745/1158) محمد المكي بن موسى الدرعي.
 61 — الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة، مخطوط الخزانة العامة بالرباط
 265 ك).

- الصومعي (من رجال القرن العاشر) عبد الرحمن.
- 62 — **التشوف الصغير**، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1103 د).
- الضعيف (كان حيا عام 1820/1236) أبو عبد الله محمد الرباطي.
- 63 — **تاريخ الدولة السعيدة**، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 758 د).
- وقد نشرته سنة 1986 دار المأثورات في الرباط بتحقيق أحمد العمّاري.
- العكاري (ت 1746/1159) علي بن محمد — الحفيد — الرباطي.
- 64 — **مناقب الشيخ سيدي علي العكاري أو البدور الضاوية في ذكر الشيخ وتلاميذه وبناء الزاوية**، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 88 د).
- العلمي (ت 22/1135 — 1723) محمد بن الطيب.
- 65 — **الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب**، (المطبعة الحجرية بفاس 1315).
- علوش (معاصر) ي. س. وعبد الله الرجراجي.
- 66 — **فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط، جزآن** (الرباط 1958).
- عمار (معاصر) علي سالم.
- 67 — **أبو الحسن الشاذلي، جزآن**، (مصر 1952).
- عنان (معاصر) محمد عبد الله.
- 68 — **مهاية الاندلس وتاريخ العرب للتصيرين**، (مطبعة مصر — بدون تاريخ).
- العياشي (من رجال القرن 12 هـ/18م) أبو محمد عبد الله بن عمر.
- 69 — **الإحيا والانتعاش، في تراجم سيادات زاوية أيت عياش** (مصور الخزانة العامة بالرباط، 1433 د).
- العياشي (ت 79/1090 — 1680) أبو سالم الرحالة.
- 70 — **الرحلة العياشية أو ماء الموائد، جزآن** (المطبعة الحجرية بفاس 1316).

- الفاسي (ت 1642/1052) أبو حامد محمد العربي بن الشيخ أبي الحاسن.
71 — مرآة الحاسن من أخبار الشيخ أبي الحاسن، (المطبعة الحجرية بفاس 1906/1324).
- الفاسي (ت 1766 — 65/1179) محمد بن أحمد بن محمد عبد القادر.
72 — للورد الهني بأخبار مولاي عبد السلام بن الطيب القادري الحسني، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1234 ك)
73 — شرح درة التيجان، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1432 ك).
الفاسي (ت 1722 — 21/1134) محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر.
74 — للمتح البادية في الاسانيد العالية والمسلسلات الزاهية والطرق الهادية الكافية، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1249 ك).
الفاسي (ت 1698 — 97/1109) محمد المهدي.
75 — تحفة أهل الصديقية، بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية. (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 76 ج).
76 — تمتع الأسماع في ذكر الجزولي والتابع وما لهما من الاتباع، (المطبعة الحجرية بفاس 1313 هـ).
الفاسي (ت 1685/1096) عبد الرحمن بن عبد القادر.
77 — ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي الحاسن وشيخه المجذوب، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 326 ك).
78 — الاقنوم في مبادئ العلوم، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 15 ك)
79 — تحفة الاكابر بمناقب الشيخ عبد القادر — الفاسي — (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 2330 ك).
80 — شرح العمل الفاسي، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 821.
الفضيلي (ت 1899 — 98/1316) ادريس بن أحمد العلوي.
81 — الدرر البهية والجواهر النبوية، جزآن، (المطبعة الحجرية بفاس).
الفشتالي (ت 1623/1032) عبد العزيز.
82 — مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفا، ميكرو فيلم الخزانة العامة

- بالرباط رقم 779. (وقد نشره الأستاذ عبد الله كنون).
- القادري (ت 1773/1187) محمد بن الطيب.
- 83 — نشر للثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني جزآن، (المطبعة الحجزية بفاس 1892/1310).
- 84 — نشر للثاني الكبير، (جزآن، مخطوط الخزانة العامة بالرباط 2253 ك). وقد طبع الكبير والصغير معاً في أربعة أجزاء بالدار البيضاء، 1977—1986.
- القادري (ت 91/1206 — 1792) عبد السلام بن عبد الله الحياط
- 85 — التحفة القادرية ، في مناقب عبد الله الشريف الوزاني ورجال الشاذلية عموماً، جزآن، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 2321 ك)
- 86 — تقايد تاريخية (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط 248).
- السوسي (ت 1963/1383) محمد المختار.
- 87 — للعسول، 20 جزء، (الدار البيضاء 1960/1380).
- 88 — خلال جزولة، أربعة أجزاء (المطبعة المهدية بتطوان بدون تاريخ).
- الشتنواني (معاصر) أحمد ومن معه.
- 89 — دائرة المعارف الاسلامية، (مصر 1933/1352).
- الولالي (ت 1715/1128) أحمد بن يعقوب.
- 90 — مباحث الانوار في أخبار بعض الاخيار، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 2305 ك)
- اليازغي (ت 22/1238 — 1823) محمد بن ابي بكر.
- 91 — حقائق الازهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية البكرية (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 261 د).
- اليحمدي (19/1132 — 1720) محمد بن أحمد بن الحسن
- 92 — واسطة العقدين في ترتيب الكناشتين، جزآن ضخمان جدا كانا مجزأين من قبل في 10 أجزاء، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 330 ك).

- اليفرني (ت. بعد 1150 — 1737) محمد الصغير المراكشي
93 — روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف، (المطبعة
الملكية بالرباط 1382/1962).
94 — نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، جزآن، (طبعة أنجي
1888).
95 — صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، (المطبعة
الحجرية بفاس).
اليوسي (1102/1690) أبو علي الحسن بن مسعود.
96 — المحاضرات، (المطبعة الحجرية بفاس 1317 هـ).
97 — الفهرست، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1234 ك).
98 — تاليف في العكاكرة، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1224 ك).

* * *

- 99 — مجلة اليينة، الرباط، السنة الأولى، 1963.
100 — مجلة تطوان، تطوان، السنوات 58—59—1963.

ب — المصادر الأجنبية

- Ch. ANDRE JULIEN,
Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe à 1830, (Paris, 1952)
- J. BERQUE,
Al Youssi, problèmes de la culture marocaine au XVIIe siècle, (Paris 1958)
- H. DE CASTRIES,
Les sources inédites de l'histoire du Maroc - de 1530 à 1845, (Paris 1905 et suite) Angleterre, France et Pays-Bas
- R. COINDREAU,
Les corsaires de Salé (Paris 1948).
- G. DRAGUE,
Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, (Paris 1951)
- JEAN-LEON L'AFRICAIN,
Description de l'Afrique, Nouvelle édition traduite de l'Italien, par A. Epaulard,
2 volumes, (Paris 1956)
- M. H. LAVOIX,
Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale, (Paris Imprimerie Nationale, MDCC CI).
- E. LEVI-PROVENÇAL,
Les historiens des Chorfa (Paris 1922).
- Mission Scientifique du Maroc
Villes et tribus du Maroc, (Paris 1918 et suiv.), Rabat et sa région
T. I.
- H. TERRASSE,
Histoire du Maroc, T. II, (Casablanca, 1951).
Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines,
Hesperis, (Paris, 1925 et suiv.).
Archives marocaines, (Paris, 1904 et suiv.) T. XXVIII.
Encyclopédie de l'Islam, (Paris, 1913 - 1942)

فهارس

- * فهرس الأعلام البشرية والقبائل والأمم
- * فهرس الأماكن
- * فهرس اللوحات المصورة
- * فهرس الموضوعات

الفهرس

الاعلام البشرية والقبائل والأمم(*)

- آل أبي بكر الدلائي 172
 آل البيت 227.172
 آل المنظري 183
 الآبار، حمدون (أحمد بن محمد) 101.90
 ابراهيم بن علي الحجام السوسي دفين زرهون 54.53.52
 إبراهيم الرايس السلوي 208
 ابراهيم السملالي 148
 ابن أبي زيد القيرواني 54
 ابن أبي علي أحمد بن عبد الله السجلماسي 147.146.245 144.143.21.12
 ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل 80.
 ابن بادس، علي 130.
 ابن بركة، كبير أيت يَمُور 263.
 ابن بطوطة 24.
 ابن تومرت = المهدي.
 ابن الحاجب 78.77.
 ابن حرزهم، أبو الحسن 252.229.
 ابن حسون = عبد الله.
 ابن حنبل، أحمد (الامام) 76.
 ابن حوقل 22.
 ابن خلدون 134.28.
 ابن راحة، كبير أيت مقدار 263.
 ابن زكريا محمد بن عبد الرحمن 273.
 ابن زيدان، عبد الرحمن 124.123.
 129.128.125.
 ابن السكيت 78
 ابن سودة العباس (قاضي فاس) 266.
 ابن سودة، محمد بن محمد (القاضي) 226.102.90.
 ابن سودة محمد بن المهدي 248.
 ابن الشاط 269.
 ابن شقرون عبد القادر المكتاسي الطيب 132.
 ابن الصغير (رئيس عدوة القرويين) 241.230.226.
 ابن طاهر الحسني = عبد الله علي.
 ابن عاشر، عبد الواحد 104.102.94.83.
 ابن عباد، محمد (الشيخ) 231.228.
 ابن عبد السلام (الفقيه المالكي) 268.
 ابن عرفة التونسي 269.
 ابن عطاء الله، تاج الدين 138.77.54.
 ابن عمران، أحمد السلاسي الفاسي 161.101.100.91.87.
 ابن عمران، علي بن عبد الرحمن السلاي 100.

(*) لم نثبت في فهرس الأعلام والأماكن ما يتكرر منها كثيراً مثل الدلاء، الدلائين، الزاوية الدلائية، السعدين، العلويين، البربر، العرب، المغرب، المشرق، المسلمين، المسيحيين أو النصاري... وسكان المدن والقرى والجبال مثل السلويين والرباطيين والفاسيين والزنايين... وكذلك ما في الهوامش والملاحق.

- ابن الغازي، محمد الرباطي 123.
ابن القاضي، أحمد 84.80.78
96.95.94.93.92.86
161.99.98.97
ابن قنفذ، أحمد ابن الخطيب القسنطيني 96.
ابن مالك (صاحب الألفية) 102.101.91.78
ابن مرزوق (الخطيب التلمساني) 24.22.
ابن مسعود محمد المراكشي 136.135.103.
ابن مشعل 250.
ابن مشيش = عبد السلام.
ان المقفع 104.
ابن ناصر، محمد (الشيخ) 56.
272 64.63.62.61.60.59
ابن هشام (النحوي) 80.78.
ابن وفاء، علي (الشيخ) 54.
أبو بكر بن أبي حنون السملالي بودميعة 154.
أبو بكر الصديق 28.
أبو حنون السملالي 149.148.21.12
200.154.153.152.151.150
298.297.250.248
أبو الحسن بن أحمد المنصور الذهبي 27.
أبو الحسن الميني 97.24.22.
أبو السرور الصيداني المصري 87.
أبو عبيد بن سلام 78.
أبو عبيدة (اللغوي) 78.
أبو عنان الميني 24.
أبو فارس بن أحمد المنصور 20.
أبو فراس الحمداني 261.
أبو القاسم = الزياتي.
أبو محمد صالح الماجري 14.
أبو مدين الغوث 260.257.
- أترك الجزائر (أو الأتراك العثمانيون) 188.95
262.260.258.202
الأجهوري، علي 136.
أحمد بن الشيخ بن زيدان 20.
أحمد بن عبد القادر بن عقبة الميني 135.54.
أحمد بن محرز بن الشريف بن علي 262.251.
أحمد بن موسى السملالي (الشيخ) 151.148.
أحمد الرئيس السلوي 209.
أحمد شهاب المصري 275.
أحمد المنصور الذهبي 12. 92.74.27.19
200.196.192.183.97.96.95.93
أحمر (قبيلة) 287.
الأخصاص (قبيلة سوسية) 102.
الأحماس 170
الأدارة 92.
إداوسلال 288.
إدريس الأول 95.22.
إدريس الثاني 262.228.95.
إدوار مونطاني 198.
الأزموري، أحمد (قاضي فاس) 226..
الإسبان أو الإسبانيون 143.129.20.12
174.173.169.168.158.155
188.187.184.182.181.175
247.246.239.296
إسحاق ساسبوط (طبيب عيون بهولاندا) 220.
إسماعيل بن الشريف (السلطان) 66.13
196.151.129.128.124.107.69
262.261.260 258.255.239
298.273.269.267.266.263
أعراب تادلا 68.
الأعرج، أبو العباس بن محمد القائم بأمر الله
45.

- أعيان العدوتين (سلا والرباط) 244.
أعيان فاس 243.230.
الإفراني، أو الإفري، محمد الصغير
272.136.11.
ألبير رويل، 193.
إلزابيت (ملكة إنجلترا) 196.
إمام الحرمين 77
أمغار، محمد بن عبد الله 52.
الأمير الدلائي المنتصر 223.222.221.
أندرى برا (قنصل) 195.194.
الأندلسيون (بالرباط والقصة) 168.157
188.185.184.183.181.169
أنس بن مالك 102
الانصاري، أحمد 61.
الأنصاري السلاوي علي بن عبد الواحد
137 136.83.
الأنصاري عمر بن أحمد، أبو حفص 60.
أنطوان جوليان بارازول 196.
أنطونيو دي باديللا 175.
الأوداية (أو الودايا) 287.
أوربة (قبائل) 95.
الأوريون 221.193.192.189.149.19
296.259.246.237.225
أيت إسحاق (قبيلة) 166.142.
أيت أومالو 162.
أيت رخا 288.
أيت سخمان 39.
أيت عبد الله 288.
أيت عطا 131.
أيت مقداد 263.
أيت نضير 166.
أيت ولال 252.
أيت يندر (بنو الطالب — صنهاجة) 28.
أيت يسري 263.
أيت يهور 287.263.166.
أيت يوسي 252.104.
إيزابيلا الكاثوليكية 181.
الباخلي، شرف الدين داود 54.
باي تونس 222.
البت (بربر) 28.
البخاري (الامام) 77.76.
برابرة الأطلس 262.141.
برابرة جبال سوس 174.
برابرة زهان 68.
برابرة صنهاجة 164.
براكل (قبطان هولندي) 212.
البرانس (بربر) 28.
البرتغال أو البرتغاليون 155.154.27.19
222.196.192.183
برغواطية أو البرغواطيون 22.
البكري، محمد زين العابدين (الشيخ المصري)
81.56
بلاك (أمير بحر انجليزي) 239.198.
بلال 107.
البلديون أو المهاجرون (= الإسلاميون).
243.242.235
بلطزار لوايولا مانديز (المتنصر) 222
226.225.223
بناني عبد السلام الرباطي 124.
بناني، عبد الله الرباطي (القاضي) 128.124.
بناني محمد بن حمدون 273.
بناني محمد بن عبد السلام 273.
بنو جرفط 237.

- بنو زهان (من قبيلة بني مالك) 154.
 بنو الطالب (= أيت يتيدر للمتونيون) 28.
 بنو مالك (قبيلة) 154.
 بنو محمد (الماطيون) 287.
 بنو ولال 131.
 بنو يازغة 170.
 بنو يحيى (المحاطيون) 287.
 بنو يزناسن 258.250.
 بنيالوز محمد 214.
 البهاليل 251.
 بنو جندار، محمد الرباطي 123.
 بودميعة = أبو حسن.
 البوزيدي، علي إبراهيم (شيخ تادلا) 45.
 البوصيري صاحب البدة والهمزية 84.49.
 273.130.
 البوعزاوي أحمد بن الطيب 282.
 البوعصاميون (أهل تابوعصامت) 150.
 البوعناني، محمد 83.
 بورك، جاك 108.
 البيضاوي ناصر الدين عبد الله بن عمر 76.
 التاجموتي، عبد المالك 267.190.61.
 التادلي ابن الزيات 23.
 التازي، عبد الودود بن عمر 284.9.
 التاسكدلتي، أبو الحسن علي 58.
 التاغبي (من عرب الغرب) 169.
 التاملي أبو بكر (قائد فاس من قبل الدلائيين) 240.227.226.
 التباع، عبد العزيز المراكشي 159.152.51.
 التركي (الشيخ المراكشي) 125.
 التستاوتي، أحمد بن عبد القادر 90.
 التستاوتي، محمد بن مبارك 81.
 التمناتي عبد الرحمن 284.
 التيجاني، أحمد (الشيخ) 266.56.
 التيلكاتي، علي بن محمد (قاضي الجماعة) 149.
 الثعالبي، أبو إسحاق محمد بن أحمد 76.
 التجادري، عبد الرحمن 80.78.
 جاكوب كولبوس 216.193.
 جان باري (ترجمان) 222.
 الجزولي محمد بن سليمان (الشيخ) 52.51.
 159.152.68.67.63.57.53.
 جسوس محمد بن قاسم 273.
 الجنوي أحمد 248.
 الجنوي سعيد (قائد سلا) 201.190.187.
 210.204.
 الجنيد، أبو القاسم (الامام) 50.
 جوهن دونكارت (طبيب عيون) 220.
 جيديون دو ويلدت (ضابط بحري هولندي) 202.
 الحيلاني = عبد القادي.
 الحاج فاضل (الرايس) 208.
 الحاحي، عبد الله بن سعيد 147.146.
 الحاحي، يحيى أبو زكريا 142.21.12.
 148.147.146.144.
 الحافي، أحمد بن عاشر السلوي 127.
 الحجام = إبراهيم بن علي.
 حجي، أحمد (المجاهد السلوي) 129.
 حجي، عبد الله الجزار 127.
 الحداد أحمد بن عاشر 291.
 الحراق محمد (الشيخ) 292.291.
 الحران بن الشريف بن علي 251.
 الحريري (صاحب المقامات) 105.91.78.
 الحسن بن علي (السلطان) 134.
 الحسن السملالي 148.
 الحسين بن علي بن أبي طالب 150.134.

- الحكم المستنصر (الأندلسي) 74.
حماد الراوية 78.
حمو بن بلّا (قائد) 153.149.
حمّي = الدلائي محمد بن سعيد.
الحوات سليمان بن محمد العلمي
283.272.9.
الحوات محمد العلمي 272.
الحياة 228 178.177.168.166.156.
الخضر = غيلان.
الخطاب أبو حفص عمر دفين زرهون
53.52.51.
الخطيب القزويني 79.
الخلط (قبيلة) 237.169.
خلف الأحمر 78.
خليل بن اسحاق المالكي 101.94.77.
الخوارزمي، أبو بكر 106.
الخطاط، الحاج ابراهيم (خديم الأمير عبد الله
الدلائي 226.
الدادسي، محمد بن محمد بن الحسن 58.
الدباغ عبد العزيز (الشيخ) 273.
دخيمة (عرب) 164.
الدخيسي (من عرب الغرب) 169.
الدرراوي الحسن الدرعي 100.99.86.80.
الدرعي، علي بن عبد الرحمن 136.135.
الدرعي، علي بن يوسف، أبو الحسن 64.63.
الدرقاوي العربي (الشيخ) 291.
الدريدي أبو عبد الله محمد (قائد فاس) 229
251.244.243.241.240.230.
الدغوشي، أحمد شاعر الدلائيين
283.134.49.
- الدقاق (رئيس قبيلة زعير) 177.
الذّك إبراهيم 219.215.214.210.
الدلائي، إبراهيم بن محمد حمّي (أخو الشيخ أبي
بكر) 31.
الدلائي، أبو بكر (الشيخ) 31.28.12.11.
57.56.55.50.48.47.46.45.36
230.141.100.82.74.69.67.58
295.271.
الدلائي، أبو عَمَر بن محمد بن أبي بكر
276.104.101.79.
الدلائي أحمد البكري بن محمد البكري 266.
الدلائي أحمد بن الشاذلي 264.
الدلائي، أحمد بن عبد الله (الثائر) 229.13
262.261.260.240
295.264.263.
الدلائي أحمد بن محمد الحاج 227.225
240.229.228.
الدلائي أحمد بن المسناوي 264.
الدلائي، أحمد الحارثي بن أبي بكر 89.78
279.276.122.
الدلائي، سعيد بن أحمد بن عمر (المجاطي)
54.31.28.
الدلائي الطيب بن الشاذلي 264.
الدلائي، الطيب بن المسناوي 77.69.68.
102.101.90.
الدلائي، عبد الرحمن بن أبي بكر 86.77.
الدلائي، عبد الخالق محمد بن أبي بكر 142.
الدلائي عبد السلام بن الشاذلي 279.264.
الدلائي عبد السلام بن محمد بن العربي 292.
الدلائي، عبد الكريم بن أبي بكر 77.

- الدلائي عبد الله بن محمد الحاج (أمير سلا) 193.192.191.190.189.175.13
 281.279.278 الدلائي محمد بن العربي 293.292.291
 197.198.202.204.207 الدلائي محمد بن محمد بن حسن (تاجر بفاس)
 208.209.210.211.212.213
 214.216.218.219.220.226 الدلائي محمد بن محمد الحاج
 228.225 228.235.240.244.245.246
 247.252.258.259.260.261 الدلائي، محمد بن محمد الشاذلي 91
 296 الدلائي محمد بن محمد المكي 279.267
 142. الدلائي، عمر بن محمد بن أبي بكر
 276.270.266 الدلائي محمد البكري
 277.278.282
 10.36.49.50. الدلائي، محمد بن أبي بكر
 51.52.53.55.56.57.59.63.64
 67.69.74.75.76.77.78.79.80
 81.82.83.84.85.86.87.94
 100.101.115.116.117.122
 136.141.142.146.149.150
 151.152.153.157.158.159
 160.161.162.163.165.166
 264.264.271.274.275.281.282
 295
 264. الدلائي محمد بن أبي غمر
 266. الدلائي محمد بن أحمد الشاذلي
 31.45.48. الدلائي، محمد بن سعيد (حمي المجاطي)
 104.265. الدلائي محمد بن عبد الرحمن
 275.276.277.278.280.281
 282
 276. الدلائي محمد بن عبد الله البكري
 264. الدلائي محمد بن عبد الله بن محمد الحاج

- الدلائل، محمد المساوي بن محمد بن أبي بكر
164.69.13
- الدلائل، محمد المكي
267.266.
- الديماطي، شرف الدين 97.
- دنية، أحمد 291.
- دورستان (قنصل فرنسا في سلا) 168.
- دو رويتر (قائد الأسطول الهولندي بالبحر المتوسط) 212.211.210.209.208.
- 213.
- دوفريس، دافيد (قنصل هولندا بسلا)
210.209.207.205.204.193
211. 212. 213. 245.
- دوكستر (الكونت) 194.188.174.11.
- 221.
- دولاسكاري كاسطيلار بول (كبير الرهبان)
222.
- دوماندولص بلطزار (راهب قرصان)
222.221.
- دوهايد (وكيل هولندي) 220.216.
- الدُّوَار = علي بن أحمد الصنهاجي.
- دو ويلت (ضابط هولندي) 213.212.211.
- دي طيفويو (الكونت الانجليزي حاكم طنجة)
247.
- ديفيان (نائب الخزينة الهولندي) 210.
- دي لوص أركوص (المركز حاكم سبتة)
246.239.238.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر 76.
- رجال رجراجة السبعة 22.
- رجراجة 22.
- الرجراجي، عبد الرحمن 53.52.
- الرشيد بن الشريف (السلطان) 62.13.9.
- 227.154.134.107.106.104.69
- 251.250.249.248.235.232
- 264.259.257.254.253.252
- 298.297.265.
- الرفاعي أحمد (كاتب مولاي سليمان) 266.
- الرقى = عبد الله بن حسين.
- روبير بلاكبورن 197.
- روبير داون 197.
- الروسي عبد الله بن حمدون (قائد فاس) 263.
- الروم 96.95.
- ريشوليه (رئيس وزراء فرنسا) 168.
- الزبيدي، محمد 129.127.
- الزبيدي، أبو بكر 80.78.
- الزبيدي مرتضي 273.
- زروق أحمد بن محمد 65.63.54.53.52.
- 68.67.
- الزعروري فاضل الأنصاري (قائد) 185.
- الزعرري، أبو القاسم 51.
- الزعرري، محمد بن مبارك 146.143.
- زغير (قبيلة) 177.46.
- الزغشري، محمود بن عمر، جار الله 76.
- الزنج 95.
- زنيير، محمد (القاضي) 126.
- الزياتي، عبد العزيز بن الحسن 11.
- الزياتي، أبو القاسم أو بلقاسم 170.162.27.
- 170.162.27.
- زيدان بن أحمد المنصور 143.121.27.20.
- 200.185.155.147.144.
- السبكي تاج الدين 80.77.

- السجلماسي، أحمد بن مبارك 173.
- السجلماسي العلوي عباس بن محمد بن عبد الرحمن 282.
- سجور (أعراب الغرب) 159.
- السراج، يحيى 92.
- السفراء السلويون في لاهاي 216.215.214.
- السكتاني أبو مهدي عيسى (القاضي) 157.
- سليمان بن محمد بن عبد الله (السلطان) 266.
- سليمان بن يوسف (قائد) 183.
- السنسيان الحاج يوسف (قائد القصبة) 187.
- السنهوري، سالم 92.
- السنوسي، محمد مؤلف العقائد 259.99.80.77.62.
- السنوسي محمد، محمد (من قواد جيش زيدان السعدي) 155.
- السوسي، محمد بن عبد الله 131.125.89.
- 135.133.132.
- السوسي، محمد المختار 154.
- السويد 209.
- سيبويه 78.
- الشاذلي، أبو الحسن (الامام) 53.52.14.
- 77.68.63.54.
- شارل الثاني (ملك إنجلترا) 239.
- شاكر (المجاهد العربي) 22.
- الشاوي، سيدي أحمد (بفاس) 262.
- الشوكي محمد بن يوسف. 80.
- شراكة (قبيلة) 168.167.160.156.117.
- 237.
- شرفاء بوفكران 287.
- شرفاء جبل العلم 234.
- الشرفاء الجوطيون 228.
- شرفاء سجلماسة = العلويين.
- الشرفاء السعديون 298.
- الشرفاء الشبوكون 80.
- الشرفاء العلويون 298.172.9.
- الشرفاء القادريون 252.229.
- الشرقي، أبو عبيد محمد 81.51.
- الشرقي، محمد بن الطيب 273.
- الشريف بن علي (جد العلويين) 150.149.
- 250.248.172.151.
- الششتري (الشاعر الصوفي) 67.
- شعشوع (أحد قواد جيش محمد الحاج) 168.
- الشنجيطي، أحمد بن بابا العلوي 56.
- صنهاجة أو الصنهاجيون 162.28.22.
- 170.164.
- الصومعي، محمد بن عبد الرحمن 124.103.
- 132.131.130.
- الطاهري محمد المدعو حمّو 228.
- الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر 76.
- طرومب (قائد الأسطول الهولندي بالبحر المحيط الأطلسي) 208.
- طونيس بوسط (قائد هولندي) 208.
- عاشور، أحمد 124.
- عامر بن محمد (قائد سلا) 188.187.
- العايدي، أحمد بن موسى الرباطي 127.
- العايدي، عبد الرحمن (من رؤساء بلاد الغرب) 159.
- العباسيون 142.
- عبد الرحمن الشريف دفين باب عجيصة بفاس 232.
- عبد السلام بن محمد بن عبد الله (الأمير) 298.266.
- عبد السلام بن مشيش الشيخ 67.66.65.

- عبد القادر بن الجلال المحلي 275.
عبد القادر الجيلاني (الشيخ) 66.
عبد الله بن حصون السلوي 81.51.
159.157.155.154.
عبد الله بن حسين الرقي 61.60.
عبد الله بن علي بن طاهر الحسني 102.83.
عبد الله بن محمد الشيخ المامون 20.
عبد الله بن ياسين 23.
عبد الله الغالب السعدي 46.
عبد الله القصري السلوي 210.
عبد الله الهبطي أبو محمد 51.
عبد الملك بن محمد الشيخ المامون 20.
عبد المومن الموحد 188.
عبد الواحد بن السلطان إسماعيل 127. 128.
عبدون أبو الطيب بن عبد الرحمن 187.
عجيب (مملوك زيدان) 185.
عقبة بن نافع الفهري 22.
العكاري، علي 12. 103. 122. 123.
124. 125. 126. 127. 128. 129.
العكاري، علي الحفيد 122. 124. 125. 128.
العكاري، محمد 12. 103. 122. 123. 124.
العكاري، محمد بن علي 127.
العلمي محمد بن الطيب 272. 273.
علي بن إبراهيم دفين تدغة 59.
علي بن أحمد الصنهاجي الدوار 52. 53.
علي بن أحمد (قاتل المجاهد العياشي) 237.
علي بن يوسف دفين أركو 59.
علي القرطبي 210.
علي مرشيك (الرئيس) 212. 213. 226.
عمرو بن قاسم الأندلسي الرباطي 50.
عمور، أحمد بن محمد الفاسي 123.
- العميري، أبو القاسم بن سعيد 132.
العميري، سعيد أبو عثمان (القاضي) 126.
عنوس البدوي راعي الأبل 52. 53.
العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد 35.
116. 77. 69. 61. 57.
العياشي، حمزة بن أبي سالم 69.
العياشي، عبد الله بن عمر 35.
العياشي عبد الله بن محمد المجاهد السلوي
245. 170. 160.
العياشي، محمد بن أبي بكر 11. 57. 68. 69.
العياشي محمد حمزة 283.
العياشي محمد السلوي (المجاهد الرئيس) 12. 21.
157. 156. 155. 154. 149. 142. 121
169. 168. 167. 161. 160. 159. 158
187. 185. 184. 183. 173. 171. 170
201. 200. 196. 195. 192. 189
246. 245. 239. 238. 237. 226
248.
عياض القاضي 76. 137.
الغربي، أحمد الرباطي 128.
الغزواني بن بوبكر 199.
الغزواني، عبد الله 51.
غمارة 170. 237.
العياشي، سليمان (صاحب الكاف) 59.
غيلان، الخضر 13. 184. 235. 236. 237.
247. 246. 245. 240. 239. 238
248.
غيلان الطاهر 248.
القاسي، أبو المحاسن يوسف 51. 52. 53.
59. 64. 65. 66. 67. 68. 121.
القاسي أحمد بن عبد الرحمن 251. 252.

- الفاسي، أحمد بن يوسف (الحافظ) 67.59. 283.122.121.94.82
- الفاسي، عبد الرحمن (العارف) 66.
- الفاسي، عبد القادر 90.68.67.66.60. 126.124
- الفاسي محمد بن أحمد 284.
- الفاسي محمد بن عبد الرحمن 272.
- الفاسي محمد العابد 283.
- الفاسي، محمد العربي، أبو حامد 12.10. 91.90.87.85.83.76.75.67
- 295.161.156.122.121.103
- فرانسوا جوليان 196.
- فرنسيسكو بانوس دي هيريرا 175.
- فوتياند (الكاثوليكي) 181.
- الفراء 78.
- الفتتالي، عبد العزيز 27.
- الفلاح، عبد الكريم الحاحي 51.
- فنيش الحاج محمد 202.
- الفروزبادي مجد الدين 273.78.
- فيليب الثالث 182.
- فيليب الرابع 246.
- فيليب راس (ضابط زيلاندي) 208.
- القائم بأمر الله أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن 27.
- القادري، أحمد بن عبد القادر 133.79.11. 135.134
- القادري عبد السلام بن الطيب 284.271.
- القادري، عبد السلام بن عبد الله الخياط 91.11
- القادري، العربي 91.
- القادري العربي بن الطيب 271.
- القادري، محمد بن الطيب 174.166.11. 273.265
- القادي، يحيى بن أحمد 54.
- القال، أبو علي 80.78.
- القراصنة الأوربيون أو الأفرنج 93.22.
- القراصنة الجزائريون 258.211.183.
- قراصنة سلا أو القراصنة السلاويون 189.188.
- 296.219.198.197.195
- القراقي، أحمد (الأمام) 53.52.
- القراقي، بدر الدين 92.
- القراقي الشهاب 269.
- السطلاني 55.
- القسطلي، أبو عمر (الشيخ المراكشي) 32.31. 50.48.46
- القشيري 137.77.
- القصار محمد بن قاسم 85.81.76.75. 243.86
- كاترين (الأميرة البرتغالية) 239.
- كاسبار دورستان 194.
- الكتاني محمد إبراهيم 283.
- كدمية (قبيلة) 287.
- كروان 166.
- كرومويل (اللورد الحامي الانجليزي) 198.
- الكسائي 78
- الكندوز محمد بن الحسن 273.
- كنون، عبد الله 74.
- كورنلي طرومب 207.205.
- كوهن بنجامن (ترجمان) 213.210. 213.210
- لويس الرابع عشر 196.
- الليبي (أسرة أندلسية بفاس) 226.
- الليبي أحمد بن صالح (رئيس عدوة الأندلس

- بفاس) 252.251.243.241.230.229.
 اللبيني عبد الكريم 227.226.
 ليفي برونسفال 268.98.11.
 مالك (الأمام) 137.76.
 المامون، محمد الشيخ بن أحمد المنصور 19.
 155.121.117.67.20.
 مبارك السوسي (الأمين) 85.
 المبرد 104.80.78.
 المجاهد السلوي = العياشي محمد.
 المجاهدون السلويون = قرصنة سلا.
 مجاط (قبيلة) 142.141.28.27.13.
 288.287.255.244.166.162.
 292.
 مجاط التحتية (بناحية مراكش) 287.
 مجاط سوس 288.
 مجاط الفوقية (بناحية مراكش) 287.
 مجاط ناحية مكناس 287.
 المجاطي، أحمد بن عمر 28.
 المجاطي عمر (جد الدلائين) 28.
 المجذوب عبد الرحمن المكناسي 52.51.
 67.64.53.
 المجراد السلوي 100.
 المحلي، جلال الدين 125.
 محمد أبي حسون السملالي بودميعة 154.
 محمد بن الشريف بن علي (السلطان) 150.
 248.227.173.172.164.153.
 258.250.
 محمد بن عبد الله السلطان 298.266.
 محمد بن علي الدكالي السلاوي 226.225.
 محمد السوسي وزير أبي حسون 149:
 محمد الشيخ بن زيدان (الأصغر) 163.85.
 197.167.164.
 محمد الشيخ السعدي (المهدي) 31.
 محمد الصغير بن محمد ابن الشريف
 العلوي 250.
 محمد العالم بن السلطان إسماعيل 273.269.
 298.274.
 المدجنون 181.179.
 المرابطون 23.
 المرسي أبو العباس 53.52.
 مرغيتة (أو مرغيتة) فرع من قبيلة الأخصاص
 السوسية 102.
 المرغيشي، محمد بن سعيد السوسي 85.
 103.102.
 المري أبو عبد الله محمد التلمساني (قاضي فاس)
 242.241.
 مرينو، أحمد حجي (عامل الرباط) 127.
 مرينو، محمد (القاضي) 127.
 المرينيون أو بنو مرين 80.31.28.24.
 188.
 المزاري، محمد (قاضي مراكش)
 165.164.163.
 مزوضة (قبيلة) 287.
 المسطاطي، أبو يعزى بن محمد السلوي 128.
 مصمودة (قبيلة) 122.
 المعداني الحسن بن رحال 283.
 معن، أحمد بن عبد الله صاحب زاوية المخفية
 بفاس 174.173.133.131.
 معن، محمد بن عبد الله (الشيخ) 174.173.
 معن بن الحاج إبراهيم 215.214.202.
 المغافرة 151.
 المغربي، أبو عبد الله الصوفي 53.52.
 المقصري، أحمد 83.82.80.12.

- هندريك دوبير 202.201.
 الهندي، أبو الفضل 53.52.
 هنري ر. 39.
 هنري برا (قنصل) 196.195.
 هيسلت (أمين هولندي) 220.216.
 الوجاري أحمد بن علي 272.
 والزهراء أحمد 127.
 الوزير القساني أحمد عبد الوهاب
 283.272.
 الوطاسي، أحمد (سلطان قاس) 45.
 الوطاسيون أو بنو وطاس 45.31.
 الولائي، أحمد بن يعقوب 79.58.10.
 133.132.131.84.
 الولائي، محمد بن يعقوب 58.
 الوليد بن زيدان بن أحمد المنصور 141.
 اليازغي، محمد بن أبي بكر 283.9.
 اليعمدي، محمد بن أحمد (الوزير) 125.
 يخلف (قائد جيش السلطان إسماعيل) 262.
 يزيد بن معاوية 151.
 اليسوعيون 222.221.
 يعقوب بن عبد الحق المريني 242.
 يعلى بن مصلح 22.
 اليفرني = الأفراحي محمد الصغير.
 اليميني = أحمد بن عبد القادر بن عقبة.
 اليهود 242.200.181.
 اليوسي، الحسن بن مسعود 27.12.10.
 101.87.79.78.75.64.61.35
 107.106. 105. 104.103.102
 126.125.124.122.117.108
 162.134.133.132(131.130
 265.264.262.257.253.163
 295.284.267.266
- 118.117.116.115.103.94.84
 295.182
 المكلاقي محمد 284.
 مكناسة (القبيلة الزناتية) 92.
 ملاح، محمد السلوي 127.
 الملوكي، حسين 94.
 الملواني، عبد الله (دفين تاغيا) 81.
 المنجرة، إدريس (الكبير) 271.91.
 المنجور أحمد بن علي 92.
 المنصور، أحمد بن قاسم (الزياني) 36.
 المنصوري، محمد السوسي السلوي 126.
 المهاجرون = البلديون.
 المهدي بن تومرت 147.23.
 المهدي بن الشريف بن علي 151.
 المهدي المنتظر 143.
 المورسيكيون 179.168.157.12.11.
 188.187 185.183.182.181
 245.239.237.196.190.189
 موسى بن أبي العافية المكناسي 92.
 موسى بن نصير 22.
 مولاي بوسلهام 184.
 ميارة محمد بن أحمد 242.104.
 الناصري، أحمد بن خالد 165.
 نثانيل لوك 198.
 النقسي (أولاد) 184.183.
 النقسي، أحمد بن عيسى (الجد) 238.183.
 النقسي أحمد بن عيسى (الحفيد) 238.
 النقسي عبد الكريم 238.199.
 النقسي عبد الله 183.
 هاريسون (سفير انجليزي) 196.
 الهبطي = عبد الله.
 الهرتاني، سعيد أبو عثمان 53.52.
 الحمداني، بديع الزمان 106.

فهرس الأماكن

- أبو الجعد 81.
أبو رراق (نهر) 189.188.168.82.
أبو عبّاد (مدشر) 46.
أبو عقبة (مشرع) 167.
أحد أولاد جلّول (بالغرب) 154.
أحد كورت 170.
الأرض الجديدة (بأميركا) 195.
أرّكو 59.
أزرو (قرية) 243.241.134.
أزمور (مدينة) 185.156.155.154.
الأزهر 275.162.13.
إسبانيا 221.198.197.194.176.174.
أسرير (في بلد فركلة. تافيلالت) 173.
أسفي 197.149.147.24.22.
أسيف المال (واد) 287.
أسيف نايث زمور 39.
أسيف نْ تامنت (= زاو العسل) 146.
الأشقوية (نقود) 233.232.
الأطلس الصغير 288.
الأطلس الكبير 250.60.58.23.11.
الأطلس المتوسط 82.28.27.21.14.
250.230.166.150.141.107.
296.263.262.
الأطلنطيق = المحيط الأطلنطيق.
إفران (الأطلس الصغير) 288.
أفريقاي الشمالية أو الشمال الأفريقي 15.
الأقاليم المتحدة السبعة = هولندا.
- أكدير 197.
ألمانيا 221.
إليخ 164.154.153.150.149.148.
173.
أمزميز 287.
أمستردام 220.214.211.207.
أم الربيع (واد) 230.197.149.36.20.
أنبدور (رباط) 23.
أنجلترا أو الأنجليز 196.194.179.12.
247.239.199.198.197.
الأندلس 182.181.160.97.74.24.
237.200.188.187.183.
أنفا 23.
أنكاد (بسيط) 258.
أوربا 194.193.192.190.179.
أولاد عيسى (قصر بالرتب) 172.
إيبيريا (شبه جزيرة) 196.185.183.
إيطاليا 221.
إيميتانوت 287.
باب الحديد (بفاس) 97.
باب الحمراء (بفاس) 290.288.
باب السبع (بفاس الجديد) 232.
باب سلا (في قصبة المعمورة) 175.
باب عجيسة (بفاس) 232.
باب الفتوح (بفاس) 228.135.69.52.
288.270.251.232.231.
باب مجاط الكبير (في مدينة محمد الحاج) 39.
بابل 95.

- بجنانة 35.
بحر الزقاق = البحر المتوسط.
البحر المتوسط 221.208.198.194.93.
296.
برقة 95.54.
البريجة 155.
بسائط تادلا 168.
البصرة (بالمشرق) 98.
البصرة (بالمغرب) 170.
بطن الرمان (بضاحية الدلاء) 252.235.13.
261.259.253
بعداد 95
البقاع المقدسة 162.
بلاد تادلا 262.257.167.142.
بلاد ذكالة 154.23.
بلاد زعير 177.
بلاد سايس 144.167.
بلاد السودان 19.
بلاد سوس 147.
بلاد الغرب 158.155.154.153.13.
200.184.173.172.162.159
220. 296.245.238.
بلاد غريس (بتافيلالت) 152.
بلاد غمارة 184.
بلاد الفحص 169.
بلاد الهبط 237.
البلاد الواطفة = هولاندا.
بلاد ورغة 170.
بلجيكا 206.
بنو عثمان (مكان بالحنق — تافيلالت) 173.
بوفكران 287.
بولونيا 211.
بومزورة (نهر) 252.
- بويكران 288.
بيت الله الحرام 131.89.24.
تابوعصامت (حصن بتافيلالت) 149.142.
150.
تادلا 82.58.46.45.36.35.27.20.
162.153.135.134.131.130
2
تارودانت 297.274.266.148.146.
تازا 296.251.250.170.165.155.
تازروالت 188.148.
تاسماط (رباط) 23.
تاغيا 142.81.
تافيلالت 149.142.129.60.48.
248.172.153.152.151.150
297.258.250
تامسنا 248.238.155.36.22.
تأمكروت 64.63.61.60.32.
تامنفاط (رباط) 23.
تانوتن (رباط) 23.
تدغة 59.
تسناوت 146.143.81.
تطـوان 155.122.93.65.64.12.
187.184.183.182.179.170
199.196.195.194.192.188
238.237.221.214.213.212
296.
تلمسان 257.255.182.61.31.20.
261.260.259.258
تمجث (قرية بتادلا) 135.
تمودة (الرومانية) 182.
تنغملت (قرية) 136.
توات 162.
تونس أو (بلاد افريقية) 182.95.22.

- 222.221.202.188
تونغيت 28.
تيزنيت 102.
تيط أو تيطنقطر (رباط) 23.
تينمل (رباط...) 23.
جامع الأمازيغ (بغاس) 94.
الجامع الأعظم بمكناس 264.
جامع الأندلس (بغاس) 101.97.
جامع مدينة محمد الحاج 167.
جامعة ليدن 216.193.
جبال الأطلس 142.257.287.
جبال أيت يسري (في الأطلس المتوسط) 263.
جبال برقة 95.
جبال الريف 237.
جبال ملوية 131.
جبال هسكورة 263.
جبل درن (الأطلس الكبير) 147.144.95.
جبل طارق 226.200.
جبل العلم 134.
جبل العياشي (الأطلس الكبير) 69.68.58.
298.172.
جبل يدلا 162.36.
الحديدة 222.155.154.23.
الجزائر 202.200.193.188.137.95.
258.257.245.212.211.205.
296.260.
جزيرة العرب 95.
الحاجب 287.
الحجاز 117.
حرم سيدي أحمد الشاوي 262.
حرم المولى ادريس 262.
الحرمان الشريفان 117.92.35.
حصن ابن مشعل 250.
حلق المعمورة 188.
حوز الحمراء (من مراکش) 165.
حوز مراکش 22.
خزانة كتب الجامع (بمدينة محمد الحاج) 167.
خليج تطوان 213.
خندق باب سلا (في المعمورة) 175.
خنيفرة 166.36.
خولان 251.
الدار البيضاء 293.292.288.255.23.
دار الصناعة (سلا) 188.
دار الضيوف (زاوية) 24.
دار الضيوف (على نهر واد الجواهر) 232.
دار الكرامة (زاوية) 24.
دار المخزن (بالدار البيضاء) 292.
دار ولد زيدوح 167.
داي (قرب بني ملال) 108.
درب البروزي (من حومة السوقية بالرباط) 129.
درعة 149.148.143.100.61.60.
297.248.185.153.
دلالة (مدينة أندلسية) 14.
الدير 287.
ديوان محمد الحاج الدلائي 230.166.
رابطة عبد الله بن ياسين 23.
الرباط أو رباط سلا 122.13.12.11.
157.130.129.128.127.123.
190.187.185.179.169.168.
288.246.244.235.196.191.
296.292.291.
رباط تازا 165.
رباط تيطنقطر = تيط.
رباط شاكر (= سيدي شيكر). 22.
رباط ماسة 21.
الرتب (بتافيلات) 172.
روما 225.
الريف 237.170.

- زاكورة 60
زاوية أيت إسحاق (= الزاوية الدلائية الحديثة)
166.39.36.32
الزاوية البكرية = الزاوية الدلائية.
زاوية تافيلالت (في الأطلس الكبير) 146.
زاوية الحاحي (بجبل درن) 144.
زاوية سيدي اخماذ أو موسى (بسوس)
288.148
الزاوية العياشية أو زاوية أيت عياش (= الزاوية
الحمزوية أو سيدي حمزة) 32.12.11
69.68.60.57
الزاوية الفاسية 68.66.65.64.59.12
زاوية القلقطين (بفاس) 251.68.67.66
زاوية محمد بن العربي الدلائي بالدار البيضاء
293.292
زاوية محمد الحاج = مدينة الدلاء.
زاوية المخفية لعبد الله معن (بفاس) 66.64
173
الزاوية الناصرية أو زاوية تمامكروت 32.12
61.60.59
زداغة (في الأطلس الكبير) 148.146
زرهون أو جبل زرهون 243.54.51
زقاق الرواح (حومة بفاس) 267.
زوايا الشيخ أبي محمد صالح 24.
نيز (واد) 68.
الساحل (بسوس) 149.
ساحل مولاي بوسلهام 184.
الساورة (واد) 146.143.
سايس (فحص أو بسيط) 252.243.95 (262
سبتة 196.184.183.155.121.97
246.238
- سبو (نهر) 251.176.169
سجلماسة 148.143.136.129.23
173.172.165.153.150.149
250.227
سقاية باب السبع (بفاس الجديد) 232.
سقاية مدرسة الصهرج 97.
سلا 136.129.127.126.93.81.13
175.170.169.168.157.155.142
189.188.187.185.182.179
195.194.193.192.191.190
204.202.201.198.197.196
212.211.210.209.208.207.205
296.258.247.244.235.213
سلا الجديدة = الرباط.
سهب بني ورا 108.
سهب الشنين 108.
السواحل الأسبانية 188.
سوس أو السوس الأقصى 148.147.21
250.200.154.152.150.149
297.288
سوق أربعاء الغرب 170.169.154
سوق العطارين (بالرباط) 291.
السويقة (حومة بالرباط) 129.
السيد أحمد بن علي العثماني (قصر بتافيلالت)
173
السيد الطيب (قصر بتافيلالت) 173.
الشام 177.
الشاوية 36.
شفشاون 272.
شمال إفريقيا 193.
الصحراء 153.146.143.61.60.28
287.258.185.173.172.164

- صفر 251.252. صخرة (قرية وزاوية بتادلا) 130.131. 134. الصورة 287. ضريح أبي الحسن بن حرزهم 229.257. ضريح أحمد بن موسى العايدي (بالرباط) 127. ضريح الامام السنوسي (بتلمسان) 259. ضريح الشيخ أحمد البني (بفاس) 135. ضريح محمد بن أبي بكر الدلائي 163. ضريح الشيخ محمد بن عباد (بفاس) 228.232. ضريح المولى إدريس (بفاس) 228.265.266. طرابلس الغرب 188.202. طريق دار المخزن (بالدار البيضاء) 292. طنجة 121.155.169.183.196. 139.247. ظهر الرمكة (بضاحية فاس) 227. العاصمة الادريسية = فاس. القباد (الحزم... بتلمسان) 257.259.260. عدوة الأندلس (بفاس) 64.173.226. 230.241.243. عدوة القرويين (بفاس) 95.226.230. 241.243. العلوتان (الأندلس والقرويين بفاس) 226. 227.240. العلوتان (سلا والرباط) 188.190.191. 198.201.210.220.244.245. العرائش 20.67.121.143.155.158. 176.237. العراق 150. عرفات 162.
- عين القصب (بضواحي سوق أربعاء الغرب) 170. العيون (حي بتطوان) 64.65. غرناطة 81. غريس 152.173. فاس 11.13.14.20.21.24.35.39. 45.46.52.59.64.65.66.67. 68.69.74.75.79.81.82.86. 87.91.92.93.94.95.100.101. 102.103.106.107.117.121. 122.124.126.131.135.136. 142.143.146.155.160.165. 167.168.169.170.173.174. 177.179.182.183.225.226. 227.228.229.230.231.232. 235.237.240.241.242.243. 244.251.252.254.255.257. 260.261.262.263.265.266. 268.270.271.272.273.288. 295.296.297.298. فاس الادريسية = فاس. فاس الجديد = فاس. فاس العليا = فاس. فاس القديم أو البالي = فاس. الفخارين (حي بفاس) 69. الفردوس المفقود = الأندلس. فركلة (بتايفالنت) 173. فرنسا 12.18.168.179.194.195.196. 200.221.225.247. فلورانس 225. قانس 207.208.209.210.212. القاهرة 81.87.162.

- قبة سيدي العايدى خارج باب الفتوح (بفاس) 270.
- قبة ضريح عبد الرحمن الشريف بباب عجيسة (بفاس) 232.
- القرويين (جامع) 167.126.100.82.24.
- 270.268.266.
- قرية معمور 39.
- القصة أو قصة سلا (الأوداية) 157.13.11.
- 190.188.187.183.169.168.
- 247.246.245.239.235.204.
- 296.248.
- القصة (بمراكش) 46.
- قصة نادلا 166.39.
- قصة الدلاء = مدينة محمد الحاج.
- القصة السلطانية (بمكناس) 132.124.
- قصر الامارة بالقصة (الأوداية) 190.
- قصر السوق 173.
- القصر الصغير 183.170.
- قصر عبد الكريم = القصر الكبير.
- القصر الكبير 240.237.170.64.
- قصر كنامة = القصر الكبير.
- قصر المجاز = القصر الصغير.
- قصر محمد الحاج الدلائي 230.166.
- قصر مصمودة = القصر الصغير.
- قلعة سلا = القصة (الأوداية).
- القلقلين (حي بفاس) 155.66.
- قنطرة أسيف نابت زمو 230.39.
- قنطرة أمسئل (على أم الربيع) 230.
- قنطرة خلطة 230.
- قنطرة تاحيزونت = العرجاء 232.
- قنطرة فاس وسلا (بالمعمورة) 175.
- قنطرة مزللفان مطحنة الخنازير (على أم الربيع) 230.
- قنطرة نهر سبو 251.
- القنطرة 154.
- القيروان 95.
- الكفادين (حي بفاس) 288.
- كلميمة (قصر) 173.
- كناري (جزر) 197.
- الكوفة 78.
- لاهاي 212.197.193.191.179.
- 220.219.215.214.
- لشونة 222.
- لكتاوة (أو الاكتاوة) 144.
- لوكسمبورغ 200.
- ليدن 220.216.193.
- مالطة (جزيرة) 225.221.
- المحيط الأطلسي 208.194.189.23.
- 296.258.
- الخفية (حي بفاس) 64.
- مدارس اليسوعيين في ألمانيا 221.
- مدارس اليسوعيين في بولونيا 221.
- مدرسة الصهرج (بفاس) 97.
- المدرسة العنانية = المدرسة المتوكلية.
- مدرسة فاس الجديد 232.
- المدرسة المتوكلية (البوعنانية بفاس) 91.87.
- 270.265.
- ملريد 225.222.
- مدن أبي رقرق أو مدن سلا 191.190.
- 248.204.202.201.195.193.
- 296.
- مدن فاس الثلاث 227.226.

المغرب الأوسط 22.	المدينة الادريسية = فاس.
المغرب الشرقي 13.250.252.258.297.	مدينة أزغار = مدينة محمد الحاج.
المغرب الكبير 244.	المدينة الجديدة البيضاء = فاس الجديد.
مقبرة الدلائين (بالكفادين بفاس) 288.	مدينة الدلاء = مدينة محمد الحاج.
290.	مدينة محمد الحاج (= الزاوية الدلائية الحديثة)
مقبرة مولاي عبد الله (بفاس) 232.	11.12.32.39.166.230.287.
مقر مجلس الولايات العامة بلاهاي 216.	296.
مكة 22.221.	المدينة المنورة 116.117.162.
مكتاس (أو مكتاسة الزيتون) 13.46.92.	المرجة الزرقاء 238.
107.123.124.128.132.133.	مراكش 14.19.20.21.23.24.32.
169.170.243.252.262.263.	45.79.82.85.102.103.107.
264.287.296.297.	122.124.125.131.135.136.
الملاح (بفاس) 242.251.	141.143.144.147.149.153.
ملوية (واد) 28.107.162.164.170.	154.156.157.163.165.166.
272.257.287.	167.168.173.183.185.187.
ملوية العليا 168.	188.192.197.201.232.257.
مليلية 155.	262.274.287.295.297.298.
مملكة غرناطة 182.	مرسيليا 194.
المهدية (مدينة) 129.	المسجد الأعظم (بتارودانت) 266.
المواسين (مسجد بمراكش) 102.	المسجد الأعظم (بالرباط) 127.128.
مولاي بوسلهام (مكان على البحر المحيط)	المسجد الأعظم بالزاوية الدلائية 87.
238.	المسجد الأعظم (بسلام) 126.129.
ميدلت 28.32.68.142.	مسجد الأنوار (بمكتاس) 128.
ميناء تونس 221.	مسجد الشرفاء (= ضريح المولى ادريس) 265.
نجد الدير 287.	المسجد العتيق بالدار البيضاء 292.
هسكورة 35.	مسرانة (ذات الرمال) 54.
الهند 222.	مصر 13.24.81.87.92.95.117.
هورناتشو 185.	133.136.162.259.275.
هولندا 12.179.189.191.193.194.	مضيق جبل طارق 200.
200.201.202.203.204.205.	المعمورة (حصن) 12.121.155.173.
206.207.208.209.210.211.	174.175.176.177.187.188.
212.213.214.215.216.217.	205.207.208.247.

وَادِ فَاس 252.	296.247.220.219.218
وَادِ الْمَخَازِن (مَعْرَكَة) 192.143.19.	وَادِ أَهْل زَمُور = أَسِيف نَايْت زَمُور.
وَادِ نَفِيس 22.	وَادِ بُوَحْرِيَّة 238.184.13.
وَاوِيَزَغْت (تَادَلَا) 58.	وَادِ الْجَوَاهِر (بِفَاس) 232.
وَجْدَة 258.250.	وَادِ الزَيْتُون (بِفَاس) 288.
وَزَان 122.	وَادِ سَلَا 22.
الْوِلَايَات الْعَامَة = هُولَنْدَا.	وَادِ الشَّرَاط 177.
وَهْرَان 182.	وَادِ الطِّين 170.
يَدْلَا = الدَّلَا.	وَادِ الْعَبِيد 263.167.165.108.45.

فهرس اللوحات المصورة

رقم اللوحة	رقم الصفحة
1 — حرجة تواجه القادم إلى الدلاء وتستمر بقايا مسجد أبي بكر	25
2 — صحن مسجد أبي بكر في الزاوية الدلائية القديمة	29
3 — بقايا صومعة مسجد أبي بكر في الزاوية الدلائية القديمة	30
4 — واجهة ضريحى الشيخين الدلائيين أبي بكر وابنه محمد	33
5 — منظر عام لزاوية أيت إسحاق المبنية على أنقاض الزاوية الدلائية	34
6 — الباب والقبعة لمسجد زاوية أيت إسحاق — الزاوية الدلائية الحديثة	37
7 — مكتب قائد زاوية أيت إسحاق في موقع المسجد الأعظم	38
8 — بقايا أسوار داخلية يظن أنها كانت تحيط بقصر السلطان محمد الحاج	40
9 — بقايا قنطرة وادي أهل زَمُور بجوار الزاوية الدلائية الحديثة	41
10 — صفحة أولى من أحد كتب خزانة الزاوية الدلائية	73
11 — خريطة المناطق التي شملها نفوذ الدلائيين بالمغرب	171
12 — مناظر العدوتين في منتصف القرن السابع عشر	186
13 — رسالة من حكام سلا إلى هولندا عام 1643/1053	203
14 — اقتراحات مضادة بعث بها عبد الله الدلائى إلى هولندا	206
15 — السفارة المغربية في لاهاي عام 1659/1069	215
16 — رسالة عبد الله الدلائى التي يعتمد فيها سفراء إلى هولندا	217
17 — صورة الراهب بلطازار لويولا منديز الذي يزعم الأوربيون أنه محمد الدلائى	223
18 — صحيفة بخط المؤرخ محمد بن علي الذكالي السلوي يرد فيها على ادعاء تنصر أمير دلائى	224
19 — ضريح ابن عباد داخل باب الفتوح بفاس من بناء الأمير محمد الدلائى	231
20 — أقرب مثال لصورة السلطان الرشيد بن الشريف العلوي	249
21 — محمد بن محمد بن حسن الدلائى تاجر في فاس	289
22 — مقبرة العلماء الدلائيين الشهيرة بزقة باب الحمراء في فاس	290
23 — باب زاوية محمد بن العربي الدلائى في الدار البيضاء — الزاوية الحراقية	293

فهرس موضوعات الرسالة

5
9

بين يدي الطبعة الثانية
المقدمة

الباب الأول

نشأة الزاوية الدلائية

- 1 — لمحة عن عصر الدلائيين 19
- 2 — الزاوية والرباط والرابطة 21
- 3 — أصل الدلائيين 27
- 4 — تأسيس الزاوية الدلائية 31
- 5 — موقع الزاوية الدلائية 35

الباب الثاني

تعاليم الزاوية الدلائية

- 1 — الزاوية الدلائية كمركز ديني 45
أ) الشيخ أبو بكر مؤسس الزاوية الدلائية 45
ب) اطعام الطعام في الزاوية الدلائية 48
ج) احتفال الدلائيين بعيد المولد النبوي الشريف 49
- 2 — طريقة الزاوية الدلائية 50
أ) سند الدلائيين في الشاذلية 50
ب) أذكار الزاوية الدلائية 54
ج) مريدو الزاوية الدلائية 57
- 3 — علاقة الزاوية الدلائية بغيرها من الزوايا 59
أ) الزاوية الناصرية 60
ب) الزاوية الفاسية 64
ج) الزاوية العياشية 68

الباب الثالث

الزاوية الدلائية باعتبارها مركزا علميا

- 1 — الأهمية العلمية للزاوية الدلائية 74
أ) العلوم التي كان يدرسها الدلائيون 74
ب) تفوق الدلائيين في اللغة وقواعدها 78
- 2 — أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها 79
أ) محمد بن أبي بكر الدلائي 79
ب) بقية أساتذة الزاوية الدلائية من أبنائها 86
- 3 — أساتذة الزاوية الدلائية من غير أبنائها 92
أ) أحمد بن القاضي 92
ب) أساتذة آخرون درسوا في الزاوية الدلائية 99
- 4 — تلاميذ الزاوية الدلائية 103
أ) الحسن البوسي 104
ب) أحمد المقرئ 115
ج) العربي الفاسي 121
د) علماء آخرون تخرجوا في الزاوية الدلائية 122

الباب الرابع الدلائل والسياسة

- 141 1 — موقف الدلائل من الاضطرابات الداخلية
- 141 أ) علاقة الدلائل بالملوك السعديين
- 142 ب) موقف الدلائل من أبي محلي وأبي زكرياء الحاحي
- 148 ج) موقف الدلائل من أبي حنون السملالي
- 154 د) علاقة الدلائل بالمجاهد العياشي
- 161 2 — زعامة محمد الحاج السياسية
- 161 أ) من هو محمد الحاج ؟
- 163 ب) نزوع محمد الحاج إلى الحكم
- 165 ج) تأسيس مدينة الدلاء
- 166 د) بيعه أهل المغرب لمحمد الحاج
- 167 3 — أعمال محمد الحاج الحربية
- 167 أ) الحملتان الدلائل الأولى (وقعة أبي عقبة)
- 168 ب) مهاجمة المجاهد العياشي
- 172 ج) غزو شرفاء سجداسة (وقعة القاعة)
- 173 د) الجهاد ضد الأسبانين في المعصرة
- 177 هـ) حملات تآديية في بلاد زعير والحياينة

الباب الخامس انتشار نفوذ الدلائل السياسي

- 181 1 — الموريسكيون ينضون تحت لواء الدلائل
- 181 أ) المدجنون والموريسكيون
- 182 ب) الموريسكيون في تطوان
- 185 ج) الموريسكيون في الرباط
- 188 د) أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية
- 189 هـ) عبد الله الدلائي أمير سلا
- 192 2 — علاقات الدلائل بأوروبا
- 194 أ) الدلائل وفرنسا
- 196 ب) الدلائل وإنجلترا
- 200 ج) الدلائل والأراضي الواطية (هولندا)
- 214 د) السفارة المغربية في لاهاي
- 221 هـ) قضية تنصر أمير دلائي
- 226 3 — الدلائل في فاس
- 227 أ) أحمد بن محمد الحاج الدلائي أمير فاس
- 228 ب) محمد الدلائي يخلف أخاه في إمارة فاس
- 230 4 — آثار الدلائل
- 230 أ) المباني في الدلا وفاس
- 232 ب) النقود الاشعوية

الباب السادس نهاية الزاوية الدلائلية

- 237 1 — بدء انتفاض الأطراف على الدلائل
- 237 أ) ثورة الخضر غيلان في الشمال
- 240 ب) زوال نفوذ الدلائل من فاس

242	ج) قضية البلديين بفاس
244	2 — الثورة ضد الدلائين في سلا والرباط
244	أ) عوامل الثورة
245	ب) حصار عبد الله الدلائي في القصبة
246	ج) هل حاول الدلائين تسليم القصبة الى دولة أوربية ؟
248	3 — القضاء على الزاوية الدلائية — تحريها
248	أ) ظهور السلطان الرشيد بن الشريف العلوي
251	ب) استيلاء الرشيد على فاس
252	ج) معركة (بطن الرمان) — تحرب الزاوية الدلائية

الباب السابع أثر الدلائين في خارج زاويتهم

257	1 — خروج الدلائين الى فاس
257	أ) تغرب الدلائين الى تلمسان
261	ب) ثورة أحمد الدلائي على السلطان اسماعيل
263	2 — العلماء الدلائين في فاس ومكناس
267	أ) محمد المساوي الدلائي شيخ الجماعة بفاس
271	ب) تلاميذ الدلائين في فاس
274	3 — الكتب التي ألفها الدلائين
275	أ) جدول مؤلفات الدلائين
282	ب) جدول الكتب التي ألفت في الدلائين
287	4 — بقايا البيت الدلائي
287	أ) مساكن قبيلة مجاط اليوم
295	ب) أحفاد الدلائين في فاس والدار البيضاء والرباط
295	الخاتمة

ملحق

299	ملحق رقم 1
300	ملحق رقم 2
303	ملحق رقم 3
305	ملحق رقم 4
307	ملحق رقم 5
308	ملحق رقم 6
311	ملحق رقم 7
313	ملحق رقم 8
317	ملحق رقم 9
320	ملحق رقم 10

مصادر الرسالة

323	المصادر العربية
334	المصادر الأجنبية

فهارس عامة

337	فهرس الأعلام
349	فهرس الأماكن
357	فهرس اللوحات المصورة
358	فهرس الموضوعات

HAJJI MOHAMED

LA ZAOUIA DE DILA

**Contribution à l'histoire religieuse, culturelle
et politique du Maroc au 17^e siècle**

1988